اعداد مكتبة الروضة الحيدرية

المكتبة الرقمية

الرسائل الجامعية

جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الكوفة – كلية الآداب
الدراسات العليا – قسم اللغة العربية

خطب الإمام علي (عليه السلام)
في كتاب نهج السعادة في مستدرك
نهج البلاغة
دراسة تحليلية

اطروحة قدمتها الطالبة

شيماء عبد المهدي سلمان

إلى مجلس كلية الآداب – جامعة الكوفة

وهي جزء من متطلبات درجة الدكتوراه في فلسفة اللغة العربية وآدابها

بإشراف

الأستاذ الدكتور

رحيم خريبط الساعدي

جمادى الآخرة ١٤٤٠هـ آذار٢٠١٩م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ... ﴾

صدق الله العلي العظيم

هود/١٧

الإهداء

إلى أبي

((أعلى الله درجته كما شرّف خاتمته))

شكر وعرفان

إلى قسْمِ اللغة العربية في كلية الآداب ، ولاسيّما الأساتذة الذين قاموا بالتدريس في هذه المرحلة . ولمن قدّم منهم إرشاداً ،أو توجيهاً، ومَحَضَ النصيحة خالصة لوجهه تعالى.

إلى من حثني على اقتحام هذا المعترك الصعب ، وساندني، فلم يملّ، أو ينكل.

إلى أسرتي الكريمة ولكل، من شجع وآزر .

أدعو لهم جميعاً بالسداد وجزاهم الله تعالى خيراً.

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	١-٤
التمهيد	٥-٢٠
أ- حياة المؤلف	٥-٨
اسمه وكنيته ونسبه	٥
ولادته	٥
ب- كتاب نهج السعادة	٨-١٦
ج- الخطب في نهج السعادة	١٦-١٧
تصنيف الخطب	١٧-٢٠
الفصل الأول: الدلالة والسياق وأثرهما في تحقيق المعنى	**٢١-٨٦**
مدخل: نظريات المعنى	**٢١-٢٢**
المبحث الأول : الدلالة وعناصر الخطاب	٢٣-٤٧
تعريف الدلالة	٢٤-٢٥
الدلالة الهامشية والمركزية وآفاق التطبيق	٢٥-٤٧
المبحث الثاني: السياق	٤٨-٧١
السياق الخارجي	٥١-٥٧
القيمة عند دي سوسور وأثرها في تسييق المفردات	٥٧-٥٩
تسييق المفردات	٥٩-٧١
المبحث الثالث : المصاحبة المعجمية أو التضام	٧٢-٨٦
الفصل الثاني: بنائية الخطبة (المقدمة والعرض والخاتمة)	**٨٧-١٥٥**
مدخل : بنائية الخطبة	٨٧-٨٨
المبحث الأول: المقدمة	٨٩- ١١٥
مقدمة خطب التوحيد	٨٩-٩٦
مقدمة الخطب الاجتماعية	٩٦-١٠٥
مقدمة خطب السياسة	١٠٥-١١٥

المبحث الثاني: العرض	١١٦-١٤٨
العرض في خطب التوحيد	١١٦-١٣٥
العرض في الخطب الاجتماعية	١٣٥-١٤٣
العرض في خطب السياسة	١٤٣-١٤٨
المبحث الثالث: خاتمة الخطب	١٤٩-١٥٥
خاتمة خطب التوحيد	١٤٩-١٥١
خاتمة الخطب الاجتماعية	١٥١-١٥٢
خاتمة خطب السياسة	١٥٢-١٥٥
الفصل الثالث: الظواهر الأسلوبية	**١٥٦-٢٠٦**
مدخل : الأسلوب	١٥٦-١٥٩
المبحث الأول: الانزياح	١٦٠-١٩٠
أ-المبتدأ المركب	١٦٢-١٦٤
ب-الخبر المركب	١٦٤
ج-تعددالخبر	١٦٤-١٦٧
د-المركب الإضافي	١٦٨-١٦٩
هـ-ازدواج الإضافة	١٦٩-١٧١
و-ترامي الصفة	١٧٢-١٧٤
ز-التقديم والتأخير	١٧٥-١٧٦
ح- الفصل بين المتلازمين	١٧٦
ط- الحذف	١٧٦-١٧٨
ي-الالتفات	١٧٨-١٧٩
الانزياح الدلالي	١٧٩
أ-نسق التماثل أوالمشابهة	١٨٠-١٨٢
ب- نسق الاستبدال	١٨٢-١٨٥
ج -نسق المجاورة	١٨٥-١٨٧
د-تقاطع الأنساق	١٨٧-١٩٠
المبحث الثاني: التكرار	١٩١-٢٠١

تكرار الأداة	١٩١-١٩٣
تكرار اللفظة الواحدة	١٩٣-١٩٤
التكرار الاشتقاقي	١٩٤-١٩٧
تكرار المضمون	١٩٧-٢٠١
المبحث الثالث:التناص	٢٠٢-٢١٢
التناص مع القرآن	٢٠٣-٢٠٩
التناص مع حديث النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)	٢٠٩-٢١٠
التناص مع كلام العرب	٢١٠-٢١٢
المبحث الرابع:إرسال المثل	٢١٣-٢٢٠
الخاتمة	٢٢١-٢٢٥
المصادروالمراجع	٢٢٦-٢٣٥

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين:

وبعد، فإن كتاب نهج السعادةِ يُعدّ مساوقاً في منهجه وتبويبه لكتاب نهج البلاغة وقد ألف لدواعٍ استقصائية، تتوخى جمع كل ما صدر عن الإمام علي (عليه السلام)، وقد ارتكز المؤلف محمد باقر المحمودي على السند والقرائن الداخلية والخارجية ليُحرِزَ قطعية صدور النصوص عن الإمام (عليه السلام) .

كان هدف هذا الاستقصاء هو اقتفاء آثاره جميعاً، لأن انتهاجها سلوكاً عملياً، مفضٍ إلى السعادة، ولذا سمي (نهج السعادة) وقد استوى الكتاب في اثني عشر جزءاً، كان نصيب البحث منها الأجزاء الثلاثة الأولى، إذ اشتملت على الخطب والكلام، والبحث معقود للخطب.

يهدف البحث الى تعرف أثر الدلالتين الهامشية والمركزية في تعيين المعنى في خطب أمير المؤمنين وتوجيهه ومن ثم تحقيقه وأثر البنيات المتوازية في صياغة الدلالة ،وتحكم السياق الخارجي واللغوي في معنى المفردة والبحث في تماسك نصوص الخطب وسبل تسلل آليات االحجاج إلى تضاعيفهاوأهم المظاهر الاسلوبية التي احتوتها.

ووفق هذه الغايات استوى البحث تمهيداً، وثلاثة فصول:

بدأ التمهيد برصد ما تيسرمعرفته من حياة المؤلف محمد باقر المحمودي ،ومسيرته العلمية، في تحصيل العلوم الدينية وتحقيق الكتب وتأليفها ،ورحلته مع الكتاب التي استمرت خمسة عشر عاما.

واشتمل التمهيد على مقارنة بين خطب نهج السعادة ونهج البلاغة، فوجدت اشتراكاً ، ومع ذلك وجدت اختلافاً، يصح معه جعل كلّ كتاب مستقلاً عن الآخر.

ثم أحصيت في التمهيد الخطب وصنفتها في مجاميع ثلاثة بناءً على مقتضيات الخطاب في منطلقاته وأهدافه، فكانت الأقسام الثلاثة تضم خطب التوحيد والسياسة والخطب الاجتماعية.

وكان عنوان الفصل الأول(الدلالة والسياق وأثرهما في تحقيق المعنى) وقد تناولتُ فيه المفردة بوصفها عصباً مهماً في التركيب فهي النواة التي تشكل الجملة، فالنص فالخطاب، وهي بعد حاملة للمعنى في دلالاته المختلفة.

وقد توزعتْ المفردة على مباحث الفصل، فعالجتُها أولاً ضمن محددات الدلالة الهامشية المعتمدة على إيحاءات المعنى وعُزلتْ بذلك عن معناها الأساسي الذي تحدده الدلالة المركزية المرتبطة بالمعجم . فالدلالة الهامشية مرهونة بالعاطفة والتأثير.

ثم انعطف على أهمية البنيات المتوازية دلاليا وتركيبيا في تحقيق التماسك والترابط النصي والإسهام في تحديد الدلالة وتشخيص المعنى.

وعالج المبحث الثاني المفردة في نطاق النظرية السياقية التي قال بها فيرث، فوُضِعَتْ اللفظة الواحدة في سياقات متعددة لتحصيل المعنى المتحقق في كل سياق.

ثم ضم المبحث الثالث المفردة إلى مصاحباتها ضمن مبحث المصاحبة المعجمية، الذي انبثق عن النظرية السياقية التي لا ترى للمفردة معنى خارج السياق، وبضمها إلى مثيلتها ونظيرتها التي تستدعيها تفصح عن معنى آخر لا يُتحصل دون ذلك.

أما الفصل الثاني(بنائية الخطبة (المقدمة والعرض والخاتمة) فقد تجاوز المفردة إلى الهيكلية التي شكلت معماراً ثابتاً للخطبة، لا يكاد يتخلف، يبدأ بالمقدمة، فالغرض فالخاتمة، كان الغرض هو المَعْلَمُ البارز الذي يتقوم به موضع الخطبة، وإلا فلا خطبة بدون موضوع.

وقد يعرض الإمام (عليه السلام) عن المقدمة والخاتمة لمستجد حادث أو طارئ يطرأ، يعدله عن المقدمة ويصرفه عن الخاتمة ، لكن هذا هو الاستثناء فالقاعدة الرئيسة هي حرصه على المقدمة ذات الديباجة الكاملة المشتملة على الحمد . ولقد اشتملت المقدمة على آليات وروابط حجاجية متنوعة بلاغية ولغوية،واشتملت الخواتم على الاحتجاج بالآيات القرآنية.

وقد نهزتُها فرصة لأبين تماسك نصوص الخطبة ، من خلال تطبيق مبادئ النصية عليها ، اثناء عرض الهيكلية التي تستوي بها الخطب خطباً، وتعرضت هناك- بشكل مبتسر- لأسلوب الأمام في بسط حججه ، حتى انه ليفلج خصمه ، و حتى انه لايترك مرية في قلب مخاطبه !فهو يستعمل البرهان المضاد في نقض حجج الخصم .

وانضوى الفصل الثالث (الظواهر الاسلوبية)على اربعة مباحث شخصت اللغة الجمالية التي هيمنت على النصوص، فغلب عليها الفن، وقد تجلى هذا بصورة جلية في مبحث الانزياح، وقد تصدت باقي المباحث لمعرفة الملامح الأسلوبية التي هيمنت على الخطب، مثل التناص والتكرار وإرسال المثل.

أما الانزياح فمفهومه- كما أرى- يعتمد على ما احتاج إلى تأويل، واهم أنواعه هو الانزياح الدلالي والتركيبي والاسنادي، والانزياح المجازي، لأن المجاز وإن لم يحقق صورة لكنه يكسر اللغة المعيارية التي تعد انزياحاً عن الاستعمال المألوف.

وتناول مبحث التناص تعالق نصوص الإمام (عليه السلام) في خطبه مع نصوص القرآن الكريم على نحو خاص ؛ إذ لمس البحث تأثر الإمام علي (عليه السلام) تلك النصوص وانعكس مدى تناغمه معها وتغلغلها في نفسه من خلال تناثر معاني القرآن الكريم في خطبه على نحو جلي وواضح.

وكذا تناول المبحث تسلل النصوص النبوية في تضاعيف خطب الإمام علي (عليه السلام)، وهي تدلل على العلاقة الوطيدة التي شدّت الإمام (عليه السلام) إلى الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد كان ابن عمه وربيبه وصهره.

أما تعالق كلامه مع كلام العرب، فقد عقدت مقارنة بين أقواله (عليه السلام) وبين أقوال العرب في خطبهم، فوجدتُ تبايناً كبيراً في الموضوعات وأساليب الطرح . وما تشابه من كلامه (عليه السلام) مع مضامين خطبهم التي تدل على الصلاح والتهذيب، رددتُها إلى القرآن الكريم والحديث الشريف لا إلى كلامهم.

ورصد البحث (التكرار) بوصفه مظهراً أسلوبياً بارزاً، وقد كانت له معالم متعددة شملت تكرار الأداة واللفظ، والتكرار الاشتقاقي وتكرار المضمون، وأبرز اشكاله التناوب بين الخبر والإنشاء على نحو يدخل تحت مفهوم التدويم، فضلاً عن تكرار السلاسل اللغوية التامة والناقصة، وتحدث البحث عما أشاعه التكرار من ترابط في النص عبَرَ ظاهرة البنيات المتوازية، فضلاً عن الجوانب الفنية التي توزعت على جوانب الخطاب.

وآخر مباحث هذا الفصل هو إرسال المثل والمثلين، بل تتابع الأمثال التي كان يسوقها الإمام (عليه السلام) لدواعٍ مختلفة، منها النصح والإرشاد، وعقد مقارنة بين الوقائع الحياتية المختلفة.

وقد كانت موضوعات الخطب ولاسيما خطب التوحيد تحتوي على مباحث دقيقة ولطيفة تحتاج إلى تخصص يُقتدر معه على الخوض في هذا الفن العقدي، فكان ان خصصت وقتاً لقراءة كتب هذا الفن والاطلاع عليها للإفادة منها في فهم خطب الإمام (عليه السلام) وتحليلها.

ومن الصعوبات الأخرى التي واجهها البحث هي عقد مقارنة بين كتابي (نهج السعادة) و(نهج البلاغة) لبيان استقلال كل كتاب عن الآخر في ماهيته ، دون أن يضرَ الاشتراك في هذا الاستقلال . ووجه الصعوبة في ذلك يتمثل في أن النصوص الخاضعة للمقارنة تعود كلها لشخص واحد، فكثيراً ما ظننتُ أن خطبة (ما) موجودة في احد الكتابين، ثم يتبين لي عدم وجودها، زاد من صعوبة الأمر تشابه الموضوعات وأجواء الخطب السائدة.

على أن هذه الصعوبات أفادتني في الاطلاع على مصادر مختلفة، في فلسفتها وأفكارها، وكانت أهم الكتب التي تأثرتُ مسالكها: كتاب المعنى وانظمة المعنى ،لمحمد محمد يونس علي،واللغة والحجاج ،والخطاب والحجاج لأبي بكر العزاوي و لسانيات النص ،مدخل الى انسجام الخطاب ، لمحمدخطابي.

ومن الكتب الغربية كتاب بنية اللغة الشعرية لجان كوهن،وعلم اللغة العام لفردينان دي سوسور.

ومن الملاحظات التي تقتضي تنويهاً، هي: إذا ورد الذكر بأن المعقوفتين من المؤلف فإنما يكون ذلك احترازاً من المعقوفتين اللتين قد أُضيفهما لسبب ما.

وإذا وردالرمز (م.ن.) من دون رقم الصفحة ،فمعناه ان المرجع والمآل إلى الصفحة السابقة نفسها،من المصدر السابق نفسه.

وفي الختام أرجو ان يتقبل تعالى أعمالنا ، وأن يجعل ما كتبتُ خالصاً لوجهه الكريم، فإن وُفقتُ في عملي فمن عنده ، وإن قصّرتُ فمن عندي، وما توفيقي إلا بالله العلي العظيم.

ولايسعني في نهاية المطاف إلا أن أقدم شكري إلى الأستاذ المشرف (أ.د رحيم خريبط الساعدي) على جهوده في قراءة فصول الرسالة وتقويمها وإبداء ملاحظاته عليها .

وله الحمد أولاً وآخراً

التمهيد

حياة المؤلف وكتاب نهج السعادة وخطبه

أ- حياة المؤلف

كنيته واسمه ونسبه:

وهي بحسب قلم المؤلف نفسه:- أبو جعفر محمد باقر المحمودي ابن ميرزا محمد ابن ميرزا عبد الله، ابن ميرزا محمد ابن الاخوند ملا محمد باقر ابن الاخوند الحاج محمود ابن الحاج كمال بن محمود [بن][1] كمال بن مسيح.

ويبدو أنه من شيراز. فقد درس جدّه هناك، في مدرسة تسمى (المنصورية) في دار العلم[2].

ولادته:

لم اعثر على سنة ولادته فيما بين يدي من مؤلفات وتحقيقات اضطلع بها المؤلف كما لم أجد من ترجم لحياته من معاصريه، في حدود اطلاعي.

ووجدت على شبكة المعلومات نبذة قصيرة من حياته ، وذلك ضمن موقع شبكة الشيعة. وانتظرت مليا عسى أن يجري إضافة معلومة ما، فلما لم يحصل ذلك وكانت المعلومات هي هي ؛ عمدت بتاريخ ٢٠١٨/١١/١٠الساعة الرابعة عصرا إلى اقتباس المعلومات منها[3].

وفيها إنَّ ولادة المؤلف كانت في ١٣٤١هـ،١٩٢٢-١٩٢٣م في قرية من قرى شيراز. وهذا ينسجم مع قوله إنّ جده درس في شيراز.

وسرد المؤلف في مستهل كتاب نهج السعادة شطرا من حياته العلمية، فبين شغفه بالعلم والمطالعة والتفكير المدقق في المباحث الدينية وأمور العقيدة وذلك في بواكير حياته، وقد درس المقدمات الدينية على يد الشيخ الرئيس الشيخ احمد المعروف بـ(رستگار) وعلى يد الشيخ حسين الرفيعي، في مدة لم تتجاوز السنتين[4] ثم هاجر في ١٣٦٤هـ-١٩٤٥م الى النجف الأشرف ابتغاء تحصيل المزيد من العلوم الدينية. ولم يذكر هناك الأستاذة الذين تتلمذ لهم، وقد ذكرت شبكة الشيعة طائفة منهم، كالسيد محسن الحكيم والشيخ محمد علي المدرس الأفغاني والشيخ حسين الحلي والسيد عبد الأعلى السبزواري والسيد حسين اليزدي...وغيرهم.

---

(١) يُنظر، نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة، محمد باقر المحمودي، ج١، ص٧-٨، اذ سقطت كلمة (بن) وكان يجب اثباتها في احدى الصفحتين ضمن الهامش رقم (٢) .

(٢) يُنظر، م.ن، ص٧-٨ الهامش رقم (٢).

(٣) رابط الشبكة هو : http://arabic.alshia.org

(٤) ينظر:نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ص٩ المتن، والهامش رقم (٣)

ونال المؤلف إجازتي الاجتهاد في الفقه والأصول، إذ أجازه في الفقه العلامة الميرزا محمد حسن اليزدي وذلك في شهر محرم الحرام من سنة ١٣٧٧هـ./١٩٥٨ م.اما في الأصول فقد أجيز من العلامة الفقيه الأصولي محمد باقر الزنجاني في ١٣٨٥هـ[١]. /١٩٦٥م .وهذا يعني أنه بلغ مرحلة الاجتهاد مبكرا في الفقه، فبعد ثلاثة عشر عاما من الدراسة وصل الى مرتبة الاجتهاد في الفقه، وبعد سنوات من ذلك وصل الى مرحلة الاجتهاد في الأصول، وهذا يدل على كد واجتهاد ومثابرة وحب للعلم تميز بهما المؤلف، ربما دل على ذلك، ما جاء في الجزء الأول من كتاب نهج السعادة، الذي نهضت لطباعته مؤسسة المحمودي في الهامش رقم (٤) ففيه وكان يبحث عن مصدر وثيق لأحدى الخطب التي وردت في كتاب (المخزون المكنون) للحافظ السروي محمد بن شهر آشوب بعد أن فقد اثر الكتاب فقال باحثا عن الكتاب والخطبة معا ما نصه ((...فمن دلنا على مظان وجوده بحيث يصدقه قرائن الأحوال فله دورة كاملة من كتابنا هذا، ومن كتبه وأهدى نسخته إلينا فله عليَّ مأة [كذا] دينار))[٢]، ففي النص الآنف دلالات تظهر شغفه بالعلم، حتى انه مستعد لمقايضته بمبلغ وفير من المال، كما هو مبين في ذيل النص.

ويدل على ذلك أيضا هجرته من موطن رأسه إلى بلاد أخرى سعياً وراء المعرفة، وقد مكث فيها سنين حتى نال مرتبة الاجتهاد.

ويتجلى صبره في مكثه على جمع الكتاب في زمن لم ينقص عن خمسة عشر عاما[٣] دون أن ينتابه كلل أو يعتريه تضجر وملل.

ويدل عليه أيضا التحقيقات التي قام بها لبعض الكتب التاريخية منها ما وقع بين يدي ككتاب (انساب الأشراف) للنسابة والمؤرخ احمد بن يحيى بن جابر البلاذري ت ٢٧٩، طبع الجزء الأول منه بمصر، طبعته دار المعارف ١٩٥٩م، أما الأجزاء الأخرى. طبعت في بيروت من قبل مؤسسة الاعلمي تارة ودار التعارف أخرى بين الأعوام ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م و ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م. ومنها كتاب (أسمى المناقب في تهذيب المطالب) وهو في مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) الفه الشيخ المقري شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن محمد الجزري الدمشقي الشافعي، المتوفى ٨٣٣هـ وقد طبع في مجلد واحد في ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، ومنها كتاب (جواهر المطالب) وهو أيضا في مناقب الإمام علي ابن أبي طالب (عليه السلام) ألفه شمس الدين أبو البركات محمد بن احمد الدمشقي الباعوني الشافعي المتوفى في عام ٨٧١هـ ، وتصدى لطبعه

---

(١) أبرز المؤلف شهادتي اجتهاده في مستهل كتابه، نهج السعادة ، في مستدرك نهج البلاغة،ينظر ج١،ص٥-٦.

(٢) يُنظر، نهج السعادة ،في مستدرك نهج البلاغة، محمد باقرالمحمودي ج١، ص١٠٦، هامش (٤) مؤسسة المحمودي. د.ت.

(٣) ينظر، نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص١٥.

مجمع احياء الثقافة الإسلامية في جزءين، طبع الأول منها في ١٤١٢هـ والأخر في ١٤١٦هـ في ايران– قم المقدسة. وحقق (كتاب المعيار والموازنة)، تأليف الشيخ الاقدم ابي جعفر الاسكافي محمد بن عبد الله المعتزلي المتوفى سنة ٢٢٠هـ– وموضوع الكتاب كسابقيه فهو في فضائل الإمام علي (عليه السلام) وهذا يكشف عن تخصصه في الأمور العقدية، طبع الكتاب في عام ١٤٠٢هـ– ١٩٨١م في بيروت، طبعته مؤسسة المحمودي في مجلد واحد، ومن الكتب التي حققها، كتاب (العسل المصفى من تهذيب زين الفتى) وهي في شرح سورة هل أتى ألفه الحافظ احمد بن محمد ابن علي بن احمد العاصمي، ونشره مجمع إحياء الثقافة الإسلامية في قم المقدسة في جزءين في ١٤١٨هـ.

وقام أيضا بتحقيق كتاب (شواهد التنزيل لقواعد التفضيل) وهو في الآيات النازلة في أهل البيت (عليهم السلام) ألفه الحافظ عبد بن احمد المعروف بالحاكم الحسكاني الحَذَّاء الحنفي النيسابوري،ت ٤٠٥هـ، وطبع الكتاب في بيروت طبعته مؤسسة الاعلمي طبعة ثانية في ١٤٣١هـ– ٢٠١٠م– ولم اعثر على طبعته الأولى، وهو الكتاب الوحيد بين كتبه المحققة الذي عثرت فيه على طبعة ثانية، أما ما سلف ذكره، فقد وجدت طبعته الأولى فحسب– والكتاب في جزءين.

أما عن الكتب التي ألفها فمنها– سوى هذا الكتاب– كتاب (عبرات المصطفين) وهو في مقتل الحسين (عليه السلام) [١] والكتاب تجميعي كرر فيه المطالب عبر ذكر الخبر الواحد أكثر من مرة وسرده بطرق مختلفة، وكان يهدف من التكرار ترسيخ المعلومة في ذهن القارئ، وخلا الكتاب من أي جهد تحليلي، وطبع في جزءين من قبل مجمع إحياء الثقافة الإسلامية في قم المقدسة، إيران وذلك في ١٤١٧هـ، واخبر المصنف أنه اختصر الكتاب وهذبه في مؤلف ثان اسماه (صرخات المصطفين في مقتل الحسين عليه السلام) وله رسالة أسماها (السير إلى الله)[٢] هذا وذكرت شبكة الشيعة له كتباً أخرى قام بتحقيقها وتصنيفها.

ولم يذكر المصنف مدة بقائه في العراق، لكن شبكة الشيعة ذكرت ذلك فبينت ان قدومه للعراق كان في ١٣٦٤هـ/١٩٤٤_م.١٩٤٥ وهي مطابقة للسنة التي ذكرها المصنف في مقدمة الجزء الأول من نهج السعادة[٣]– وكان قاصدا النجف الأشرف فبقي ماكثا هناك سبع سنوات، قبل ان يستقر في كربلاء حيث لم يبارحها إلى قيام الثورة في إيران، إذ انتقل إلى قم وهناك توفي في السابع عشر من شهر ربيع الأول في ١٤٢٧هـ. وهذا يعني ان بعض سني دراسته كانت في كربلاء، وفيها نال مرتبة الاجتهاد في الفقه والأصول.

---

(١) ينظر، عبرات المصطفين في مقتل الحسين، محمد باقر المحمودي، ص٨، هامش (٢).

(٢) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص١٠.

(٣) ينظر:م.ن، ج١، ص١٠.

ومن نشاطاته إنشاء مؤسسة المحمودي في بيروت التي تبنت طباعة بعض الكتب التي صنفها او حققها وتمت الإشارة إلى بعضها آنفا.

ب-كتاب نهج السعادة.

يعد هذا الكتاب أثراً من آثار التلقي ودليلا حيا على المحاكاة، وشاهدا شاخصا للتأثر والتأثير، فقد عارض محمد باقر المحمودي الشريف الرضي في تتبع آثار الإمام علي (عليه السلام) واقتفاه في ترتيب المواد المجموعة، وفارقه في دوافع الاختيار

فكان المحمودي ذا منهج جمعي اذ تتبع كل ما ظن انه للإمام علي (عليه السلام) شرط صحة النسبة مادامت القرائن الداخلية والخارجية تشهد بذلك مطّرحاً ما كان ((...مختلق قطعاً ...[وما] كان من سنخ كلامه...ولا دليل لنفي الصدور، ولكن لا شاهد له...والمصدر المأخوذ منه غير صالح للحجية...))[1] .

وقد رمق المصنف أسباب السعادة بعينيه، ورأى أن كلام الإمام (عليه السلام) يفضي إليها، فلو وضعه المرء نصب عينيه، وألزم نفسه على العمل به لوجد هذا الكلام ((...مقربا إلى السعادة مبعدا عن الشقاوة...))[2]، وقد قصد المؤلف بالسعادة هنا النجاء من الهلكة ومرديات الهوى .

فالمحمودي يقر بوجود البلاغة في مجمل كلامه (عليه السلام) إلا أن رصدها وتتبعها في مواضع مخصوصة ليس من وكده، فهو في أصل الجمع موافق لمنهج الشريف لكن معطيات الجمع غير موافقة لاختلاف الباعث لدى الجامعين، فاحدهما أراد أن يرسي نهجاً للبلاغة، فكان (نهج البلاغة) أما الآخر فالواعز الدافع للجمع هو طلب كل ما يعتقد انه صدر عن الإمام (عليه السلام) بوصفه هادياً للرشاد فانبثق كتاب (نهج السعادة) .

وقد ترسم المحمودي خطوات الشريف الرضي في ترتيب الأبواب، فحيث ابتدأ الشريف بمحاسن الخطب ثم ثنى ذلك بمحاسن الكتب، وختم بمحاسن الحكم والأدب، وما خرج عن ذلك نسبه إلى أليق الأبواب به[3].

كذلك شرع المحمودي ببيان الخطب وما جرى مجراها من طوال الكلم، وجاء الباب الثاني ليشمل الكتب والرسائل وما كان بمعناها، وباب ثالث في الأدعية والمناجاة وباب رابع في الوصايا، والباب الخامس– وهو الأخير– في الدرر اليتيمة. وربت أمور فرقت بين النهجين، فقد خلا نهج البلاغة من الأسانيد، فلم تكن هذه من هموم الشريف الرضي لذلك لم يطلبها...أما المحمودي فلم

(١) م.ن،ج،١،ص١٥-١٦.

(٢) م . ن، ج١، ص١٧.

(٣) ينظر:نهج البلاغة، ص١٧.

يخل كتابه من الأسانيد، إذ كانت هذه هي همته الأولى، فالمُؤلَف (نهج السعادة) إنما جاء عرضا، فقد كان المحمودي بصدد أن يجمع لكتاب نهج البلاغة أسانيد وثيقة ومصادر قويمة تثبت إسناد النهج لأمير المؤمنين (عليه السلام)، بعد أن شكك بعض المشككين في ذلك، بل كان عازما على جمع الأسانيد وإصدارها في كتاب مستقل، لكنه لما رأى أن عبد الزهراء الخطيب سبقه إلى ذلك عدل عن تأليفه وذكر بعض ما جمعه من هذه الأسانيد في كتاب نهج السعادة[1].

وهكذا حفلت الخطب بأسانيد توثق صدورها، وربما حظيت الخطية الواحدة بأكثر من طريق معنعن يصلها بقائلها، وكان المؤلف يناقش في السند إذا رآه ضعيفا، فيحاول أن يجد له جابراً معنوياً، أو مادياً من شواهد داخلية أو خارجية تؤيد السند وتقويه وتعفي على آثار هذا الضعف.

من ذلك الخطبة التي وسمت بالمونقة، وهي مرسلة السند وحكى المؤلف عن ابن أبي الحديد أن قد ((...رواها كثير من الناس...))[2]. وكأن المؤلف لمس هذا الضعف في الإسناد الذي يقود إلى التشكيك في صحة النسبة إلى الإمام (عليه السلام) فقال – ربما ليجبر هذا الضعف في السند – ((وكفي لإثبات صدور مثلها عن أمير المؤمنين (عليه السلام) ان يقول متضلع خبير مثل ابن ابي الحديد بأنها رواها كثير من الناس عنه (عليه السلام)، وصدقه غيره من المتضلعين في هذه الدعوى))[3]– وعلى الرغم من أن المقام ليس مقام تقييم – لكن لا بأس بملاحظة عمله في هذه المفردة، فهو عندما ذكر المتضلعين لم يحدد شخوصهم ولا عباراتهم، ليتم تصديق الدعوى، ثم أن هذه الكثرة لا ترتقي وفرتها إلى مستوى التواتر الذي لا يشوبه الشك مادام مصدر هذه الكثرة هو خبرُ آحاد ؛ فقد انتهت الدعوى إلى ابن أبي الحديد وهو رجل واحد، وعلى هذا الأساس سيكون تحديده للكثرة عن حدس لا عن حس، لطول المسافة الزمنية بين عهد رواية الخطبة وبين زمن ابن ابي الحديد.

ولعل هذه الأسباب دفعته ليبتغي سبيلاً آخر، يثبت عن طريقه نسبة الخطبة لأمير المؤمنين (عليه السلام)، فراح يوثقها عبر نقلها من مصادر أخرى ككتاب مطالب المسؤول لابن طلحة الشافعي، وكتاب كفاية الطالب لمحمد بن يوسف الكنجي الشافعي، إذ وردت الخطبة هناك عن طريق معنعن انتهى به إلى هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه عن راوية اخر اسماه (أبا صالح) ثم روى حديث الخطبة.

ونبه المؤلف إلى أن محمد بن يوسف الكنجي الشافعي، قد ساق الخطبة عن طريق ثالث، وان السيوطي قد ذكر هذا الطريق في كتابه جمع الجوامع في أواخر مسند علي (عليه السلام) وهو

(١) ينظر:نهج السعادة ، في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص١٤، هامش (٩).

(٢) م . ن، ج١، ص٩٨.

(٣) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة ،ج١، ص٩٨، هامش (٢).

الطريق ذاته الذي ذكره المتقي الهندي في كتابه كنز العمال ناقلا الخطبة والسند عن السيوطي لكنه قال في أواخر الخطبة (اسناده واه)[١] وقد حاول المحمودي أن ينتصر للسند فرد على المتقي الهندي بقوله ((...وهن هذا السند بخصوصه غير ضائر؛ بعد اشتهار الكلام بين الخاصة والعامة)) فقد اقام المؤلف موازنة بين وهن السند واشتهار الخطبة بين العامة والخاصة ثم رجح كفه الاشتهار على كفة ضعف الإسناد، بناء على ما تعارف عليه الرجاليون في علم الحديث من ان شهرة الحديث جابرة لضعفها[٢] فهم يرون ان الجبر يتحقق في شهرة الرواية – كما روي عن الشهيد الثاني– وذلك ((بأن يكثر تدوينها وروايتها بلفظ واحد أو ألفاظ متغايرة متقاربة المعنى))[٣] .

وهذا يشير إلى الجهد الذي يبذله المؤلف في سبيل تصحيح النسبة ما وجد الى ذلك سبيلا، وإلا فأنه يطّرح ما لم تصح نسبته.

هذا الأمر اوجب ان يكون هناك تفاوت في حجم الكتابين، ففي حين كان كتاب نهج البلاغة لا يزيد حجمه عن مجلد واحد ضخم، تراوح حجم نهج السعادة في اكثر من مجلد، اختلفت أعدادها بحسب تنوع الطبعات.

أول هذه الطبعات هي التي اضطلعت بها مطبعة النعمان في النجف الأشرف، وكان ان ظفرت بجزءين منها ، احدهما باب الوصايا في مجلدين رقما بالرقمين (٧) و(٨) وتاريخ الطبع المسجل عليهما هو عام ١٩٦٥ للميلاد الموافق للعام الهجري ١٣٨٥ وكان في ترتيبه مغاير للطبعة الأخيرة التي تصدت لها وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي في إيران– وهي الطبعة التي اعتمدتها– وهذا يعني ان خطة الكتاب قد اختمرت نهائيا مع طبعته الأخيرة ، اما المجلد الثاني فهو في باب الكتب وهو الجزء الرابع من نهج السعادة طبع في ١٩٦٨م– ١٣٨٧هـ.

وترتيب الكتاب في هذه الطبعة على النحو التالي: الباب الأول للخطب والأوامر، والباب الثاني في الكتب والرسائل، والباب الثالث في الوصايا، والباب الرابع في (غرر الأدعية) والباب الخامس كان في (قصار كلامه) فيلاحظ هنا اختلاف عناوين هذه الطبعة مع الطبعة التي اعتمدتها فضلا عن اختلاف الترتيب.

وفي هذه الطبعة قدم باب الوصايا على سائر الأبواب في النشر لمصلحة ارتآها، وأخّرَ سائر الأبواب عنها، فقد أرجأ طبعها الى حين[٤] ، وقد طبع هذا الباب في جزءين واخبر بأنه ((نموذج لما لم ينشر بعد من الأبواب والمجلدات))[١] .

---

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص١٠٨.

(٢) ينظر:الأصول العامة للفقه المقارن، محمد تقي الحكيم، ص٢١٣.

(٣) أصول الحديث، عبد الهادي الفضلي، ص٢١٧.

(٤) ينظر: نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ص٦، باب الوصايا، مؤسسة النعمان–النجف الاشرف، ١٨٣٥–١٩٦٥.

ولعل سر تقديم هذا الباب ان عمله في سائر الأبواب لم يكن مكتملاً إلى وقت طباعة هذين المجلدين، يدل على ذلك قوله متحدثا عن الباب الخامس الذي جعله لقصار كلامه (عليه السلام) ((ولا حد لهذا الباب، إذ كل يوم نظفر بما تشتهيه الأنفس...))[٢] وهذا يعني أن التجميع لهذا الباب ما زال قائماً إلى وقت طباعته، وقد واكب بين الجمع والطباعة.

ولم يتسن لي العثور على باقي أجزاء هذه الطبعة ورقياً أما على شبكة المعلومات فقد وجدت أجزاء منها، من ضمنها المجلدان اللذان عثرت عليهما ورقياً، فهما موجودان على الشبكة، وهناك وجدت الجزء الثاني دون الأول من باب الوصايا، أي المجلد الثامن دون السابع، كما وجدت الجزء الرابع من باب الكتب أي القسم الأول من هذا الباب وكانت سنة الطباعة هي ١٩٦٨-١٣٨٧هـ، ووجدت الجزء الخامس وهو القسم الثاني من باب الكتب، وجاء فيه ((هذا آخر ما عثرنا عليه من باب كتبه عليه السلام وقد تم طبعه ونشره في اليوم العشرين من شهر جمادي الثانية سنة ١٣٨٩ بنفقة المفضال الوجيه الحاج خير الله المردوشتي الحائري...))[٣] .

وهذا يعني ان سنوات الطبع- في هذه الطبعة- تفاوتت بحسب مراحل انجاز العمل وتيسر المال الكافي للطباعة. كما خلت هذه النسخة في جزئها الخامس من ذكر التاريخ الميلادي للطبع في مبدأ الطبعة ومنتهاها، لكنه اخبر في ذيل الورقة الأخيرة ان سنة الطبع هي ١٣٨٩هـ وهي موافقة للعام الميلادي ١٩٧٠، وجميع نسخ هذه الطبعة كتبَ عليها الطبعة الأولى، ما خلا الجزء الخامس من هذه الطبعة .

طبع الكتاب في بيروت أيضا، تصدت لطبعه دار التعارف، وقد حزت على مجلدين منها انصب موضوعهما على الخطب وهما المجلد الثاني والثالث، وكانت هذه الطبعة هي الأولى، وتجدر الإشارة إلى أن المجلد الأول سبق الثاني في سنة الطبع، طبع الأول في ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م، وطبع الثاني سنة ١٩٧٧م-١٣٩٧هـ.

وهذان المجلدان موجودان على الشبكة ولم أجد غيرهما لا الكترونياً ولا ورقياً من هذه الطبعة، ولا أدري إن كانت دار التعارف قد أكملت الطبع لباقي الأجزاء أم لا؟.

وثمة مجلد يتيم من نهج السعادة طبعته مؤسسة المحمودي وهو خال من أي معلومات تعريفية، فلم تذكر سنة الطبع ولا مكانه اشتمل على الجزء الأول من الخطب، بدأ بالخطبة رقم واحد وانتهى بالخطبة رقم ١٧٥، ولم اظفر بمجلدات أخرى من هذه الطبعة لا ورقية ولا على الشبكة، وعليه لا يمكن التنبؤ بما إذا كانت المؤسسة قد أكملت طبع باقي الأجزاء.

---

(١) م . ن، ص٦، باب الوصايا، مؤسسة النعمان- النجف الاشرف- ٣٠-٨.

(٢) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،، ص٧.

(٣) م . ن ، ج٥، ص٣٧٣.

وطبع الكتاب في إيران، طبعته وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، فطبعت جميع الأجزاء دفعة واحدة في عام ١٤١٨ ومجموعها اثنا عشر جزءاً وكانت الأجزاء الثلاثة الأولى منها مجعولة للخطب، وقد افرد الجزءين الأولين للخطب التي علم تاريخها ولو على نحو تقريبي- فجاء بالخطب مسلسلة ما وسعه ذلك[١]، وفي هذا من النفع ما فيه إذ هذا الترتيب يكون عاملا مساعدا على تفهم الحوادث التاريخية وتحليلها. أما الجزء الثالث فكان للخطب غير معلومة التاريخ، وهذا القسم اختص غالبا بخطب أيام الجمع والأعياد وما اسماه بإخبار الملاحم والفتن. وقد صدره بوصفه (القسم الثاني) احترازا عن القسم الأول الذي علم تاريخه.

واختص الجزءان الرابع والخامس بالباب الثاني الذي أوقفه على كتبه (عليه السلام)، ويلاحظ انه جعل لهذا الباب عنوانا فرعيا هو (المختار من باب الكتب) وهذا العنوان يغاير منهجه الذي هو جمعي استقصائي غير قائم على الاختيارات. وهو لم يعدل عن منهجه في هذا الباب، فالعنوان الفرعي غير مطابق للمنهج فلا بد ان يؤخذ على نحو المسامحة في التعبير.

وجعل الجزء السادس لباب الأدعية وعنوانه الفرعي (المختار من باب الأدعية) وهذا أيضا مخالف لمنهجه الجمعي الذي لم يحد عنه بدليل قوله في مقدمة هذا الجزء ((...ولأجل إضافة ما يقرب من (٣٥) دعاءً على الطبعة الأولى ومن أجل إلصاق المتجانسات بعضهما ببعض...))[٢].

ويعد هذا الباب هو الثالث هنا، بينما كان في طبعة النعمان الباب الرابع واسماه هناك (في غرر الأدعية) فالترتيب والعنوان ليسا على حد المطابقة في الطبعتين .وهكذا صار الباب الثالث في تلك الطبعة بابا رابعا في هذه الطبعة، وقد خصص للوصايا وهو في جزءين، الجزء الأول من هذا الباب جعل عنوانه الفرعي (المختار من باب الوصايا) ولم يفعل ذلك مع الجزء الثاني...وكلاهما غير مختارين ! كما انه شفع الوصايا بما يجري مجراها من الكلام.

وافرد الباب الخامس لقصار الكلم وهو في ثلاثة أجزاء، ورتبه على قسمين، قسم المسانيد وقسم المراسيل، وبين ان الحاجة إلى الإسناد في قصار الكلم اكبر، لخلو هذه القصار من القرائن الداخلية والخارجية في الغالب، فجعل الجزء الأول من هذا الباب في القصار المسندة من كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) والجزء الثاني في المراسيل من باب القصار والجزءان كلاهما مأخوذ من مصادر الشيعة، أما القسم الثالث فجعله في قصار المسانيد المأخوذة من الكتب الموثوقة من أهل السنة.

---

(١) ينظر:نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص١٧-١٨-١٩، و ج٢، ص٦٨٨.

(٢) م. ن، ج٦، ص٥، المقدمة.

أما الباب الأخير فخصصه لما انشده (عليه السلام) مما نظمه من الشعر أو تمثل به، ورقم على أنه الجزء الرابع عشر مع انه الجزء الثاني عشر بحسب العد. وجمع المصنف هذا الباب ما روي عنه (عليه السلام) من الكلام المنظوم، وما نسب إليه (عليه السلام) ولم تقم قرنية على خلافه.

وهذه الطبعة هي التي اعتمدتها في البحث. ومساحة البحث محدودة بحدود الأجزاء الثلاثة الأول إذ هي التي اشتملت على الخطب، وما جرى مجراها من الكلام الذي قيل في محفل ما، أو تلي في حشد من الناس.

وسلفت الإشارة إلى انه رتب الجزءين الأولين بحسب صدورهما أولا فأول، وما لم يعلم صدوره آخره إلى جزء ثالث تالي لهما.

والجدير بالذكر أن نسبة العلاقة بين خطب نهج السعادة ونهج البلاغة هي العموم والخصوص من وجه ، فبعض الخطب مشتركة بينهما، ولو في حدها الأدنى، أي في اقل ما يتم به الاشتراك من العبارات، واختص كل كتاب بخطب تخصه.

وقد أجريت مقارنة بين الخطب الموجودة في الكتابين، وكان كتاب نهج البلاغة المعتمد، هو الذي شرحه محمد عبده، وأخرجتْ مصادره فاتن محمد خليل اللبون ونشرته مؤسسة التاريخ العربي في بيروت– لبنان، فوجدت أن الخطب التي اختص بها نهج البلاغة دون نهج السعادة هي التي تحمل الأرقام الآتية في نهج البلاغة: (١-٢-٧-٨-٩-١١-١٢-١٨-١٩-٢٠-٢١-٢٤-٢٦-٣٢-٣٧-٣٨-٤١-٤٥-٤٧-٤٩-٥٢-٥٤-٦٤-٦٥-٧٢-٧٦-٨٠-٨٣) وهذه الخطبة التي تحمل الرقم (٨٣) سميت في نهج البلاغة بالخطبة (الغراء)[١] وهناك خطبة في نهج السعادة تحمل، العنوان نفسه[٢]، ومع ذلك ليس بين الخطبتين اشتراك، فكأن هذه الخطبة في نهج السعادة تمثل جزءاً محذوفاً من الخطبة التي في نهج البلاغة، وموضوع الخطبة هذه في نهج السعادة اقتصر على تمجيده سبحانه وتعالى مستغرقة أربعة عشر سطرا. أما في نهج البلاغة فالخطبة طويلة تضمنت عدة مفاصل، ابتدأت بالحمد والثناء في ثلاثة اسطر، والشهادة لمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم وصية طويلة في التقوى وذم الدنيا وانتهاز الفرص قبل فوات الأوان، والاعتبار بمن مضوا وقد استغرقت هذه الخطبة عدة صفحات في نهج البلاغة.

ومن هذه الخطب التي انفرد بها كتاب نهج البلاغة دون نهج السعادة: ما حمل الأرقام الآتيـــة: (٨٥-٨٦-٨٩-٩١-٩٢-٩٤-٩٥-٩٦-٩٩-١٠٠-١٠١-١٠٣-١٠٤-١٠٥-١٠٦-١٠٨-١٠٩-١١١-١١٢-١١٣-١١٤-١١٦-١٢١-١٢٢-١٢٦-١٢٨-١٣٠-١٣١-١٣٢-١٣٧-١٤٢-١٤٣-١٤٦-١٤٧-١٤٩-١٥٠-١٥١-١٥٤—١٥٦-١٥٨-١٥٩-١٦٠-١٦٢-

(١) ينظر :نهج البلاغة، ص١٢٠.

(٢) ينظر :نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة ، ج١، ص٥٨٧.

١٦٤-١٦٥-١٦٧-١٦٨-١٧٢-١٧٥-١٨٢-١٨٤-١٨٧-١٨٩-١٩٠-١٩١-١٩٣-١٩٤-١٩٥-١٩٧-٢١٠-٢١-٢١٢-٢٢٤-٢٣٥).

وهناك خطب تشترك مع خطب نهج البلاغة، وهو اشتراك يتفاوت بين اليسير الذي لا يعدو بضع كلمات، وبين التطابق الذي يكاد يكون كاملا، وربما كان هناك تشابه في المضمون وهذا أيسر الاشتراك.

ومن ذلك التشابه في المضمون بين الخطبة التي تحمل الرقم (٥٥) في نهج البلاغة والخطبة رقم (٢٠١) في نهج السعادة، فكلا الخطبتين تنصب على يقينه الصحيح في قتال اهل الشام، وعدم شكه في ذلك، وعدم تخوفه من الموت، بل لا مبالاته في لقائه، وان تأخره عن الحرب، كان طمعا في هداية طائفة من اهل الشام[١].

وثمة تقارب بين كلامين، ذكر على انه خطبة في نهج البلاغة تحت الرقم (٦)، وهو حوار جرى بين أمير المؤمنين (عليه السلام) مع ابنه الإمام الحسن (عليه السلام) تحت التسلسل (٨١)، فهو في نهج السعادة تحت عنوان (ومن كلام له عليه السلام) فما كان هناك خطبة صار هنا كلاما. والاختلاف هنا يسير لا يعدو بضع كلمات، ففي نهج السعادة كانت العبارة كالآتي ((فو الله ما زال ابوك مدفوعا عن حقه مستأثرا عليه منذ قبض الله نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى يوم الناس هذا))[٢] وقد جاءت في نهج البلاغة هكذا ((فو الله ما زلت مدفوعا عن حقي مستأثرا علي منذ قبض الله نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى يوم الناس هذا)). فالاختلاف هنا يسير وهو لا يعدو تغير الضمائر.

وربما كان التقارب يسيراً لا يعدو بضع كلمات حتى ليظن الظان أن الخطبتين مستقلتان لضآلة مقدار الاشتراك بينهما، كما هو الحال في الخطبة رقم (٢٢٩) من نهج البلاغة التي تشترك بنسبة يسيرة مع الخطبة التي تحمل رقم (١٦٠) من نهج السعادة التي رويت بثلاث روايات، خلت الأولى والثانية من هذا النزر القليل من الاشتراك، واشتملت عليه الرواية الثالثة التي هي أطول من سابقتيها، بل هي طويلة أصلا بصرف النظر عن المقارنة، وتختص المشاركة بهذه الكلمات فقط ((...صدع بما امره ربه، وبلغ...))[٣] وفيما عدا هذا فالتباين قائم بين الخطبتين، فان لم يصح عد هذا المقدار القليل اشتراكا فالخطبتان إذا مستقلتان.

وهاتان خطبتان اخريتان تشتركان في طائفة نادرة من الكلمات، لولاها لصح عد كل واحد منهما خطبة قائمة برأسها، هما الخطبة التي تحمل الرقم (٨٧) في نهج البلاغة فثمة شبه في المضمون مع الخطبة (١٥٧)، ففي نهج البلاغة ((...مصباح ظلمات، كشاف عشاوات، مفتاح

(١) ينظر :نهج البلاغة، ص٩٥، و ينظر :نهج السعادة، محمد باقر المحمودي، ج٢، ص٩٥-٩٦.

(٢) يُنظر، نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص٢٨٦، ونهج البلاغة، ص٤٢.

(٣) نهج البلاغة، ص٣٨١، ونهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٥٨٥.

مبهمات))، اما في نهج السعادة فقد ورد ((...مفتاح عشاوات، خباط جهالات...)). فالكلام يشبه الكلام، حتى لكأن الخطبة واحدة في حين ان المضمون هو المتطابق بينما الألفاظ متباينة، فمن موارد الشبه في الخطبتين قوله في ذم من يتشبه بالعلماء وليس منهم، فقد ورد في نهج البلاغة ((واخر قد تسمى عالما وليس به...))، اما في نهج السعادة فوجه التشابه هو في هذه الجملة ((...قد سماه أشباه الناس عالما، ولم يغن فيه يوما سالما...))، ومن موارد الشبه أيضا في هاتين الخطبتين ((فأين يتاه بكم ...وبينكم عترة نبيكم...))[1]، هكذا جاء في نهج البلاغة، أما في نهج السعادة ((فأين يتاه بكم بل اين تذهبون عن أهل بيت نبيكم...))[2] .

وتفسير هذا الشبه أما ان الخطبتين مستقلتان لكن تشابه أسباب بث الخطاب واحدة المنشأ، أو ان هذه الخطبة واحدة في الأصل لكنها رويت أشتاتاً متفرقة أو إنما سارت به الركبان اعتراه نوع تغير لكثرة المتداولين، فتغايرت الروايات والأصل واحد.

وربما قوي التشابه بين الروايتين في كل كتاب، حتى ليصح ان يظن الظان، ان الخطبة في كلٍ هي الأصل دون ان يقدح الاختلاف القائم بينهما في هذا الاعتقاد، كما في الخطبة (٨٤) من نهج البلاغة التي تأتلف إلى حد كبير– لكنه لا يصل إلى التطابق الكلي في الألفاظ– مع مضمون الخطبة رقم (١٧٧) في نهج السعادة. وكلا الخطبتين، تتناولان الرد على عمرو بن العاص لما انتقص الإمام (عليه السلام) عند أهل الشام، راميا إياه بأنه صاحب دعابة.

وليس من شان البحث استقصاء الفروق الجزئية وإبراز مكامن المطابقة في كل خطبتين تشتركان بعض الاشتراك لذا تكفي هذه الأمثلة لإعطاء صورة تقريبية لاشتراك الخطب في بعض المضامين والألفاظ.

وهناك خطب تشترك في الألفاظ والمضمون إلى حد المطابقة وهي لا تعدو أصابع اليد الواحدة عداً وثمة اختلاف يسير بينها يمكن إرجاعه إلى تفاوت الرواة في إيصال الخطبة، كالخطبة رقم (٥) التي تشترك مع الخدمة رقم (١) في نهج السعادة[3]. وهنا ساق المؤلف السياق التاريخي الذي شكل إطاراً خارجياً وظرفاً حاضرا للحدث وغاير المؤلف بين عنوانه والعنوان المذكور في نهج البلاغة، فجعل لهذه الخطبة عنوانا هو (لما أشير للقيام بإحقاق حقه)، وهو ليس عنوانا بالمعنى المألوف، كذلك في نهج البلاغة لم تعنون هذه الخطبة بما يصح أن يكون عنوانا، وإنما ذكرت المناسبة التي لأجلها سيقت الخطبة، والخطبتان بعد ذلك تتعاوران موضوعا واحدا، والاختلاف بينهما يسير لا يمحو المطابقة ولا يلغيها.

---

(١) م . ن، ص١٣٥–١٣٦ ، ونهج البلاغة، ١٣٥–١٣٦.

(٢) نهج السعادة ، في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٥٦٤–٥٦٥–٥٦٦.

(٣) يُنظر، نهج البلاغة، ص٤١، ويُنظر، نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٥٣.

ومن الخطب المتطابقة في الموضوع والعنوان الخطبة الشقشقية، وقد جاءت في كتاب نهج البلاغة الذي اعتمدته محركة بالفتح[١] وليس بصحيح، فقد اشتهرت أنها بكسر الشينين الأولى والثانية[٢]، أما في نهج السعادة فلم يوردها المؤلف محركة ولكنه أورد عنوانها الثاني (المقمِّصة) محركة كما ينبغي[٣] وثمة اختلاف بين الروايتين ضئيل لا يكاد يلحظ، فتسلسل الخطبتين واحد في الانتقال من موضوع إلى ثان، كما أن كليهما لم تغفل مواضع الإستشهاد بالبيت الشعري والآية القرآنية التي ذكرها الإمام (عليه السلام) لتوضيح الحال، والكتابان ذكرا سبب تسمية الخطبة بالشقشقية بعد أن ذيلا في نهاية الخطبة طلب ابن عباس إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) إكمال الخطبة الشقشقية إلى حين أفضت.

ويفترق نهج السعادة عن نهج البلاغة في انه يسرد غالبا الظروف الحادثة التي تفضي إلى انعقاد الخطبة وذكر التفاصيل الدقيقة عنها.

ثم ان هناك خطبا اختص بها كتاب نهج السعادة دون نهج البلاغة كالخطبة الأولى مثلا، فإنها غير موجودة في نهج البلاغة، على ان المقام ليس مقام استقصاء والمقارنة كانت لبيان التفاوت ما بين الكتابين في الاشتراك والاختلاف، فمنها يستخلص ان نهج السعادة هو كتاب مستقل في نهجه ومادته عن نهج البلاغة، وان كان المؤلف قد وضع كتاب نهج البلاغة نصب عينيه في أثناء التأليف.

ج- الخطب في نهج السعادة

أحتلت الخطب مساحة لا بأس بها من حجم الكتاب، تقدر بربع الكتاب تقريبا لأنّ مادتها استوت في ثلاثة أجزاء من أصل اثني عشر جزءا، لكن المؤلف لم يفرد الأجزاء للخطب فقط، بل ادخل فيها ما جرى مجراها، كما ادخل فيها (الكلام)، على ان بعض ما اسماه كلاما وضعه تحت هذا العنوان كان خطبة في الأصل.

وسبيل الاهتداء الى ذلك هو في قوله أحيانا:- ومن كلام قاله في بعض خطبه، او انه في مظان سرد مناسبة الكلام يذكر ان الإمام (عليه السلام) صعد المنبر خطيبا، وعلى هذا الذي تقدم تكون التسلسلات الآتية خطبا وليست كلاما، وهي ((التسلسلات التي تحمل الأرقام (٩- ٥٩-٦٣-٦٤- ١٢٦-١٢٧-١٣٠-١٤٦-١٤٩-١٥١-١٦٦-١٧٣-١٧٦-١٩٧-٢٠٧-٢٠٨-٢١١-٢٤٦-٢٤٩-٢٥٩-٢٦٢-٢٦٣-٢٨٣-٢٩١-٣٠٢-٣١١-٣٢٠-٣٢١-٣٣٠-٣٣٣-٣٣٤-

(١) ينظر :نهج البلاغة، ص٣٣.

(٢) يُنظر، القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مادة شقق ص٨٢٨.

(٣) يُنظر، نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص٤١٢.

٣٣٨-٣٤٢-٣٤٣-٣٤٤-٣٤٦-٣٤٧-٣٤٨-٣٤٩-٣٥٥-٣٦٠-٣٦٢-٢٦٣-٣٦٤-٣٦٥-٣٦٧-٣٦٨-٣٧١-٣٧٦-٣٧٩) هذا في الجزءين الأَولين، أما في الجزء الثالث فالتسلسلات هي (٨-٩-٢٨-٣٢-٣٦-٣٨-٤٤-٥٦-٦٦-٧٣-٧٤-٨٠-٩٦-١٠٠-١٠٣-١٢٨-١٢٩-١٣٢).

وهناك المزيد من الخطب، صنفت على انها من الكلام، لكن القرائن الخارجية والإمارات الحافة بها تعرض أنها خطبة، كما في التسلسل (٢٠٥)[١]، فقد أمر (عليه السلام) أن يجمع الناس وقبل أن يتكلم كان متوكئا على قوسه[٢] فهذه الشواهد التي لا يختلف فيها اثنان هي مؤيدات على ان الكلام المساق هو خطبة، ومثلها في ذلك التسلسلات (٢٢٦-٢٥٣-٢٩١-٢٩٦).

وبضم هذه التسلسلات المشار إليها التي حملت عنوان الكلام وهي خطب في حقيقتها وعددها (٧٣) سيصبح مجموع الخطب (١٨٧) خطبة تقريباً وأن خطب الكتاب (١١٤) خطبة، وهذا التقريب يعود إلى أن بعض الخطب ذات مضمون مكرر. لكن المصنف كان يعيد ذكرها إذا أختلف طريق الرواة.

تصنيف الخطب

١- **خطب التوحيد المحض الذي لا يخالط موضوعها موضوعاً آخر** هي التي تحمل الأرقام:

(١٤٦-١٥٦-١٦٠-١٦١-١٦٤-١٦٥) في الجزء الأول .

و(١-٢-٣-٦-١٠-١١-١٢-١٣-١٤) في الجزء الثالث.

٢- **خطب التوحيد المشتركة مع غيرها من الموضوعات :**

(١٣-١٥-٢٠-٢١-١٥٤-١٥٥) في الجزء الأول، و(٤٥-٥٠-٥٣) في الجزء الثالث. وهذه اختلط موضوعها مع الزهد . وهناك خطبة امتزج موضوع التوحيد فيها مع مدح آل البيت (عليهم السلام) هي الخطبة التي تحمل الرقم (١٧) فهذه عشرة خطب.

٣- **خطب السياسة:** وهي التي تحمل الأرقام (٩-١١-١٤-٥٤-٥٥-٥٦-٥٧-٥٨) وهذه الأربعة الأخيرة مكررة المضمون مع شيء من الاختلاف في رواياتها (٥٩-٦٤-٦٨-٧٦-٧٧-٧٩-٨٨-٩١-٩٢-١١٦-١٢٢-١٢٨-٢٢٦-٢٤٦-٢٥٣-٢٥٦-٢٥٩-٢٦١-٢٦٣-٢٦٤-٢٨٤-٣٠٨-٣٢٦-٣٤٣) فهذه اثنتان وثلاثون خطبة .

---

(١) ينظر: نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص١٠٦.

(٢) ينظرالبيان والتبيين، الجاحظ، ص١٥٣ وفيه بيان: ان الاتكاء على القوس من خصائص الخطيب ، ((كانت العرب تخطب بالمخاصر، وتعتمد على الأرض بالقِسيّ...)).

٤- **خطب الزهد والوعظ** : وتحمل الأرقام : (٦١-٦٢-٦٣) وهذه الخطب ذات مضمون مشـــترك (٦٩-١٢٠-١٣٥-١٤٧-١٥٧-١٦٩-١٧٣-٢٤٣-٢٤٩-٢٧٥-٣٠١-٣٢٠-٣٢١-٣٥٢-٣٦٠-٣٦٧-٣٧٦) هذا في الجزأين الأول والثاني.

أما في الجزء الثالث (٨-٩-٢٧-٢٨-٣٢-٣٣-٣٥-٣٦-٣٨-٣٩-٤٠-٤٤-٤٦-٥١-٥٢-٥٤-٥٥-٥٦-٥٨-٥٩-٦٠-٦٥-٦٦-٦٧-٧٢-٧٤-٧٥-٧٦-٧٨-٧٩-٨٠-٨١-٨٢-٨٣-٨٥-٨٦-٨٨-٩٥-٩٦-١٠٠-١٠٣-١٢٨) فهذه اثنتان وستون خطبة.

٥- **خطب الاستنفار للحرب:** وهي خمس وثلاثون خطبة، حملت الأرقام: (٨٠-٨٤-٨٥-٩٣-٩٥-٩٧-١٠٢-١٠٣-١٧٩-١٨٠-١٨٤-١٨٨-١٩٨-٢٠٨-٢١١-٢١٧-٢١٩-٢٦٢-٢٦٥-٢٦٦-٢٦٧-٢٦٨-٢٨٣-٢٨٤-٢٩٨-٣٠٩-٣١٠-٣١٧-٣١٨-٣٢٢-٣٢٣-٣٢٤-٣٢٥-٣٧٧-٣٧٨).

٦- **خطب اللوم والشكوى** : (١١٠-١١١-١١٢-١٩٤-٢٢٧-٢٩٩-٣٠٠-٣١١-٣١٣-٣١٩-٣٢٧-٣٣٢-٣٣٥-٣٣٦-٣٣٧-٣٥٤-٣٨٣-٣٨٤-٣٨٧) واللـــوم كـــان غالبـــاً لتـــركهم القتال، لذا سأضيف هذه الخطب خطب الحرب واجعلهما في خانة واحدة.

٧- **خطب الملاحم:** وهي خطب تتحدث عما سيقع مستقبلاً، وتحمل الأرقام (٢٩١-٣٠٢-٣٣٣-٣٤٢-٣٤٤-٣٤٥-٣٤٦-٣٤٧-٣٤٨-٣٤٩) وهذه الخطب الخمس الأخيرة ذات مضمون واحد (٣٥٩-٣٦٣-٣٦٤-٣٦٨-٣٦٩-٣٨٢-٣٨٥) وفي الجزء الثالث الخطب: (١٢٧-١٢٩-١٣٢-١٣٥) وهذه اثنتان وعشرون خطبة.

٨- **خطب الفخر ومدح آل البيت (عليهم السلام):** وهي تحمل الأرقام : (١٢٦-١٢٧-١٢٨-١٥٨-٣٤٣-٣٨٦) وفي الجزء الثالث (٤-٥-١٨-٢٦-١٣٠) وهي إحدى عشْرةَ خطبة. ومعظم هذا الفخر يؤول إلى هدف سياسي، لذا سأجعل كل خطبة يقوم الفخر بها على هذا الأساس، على أنها خطبة سياسية .

وهناك خطب متنوعة المضامين يمكن ان تندرج تحت هذه الأقسام، منها نعي مالك الأشتر وتضم الأرقام (٢٩٥-٢٩٦-٢٩٧) وهذه يمكن ان تقع تحت عنوان خطب الحرب. لأنه أهم قادتها.ويمكن ان تدرج خطب الجمعة والأعياد تحت عنوان الخطب الاجتماعية لأنها تشتمل على الوعظ والإرشاد والتعليم .وسيعرض البحث أيضاً عن خطب الملاحم لأن موضوعاتها غيبية .

وسيعامل البحث خطب الحرب والخطب السياسية على أنها خطب واحدة لأن اغراض الحروب كانت سياسية وبذلك ستكون الخطب التي يدور حولها البحث هي خطب التوحيد والخطب الاجتماعية أو خطب الوعظ والزهد، إلا ان مرد الوعظ والزهد إصلاح المجتمع. وخطب السياسة.

وآلية سوق الخطب تكون بأن يذكر المؤلف بين يدي معظمها حادثاً ما يكون سبباً لإنشائها، وأن يسوق طريقاً معيناً للخطبة تذكره كتب السير والتاريخ، التي يشير المؤلف إلى أصحابها أثناء سرد ذلك الطريق.

ثم يعقب المؤلف نص الخطبة بمظان أخرى لوجودها، يذكر ذلك في المتن، معدداً الكتب التي وجدت فيها الخطبة ذاكرا رقم الصفحة والجزء، وكان من شأن هذه التفاصيل ان تثقل كاهل الكتاب بالمعلومات، فيغدو ضخما، مقسما إلى أجزاء ، لاسيما أن المؤلف قد يسرد اكثر من طريق واحد للخطبة ويفرد كل طريق تحت رقم معين– على الرغم من وحدة الموضوع– وهذا يؤدي إلى استغراق مساحة اكبر زادت من حجم الكتاب، مثال ذلك ما ورد في تأبين مالك الأشتر، فقد ذكره من غير طريق، وكل طريق خصه بتسلسل خاص، وهكذا كان المضمون الواحد للخطبة هذه، يحمل تسلسلا مختلفا ضم الأرقام (٢٩٥–٢٩٦–٢٩٧)، وكان الأجدى لو ان المؤلف ضم هذه المضامين الى بعضها وأشار إلى الاختلاف الجزئي زيادة ونقصا ضمن كل رواية في الهامش، وبهذه الطريقة يحمي الموضوع الواحد من التشتت والإنقسام ويحفظ منهجه من القلق جراء تقسيم الموضوع الواحد تحت أرقام مختلفة، وربما عناوين مختلفة، كالأرقام المزبورة المشار إليها آنفاً، فقد جعل الرقم ٢٩٥ تحت عنوان الخطبة، بينما وضع التسلسلين (٢٩٦–٢٩٧) تحت عنوان الكلام، والحال ان جميع هذه الأرقام تتحدث عن مناسبة واحدة ومضمون واحد، وقد ارتقى فيها أمير المؤمنين (عليه السلام) المنبر، فهي خطبة واحدة ذكرت في اكثر من موقع، وثمة أمر آخر تجدر الإشارة إليه ان الخطبة هذه أعقبت بتعليقات مختلفة في كل مرة، ففي المرة الأولى رصد مسيرة الإمام بعد إلقاء خطبته وتحسره على مقتل الأشتر، ثم تلاها بذكر بعض الكتب التي ورد فيها خبر الخطبة، وفي المرة الثانية، ذكر بعد نص الخطبة، ردة فعل معاوية بعد ان سمع نعي مالك الأشتر، ثم أورد أبياتاً من الرثاء، نسبها الى إحدى نساء النخع، ثم ذكر مظان الخبر في كتب أخرى، كرر منها تاريخ دمشق ج٣، ص١٦٢، فقد ورد عقيب الخطبة الآنفة أيضا.

أما في المرة الثالثة، فأعاد ذكر حال أمير المؤمنين (عليه السلام) وتلهفه على مقتل الأشتر، ثم ذكر الأبيات ذاتها التي ذكرها في التسلسل الثاني التي نسبها لإحدى نساء النخع مع شيء من التغيير.

وذكر بعد ذلك أبياتاً أخرى في رثاء مالك نسبها (للمثنى)، ولم يذكر من هو (المثنى)، ثم بين مواضع الأبيات التي ذكرها، عاطفا عليها أبيات أخر– ثلاثة أبيات– نسبها الى أخت الأشتر

– وهي تتوافق في القافية والوزن مع الأبيات التي رواها لإحدى نساء النخع في المرة الأولى والثانية[1].

وهذا يتكرر من المؤلف غير مرة وفيه توزيع لجهده وتشتيت للفكرة التي كان من الممكن ان تعرض في إطار واحد فيقتصد بالجهد ويكون حجم الكتاب معقولا، فهنا مثلا كرر تحسر أمير المؤمنين (عليه السلام) على مالك مرتين، وذكر الأبيات الدالية المنسوبة إلى إحدى نساء النخع ثلاث مرات ، وكان له ان يجمعها في مكان واحد لتسهل العودة عليها، فهذا سبب من أسباب تضخم الكتاب. وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فان من الأسباب الأخرى لتضخم الكتاب هو قيام المصنف بإعطاء المعاني المعجمية لبعض المفردات التي لا يتيسر معرفتها دون الرجوع إلى معاجم اللغة، وإثقال هوامش الكتاب بها فضلا عما ذكر آنفاً من نشر الخطبة في أكثر من مكان.

على ان ذلك لا يقلل من قيمة الكتاب والجهد العلمي الذي بذله المؤلف في استقصاء تراث الإمام علي (عليه السلام) من شتى أنواع الكتب، دون ان يفرق بين كتب علماء السنة او الشيعة، فحيث كانت بغيته ولى وجهه إليها، ومن هذين المنبعين استقى مادة الكتاب، وجاء بهذه المادة الضخمة التي شملت فنون مختلفة من كلام الإمام علي (عليه السلام) وخطبه ورسائله وكتبه وما ظن انه انشده أو تمثل به وما دعا به، مما وفر مادة جزلة تستحق ان ترصد وتدرس .

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص٣٧٧–٣٨٥.

الفصل الأول
الدلالة والسياق وأثرهما
في تحقيق المعنى

مدخل: نظريات المعنى

إن من مهام تحليل الخطاب، ((...دراسة للتركيب والدلالة...))[١]، وتقتضي دراسة الدلالة تحقيق معنى الكلمة وتحصيله في نطاق الاستعمال، فحدود الكلمة متقومة بالحديث اللغوي الطبيعي الذي يشمل الحوارات واللقاء والخطب[٢].

وسبل تحصيل معنى المفردة وتحقيق مقصودها يتحدد بنظريات المعنى[٣]، أو نظريات الدلالة[٤]، فنظرية المعنى ترصد الكلمة في نطاق الاستخدام[٥].

والدلالة التي تحقق المعنى هي الدلالة المنوطة بالمتلقي، وقد اسماها إبراهيم أنيس الدلالة الهامشية وهي عنده تقابل الدلالة المركزية[٦].

واسماها محمد محمد يونس علي الدلالة الايحائية التي تقابل الدلالة الإدراكية وقد ذكر فروقاً بينهما، فالدلالة الإيحائية تختلف باختلاف الأفراد، وتتقوم بالمعنى العاطفي، ووظيفتها التأثير .

أما الدلالة الإدراكية فمنشأ ادراكها هو العقل، ووظيفتها الإبلاغ وأفراد البيئة يشتركون في فهمها[٧].

وأسماها محمد ربيع الغامدي (المضمون النفسي) الذي يعتمد على الطبيعة النفسية للفرد التي لا تساوي طبيعة الآخرين في الاستجابة للكلمة نفسها، لذا عدّها جزءاً خاصاً بالأفراد، أما (المضمون المنطقي) فهو الجزء المشترك من الفهم الحاصل بين أفراد الجماعة اللغوية[٨].

ومن نظريات المعنى التي يتحقق بها مقصود الكلمة في مجال التخاطب، هي النظرية السياقية لجون فيرث، فالمعنى وفق هذه النظرية يعد :((وظيفة في سياق)) [٩]، ولا يظهر للمتكلم

---

(١) تحليل الخطاب، ج.ب. براون و ج. يول، ص٣٢.

(٢) يُنظر : الخطاب، سارة ميلز، ص١٥.

(٣) يُنظر: اللغة والمعنى والسياق، جون لا ينز، ص٣٢.

(٤) ينظر:مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، محمد محمد يونس علي، ص١٧.

(٥) يُنظر: اللغة والمعنى والسياق، ص٣٢.

(٦) يُنظر: دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، ص١٠٦، ١٠٧.

(٧) يُنظر: مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، ص٧٩.

(٨) ينظر: حضور الدلالة وغيابها (وجهة نظر لغوية في قراءة النص)، محمد ربيع الغامدي، علامات، ج٣٩، مج١٥، ذو الحجة ١٤٢١، مارس، ٢٠٠١، ص٨٦.

(٩) مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، ص٢٧.

إلا ((...بمراعاة الوظيفة الدلالية للألفاظ المستخدمة)) [1]. ومن هذه النظرية انبثقت المصاحبة المعجمية، والمصاحبة هي: ((...الترابط المعتاد لكلمة ما بكلمات أخرى معينة في جمل تلك اللغة)) [2].

والبحث سيعنى بهذه الأمور جميعاً بالدلالة الهامشية والنظرية السياقية والمصاحبة المعجمية، لانضوائها جميعاً في مجال تحصيل معنى الكلمة.

(١) مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، ص٢٨.

(٢) م . ن، ص٣٠.

المبحث الأول : الدلالة وعناصر الخطاب

إن تفسير النص وفق آليات الدلالة أمر تفرضه وثاقة العلائق الرابطة بين عناصر الخطاب الرئيسة (الخطاب والمخاطَب والمخاطِب) ولكنه يبدو أكثر التصاقاً بالمخاطَب، لأنَّ بلورة الخطاب تقع على عاتقه، فساعة تلقفه الخطاب فهماً واستيعاباً وتمثلاً تتم عملية الإبلاغ وتتحقق غايته المرجوة.

والكيفية التي يتصور بها المعنى، تقترن غالباً بالمتلقي، فتتشكل عوالم المعنى وعوامله وفقاً لرؤيته وما يؤثر فيها من اعتماد معيار لغوي معين ، يُبتنى على أسس نحوية ثابتة، لا يمنع ثباتها من مرونة في التأويل تبعاً لمرونة النص. ويكتنف الرؤية التي تتجلى الدلالة في ضوئها ظروف بيئية تحيط بالخطاب ساعة صدوره ، وترتبط بها سياقات لغوية أو مقامية وترتهن بها أعراف اجتماعية وبيئية تُلقي بظلالها وثقلها فتتجلى آثارها وتتبين ساعة تفسير الخطاب . فضلاً عن الكفاءة اللغوية التي ينبغي أن يتمتع بها المتلقي بوصفه مستمعاً مثالياً . يستطيع أن يتجاوب مع شتى أنواع الخطاب مباشراً كان لا يحتاج إلى تأويل أم كان الغموض يحيط بأنحائه على نحو متفاوت بين الشدّة والضعف، بل قد يصل الأمر إلى حد تعمية المقصود إلا عن فئة معينة يستهدفها الخطاب ولأجلها أُنشئ . وهنا تتجلى مهارة المتلقي ولاسيما من أقصاه الخطاب، فيتصيد دلالته المقصودة الكامنة وراء الظاهر الخفي من الكلام الذي يحمل مقصدين مزدوجين، أحدهما مراد له ،أخفاه تحت ظاهر غير مراد . وهذا يتناغم ولو بالتكلف مع ما عرف من ان للدلالة مفهومين أحدهما مركزي يشترك في فهمه سائر الناس ممن ينتمون إلى بيئة لغوية واحدة، ومعنى هامشي ينفرد به بعض الأفراد ممن ينتمون إلى البيئة ذاتها، لمستلزمات منطقية أو عقلية اختصوا بها، نتيجة استجابة نفسية معينة تجاه الكلمات[1]، أو ما عرف بالمعنى النووي، الذي تفيده العبارة بمقتضى بنيتها، والمعنى الهامشي الذي يستفاد من العبارة، انطلاقاً من السياق والاستعمال[2]، وكيف كان فالدلالة حتى تتكشف لابد أن يتحلى المتلقي بمؤهلات تساعده على أبراز المعنى إلى عالم الوجود وفضائه الحي القائم على أساس التداول والاستعمال، فلا بدَّ من أن يمتلك السليقة اللغوية التي تساعده على تفسير الخطاب ومعرفة المساقات والأحوال الاجتماعية التي تُعينه على ذلك.

---

(١) يُنظر: دلالة الألفاظ، ص١٠٦ والمعنى وظلال المعنى،أنظمة الدلالة في العربية، محمد محمد يونس علي، ص١٧٨.

(٢) يُنظر: الاستعارات التي نحيا بها، جورج لايكوف ومارك جونسن المقدمة التي كتبها المترجم عبد المجيد جحفة، ص٨ إذ قَصَدَ بالمعنى النووي المعنى المركزي.

تعريف الدلالة

قبل الخوض في المبحث الدلالي لابد من معرفة ماهية الدلالة التي عرفت تعريفات متقاربة، منها انها ((العلم الذي يدرس المعنى...))[١]، وهناك تعريف أكثر تفصيلاً يرى فيها ((العلم الذي يتناول المعنى بالشرح والتفسير، ويهتم بمسائل الدلالة وقضاياها...))[٢]، ولئن كان الشق الأول من التعريف واضحاً، لأنه فسر الشيء بغيره، فالشطر الثاني لا يعدو كونه مصادرة على المطلوب ؛ لأنه فسر الشيء بنفسه، وظهر الدور واضحاً في هذا الشق، إذ مؤدى التعريف حينئذٍ: أن علم الدلالة يهتم بمسائل الدلالة وقضاياها... وإذا كانت الدلالة مبهمة بحسب الفرض – وإلا لما احتاجت إلى تعريف – فلا يَصحُ أن تُفَسِّرَ نفسها. نعم الشق الأول من التعريف يطابق التعريف السابق، بأنها علم يدرس المعنى ويزيد عليه بكيفية التناول وذلك بالشرح والتفسير. وقد شاء محمد محمد يونس علي أن يُظهرَ وظيفة الدلالة من خلال الرواح إلى التراث العربي في تعريفها إذعاد إلى كتاب مختصر المعاني،وأبان أن الدلالة هي ((كون الشيء بحيث يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والأول الدال والثاني المدلول)) [٣]، فالعلاقة بين الدال والمدلول منطقية بسبب من التلازم بينهما.

وأخال أن هذا يعني أن يكون السامع على علم بالملازمة بين الدال والمدلول وإلا تعطلت وظيفة الدلالة وأصبح الدال معزولاً عن مدلوله، وهذا يفسر إبهام المعاني أحياناً، لأن الملازمة هنا استعصت على المتلقي ولابد من الإيضاح والشرح لبيان الملازمة، وتنشيط عمل الدال ليشير إلى مدلوله ...

ويفترض هذا التعريف أيضاً أن تتعدى الدلالة مستوى اللفظ إلى غيره من الدوال التي تشير إلى مدلولات معينة غير لغوية، ولهذا أُدخلتِ الدلالات غير اللفظية، كدلالة الخطوط والعقود والنصب والإشارات، ضمن مفهوم الدلالة ؛ لانطباق التعريف عليها[٤].

فكل واحد منها يشير إلى مدلول معين . ولابد من المواضعة في كل – أي في الدلالات اللغوية وغيرها – لتؤدي الدوال وظيفتها فترتبط بمدلول معين لتتحقق الدلالة، وهذا الشرط لا يسري إلى الدلالتين الطبيعية والعقلية، لتحققهما من دون مواضعة[٥].

---

(١) علم الدلالة، احمد مختار عمر، ص١١.

(٢) التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، محمود عكاشة، ص٩.

(٣) المعنى وظلال المعنى، أنظمة الدلالة في العربية،ص٨٥ ، وينظر، التركيب اللغوي للأدب، بحث في فلسفة اللغة والاستطيقا، لطفي عبد البديع، ص٦٢

(٤) يُنظر: المعنى وظلال المعنى،أنظمة الدلالة في العربية، ص٨٥.

(٥) يُنظر: م . ن ، ص٨٦ .

وهذا التعريف يتماهى بشكل أو بآخر مع التعريفين الأوليين، على الأقل في الدلالة اللفظية – بل في سائر الدلالات – فهنا اللفظ هو الدال الذي يرتبط ارتباطاً تلازمياً بالمدلول، فيفصح عنه ويشير إليه وبذلك ينكشف المعنى وتظهر الدلالة بادية للسامع، متحققة في الكلام.

وتعد أبرز أدوات الدلالة هي الكلمة، لأنها لفظ يدل على معنى[١]، فهي الوحدة الدلالية الصغرى، إلا أنَّ معناها الكلي لا يفهم إلا بضمّ غيرها من المفردات إليها[٢]، لتتحقق وحدة دلالية أكبر منها تتمثل بالجملة التي تنشأ من ضم بعض الوحدات إلى بعضها الآخر.

الدلالة الهامشية و آفاق التطبيق

ربما كان هذا المثال من قوله (عليه السلام): ((... **وَتَرَكْتُم قَوْلي وَرَاءَكُم ظِهْرِياً حَتى شُنَّت عَليكمُ الغَاراتِ...**)) [٣]، مصداقاً لهذا المعنى، فالفعل(شن) في معناه المعجمي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالماء وأدواته في أكثر من تصريف، وانتقال دلالته إلى الغارات واشتباكه معها إنما أملاه المجاز، لوجود الشبه الجامع المصحح لهذا الانتقال، حتى صار في العصر الحاضر ملازماً لكلمة هجوم، كقولهم، شن العدو هجوماً، ربما يؤيد هذا القول ما ورد في أساس البلاغة: ((...وشن عليه الماء: صبه مفرَّقاً)) [٤]، وقد أورد الفيروز آبادي ضمن معاني هذه المفردة ((...شن الماء على الشراب: فرَّقه، والغارة عليهم: صبها من كل وجه)) [٥].

فلما كان الزمخشري معنياً بإيراد المعنيين، الحقيقي والمجازي، وذكر معنى (شن) في مورده الحقيقي دون المجازي، ولم يكن من وكد الفيروز آبادي أن يفصّل في هذا الشأن، فيفرق بين حقيقة اللفظ ومعناه وجاء المعنيان كلاهما متجاورين تبيّن أن مجمل ارتباط لفظة (شن) ومشتقاتها هي بالمحسوس دون المجرد وهذه آية تدل على أنَّ استعمال هذه اللفظة مع الغارات استعمال مجازي، لأن الغارة معنى مجرد وإن كانت آثارها محسوسة تعاين وتسمع .

بمعنى آخر أن هذا الفعل تتغير دلالته، باختلاف الكلمات التي تأتلف معه، فهو مع الماء لا يعطي معنى يوحي بالخطورة وفداحة الأمر ولا ينتج سوى معنى الصب الذي ينسجم مدلوله مع مطلق السوائل ولاسيما الماء.

---

(١) ينظر: دلالة الألفاظ، ص٣٨.

(٢) ينظر: علم الدلالة، ، ص٣٣.

(٣) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص٤٧٧.

(٤) أساس البلاغة، الزمخشري، مادة شن ج١، ص٥٢٤.

(٥) القاموس المحيط، مادة شن، ص١١١٥.

ويختلف الحال إذا انضمت كلمة أخرى إلى الفعل من قبيل (عليكم) فإنَّ (على) تُوحي أصلاً بالشدة والمشقة[١]، وضم اللاحقة المكونة من كاف الخطاب وميم الجمع إلى حرف الجر، يضاعف من أثر هذه الشدة، فاقتران كلمة (شن) ولواحقها معها سيعطيها معنى مختلفاً بانضمام مفردة الغارات، فالجملة هي التي ستبرز معنى المفردة (شن) وهي التي ستسوغ بناءها للمجهول، فإضمار العدو وراء هذا التركيب قد يُفسر بتهويل أفعاله وشناعتها، ليَحْذَرَوه، ويتصدوا له، وربما فسر هذا الإضمار بالتركيز على نتائج الغارة، وما خلّفته من دمار وخوف وهلع، والشن في معنييه الصب والتفريق، يتواكب مع الصفة الصوتية، للحرفين اللذين يتألف منهما، فالشين صُويت فيه تفش[٢]، وهذا يناسب التفريق، فكلاهما يحمل معنى الانتشار والنشر، أما النون، فتكرارها هنا، يدل على قوة المعنى[٣]، وهذا ينسجم مع الصب الذي يفيد تركيزاً، يفسره تضعيف النون، فتكرارها يدل على تكرار الفعل[٤].

وتتبع مفردة شن في المعجم يعطيها كل مرة بعداً دلالياً مختلفاً، يختلف باختلاف الكلمات المنضمة إليها ، والمتجانسة معها في التراكيب المختلفة ، وهي هنا حفت بها الدلالة المركزية فحسب، لأن معظم المخاطبين، إن لم يكن سائرهم يستطيعون فهم المراد منها.

ومن العبارات التي تتضح فيها الدلالة المركزية، قوله في ذات الخطبة: ((...**مَلأْتُم جَوْفي غَيْظاً بِالْعِصْيانِ وَالخُذْلانِ...**)) [٥]،لاشك في أنّ كل مجوف خالٍ، يصح ملؤه، لكن حشوه بالغيظ إلى درجة الامتلاء، يحتاج في تمثله إلى خيال يقبل امتلاء المحسوس بالمجرد وإذ عدّ مثل هذا النوع من التعبير مألوفاً في الحياة اليومية، فإن الدلالة هنا ستظل مركزية، طالما توافق الناس على فهم المقصود منها . فقد لا يختلف اثنان في أن الجوف مفردة تنطبق هنا على الصدر أو القلب، باعتبار أن كل واحدٍ منهما محل الإحساس بالفرح والحزن والجزع إلى آخر هذه المشاعرالوجدانية فيكون المؤدى هو الاغتياظ والمرارة الناجمة عن التمرد والتخاذل. والسبيل إلى كشف هذه الدلالة، هو الوقوف أمام المفردات واحدة إثر أخرى، وإذا كانت هذه الكلمات ذات معانٍ واضحة تتبادر من فورها إلى الذهن دون عناء فكري، فإن في الصياغة وهضمها ما يحتاج إلى إعمال الخيال، وإذا كان العصيان والخذلان هما آلة هذا الامتلاء، أو أنهما المسببان له، فهذا يعني أن كل واحد من هذين قد تكرر مرة بعد أخرى، وفي كل مرة يسبب هذا غيظاً وغضباً في نفس الآمر الذي لا

(١) ينظر:لسان العرب، مادة على ج٤، ص٣٠٩١.

(٢) يُنظر: أصوات العربية بين التحول والثبات، حسام سعيد النعيمي، ص٣٦.

(٣) يُنظر: الخصائص، ابن جني، ج٣، ص٢٨٧.

(٤) ينظر: م . ن ،ج٢، ص١٦٦.

(٥) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص٤٧٨.

تستجاب نصيحته ولا يصغى إليه، حتى امتلأت نفسه (عليه السلام) غيظاً وحنقاً، وهذا يعني أن دلالة الجملة رهن بمفرداتها أولاً ثم ،بتركيبها النحوي الذي أفرز هذا الشعور العاطفي، القائم على أساس الغضب السامي من الجمهور الخارج عن حد الطاعة، فقد أبرز هذا التركيب الحس الإنساني الكامن وراء هذه التوليفة الانفعالية التي تستبطن إحساساً عالياً بالشفقة والحرص على هؤلاء القوم الناكلين عن سماع الموعظة.

وإلا فالمفردات التي كونت الجملة، لو نظر إلى كل واحدة منها بمعزل عن الأخرى، لن تستطيع أن تُظهر هذا المعنى، أو تفجر طاقة انفعالية كهذه التي شحنت بها هذه الجملة فتتابع الألفاظ على هذا النحو هو الذي أعطاها هذا الارتباط الدلالي.

وقد يكتسب الكلام الدلالتين الهامشية والمركزية، تبعاً للصياغة التي توضع بها المفردة، وربما كان الكلام الذي يحمل في طياته توجيهاً معيناً، ونصيحة ما، يحمل بعد تلقيه أثراً من الدلالة المركزية المتدرجة في أبعادها، فضلاً عن الدلالة الهامشية، بسبب القوة الايحائية التي شحنت بها، من ذلك قوله (عليه السلام) مثلاً ((...**لاَ مالَ أَذْهَبُ بالفَاقَةِ مِنَ الرِّضَى [كذا] وَالقُنُوعِ**...)) [1]، فمما استهلت به الجملة وهو مفردة (مال) وهي الكلمة المؤثرة التي تستقطب اهتماماً بالغاً من الجمهور عادة، لأنها إن كانت تشكل وسيلة للحياة الكريمة، فإنها تمثل غاية عند بعض الناس وهدفاً قائماً، لذا تعد حلماً عزيز المنال،وبذاحُمّلت شحنات عاطفية مضمخة بالرغبة والطمع والحرص وربما الجشع والشح والبخل، وقد تعرض عنه الأنفس الأبية، وفي الحالتين لا مناص من تدبر الوسائل التي تعين على استحصاله لتعذر الحياة بدونه.

فالبدء بصيغة النفي (لا مالَ) تستدعي أن تتطلع القلوب لسماع المزيد، لذا جاءت صيغة أفعل التفضيل (أذهب) لتزيد من التشوف، ولاسيما ان هذه اللفظة اقترنت بـ(الفاقة)، والفاقة تنفر منها النفوس، وتتوجس منها الخيفة والحذر، فإذهابها والخلاص منها قد يمثل هدفاً أولياً لمن يخاف الفقر ويرهب جانبه، فضلاً عمن يروم الغنى ويسعى إليه! ومظان تحققه ،هو ما تشير إليه تتمة الموعظة (من الرضا والقنوع) فهاتان المفردتان المتطابقتان في المفهوم اولا اقل متقاربتان، إحداهما تغذي الأخرى بنسغ التوكيد وتقوية المعنى، ولاسيما ان هاتين الكلمتين قد تركتا حرتين، فلم تقيدا بقيد يسلبهما العموم الذي حَلته بهما (ال التعريف) فأفادتا سعة في الدلالة وحرية في التأويل، وهنا يمكن أن يقال إن الكلام تحفّ به الدلالة المركزية، فيرى المتلقي فيه حثاً مباشراً على القبول والقناعة بما يكسبه الإنسان ... لكن الدلالة الهامشية تمتد إلى نحو ابعد لتنفي قيمية المال وتدنيه إلى مرتبة أقل ، فالمال الحقيقي لا يُذهب الفاقة إذا كانت النفس تستشعر الخواء والفقر معه، بل

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٧١.

ان هذه الدلالة بالذات قد تأخذ أبعاداً أوسع فتسلب المالية عن المال، وتثبته للرضا والقنوع . وهذه ظلال للمعنى لا يتأباها الخيال، وإن كان المنطق والعقل لا يستسيغها بسهولة ويفضل المعنى المباشر الذي تعطيه إياه الدلالة المركزية . ومن هنا نشأ الاختلاف بين الناس في اغتراف المعنى الدلالي الذي تبوح به الجملة، فهو يعود إلى تباين أذهانهم في استنطاق الكلام الذي يستقبلونه، فبعضهم يفهم الكلام فهماً تقليدياً نظراً لاشتراكهم في الدلالة الاجتماعية . وبعضهم ينأى عن هذا الفهم، درجات لما لديه من قدرات خاصة تساعده في إكساء المعنى زوايا جديدة توضح أبعاده وتزيده سخاء وعطاء.

من هنا شبه إبراهيم أنيس الدلالة المركزية بالدوائر التي تحدث عقيب إلقاء حجر في الماء، فالدوائر الأولى الواقعة في المركز تشبه الدلالة الواضحة التي يشترك فيها معظم الناس وقد يقع فهم بعض الناس منها في جوانب تلك الدائرة ومحيطها، وكلما اتسعت تلك الدوائر، أصبحت في أذهان قلة من الناس، حتى ينفردوا بظلال من المعاني لا يشاركهم فيها أحد(١).

ويفترض حينئذ أن تكون تلك الدلالات التي تنمو على جوانب الدوائر ومحيطها وينفرد بها قلة من الناس هي الدلالة الهامشية وإن لم يسمِها ابراهيم انيس بذلك ؛ لأنه يعرّفها بعدئذ بقوله: ((...هي تلك الظلال التي تختلف باختلاف الأفراد وتجاربهم وأمزجتهم وتركيب أجسامهم وما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم)) (٢)، وإذا طبق تعريف الدلالتين على الكلام السابق من الخطبة، فينبغي أن تكون الدلالة المركزية منطبقة على المعاني المعجمية التي تفهم من الكلمات التي ركبت منها الجملة وهي (المال، واذهب، والفاقة، والرضا، والقنوع)، أما الدلالات غير المباشرة التي قد تنوء بها كل واحدة من هذه المفردات تبعاً لاختلاف المتلقي في حيازته هذه العوامل التي قال بها أنيس، فهي من الدلالة الهامشية، كسلب المالية من المال مثلاً، أما اتساع دائرتي الرضا والقنوع تتعدى مستوى المال إلى مجال أرحب لتشمل الرضا والقنوع بسائر القسم الإلهي مثلاً، فلن يخرجها من الدلالة المركزية لأن المعنى المركزي هو الرضا بما هو رضا والقنوع بما هو قنوع وهذان لن يتغيرا إلى الدلالة الهامشية إلا إذا حفّت بهما معان ثانوية تغير ماهيتهما كلاً أو جزءاً، لذا يرى محمد محمد علي يونس أن التفريق بيّن الدلالة الهامشية والمركزية هو فرق وظيفي ؛ فالمركزية تختص بوظيفة الإبلاغ والهامشية تحقق وظيفة التأثير (٣).

وتأسيساً على ما تقدم فإن الدلالة تكون رهن أمرين أولهما:-

---

(١) يُنظر: دلالة الألفاظ، ص١٠٦.

(٢) م .ن، ص١٠٧ .

(٣) يُنظر: المعنى وظلال المعنى ، أنظمة الدلالة في العربية،ص١٧٨، ١٨١ .

مقصدية المتكلم من وراء الخطاب الذي أنشأه، فقد يروم إيصال الفكرة، فحسب، وإبلاغ ما يريد.

وربّما تجاوز هذا المقدار فرفد الإيصال والإبلاغ بالتأثير، عبر تحفيز العواطف والانفعالات المعينة لغاية يرومها . وهذا معناه أن الدلالة المركزية تنفرد بوظيفة الإبلاغ . أما الدلالة الهامشية فلا بد أن تشمل الوظيفتين معاً (الإبلاغ والتأثير) لأنه لا يعقل حصول التأثير دون إبلاغ، وعليه فتخصيص كل دلالة بوظيفة معينة لا يستقيم مع الدلالة الهامشية، وإن كان ينسجم مع الدلالة المركزية، فيمكن أن تذهب الدلالة المركزية بالإبلاغ وتشاركها فيه الدلالة الهامشية وتزيد عليها بالتأثير وتختص به وحدها.

أما الأمر الآخر الذي تُرتهن به هاتان الدلالتان: هو تفسير المتلقي والوجهة التي سيميل إليها عند سماعه الخطاب، فإن اكتفى بظاهر الكلام وقبله كما هو فالدلالة مركزية، وإن تعدى أثر الخطاب إلى التأثير في المتلقي فالدلالة هامشية . وهذا معناه أن دلالة واحدة يصح نسبتها إلى المركزية أو الهامشية بحسب مرام المخاطب وانفعال المتلقي بها.

وسبب ذكر هذا الفرق هنا هو لبيان أن الدلالة المركزية تدرك إدراكاً عقلياً، والهامشية تنجم عن الاستجابة النفسية للكلمات(١).

وقد وافق محمد محمد يونس علي رأي إبراهيم أنيس في ذكر فرق آخر وهو أن الأولى يشترك في فهمها عامة الناس المنتمين إلى نفس البيئة اللغوية، إما الدلالة الثانية، فهي التي ينفرد بها بعض الناس دون غيرهم(٢).

وتكتسب الكلمة دلالة هامشية إضافية إذا ارتبطت بموقف محدد أو قيم أخلاقية معينة، ولذا كان لبعض الكلمات جرسها النفسي المؤثر، ووقعها الشديد في الأسماع، من ذلك قول الإمام علي (عليه السلام) واصفاً أعدائه **((سِيروا إلى أَعْداءِ اللهِ، سِيروا إلى أعْداءِ السُّنَنِ وَالقُرْآنِ، سِيروا إلى بَقِيَّةِ الأَحْزابِ وَقَتَلَةِ المُهاجِرينَ والأَنْصارِ))** (٣).

فكلمة أعداء تتدرج دلالتها وتتطور في منحى أعمق كلما كانت الكلمة التي تضاف إليها معبأة بشحنات تستفز السامع وتوقظ في نفسه معالم من الصفات تختزن ميراثاً سيئاً يحفز المستمع على كراهة هؤلاء الاعداء والنفور منهم، ومن ثم السير طوعاً إلى قتالهم، فمثلاً كلمة (أعداء الله) تفيد أنهم مشركون أو منافقون، لهم مكر ودسائس وحيل في تقويض الدين الإسلامي ومحاربة أهله وتستبطن تاريخاً قريباً مليئاً بالمنابذة والقتال، فما تثيره هذه العبارة التعبيرية هو معنى إضافي أو

(١) يُنظر: المعنى وظلال المعنى ،أنظمة الدلالة في العربية، ص١٧٨ .

(٢) يُنظر: م . ن ، ص١٧٨.

(٣) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص٣٧.

ثانوي[1]، نحا بالكلمة من دلالتها المركزية إلى الهامشية، فلا يختلف الناس في فهم المعنى المركزي هنا، لكن تداعيات الكلمة والإيحاءات التي تحيط بها، وتتسرب منها تميل بها إلى الوجهة الهامشية، لتتشرب الكلمات المعطوفة عليها معانٍ وإفاضات قريبة إلى الوحدة التركيبية (أعداء الله) فالمؤدى هو أن هؤلاء (أعداء السنن) و(أعداء القرآن) . وكلما اختزنت هذه الوحدات الدلالية[2] معاني جديدة أفادها التركيب، غذت النص بمزيد من المعالم والعناصر التي تدنيه إلى الدلالة الهامشية . كقوله (قتلة المهاجرين والأنصار) فهذه الوحدة الدلالية لو تجزأت أي انفصل المضاف عن المضاف إليه، فلم يُضَف القاتل إلى المقتول بمعنى أن الإمام (عليه السلام) لو لم يقرن لفظة (قتلة) إلى كلمتي (المهاجرين والأنصار) واكتفى فرضاً بهذا الخيار الاستبدالي، فوصفهم بـ(القتلة) فحسب لأفرغ هذا التعبير في صورته المفروضة ،تلك الوحدة الدلالية من الشحنات العاطفية التي توجب النفور النفسي لدى السامع وتستدعي كراهيته وبغضه لهؤلاء القتلة.لأنَّ المهاجرين والأنصار صارا لفظين مقرونين ومتصاحبين في الخارج وفي الاستعمال القرآني وهما علم على نصرة الدين، إذ كان لهما السبق في احتضان الإسلام ونشره وتعزيره ومدّ نفوذه، فمناجزة قوم يتخذون من المهاجرين والأنصار أعداء يقاتلونهم يبعث على الفخر والاعتزاز، وهذه المشاعر تحف بالمعنى فتحيل دلالته إلى هامشية.

ولا يختلف الأمر في قوله (بقية الأحزاب) فهذه وحدة دلالية تعبيرية، تتلمس جذورها في القرآن الكريم، فلو عزلت مفردة (الأحزاب) عن كلمة (بقية) لوجدنا أن الأولى قد فَاه بها القرآن وطبعها بميسمه الخاص. حتى صار الذهن لا يذكرها إلا ويذكر معها هؤلاء الجماعة من الناس الذين استعبدهم الشيطان ووالوا الباطل، وحادوا عن الحق، والسياق هو الذي يحتم استدعاء هذه المعاني بدلالة العبارات السابقة (أعداء الله والسنن والقرآن...الخ) فوصم هؤلاء بأنهم (بقية الأحزاب) يستلزم احتقاراً واشمئزازاً ومقتاً تُعبأ بها شبه الجملة . لتُهيء النفوس استعداداً لمقاتلتهم، لذا لا غرابة ان يتم شحذ هممهم في كل مرّة بالفعل (سيروا) الذي يحثهم على القتال في كل مرّة يقترن فيها بواحدة من الدلالات التركيبية التي تم ذكرها فهم (أعداء الله، أعداء السنن، أعداء القرآن) وهم (قتلة المهاجرين والأنصار وبقية الأحزاب) وتظاهر هذه الدلالات بعضها مع بعض تسند المعنى، توطيداً وتثبيتاً، وتزيد ما تبوح به الدلالة الهامشية من أسرار وأفكار تفوح من الإيحاءات التي تضمنت بها هذه الوحدات.

وهذا يؤكد أن خطورة الكلمة تنبع من الفكرة التي تجسدها الدلالة التي تعتمد على الموقف الإنساني القائم على أساس التخاطب والإيصال والتأثير . الذي تمتد حبائله بين جهتي الإرسال

(١) يُنظر: علم الدلالة، ص٣٧.

(٢) ينظر: م.ن: ص٣٣.

والتلقي، وهذا يعتمد على سلوكَي المرسل الذي يتبدى في ثنايا كلامه، والمتلقي المفسر لهذا الكلام، وعلى العقد الذي تسالما عليه معاً في نسج باب تفاهمات مشترك يقفان على عتبته، وإلا فاللفظ من حيث هو لفظ لا يوحي بذات نفسه ما لم تتكشف خبايا المتكلم ونواياه التي قد تمتد إلى آفاقٍ بعيدة الغور ومع ذلك تجد صداها وانعكاساتها في وجدان السامع وعقله . فإذا انفعل بها فضلاً عن قبولها وترضيها فقد استحالت الدلالة المركزية إلى الدلالة الهامشية، لأنها هنا عُبئتْ بأمارات نفسية وشعورية ادخلت فيضاً من الشحنات العاطفية عليها وربما ازدادت هذه العاطفة كلما تكرر هذا الموقف الاتصالي عبر إعادة التجربة ذاتها، وهذا ينطبق على الخطبة فهي تجربة متكررة بكل أبعادها وظروفها تقريباً، فمساقاتها الخارجية والاجتماعية والتاريخية لا تكاد تتغير، ثم إن أسباب انعقادها وموضوعاتها في الأصل تكاد تكون متشابهة والفروق الجزئية تفرضها خصوصية كل موضوع بدواعيه التي تتجه به وجهة معينة، ولما كانت هذه الخطبة مدار الحديث، جاءت في سبيل تحشيد الناس على القتال، تكرر فيها الفعل (سيروا) ثلاث مرات، في كل مرة يرسل صدى مضاعفاً بين صفوف المخاطبين، لأن ناحية السير كانت معروفة، فهي جهة الأعداء الموسومين بسمات بغيضة تحمل المتلقي على الاستجابة للمخاطب عن وعي ودراية . فهم (أعداء الله) إلى آخر هذه الصفات التي سلفت الإشارة إليها .

ربما لأجل ذلك خلت هذه الخطبة من ذكر عوامل كان من شأنها ان تثير حماساً ولهفةً وتزيدهم رغبة في التجهز للقتال، فقد أعرض (عليه السلام) عن ذكر الثواب والأجر والجنّة والشهادة وغيرها من الأمور التي تشكل عوامل تحفيز وترغيب لخوض غمار هذه الحرب المقبلة، فكأنّه (عليه السلام) إتكأ على الأمور التي يتصف بها الطرف المقابل من عداء لله تعالى والقرآن والسنن ومن أنهم بقية الأحزاب وقتلة المهاجرين والأنصار . فهذا الجانب يدرأ الحاجة إلى ذكر الطرف الايجابي من القتال، فمعرفة الطرفين – المرسل والمتلقي– ظروف الحرب مع المنافقين، وعواقبها الدينية والدنيوية ، وحرمة الفرار من الغزو، واستدبار الأعداء إلا لغرض تحسين موقع المقاتل في المعركة، وحسن الكر عليهم، وغيرها من الأمور التي يشترك في العلم بها الطرفان، وفّرت على الإمام (عليه السلام) مزيداً من التوضيح ولاسيما ان تجربة هذه الخطبة متكررة الأمثلة، لذا أغنت عن إظهار بعض الأمور المعروفة.

وهذا يعني أن تفسير الوحدة الدلالية لا يَنصَّبُ على الكلمة فحسب، بل لابد من رؤية كلية تراقب عن كثب عموم المعطيات التي تحيط بمواقف الاتصال ودورها في تشكيل هذه المواقف، فلابد من عناصر مشتركة يلم بجوانبها المخاطب والمتلقي لكي يُمدُّ بينهما جسر من التوافق الفكري والمعنوي يزيل عوائق الاتصال ويطيح بموانعه وتحرير الوحدة الدلالية يستلزم الإلمام بهذه الجوانب لتصبح عملية التحليل وتلقف ما وراء الخطاب أمراً ممكناً .

لذا تعد التجارب المتماثلة في عموم الموقف الاتصالي إمدادات معرفية تكشف الغطاء وتجلي الأمر وضوحاً وتزيل الغموض والملابسات لتبرز الدلالة الكامنة وراء الخطاب.

وهذا ما يلاحظ في لفظة (كلمة)الذي انتقلت دلالتها المعجمية وتحولت إلى دلالة مركزية بفعل البنيات التركيبية المتوازية التي أثرت في جلاء المعنى وتماسك الدلالة، فقوله (عليه السلام) مثلاً: **((...وإذا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَاليَهُمْ، وَعَلا الوَالي الرَّعِيَّةَ اخْتَلَفَتْ هُنالِكَ الكَلِمَةُ، وظَهَرَت مَطامِعُ الجوْرِ، وكَثُرَالإدغالُ في الدّينِ...))** [1].

هنا إشارة إلى معادلة غير موزونة بين الطرفين :

إذا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَاليَهُمْ ×

وَعَلا الوَالي الرَّعِيَّةَ ×

فكانت النتيجة أن **اخْتَلَفَتِ** الكلمة ، واختلاف الكلمة بيّنٌ في**ظهور مَطامِع الجوْروكَثرَةالإدغال في الدّينِ** لعلاقة غير مرضية بين الراعي والرعية، علاقة مبنية على العصيان وعدم الطاعة والغلبة بين الرئيس والمرؤوس، لذا تحيل الدلالة إلى إرهاصات التمرد الذي لمح الإمام (عليه السلام) بوادره وقرأ رسائله الأول، فأراد أن لا تستشري هذه الحالة وأن لا تستعصي الأمور بينه وبين المخاطبين الذي يشكلون الرعية، فالكلام فيه شائبة تلويح بأن بقاء هذه الحالة سيؤدي إلى الفرقة والاختلاف وسيعلو كعب الظلم ويسود الهرج بين أبناء الأمة الواحدة وقد عبر(عليه السلام)عن ذلك بتفرق الكلمة ، فالكلمة غادرت معناها المعجمي الأصيل وتلونت بدلالات أُخر ،زحفت بها إلى معنى تشتت الوحدة وتفكك معالمها ، وقد تلمس الإمام (عليه السلام) أصداء هذا الأمر في قابل الأيام عندما رأى الأمة لا تطيع أذا أمرها، ولا تذعن لما يراد منها، ولذا بدت مظاهر التمرد عليهم على الرغم من ان هناك جوانب مشتركة كثيرة بين الجانبين تقضي على معالم الغموض واللبس لو فرض وجودهما في خطاب مثل هذا تتكرر أمثاله على نحو رتيب، فكثيرة هي اللقاءات التي عقدت بين طرفي الخطاب ويفترض أن السليقة اللغوية التي تجمع بينهما واحدة، وأن مقاصد المتكلم بادية للسامع، كما ان المتلقي وما يحيط به من جوانب اجتماعية وقدرات مختلفة، كالشجاعة والتفدي والمبدئية معلومة لديه، لذا اضطروه إلى اللجوء إلى التقريع والتبكيت كقوله (عليه السلام) مؤنباً ((**...يا أَشْباهَ الرِّجالِ وَلا رِجالَ، حُلومَ الأَطْفالِ، وَعُقولَ رَبّاتِ الحِجالِ...**)) [2]، فلما لم يتلقف الخطاب كما ينبغي ويرجى، ولما أشاحوا بوجوههم معرضين، على الرغم من امتداد العمق المعرفي بين الجانبين، ألجأوا الإمام (عليه السلام) إلى التذمر والسخط بعد ان جدّوا في مضايقته (عليه السلام)، حتى أبدى هذه المشاعر والانفعالات التي

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص١١٥.

(٢) م . ن، ج٢، ص٤٨٤.

تظهر تعجبه من هؤلاء القوم وفي الوقت نفسه تبرز جوانب عاطفة تثري النص بما يحتويه من قيم إنسانية.

فمفردة (الرجال) – بمعزل عن كل سياق – معبأة بمعانٍ تفوق فيه معناها الأصلي المتواضع عليه، فهي مشحونة بطاقة لا تخفى على أصحاب الحس الدقيق تختزن صفات الشجاعة والشهامة والمروءة والكرم... وعندما تطلق وتستعمل لا تُتناسى هذه المعالم الذي تحوف بها لذا سارع الإمام (عليه السلام) بنفي هذه الصفات عنهم مرّة واحدة وإلغائها بالجملة في قوله (ولا رجال) بل انه من أول الأمر ناداهم (يا أشباه الرجال) وهذا يعني أن العَرَض هو الشكل، وهو عند الإمام (عليه السلام) لا يكون مقياساً للرجولة، بل مقياسها هو الصفات التي كان ينبغي أن يشتمل عليها هؤلاء الرجال وهي الجوهر، فلما فارقتهم لم يعودوا رجالاً، لسفاهتم ورقة أحلامهم التي قرنها إلى أحلام الأطفال وهذه إحدى جهات الاختلاف عند الرجال.

أما الجهة الثانية فهي وصف عقولهم بعقول النساء، بتقريب جامع هو حب اللهو والزينة وكره القتال والمنابذة ؛ وبذا بعدت الشقة بينهم وبين من يستحق هذه الكلمة، فهي رهينة بمن يحمل معانيها حقاً وإلا فلا فالشكل عَرَض زائف، يشف عما تحته في محافل البطولة وميادين القتال.

وهنا يُرى أن كلمة (الرجال) تتفوق في معانيها التي تحملها على الأصل الموضوع لها أي أن الدلالة الهامشية لا المركزية هي التي تتعلق بهذه المفردة، لكن استعمال الإمام (عليه السلام) لها في هذه الصيغة أفرغها من محتواها وجردها من الدلالتين الهامشية والمركزية، فأصبحت لا تدل على ما وضعت له، لاقترانها (بأشباه) إذ أضعفت ارتباطها بهذا النوع الآدمي وبالحرف (لا) الذي قطع الصلة نهائياً بين المفردة وبين الجنس الذي تشير إليه.

ولا يعني هذا أن المفردة باتت خالية من كل دلالة، بل أن دلالة هامشية جديدة تولدت مع هذا الاستعمال (فأشباه الرجال ولا رجال) تكتنز صنوفاً أخرى تتماهى مع الضعف والخواء والجبن والخور، وروح الهزيمة التي تتلبس أجساد هؤلاء، وهذا يفسر عجزهم عن القتال وعزوفهم عن الوغى ونكولهم عن الحرب وفشلهم في الاستعداد لها وتجهيز العدة لأجلها.

وهذا يعني أن الدلالة الهامشية تتغير بتغير الاستعمال، وأن الدلالة المركزية قد يطالها تغيير ما يعفي على أصل المواضعة ويلبسها معنى جديداً بمجرد تغير الكلمات التي تصاحب الكلمة، اي أن المفردة لوحدها لا تفصح عن المعاني المعجمية فحسب ولكنها تحيل إلى معان مركزية جديدة إذا انضمت إليها على نحو المصاحبة مفردات أخر، مؤدى ذلك أن الدلالة الحقيقية كامنة في المفردة، فإذا دخلت منطقة الاستعمال تبينت معالمها، وبهذا يتبين أن بعض المفردات تتحقق بذاتها، إذا تطابق حد الاستعمال مع أصل الوضع، أما بعضها الآخر فتتباين المسافة بين معناها الأصلي المباشر ومعناها في الاستعمال وهذا يعني أن نافذة الاستعمال واسعة تتجاوز أصل

الوضع إلى فضاء المجاز غير المحدود والدلالة تتحرك بين هذين العمودين دون أن يعني ذلك اختصاص كل واحدة منهما بجانب معين فمجال الاستعمال رحب يحتضن الشطرين معا.

وقد تدرج الإمام (عليه السلام) مع رعيته في أسلوب الخطاب، إذ كان قال لهم في مقام الاستنفار **((...عَاوِدُوا الكَرَّ، واسْتَحْيَوْا من الْفَرّ، فإنّهُ عَارٌ بَاقٍ فِي الأَعْقَابِ والأعناق ونَارٌ يَوْمَ الْحِسابِ...))**[1]، في هذه العبارة ترهيب من الفرار من الزحف عند محاربة العدو، وتحذير منه، إذ حمَّلَت العبارة مفردة (الفر) معانيَ جديدة فهو عارٌ في الدنيا ونارٌ في الآخرة، وبات الفرار ينوء بشحنات تزيد من مساحته على صعيد المفهوم وتفيض على دلالته المركزية إيماءات مملوءة بالتنفير والتحقير لمن يزاوله، فهو قفص يسجن فيه من يمارسه، إذ يُطارد بالعار ما دام في هذه الحياة، فإذا مات وصار إلى الآخرة تقيد بالنار مثوى له، وصار رهين مَحبَسين لا يستطيع منهما فكاكاً.

هنا يلاحظ أن الإمام (عليه السلام) يميل إلى جانب الترهيب تحذيراً وتخويفاً لقومه، وذلك يعني أنه يتلمس شيئاً من بذور الطاعة عندهم وأنَّ كفة التمرد لم تترجح بعد، لكن لما استشرى العصيان وتكررت مواقفه وكثر الخذلان، تغيرت نبرة الإمام (عليه السلام) ولم يعد يشير إلى جوانب الترهيب والترغيب فلقد فرضوا عليه انتهاج نهج لم يكن ليسلكه لولا اسرافهم في الغي.

ومن الدلالات المعجمية التي نزعت نحو الدلالة الهامشية بسبب من البنيات المتوازية كلمة (السيف) في قوله (عليه السلام) يا أهل الكوفة، عاتبتكم بمواعظ القرآن فلم أنتفع بكم، وأدبتكم بالدرة فلم تستقيموا لي ، وعاقبتكم بالسوط الذي يقام **به الحدود فلم ترعووا، ولقد علمت أن الذي يصلحكم هوالسيف ...))** [2]

تتوالى البنيات التركيبية ذات النسق المتوازي لتتظاهر في تحريك دلالة كلمة سيف عن ظاهر معناها لتحمل معنى آخر:

عاتبتكم بمواعظ القرآن فلم أنتفع بكم ×

وأدبتكم بالدرة فلم تستقيموا لي ×

وعاقبتكم بالسوط... **فلم ترعووا** ×

فكان نتيجة ذلك معرفة ما فيه تقويمهم وهو السيف كنى به عن القتل.ولما لم يكن من شأنه إصلاحهم بإفساد نفسه الشريفة فقد وجد في الدعاء وسيلته للخلاص:

((اللّهُمَّ إنّي قَدْ مَلَلْتُهُم وَمَلّوني وَسَئِمْتُهُم وَسَئموني)) [3].

---

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص١٥٨.

(٢) م.ن ،ج٢، ص٤٨٦ .

(٣) م.ن ،ج٢، ص٤٨٧

هنا تتعانق الدلالتان المركزية والهامشية في إثراء معنيي السأم والملل فالملل والسأم يكشفان عن أن العلاقة بلغت نهايتها، فلابد من أن ينقطع حبلها وتتصرم أمراسها، والباعث على ذلك هو تماثل الموقف فهناك نداء لا استجابة له، واستصراخ دون منجد يلبيه ويغيثه هنا لا عجب أن يلجأ الطرف المتضرر، وهو الذي له حق الطاعة والانصياع بموجب عقد البيعة من المبادرة إلى تحقيق تلك القطيعة، يبرزذلك عبر البنيات المتضارعة وزنا وتركيبا ودلالة: و فيقول (عليه السلام) بعدئذٍ داعياً عليهم:

مللتهم وملوني ×

سأمتهم وسأموني ×

كان الدعاء مفعماً بالدلالات الاجتماعية التي تماهي عدم الرضا فلا غرابة إذن أن يسوغ الإمام (عليه السلام) هذا الدعاء، ليقول في ذات الخطبة: ((... **لَوْأَجِدُّبُدّاً مِنْكَامِكُمْ وَمُرَاسَلَتِكُمْ مَا فَعَلْتُ**...)).

فالدافع لهذا الدعاء الذي ظاهره انفصام ما بينه وبينهم وانبتات الصلة التي بنيت على العهود والمواثيق في اجتراح الطاعة وعدم التخاذل والإخلاد إلى الأرض، خصوصاً في موارد القتال، إذ الدولة الإسلامية معرضة إلى الخطر، وربما كان كيانها مستهدفاً فالعدو يرجو تقويضها عبر غارات سريعة، الغرض منها ترويع الناس ونشر الخوف والرعب بين ظهرانيهم في محاولة يقوم بها العدو ليوهم هؤلاء المغار عليهم بأنهم لا يمتلكون الشجاعة والقوة وإن بإمكانه التسلط عليهم.

مع ذلك كله لا يبالي هؤلاء القوم بما يقع عليهم، فالإمام (عليه السلام) يكلمهم في هذا الشأن مرة بعد أخرى دون أن يستجيبوا، ولتراكم اللقاءات السابقة بينهم وبين الإمام (عليه السلام) أصبحت مدلولات كلامه معلومة لديهم، وأضحت الدلالات تشف عما تحتها.

فالحرف (لو) يبين عدم جدوى الحديث معهم، فليس هناك بارقة أمل تلوح في البين، فما يقع في نطاق (لو) هو الذي لا يمكن حصوله مطلقاً (لو أجد بداً من كلامكم).

إذ تعانقت ضمن هذه الجملة الدلالتان المركزية والهامشية فـ(لو) لها دلالة مركزية لا تتغير فهي ((حرف يقتضي في الماضي امتناع ما يليه واستلزامه لتاليه)) [1]، وما بعد لو هو الذي يحظى بالدلالة الهامشية.

وإذا طبق معنى (لو) الحرفي على الجملة المقتطفة من الخطبة آنفاً لانحصرت الدلالة الهامشية فيما بعد (لو) فعدم معاودة الكلام معهم تعني اليأس والبرم والضيق والملالة ودوافع هذا

(١) القاموس المحيط، لو، ص١٢٤٠، و يُنظر: النحو الوافي، عباس حسن، ج٤، ص٤٩١ وفيه ((...أن هذه الشرطية لم تتحقق في الزمن الماضي، فقد امتنع وقوعها فيه...))

هي الغضب والغيظ ، ويصح عدّ هذه المعاني خصائص دلالية نبعت من الصياغة والتكوين المادي والاستخدام المقصود لكلمة (لو) فهذا جزء من التصور المرتبط بها[1].

وتستدعي الدلالة الهامشية أن تبادر الرعية إلى إرضاء واليها لئلا تؤول العلاقة إلى طريق مسدود.

فهذا النوع من الدلالة الهامشية ينجر إلى وظيفة عاطفية لأن محور الموضوع هو علاقة حميمة شابها التغيير ولم يعد يجدي فيها اللوم والعتاب.

وقد اجتهدت الخطبة في جميع مفاصلها أن تحرك نفوس المخاطبين بأرق أنواع العتاب متدرجة إلى نماذجه القاسية التي تصدم المتلقي وتقلق هواجسه وتثير كوامنه المستغلقة.

فقد شكلت هذه الطريقة من الخطاب علامات لغوية، جسدت المعنى المركزي والآخر الهامشي في نمط متجانس لأن الدلالتين توازي إحداهما الأخرى وهما بعد متعاضدتان في تطعيم الموضوع بنسق تُرى فيه بوادر التصريح الذي تكشف كنهه الدلالة المركزية والتلويح الذي تبشر به الدلالة الهامشية، فالخطاب لا يكاد ينفك عن مجموعهما وتكاد أحداهما لا تغني عن الأخرى .

وغوص المتلقي في أبعاد الخطاب باقتفاء آثاره النفسية وملازماته الذهنية وما تجود به ألفاظه من إيحاءات خفية وتصريحات جلية من شأنها ان تطعم الخطاب بنسق أدبي يزحزح اللغة من إطارها إلى مدار حيوي لابتغائه التأثير في مجموع المخاطبين.

وهذا يعني أن كفة الدلالة الهامشية هي الأرجح وأن الكلام في الغالب ينأى عن الأسلوب المباشر، فيتلبس بالإفاضات والإيحاءات والإشارات والإيماءات ربما لأنها تبوح بمعان تفوق في دلالتها النهج الصريح . على انّ هذا يتطلب متلقين بصيرين بأساليب الكلام، بارعين في التقاف غامضة وكشف أسراره ناهيك عن مرسل يحمل كل هذه الصفات وزيادة، لأن الغرض من بسط الأفكار وعرضها هي ان تصل بدقة ووضوح، فلا تحجز بينها وبين مستقبلها الحجب والاستار، وإلاّ انسدل بينهما غمام التعمية والتلبيس، فينتفي الغرض من أصل الكلام وتذهب جهود المتحدث أدراج الرياح فيصبح الموقف الاتصالي لا معنى له، لأن التواصل رهين اتفاقات ضمنية مسبقة تؤطر عالم الحوار والخطاب . هذا العالم الذي يصوغه طرفان متقابلان كل واحد منهما يختص بطرف، وتكون حلقة الوصل هو الخطاب الذي تترشح منه المعالم الإرادية التي غالباً ما تتزيا بنفائس الفن ومفارقات الجمال، كقوله مبالغاً ، وراصداً ازدياد الغش والخديعة بين صفوف عماله

(١) يُنظر: آفاق جديدة في دراسة اللغة والذهن، نعوم تشومسكي، ص١٠٤ إذ طرح هنا تساؤلاً مفاده هل ان الخصائص الدلالية تنبع من الكلمة أم من التصور الذي يرتبط بها؟

الذين استخدمهم ((...**اسْتَعْمَلْتُ فُلَاناً فَغَلَّ وغَدَرَ...واسْتَعْمَلْتُ فُلاناً فَخَانَ وَغَدَرَ... حتى لَوْ ائْتَمَنْتُ أَحَدَهم عَلى قَدَحٍ خشيتُ على عِلاقتِه...**)) [1].

للغدر والخيانة معان تتطابق استعمالا مع أصلها الوضعي،ساعد على إبقاء هذا المعنى وتناميه وتضافرهتلك البنيات المتوازنة:

اسْتَعْمَلْتُ فُلَاناً فَغَلَّ وغَدَرَ ×

واسْتَعْمَلْتُ فُلاناً فَخَانَ وَغَدَر×

فكانت عاقبة ذلك، تعذرالأمانة، وإذا كانت الدلالة المركزية ذات بوصلة مستقيمة لا تحيد عن التعبير المباشر الذي يكشف الحقائق ويجردها عن الغموض، تعينت الدلالة المطابقية هنا، فالمقطع المقتطف من الخطبة، يُظهر إصراراً مسبقاً على افتعال الخيانة والغدر، وتسلسل هذا العمل من قبل الأشخاص الذين تناوبوا على شغل مناصب معينة يدل على استشراء هاتين الصفتين الذميمتين.

أما الدلالة الهامشية فهي معنية ببيان أمرين:

الأول: إن ما يقابل الخيانة، وهي الأمانة، مفقودة ماهيتها بين المعنويات المعتبرة التي تشكل مزاج الفرد المسلم وهذا يعني فقدان ممازجاتها كالعفة والنزاهة والسؤدد والرفعة والصدق وسواها مما يتسق مع هذه المنظومة.

الثاني: وهو مكمن القصيد، هذه المبالغة في رسم صورة مهولة للغدر، فعندما يكون الشيء مبذولاً ورخيصاً، حتى أن قيمته المالية لا تكاد تكون شيئاً يذكر ومع ذلك يعز وجود شخص يؤتمن عليه كالقدح مثلاً، فالدلالة تشي بأن الآتي لا يبشر بخير، وأن المجتمع الإنساني انفصل عن كثير من مقوماته.

فالدلالة الهامشية هنا تحكي عن طاقة شعورية مكثفة سلطت ضغطاً مزدوجاً على نفس المتحدث مرّة وعلى المتلقي أخرى ونجحت في إيصال البعد الابلاغي إلى مستوى أرقى تجسد عبر البعد التأثيري، وهو ما يعكس عمق العلاقة بين الطرفين وامتداد جذورها ضمن مستويات بعيدة الغور، إذ لا حواجز تعيق الفهم، وهذا متأتٍ عن تكرار التجربة كما سلفت الإشارة إليه.

فثمة ارتباط ثنائي بين طرفي الاتصال، قائم على مواضعات مقيدة من جانب ومُطْلَقة من جهة أخرى .

(١) نهج السعادة،في مسترك نهج البلاغة، ج٢، ص٥٠٥.

يتمثل التحديد بعناصر المكان والزمان، فغالباً ما كانت تقام الخطب في زمان تراتبي كأيام الجمع والأعياد، وعليه يكون للزمان أثر في توجيه الموضوع نحو مقصود معين يرتبط غالباً بمناسبة ما يكون العنصر الزمني حاكماً عليها.

ويتمثل العنصر المكاني بارتباط الخطب غالباً بمكان معلوم، وليكن منبره (عليه السلام) في الكوفة. وإذا حدث ان تحررت الخطب من سطوة الزمان والمكان المعتادين، فستدخل في حيز المطلق، على أن الإطلاق لا يكون هنا على علاته لأن الطارئ الذي حتم انعقاد مجلس الخطبة هو مُقَيِّدٌ لها في الموضوع وربما في المكان الذي يُفْرَضُ على الإمام (عليه السلام) والمتلقين، نظراً لتسلط الظرف الذي فرض ان يتصدى الإمام (عليه السلام) لطرح ما يريد.

صفوة القول أن عوائق الفهم وحواجزه مندكة بين الإمام (عليه السلام) ورعيته وعليه لن يطول وقوفهم أمام مراده في وصف أناس استخلصهم من وسطهم لحمل الأمانة فلم يفوا بها ؛لذا بإمكانهم أن يروا في الكلام ذماً شاملاً، إذ المعنى المستبطن هو أن مجتمعاً مثالياً يحتفي بقيم السماء وأخلاق الإسلام ومع ذلك لا تجد فيه من هو كفء للنهوض بمسؤولية معينة على نحو الكفاية .

والدلالة الهامشية تذهب إلى ابعد من ذلك، إذ هي ستشد انتباه السامعين إلى المقارنة التي تجسم التفاوت الكبير بين الواقع المعاش وبين الحالة المثالية التي يبدو أن لا سبيل لها.

بل إن الكلام جميعه يصب في بوتقة اللوم ويُستظهر الذم دليلاً عليه ينم عن هذا مبدأ المعرفة الذي يستند إلى حقل دلالي معين فالألفاظ متواطئة على إبراز معاني الخديعة (فعل – خان – غدر) وقد تكررت بعض هذه الألفاظ بالنص، وتكرر مضمونها بالفحوى، والمستحصل من ذلك غياب الثقة التي تشكل عاملاً أساسياً ورافداً مقوماً للعلاقة بين الطرفين فهي الجسر الرابط بين عموديه ؛ لذا لا عجب أن قال (عليه السلام) معقباً: ((**اللّهُمَّ إني أبغضتُهم وَأبغضونِي، فأرحْهُم مني وأرحْني منهم**))، فالبغض أول درجة في سلم القطيعة، وهو تفسير لا مفر عنه في تحديد مسببات التمرد وانعكاساته المفضية إلى نتائج غير مرضية ليست بحسبان الآمر الذي ينتظر الامتثال من المكلف.

والبغض منهم فعل، أما منه فهو انعكاس وردة فعل لا مناص منها ؛ لأنه مع افتراض بقاء العصيان تتقوض العلاقة وتتلاشى مفردات الود.

فالعبارة إذن تكشف عن ذاتها وتقرر حقيقة لا مناص من قبولها، وهي انبتات الصلة الوجدانية والروحية بين القبيلين.

وإضفاء شيء من الخيال على المقتطف من الخطبة يبين أنها تواري خلفها نوعاً من العتب الممزوج بالذم، فهو (عليه السلام) لا يفتأ يتخير السبل التي توصله إلى غرضه، متوسلاً بالكلمات التي تصب في خدمة الهدف المتوخى من انجاز خطبته، ولهذا أردفها بالدعاء الذي انطلق من حنجرة

صادقة عبر هذه الثنائية المتقابلة (أرحهم مني – أرحني منهم) [1] فهو (عليه السلام) يتمنى الموت بديلاً عن هذه الصحبة التي جلبت له هذه الآلام والحسرات، فالجموع المخالفة التي شقت عصا الطاعة كان لها الوقع الكبير في توجيه الخطاب، فهذا الصدود المستمر منهم والإعراض الدائم هو الذي خَرّب أواصر العلاقة، وأدى بها إلى نهايتها، لأن دواعي الاستمرار هي قيد قبولهم الخطاب والإسراع إلى تنفيذه، أما التواكل والنكوص فهو يتضمن قهراً معاني الإجهاز على ما تبقى من ودٍ قليل.

وإذا كان الإمام (عليه السلام) قد طلب لنفسه الموت ليريح نفسه واتباعه، فقد طلب لهم – في حقيقة الأمر – كدراً وإزعاجاً، لأن أوامره تنبعث لمسيس حاجة، ويراد بها معالجة نقص ما في كيان الدولة الإسلامية، وعدم الاستجابة يُبقي النقص كما هو، وهم بتواكلهم عنه يغلقون على أنفسهم باباً من الاستقرار ؛ لأن العدو متربص بهم.

وعلى ما تقدم يكون المبدأ الجوهري الذي يصوغ علاقة التواصل ويمدها بأسباب الثبات والاستمرار والدوام مشروطاً ببقاء هذه الحركة المتفاعلة بين المنشئ والمتلقي، التي في ضوئها تتبلور تفاصيل مهمة، قائمة على نحت العلامات اللغوية من قبل المرسل، وهي علامات لا تتحدد بنمط معين يقتصر الأمر فيه على إرساء المعنى المباشر الذي يتقيد بوصفه مركزياً، بل يشق له طريقاً آخر نحو الدلالة الهامشية التي يتحمل عبء الاستدلال عليها المتلقي، الذي لا تنحصر وظيفته في تمييز العلامات وقراءة ما خلفها وإنما هو معني بالحدث اللغوي بما يرسيه من دلالات تعبيرية تدل عليها نغمة الصوت، وطريقة الإلقاء، والمفردات المختارة وما توحي به من مستويات رمزية تكشف الأبعاد النفسية الكامنة وراء الخطاب.

في ضوء ذلك يستطيع المتلقي أن يلمح بواعث الغضب وبوادره من خلال لجوء المرسل إلى الدعاء، عادلاً عن الحديث معهم، فتتجلى بذلك علائم هذين الفعلين لفظاً ومعنى، وتقديم (أرحهم) على (أرحني) تسفر عن مشاكلة في أصل الفعل ومخالفة في الضمائر المتصلة به.

وهذا التقابل الثنائي مسبوق بمثله (أبغضتهم – ابغضوني) فمادة الفعل واحدة (ب،غ،ض) وهي تبث مشاعر وجدانية متماثلة، سورها الفعل الماضي بسور الجدة، فهو لم يقل (أبغضهم ويبغضوني) لتدل على أن زمن الكراهية عريق في القدم بل قال (أبغضتهم وابغضوني) فتبين أن الكراهية قد طرأت تواً وأن مسبباتها هي التي أفضت أن يدعو عليهم.

---

(١) من الواضح أن المعنى الذي توحي به الوحدة القرائية مغايرٌ للمعنى المعجمي. ينظر بهذا الخصوص كتاب: التحليل النصي، تطبيقات على نصوص من التوراة والأنجيل والقصة القصيرة،رولان بات، ص٧٨.

وهذا الموقف يشابه مواقف كثيرة مستجدة، كقوله (عليه السلام): ((...**فَوَاللّهِ إِنَّ فِرَاقَكُم لَرَاحَةٌ لِلنَّفْسِ والبَدَنِ**)) [1]، هذا الفراق المرجو، قد تم توكيده بـ(القسم وإنّ) وبالتفصيل الدقيق في قوله إنه راحة للنفس والبدن، وهذا يعني تمني الموت، وتفضيل الحِمام على البقاء معهم، إذ مقومات دوام العلقة الرابطة بينه وبينهم مفقودة، فعلى الرغم من أن الإمام (عليه السلام) كان ينسج الخطب الطوال، ويذكر تفصيلات كثيرة تحفزهم على النهوض ومحاربة الأعداء ويختم باللوم والتعنيف إلا أنهم لم يكونوا ليستجيبوا، بل ركنوا إلى الراحة والدعة وعدم المبالاة، وغفلوا عن مصيرهم عن عمد، وقد رصد الإمام (عليه السلام) أسباب ذلك، فذكر علله قائلاً: ((...**فإنّ أوّلَ فُرْقتِكُمْ وبَدْأَ نَقْصِكُمْ ذَهَابُ أُولِي النُّهى وَأَهْلِ الـرَّأيِ مِـنكُم...**)) [2] ، فهذا قد يكون تعليلاً للجذور الأولى التي تسللت إلى هؤلاء فعفت على أخلاقهم. وشاع لهذا ذلك الغدر واستشرت الخيانة في صفوفهم! فهذا تشخيص يتدرج بهم في الذي حاق بهم، فأول أمر نجمت عنه الفرقة وتبينت به بوادر النقص ان أصحاب العقول الراجحة الذين يقدرون الأمور حق قدرها، ذهبت بهم الحروب وأصابتهم آفة الموت، وكانت تُسد بهم الخلل وتُجبر بهم الثغور، لأنهم كانوا كما جاء في الخطبة نفسها ((...**يُلَقَّنُونَ فَيُصَدِّقُونَ، ويَقُولُونَ فَيعْدِلُون، ويُدْعَونَ فيُجِيبُونَ...**)) هذا النوع من الناس الذي يتلقف الكلام والحجة ويتعقل خطب الإمام (عليه السلام) وأوامره فيقبل ويلبي ويطيع بدأ يختفي من الجموع، لأنّه أول من يلقي نفسه في أتون الحرب، ويصدق الإمام (عليه السلام) ويمتثل حديثه. وقد تجلى أمرهم وفق بنيات متوازية متوالية ومتسقة:

يُلَقَّنُونَ فَيُصَدِّقُونَ ×

ويَقُولُونَ فَيعْدِلُون ×

ويُدْعَونَ فيُجِيبُونَ ×

ونتيجة ذلك إن هذه الأمور من شأنها أن ترص الصف وتوحده، وأن تُبقي أواصر المودة بين الراعي و رعيته، لأنهم لا يملون الامتثال ولا يجشمونه عسيراً فلا يضطر إلى الشرح الطويل معهم بل تكفيهم منه لمحة دالة لينصاعوا.

تكشف عن ذلك كله هذه الثنائيات المتضارعة التي أبرزها فعلان مضارعان تصل بينهما هذه الفاءالرابطة التي ترص بين الفعلين فتبرز سرعة الإصاخة وفوريتها، فالتلقين يقابل بالتصديق، والقول يلازمه العدل، والدعاء يلبى بالإجابة، وهذه الحال مستمرة بهم يشف عنها الفعل المضارع الدال على الدوام والتجدد، فلا تنقضي عنهم هذه الصفات ولا تنطوي صفحاتها، فيما تكشف واو العطف عن تراكم هذه السمات وتلاصقها فلا تغني الواحدة الأخرى، بل تجتمع كلها في عقد واحد

(١) نهج السعادة ، في مستدرك نهج البلاغة،ج٢، ص٥١٠.

(٢) م . ن ، ج٢، ص٥٠٨.

لتزيَن الموصوفين بهذه المعالم وتحافظ الألفاظ جميعها على دلالاتها المركزية المتطابقة مع الوضع.

أما هؤلاء الذين يخاطبهم الآن، فهم ليسوا أهل رأي ونهي، لذا حصر هذين الأمرين بغيرهم الذين أسبغ عليهم صفات يفتقر إليها الشاخصون الذين يُنهي الكلام إليهم، ففي الخطبة ذاتها يضفي ثنائيات متقابلة تصطف في خطوط الذم، فبعد أن مدح الراحلين بما شاء من الكلام، انتقل إلى محور ثانٍ ، فقال: **((وأنا واللهِ قدْ دَعَوْتُكُم عَوداً وبَدءاً، وسِراً وجَهْراً، وفي الّليلِ والنّهارِ والغُدُوِ والآصالِ))**.

ماعزز ظهور الدلالات الهامشية والمركزية البنيات المتوازية لهذه المفردات هو توالي نسق المفردات المتطابقة وفق محور التضاد والمتشاركة بسبب حرف العطف:

عَوداً وبَدءاً ×

وسِراً وجَهْراً ×

وفي الّليلِ والنّهارِ ×

والغُدُوِ والآصالِ ×

تسفر كل مفردة من هذه الثنائيات عن اللجاجة والعناد الذين هم عليه، فالطباق الذي يربق هذا النسق المزدوج إنما يسفر أولاً عن الكيفية التي دعاهم فيها إلى القتال وهي مرات متكررة متوالية فتقديم (العود) على (البدء) يفصح عن كثرة المرات التي عاود فيها الحديث عن القتال دون جدوى، حتى أنه (عليه السلام) تفنن في اختيار طرق الإبلاغ التي كانت تتراوح بين السر والجهر، عسى أن تصيب إحداها الهدف.

وحرص (عليه السلام) أيضاً على انتقاء الوقت، لعل أنفسهم تنبسط وتتجاوب للأمر في إحدى الساعات دون الأخرى، هذا ما يمكن أن يستنبط من ظاهر القول في معانيه المباشرة التي تحيل عليها الدلالة المركزية.

أما الدلالة الهامشية فتوحي بأمور أخرى ليس أقلها اتصافهم بالخذلان والعزوف عن الإمام (عليه السلام) والإعراض عن طاعته، وما هذه الكيفيات والأوقات إلاّ شواهد تبرز مبالغته (عليه السلام) في دعائهم، ومبالغتهم في صده، فليس بالضرورة أن يكون قد دعاهم حقاً في هذه الأوقات وبهذه الكيفيات، فالطنبق هنا يحيك بنية متماسكة عبر هذه الثنائيات المترادفة والمزدوجة التي تشد أواصرها الواو العاطفة لترسم مشهداً مكرراً للداعية المصدود الذي لا يكل ولا يمل على الرغم من الإعراض الذي يواجهه، مع أنه متترسٌ بمعرفتهم، فهو يعلم يقيناً أنهم لن يطيعوه، لكن لا مناص من إلقاء الحجة عليهم، وإلاّ فهو الخبير بأحوالهم، أليس يقول لهم بعدئذٍ **((فما يَزِيدُكُمْ دُعَائيَ إلّا فِرَاراً وإدْبَاراً...))**، هذه ثنائية أخرى، تقوم في أساسها على الترادف الذي يزجيه التوازن الصوتي وعماده

تكرار حرف الراء المختوم بالتنوين، فتترسخ الصورة الذهنية عبر هذا التكرار، ولاسيما ن الراء هنا لا تدغم مع ما بعدها لما ((...فيها من الوفور بالتكرير)) [١].

وفي الصورة هذه بعد حجاجي قرآني يفرضه التناص الخارجي، فتتلاحم مع موقف النبي نوح (عليه السلام) مع قومه إذ لم يلقَ منهم إلا العناد والعدوان وهنا تنبئ الدلالة الهامشية عما لا يَسرُّ وهو أنهم لن يهتدوا إلى سواء السبيل مع دوام هذا التخاذل، كما أنَّ قوم النبي نوح (عليه السلام) استمروا في ضلالتهم لمّا لم يستجيبوا لدعواته [٢].

هنا يطرح الإمام هذا التساؤل ((**أَمَا تَنْفَعُكُمْ العِظَةُ والدّعاءُ إلى الهدى والْحِكْمَةِ...**))[٣]تبدو في هذا المقطع المقتطف ثنائيات جديدة يحكمها الترادف فـ(العظة والدعاء) و(الهدى والحكمة) أزواج متقاربة المعنى، كما أن كلمة دعاء تكررت مراراً في هذه الخطبة، وبصيغ مختلفة (دعوتكم – دعائي – الدعاء) فالإلحاح على هذه المفردة، يراد منه الإصرار على المخاطبين في التلبية ؛ إذ كلّ الكلمات ترجع إلى مادة واحدة (دعا) وهذا يعني أن التكرار الجزئي لهذه المفردة اسهم في سبك صدر الخطبة، إذ هو أحد وسائل السبك المعجمي[٤].ولايخفى أثر التماسك النصي في الطريقة التي توازنت فيها هذه البنيات الثنائية.

وإذا كانت إعادة العنصر المعجمي بلفظة تقع في أعلى سلم التكرار، فإن الترادف وشبه الترادف (تكرار المعنى) يمثل الدرجة الثانية في هذا السلم[٥]، وهذا يعني أن كلمة (دعاء) حققت نوعين من السبك، مرة بإعادتها بأشكال مختلفة، ومرة عن طريق التكرار المعنوي، والسبك أحد وسائل التماسك، والتماسك العميق لا السطحي هو الذي يجب ان يميز الخطاب[٦].

وفي كلتا الحالتين ثبتت لها دلالتها المركزية دون ان تفقد قدرتها على الإيحاء بدلالات جديدة تهيمن عليها الدلالة الهامشية ولو من خلال التكرار أو الترادف المعنوي.

فإعادة الخطاب الواحد بأنماط مختلفة لتحقيق مآرب معينة تمليها الرغبة الشعورية الحادة التي تقف وراء نسج الخطاب بصورة معينة لا يمكن ان يكتفى فيها بالخطاب المباشر الذي تتصيده الدلالة المركزية، إذ طبع الكلام بميسم جديد يجبر المتلقي على التوجه للدلالة الهامشية، فمفردة (دعاء) في أي صيغة تشكلت لا تكتفي بمعناها المعجمي، بل هي تتلبس بمعاني الشكوى

---

(١) سر صناعة الإعراب، ابن جني، ج١، ص٢٠٥.

(٢) يُنظر: نوح ، ٦ .

(٣) نهج البلاغة، في مستدرك نهج السعادة،ج٢،ص٥٠٨

(٤) ينظر: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، جميل عبد المجيد، ص٨٢.

(٥) يُنظر: م . ن، ص٨٢ .

(٦) يُنظر: الخطاب، ص١٦.

والتضجر والألم والمرارة واللوم والتبكيت والرجاء والأمل... فهذه مفردة واحدة تنازعتها معان كثيرة، كل ذلك لأن الدلالة الهامشية المرتبطة بالمشاعر والوجدانيات تأبى إلا ان تفيء بهذه الظلال من المعاني التي تفسر انفعالات مختلفة يفيض بها الكلام.

وقرن كل واحدة من الثنائيات المذكورة إلى شبيهها كـ(العظة إلى الدعاء) و(الحكمة إلى الهدى) يصب في محاولة تكديس المعاني الراقية وفق نسق تراكمي ينهض له العطف بالواو ؛ لإزاحة الصدأ عن القلوب التي ران عليها، بعد أن خاضت في اللعب واللهو وغفلت عما يحاك لها. فهذه الوحدات الصغرى هي دالات تنأى عن البعد الذاتي، وتفوح بالمعاني الإيحائية فما يراد منها ليس هو المعنى المعجمي المباشر فحسب، بل ما تنطوي عليه هاته الكلمات من مدلولات مختلفة، فمعلوم أن ((...للدوال المختلفة مدلولات مختلفة))[1].

والتمعن في المقطع المقتطف يُري أن العظة والدعاء وسيلة لتحقيق الهدى والحكمة، لولا الاستفهام الإنكاري الذي طوق الكلام بدائرة النفي، فتبين أن العظة والدعاء قد تعطلت وظيفتاهما، وأن الهدى والحكمة باتتا بعيدتي المنال ولا يمكن أن يتحققا على أرض الواقع فالدلالة الهامشية تسحب البساط إلى جهتها وتفرض معاني التثريب والعتب، يؤيد ذلك قوله مواصلاً **((وإنِّي لَعَالِمٌ بما يُصْلحُكُمْ وَيُقيمُ أَوْدكُمْ...))** [2].هنا يوشك الإمام ان يهدد ويتوعد، لكن الواعز الديني يمنعه من ذلك، وهذا التهديد الوشيك لا يكون من غير سبب، والسبب هو الإعراض المستمر الذي آل بهم إلى هذه القطيعة.

وقد ناءت الجملة الأخيرة بمقابلة بين صلاحهم المرتبط بإفساد نفس المصلح فهي مقارنة تعتمد على المفارقة . وهذا يعني أنها لن تتحقق وأن صلاحهم لا مجال له سوى عالم الأمنيات الذي يتحكم بالمعاني الفطرية التي يشيح عنها عالم المنطق فيتبين أن لا سبيل إلى تحصيلها، وقد تتسع المسافة بين المعنى المعجمي والمعنى الدلالي الذي ينعكس في مرآة الاستعمال ؛ فتُري الزوايا الخفية التي يسكت عنها المعنى المباشر وتغيب عن سطح التداول، كقوله (عليه السلام) واصفاً الإنسان السادر في غيه ((... فهو بينَ الذّنْبِ وَالنّعْمَةِ يَرتَعُ ...)) [3]، فقد تخلت هاتيك المفردات عن معناها المباشر – مؤقتاً – ريثما يضعها الخيال في أطر جديدة، فإذا كان الذنب هو حصيلة ما يقترفه الإنسان من الخوض في النواهي، والنعمة هي السوابغ الإلهية التي ينالها المرء دون جزاء، فكلاهما ينتظمان في صفوف المعنويات، لكن مفردة (بين) صيرتهما مكانين – فهذا ما تقتضيه البينونة – بقرينة الفعل (يرتع) فقد تحولا إلى مساحتين محسوستين، وهذا يعني أن الدلالة

(١) بنية اللغة الشعرية، جان كوهن، ص٧٥.

(٢) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٢،ص٥٠٩.

(٣) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٢، ص٤٥٤.

تحركت حركة واسعة، فحولت (الذنب والنعمة) المعنويين إلى ظرفين يحتضنان المرءُ السادر بينهما في غفلة عن الاستغفار والشكر، وهما وظيفتاه اللتان تعطلتا بسبب من لهوه في المرتع . فقد غفل عن شكر النعمة بسبب إفراطه في مزاولة الذنب الذي أنساه واجب الاستغفار . من جهة أخرى فإن مفهومي الذنب والنعمة حافظا على معناهما المباشر؛ فالذنب هو الإثم والنعمة هي العطايا، ولتحرك مدلوليهما، تقاسمتهما الدلالتان المركزية والهامشية في آن، فانتزعت الهامشية المدلول الحسي الذي صيرهما ظرفاً واحتفظت المركزية بالمعنى المباشر فأَريَتَا وجهين مختلفين لهاتين الكلمتين، تراوحا بين المادي والمجرد . فكان هذا حلاً وسطاً جمع بين الإشارة الكامنة والمعنى الصريح، فكانت هذه التوليفة المزدوجة التي فاءت بأصول المعاني وظلالها في نسيج واحد، فهي في الوقت عينه تشير إلى المقصود وتحيل إليه رجاء إزجاء المعنى بصورة مكثفة تجمع بين المتغايرين، لأن الفن يسلك طرقاً غير مألوفة في صنع المعاني وصياغتها، فهو قد يخلق عالماً معقداً مليئاً بالمتناقضات التي ترمز إلى شيء معين . فتتلابس هذه المتغايرات مع بعضها لتشكل نسيجاً مركباً لا ينفصل عن بعضه . من ذلك قوله (عليه السلام) **((يا أَغْرَاضَ المَنَايا، يا رَهَائنَ الموتِ، يا وعَاءَ الأسْقَامِ، يا نُهبَةَ الأيامِ، ويا نقْلَ الدهر، ويا فَاكِهَةَ الزّمَانِ، ويا نَورَ الحَدَثَانِ، ويا خُرْسَ عِنْدَ الحُجَجِ ويا من غَمَرَتُه الفِتَنُ...))** [1].وقد كانت الوسيلة التي مزجت الأوضاع المختلفة التي كان عليها المنادى هو صيغة البنية المتوازية المؤلفة من حرف النداء والمنادى المضاف فالمضاف إليه في أُولى التراكيب الأربعة،وبإضافة الواو في التراكيب التالية مع الإبقاء على النسق ذاته:

يا أَغْرَاضَ المَنَايا ×

يا رَهَائنَ الموتِ ×

يا وعَاءَ الأسْقَامِ ×

يا نُهبَةَ الأيامِ ×

ويا نقْلَ الدهر ×

ويا فَاكِهَةَ الزّمَانِ ×

ويا نَورَ الحَدَثَانِ ×

ويا خُرْسَ عِنْدَ الحجج ×

يا من غَمَرَتُه الفِتَنُ ×

فكانت النتيجة ان المنادى واحد، أي أن المدلول واحد، لكن دلالته متعددة الألوان والأصناف، لتغير الجنبة التي بها ينظر الإمام (عليه السلام) إليهم وعلى وفقها تتبدل الرموز والعلامات التي توحي إليهم.

---

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٢، ص٤٥٤.

فقد رصد أولاً مآلهم ونهاياتهم وإحاطة المنون بهم، لأن الوعظ والإرشاد كان هو المهيمن على أرجاء الخطبة، فناسب التذكير بالموت، وكان أول هالة أحاطت بهؤلاء المخاطبين، فصورة الموت تتردد قريباً من أشباحهم الشاخصة . وهنا تبدلت هيئاتهم الحقيقية إذ باتوا هدفاً للمنايا، قد تخطئهم مرة، بل مرات، لكنها في النهاية لابد أن تصيبهم، فهم تحت مرمى المنون، أين ما اتجهوا ترقبتهم، لذا لا مناص من تخيل الدائرة التي يرتكضون بين أرجائها تحرزاً من الموت، لأنه يُحيط بهم فلا افتكاك من قبضته، وهم رهينة قيده، لذا ناداهم (يا رهائن الموت) فإن حياتهم رهينة بإرادته، مستمرة بأعراضه عنهم، لكنه متى أحكم قبضته حول رقابهم، وضع حداً لعالمهم.

إن الاستهلال بهذا النداء، يخلق عالماً موحشاً وكئيباً تتقبض له النفس وتتكدر، فلا تعود راغبة في غضارة العيش بل ستدير وجهها صوب التعقل والاقتصاد في كل لذة والزهد في نعيمها والحذر من الانهماك في الذنوب وموبقاتها المؤدية إلى الهلكة والانزلاق إلى مرديات الضلال، ومهاوي الردى .

هذه هي الإيحاءات التي يمكن أن يحملها هذان النداءان، ثم استمر النداء يعرض وهن هؤلاء القوم، وأسباب ضعفهم (...يا وعاء الأسقام...)، هذه العبارة تبغي صرفهم عن اللهو واللعب، واستعارة الوعاء لرسم هذه الصورة لهم، بوَصْفِه قابلاً لأن يوضع فيه شتى أنواع الأطعمة، فهو نظير الإنسان الذي يكون موضعاً للأمراض، يستوعب شتى أنواعها، دون أن يملك خيار رفضها، فهو مسلوب الإرادة كالوعاء لا يستطيع ان يرفض ما يُلقى فيه من ماء وغيره، فشابهه في أنه غير محصن تجاه العلل والأسقام ؛ إذ هو عرضة لجميع أنواعها، تُبدِّلُ حسن حاله، وربّما أوردته أحواض المنية، أو أنهكته صحة ومالاً وخرمت شبابه وهو ساكن لا يريم.

هذه هي بعض إملاءات الدلالة الهامشية، إذ الدلالة المركزية لا مكان لها هنا، لأن الوعاء لا يتصور له أن تصيبه آفة المرض، فالوعاء ليس هو الوعاء المعجمي فدلالته هنا رمزية تشير إلى هذا الجنس البشري في حال اعتراه ما لا يقدر على دحره ومقاومته، وهي الأسقام التي توزعت بين الدلالتين.

ويستديم الإمام (عليه السلام) مخاطبتهم (...يا نُهبة الأيّام...) ما زالت الصور تتثال لترسم عناوين مختلفة لهذا المنادى، فيتحقق الإبلاغ والتأثير في آن واحد، فالغرض الخفي هو التحذير ؛ لذا كان في هذا النداء نوع حماية من الاغترار بإقبال الدنيا، إذ سرعان ما تتقلب الأمور، فتسلبهم الأيام الرخاء والعز الذي هم فيه، فقد أسبغ عليهم النداء لقباً مما يلازمهم، فلما كان كرّ الأيام وفرّها يتسبب بنشوب المصائب وطوارق الدهر واختطاف موجبات السعادة وإرساء عوامل الشقاء، اختصر ذلك كله بهذا النداء الموجز، الذي يستثير العواطف بما يبعثه من شجن وأسى ليستقطب بهذه الصيغة قلوب المخاطبين ويستحوذ على مسامعهم، جاذباً اهتمامهم، إلّا أن الصيغة فيها من

التجريد والتعميم ما يلغي خصوصيات المواقف، فالخطاب يشحذ ذهن المتلقي، ويحث ذاكرته على استعادة المواقف السابقة، وخيبات الآمال السالفة والمنى التي تحولت إلى نكبات، والرجاء الذي انقلب يأساً، والفرح الذي ضرّج بلواعج المرارة، فالأيام لها سطوة، وهي تُديل منهم ولا يملكون لقضائها رداً.

وهذا يعني ان السطوة هنا للدلالة الهامشية التي تفصح عن المسكوت عنه وتبوح بالمكنون الذي حملته هذه الجملة القصيرة، فجادت بالتفاصيل والجزئيات الصغيرة التي تلتمس لها صدى في نفس السامع، إذ هو يستعيد بواسطتها بعض الأشياء المؤلمة التي استودعت في خزين ذاكرته.

ويواصل الإمام (عليه السلام) رصف نداءاته المتقوّمة بالمضاف والمضاف إليه، فكان المضاف يشير أبداً إلى هؤلاء المخاطبين، أما المضاف اليه فيومئ إلى ذي القدرة الذي يعبث بحياتهم، فيغير معالمها، وعلى هذا الأساس أكمل (... يا نقْلَ الدهر...) فوصفهم بأنهم أدوات للدهر ينقلهم من حال إلى أخرى وهم مستسلمون لا يدفعون عن أنفسهم غائلة أو ضيماً ...

ثم تغير سمت النداء قليلاً، فسلط الضوء على ناحية أخرى بقوله: (يا فاكهة الزمان ويا نور الحدثان...) هنا أثار عاطفة الاعتزاز بشبابهم ونضارتهم وباكورة أعمارهم إذ الدلالة يمكن أن تتسع آفاقها، فتُلاحظ الفاكهة من حيث أنها مرصودة للقطف، فور إيناعها، والأزهار معرضة للذبول والأفول والاقتطاف ريثما تدرك، فالفناء لا يتوقف أمام أردية الشباب، ولا يشفق على من كان ينعم بربيع حياته، ويتقلب في مدارج اللين، فالكلام مشوب بالتحذير، غايته انتشال الناس – ولو كانوا في ريعان العمر – من سكرات الهوى واكتساب المآثم، وتوجيه افئدتهم ووجوهم صوب الآخرة .

وهكذا يتبين ان تعدد الدلالات للمدلول الواحد يكثف من طاقة الإيحاء ويغني عن الإسهاب وإعادة الكلام، وكان(عليه السلام) يحول الكلام من ناحية إلى أخرى، فيرفد أنحاءه المختلفة بإثارات جديدة كقوله: (يا خُرْسَ عند الحجج...) فقد غادر بهم عالم الدنيا إلى عالم البرزخ أو الآخرة، ووصف حالتهم المهولة تلك، عندما ينقطع بهم الكلام، فلا يحيرون جواباً، هذه الصور المتلاحقة التي يوصم بها المنادى تنظر اليه كل مرة من نافذة متجددة، تريه ما خفي من أغوار نفسه البعيدة.

وعليه استمر في قوله (...يا من غمرته الفتن...) في إظهار معان جديدة وألوان أخر أسبغها، لتكتمل الصورة الكبيرة المتشعبة الزوايا التي نحتت مظهراً لذلك المنادى الذي تتكالب عليه الشبهات والبلايا... وهكذا تجسدت شتى أصناف المصائب محيطة بهذا الكائن الإنساني، لتحكي قصة وَهْنِه وضعفهِ وقلة حيلته في مواجهة البؤس والقهر التي توجه سهامها إليه.

وهكذا تكتنز الدلالات – ولاسيما الهامشية – معاني مستورة ينكشف عنها خمارها بالتأمل والتفكر، لتكسب المدلول إضافات حيوية تبلغ به إلى الجدّة والطرافة، وهما نهاية الإبداع .

ومما مر يتبين أن الحظوة في تفسير الكلمات في لغة الإمام (عليه السلام) تميل إلى كفة الدلالة الهامشية إذ بها تتعلق غايتان هما الإبلاغ والتأثير .

وما قيل من عزل كل دلالة عن الأخرى بأن تختص المركزية بالإبلاغ والهامشية بالتأثير لا يسري على النصوص التي اختيرت من خطب الإمام (عليه السلام) اللهم أن يكون التفسير منصباً على المفردة بما هي مفردة فالأمر قد يتغير، وربما انفردت – في هذه الحالة – الهامشية دون المركزية بالخاصيتين الإبلاغ والتأثير، كما هو في قوله (عليه السلام) (يا وعاء الإسقام).

فإن الاستعمال الثر للغة على المستوى الفردي قد يجرد كلمة ما من دلالتها المعجمية اللصيقة بها ويكسبها دلالات أُخر كما في قوله (عليه السلام) (يا أشباه الرجال).

كما أن الدلالة الهامشية تتبدى في المواقف العاطفية ولاسيما المشحونة باللوم والعتاب، فإن مساحتها هنا تمتد على حساب الدلالة المركزية.

وإن للبنيات المتوازية أثر في توجيه الدلالات وتحقيق معاني المفردات.

المبحث الثاني : السياق

للسياق إثر كبير في إظهار مدلولات خفية يسكت عنها ظاهر الكلام، فيما تتولى القرائن التي تحيط به سواء أكانت داخلية أم خارجية إعادة استنطاق النص فتجلي عنه صدأ الغموض وتفك مغاليقه.

والخطاب حلقة وسيطة تعبر عن حدث لغوي يتقوّم بالمخاطِب منشئاً والمخاطَب متلقياً، ويفرض السياق عليه تأويلات شتى تقترب من النص أو تبتعد عنه بمقدار قدرة القارئ على الإحاطة بالأبعاد المختلفة التي شكلت وقائع وملابسات فرضت هيمنتها عليه في اثناء خروجه من عالم النفس إلى عالم الحقيقة.

ولذلك لا يتسنى في حد السياق الاكتفاء بمنظور يُضيّق من سطوته الكبيرة في تفسير الخطاب، لأن ذلك سيرصد جانباً من جوانبه فحسب، ويغض النظر عن جوانب أخرى ينبغي عدم إغفالها في تأويل الخطاب.

فمن الحدود التي تضيق من مفهوم السياق وتحصر نطاقهُ في اطار النص، وتحدد مساحته به ،هذا التعريف الذي يحدده: ((...بأنه أمارات شكلية مموضعة ... في المحيط اللساني الفعلي لوحدة دالة أو للوحدات التي تشكل المحيط المباشر للوحدة الصوتية...))[١]، فهذا يقلص مساحة الظل التي يفيء بها السياق حتى ليقتصر على الوحدات الصوتية التي يرتبط بها الكلام على نحو مباشر، فيظل همه محصوراً في الصُويتات وأثرها في تشكيل الكلام وترتقي في سعتها فتطال ما هو أكبر، حتى لتصل إلى الوحدات المتتابعة التي تمثل نصاً، ثم تقف هناك فلا تتعدى هذا المجال.

وهذا يعني أن السياق اللغوي لا يتجاوز نطاق النص، فهناك من يرى أنه ((شيء يسبق أو يلي شيئاً ما)) [٢]، فهذا التعريف يختزل السياق ويعزله عن مؤثرات الخطاب وما يحيط به من أمور وظروف تفرض عليه أن يتزيا بشكل معين ليعبر عن أغراض بعيدة الغور في دقتها وعمقها.

وهذا السياق المبتسر هو ما يعبر عنه بـ(السياق الكلامي) ومداه يلتف في مساق دائري مع النص وما يتألف منه فيشمل الأصوات والكلمات والتراكيب ... وهذا المفهوم الضيق للسياق قد يعد نموذجاً من وجهة نظر بعض الباحثين الذين يرون في السياق ((...تلك الأجزاء من الخطاب التي تحف بالكلمة في المقطع وتساعد في الكشف عن معناها...))[٣].

---

(١) التحليل البنيوي للمعنى والسياق، عبد الجليل مرتاض، ص٥.

(٢) معجم الأسلوبيات، كاتي وايلز، ص١٥٨.

(٣) استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية،عبد الهادي الشهري، ص٤٠.

وهذا يعني أن للسياق مديات مختلفة تتسع وتضيق بحسب الرؤية التي ينطلق منها الباحثون، فمن يربط السياق بمحيط النص فحسب يغلقه على بنيته، ويتعذر عليه ان يفقه جميع ما في النص، إذ ان بعض الإبهام والغموض لابد أن يحيط بالنص ،ومن ثم قد يؤدي إلى فشل الناقد في تحقيق المعنى، ولاسيما ان السياق لا يتوقف على قرينة واحدة، بل ان قرائنه لا نهاية لها في مناط التعبير[١].

وهذا يتيح للنقاد ان ينظروا للسياق من جهة انه معين على تفسير الخطاب وتأويله بما يناسب السياق الخارجي الذي تحف به عناصر كثيرة ومتنوعة، مهدت لما يسمى بـ(السياق الكبير)[٢]، الذي يرتحل بالسياق إلى بيئات مختلفة من الناحية الجغرافية والتاريخية والاجتماعية... وغيرها مما يمثل خلفية معرفية تحيط بالحدث اللغوي ساعة نشوئه.

هذه الخلفية هي التي تساعد المتلقي في حل مشكلات تحرك النص عن نظامه المألوف وانزياحه عن قواعد اللغة، وتلبسه بالمجاز، وهي التي ستتمكن من تعيين المعنى المنطوق إذا تردد بين تفسيرين كالتهكم والثناء مثلاً، فالسياق هو الذي سيكشف أن المقام مقام مدح، فيقطع بأن الثناء هو المراد وإلاّ إذا كان المقام مقام تنكيل فيستعين التهكم.

والسياق خير معين في رصد علاقات الحضور والغياب التي تتحكم في الملفوظ عبر المحورين الاستبدالي والتوزيعي، إذ من خلاله سيحدس الناقد الأسباب الكامنة وراء اختيار مفردات معينة، لأنها مشروطة – فرضاً – بنسق صوتي أو معجمي ذي دلالات مقصودة تدفع المنشئ إلى احتبائها دون غيرها ؛لأن الكلام ليس غايته الحاجات الآنية دائماً كالتعبير عن النفس أو نقل الأفكار إلى الآخرين . إذ ربّ غايات جمالية تأتلف ما ينشده الوجدان وتتوق له الضمائر، هذه الغايات تبعث المرسل إلى تفضيل لفظ على آخر، وتركيب على ثان بما ينسجم مع رغبات الإنسان المبدع وذائقته التي تقرن الفن إلى النسق المألوف وتتوافق معه ، بحسب الاملاءات التي تحثه على إنشاء موضوعه.

وهذا يعني أن السياق لا يكون ظرفاً للحدث اللغوي فحسب، بل هو مؤثر في صناعته، وتشكيله وفق نمط دون آخر . من هنا يختص المبدع بنوع من الفنون يتماهى مع موهبته أولاً، والغاية التي يصبو إلى تحقيقها ثانياً، مع وضع السياق نصب عينيه ثالثاً، فما كان ظرفاً صالحاً للخطبة في حال ما، قد لا ينفع إذا كان المحيط الذي يدور فيه المبدع لا يسمح بإنشاء هذه الخطبة، كأن يكون المبدع فاقداً للجمهور الذي يجيد الاستماع، لشغبه مثلاً، أو لتشتت انتباهه

(١) يُنظر: التحليل البنيوي للمعنى والسياق، ص١١.

(٢) ينظر : معجم الأسلوبيات، ص١٦٠.

جراء خوف أو تبلد، فهنا لا يصح اللجوء إلى الخطبة، لأن الظرف الآني مانع من إقامتها، فالمقام والحال هذه – ليس مقام خطبة .

كما انَّ الإنسان العيي، الألجم، لا يمكنه ان يدلي بصوته في وسط مكتظ بالناس لفوات القدرة وانتفاء الموهبة، فالسياق النفسي هذه المرة هو الذي يقف حاجزاً بينه وبين إلقاء خطبته.

من هذا المنطلق يتبين أن ثمة عوامل كثيرة تؤثر في خلق النص أو الخطاب، تنصب على محاوره الثلاثة المتمثلة بالمرسِل والمرسَل إليه والخطاب، من هنا عرّف مفهوم الخطاب تعريفاً واسعاً شمل هذه الأمور جميعاً فقيل عنه، إنه ((...مجموعة الظروف التي تحف فعل التلفظ بموقف الكلام...)) [١].

ففعل التلفظ لا يستقل وحده بعيداً عن ملابسات خارجية غير لغوية تسهم في تولده. من أجل ذلك تعددت السياقات بتعدد أسبابها، فالسياق اجتماعي ونفسي وعاطفي وتاريخي وزماني، وجغرافي ومكاني... وهذه كلها تثقل الخطاب بظلالها، فتترك أثراً ما عليه، يتوازن مع ذلك التأثير .

فالسياق الاجتماعي مثلاً يفرض هيمنته على المكانة الاجتماعية لطرفي الخطاب، فتسوغ الأوامر إذا كانت منزلة الآمر أعلى، لكنها تصبح غير ذات موضوع إذا تساوى الطرفان في المرتبة أو انعكس الأمر، فأصبحت منزلة المأمور هي الأعلى، فحينئذٍ يخرج الموضوع عن سياقه الطبيعي ويصبح الأمر مثيراً للسخرية، إنْ لم يمكن إدخاله في لائحة المجاز .

والسياق العاطفي هو الذي يوجه الخطاب وجهة معينة فتلوح بوادر الغضب وإمارات الرضا من بين ثناياه.

ثمَّ إن جغرافية الواقعة اللغوية تتسع وتضيق بحسب الإطار الذي يحيط بها، فالسياق الذي يكون في باحة المسجد هو غيره في السوق، فالمسجد مثلاً يفرض على المتكلم آداباً معينة وليس كذلك السوق الذي لا يلزم الناس بمثل هذه الآداب ولا يحتم عليهم مراعاتها.

من هنا قسم النقّاد السياق على قسمين هما:

السياق اللغوي، وسياق التلفظ أو الحال أو الموقف[٢].

وقد عُرّف السياق اللغوي بأنّه ((...طريقة تسييق الكلمة المفردة داخل الجملة مع الجمل الأخرى، وتسييق هذه الجمل داخل الإطار الكلي للنص)) [٣].

فالسياق اللغوي يدور مع النص لا يتخطاه إلى الخارج، لذا هو غير معني بما هو خارج عن هذا الإطار، كما انّه لا ينفي ما عداه.

---

(١) استراتيجيات الخطاب، مقاربة أسلوبية لغوية، ص٤١.

(٢) ينظر: م . ن، ص٤٠ .

(٣) السياق وأثره في المعنى، دراسة أسلوبية، المهدي إبراهيم الغويل، ص١٤.

أمّا السياق الخارجي أو سياق الموقف فيتمثل بـ((... كل ما يقوله المشاركون في عملية الكلام وما يسلكونه...)) [١].

وللسياق دور خطير في كشف أسرار النص، لذا انبثقت النظرية السياقية التي أرسى قواعدها فيرث الذي ربط المعنى بالسياق، فاعتبر المعنى ((وظيفة في سياق)) [٢]، وهو يرى أن المعنى لا يتم انكشافه إلا عبر تسييق الوحدة اللغوية ؛ بأن توضع في سياقات مختلفة[٣].

على اعتبار ان ((...معنى الوحدة الكلامية يعتمد بشكل جوهري على السياق)) [٤]، بل ان للسياق دور كبير في تغيير المعنى، لذلك قيل إن الدلالة رهن بـ((...حركية المفهوم وثبات المنطوق...)) [٥]، فالسياق يتحكم بالمعنى الدلالي، ويضفي عليه معانيَ متعددة تتلون بلون السياقات التي تنضم إلى القراءات المتجددة، على الرغم من انَّ المنطوق يظل ساكناً، لانقطاع علاقته بالمؤلف بعدئذ استوى خطاباً تلاقفته أسماع المتلقي، فأصبح يتحرك معنوياً ؛ فهو ذو جنبتين أحداهما جامدة وهي جنبة المنطوق والأخرى متحركة وهي شقة المفهوم الذي تجود باكثر من معنى في آن واحد، ويتحدد معناها باختلاف جهة السياق التي تتحكم بالدلالة .

على ان هناك وجهة ثانية ترى في الخطاب بما هو خطاب قدرة تتسلط على السياق فتغيره وتؤثر فيه، فالخطاب ((...نشاط مشروط بالسياق ومغير لذلك السياق في الآن نفسه...)) [٦].

ولا تخفى صحة المقولة الأولى في هذا المقتطف، فالخطاب مشروط بالسياق على نحو مؤكد، لكن أن يكون الخطاب هو المؤثر في السياق، فهذا يُتصور في المحاورات التي تنقلب فيها الأمور لصالح أحد الطرفين بناء على قدرة هذا الطرف في تسويق الخطاب بطريقة ذكية تهيمن على السياق وتؤثر فيه.

ومؤدى هذا الكلام ان علاقة السياق بالنص علاقة حركية جدلية، وان كلاهما يتمم الآخر.

السياق الخارجي:

إدراكاً لأهمية هذا السياق كان رواة خطب الإمام (عليه السلام) يعنون بالسياق الخارجي الذي يكتنف الخطبة ويلاحظون دقائق الأمور التي تسبق الخطبة وتؤثر فيها، فيروونها وإن تبدت طويلة

---

(١) المعنى وظلال المعنى،أنظمة الدلالة في العربية ، ص١٢٠.

(٢) م . ن، ص١١٧.

(٣) يُنظر: السياق وأثره في المعنى، دراسة أسلوبية، ص١٤، وعلم الدلالة، ص٦٨.

(٤) اللغة والمعنى والسياق، ص٢١٥.

(٥) السياق وأثره في المعنى، دراسة أسلوبية،ص٢٣.

(٦) السياق ونظرية التواصل طرح رومان جاكبسون مثالاً، د. هامل الشيخ، ص٥ ، سلسلة لأن، العدد (٥) الذي يحمل عنوان (نظرية السياق بين التوصيف والتأصيل والإجراء) .

ما دامَ لها نوع اتصال بالخطبة، وبرهان ذلك يظهر في الخطبة الأولى، فقد تصافق رواتها واحداً بعد آخر على رواية قصتها بحذافيرها، وقد استغرقت بضع صفحات من الكتاب، وكانت فيها بعض التفاصيل التي تبين قوة اللحاظ عند الراوي كرصده لحالات الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من ذلك ذكره هذه الحالة ((**...لحق بنا رسول الله وإنَّ وجهه ليتهلل فرحاً وسروراً...**)) [1]، فهذا سياق جوار لساني[2]، يسهم في رسم صورة سعيدة تؤهل السامع لتلقي بشارة ما، تتناسب مع الفرح والسرور الذي طفح على وجه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهي خطبة الإمام (عليه السلام) لابنة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فهنا تبرز العلاقة واضحة بين السياق وبين موضوع الخطبة، وهي خطبة الإمام (عليه السلام) لنفسه.

ومن السياقات التي تمهد لموضوعها، الخطبة التي تحمل الرقم –٩– فهي حافلة بملابسات مهمة تسرد موضوعات مقطعية تشير إلى انعطافات حادة في حياة الإمام (عليه السلام).

يبدأ السرد بتخطيب زمن القصة عبر الاستعانة بالمؤشرات الزمنية من خلال جعل وفاة الرسول عهداً حافلاً بالمفارقة[3]، فالبداية كانت بعد ان أتمَّ الإمام (عليه السلام) تجهيز الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد حفَّ به بنو هاشم، وبعض الصحابة فكان عدد الحضور نحو أربعين رجلاً، فقد ورد أنه ((لما فرغ أمير المؤمنين (عليه السلام) من تجهيز رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مع من حضر من بني هاشم وقوم من صحابته مثل سلمان وأبي ذر والمقداد وعمار وحذيفة وأُبي بن كعب وجماعة نحو أربعين رجلاً – اتصل به بيعة أبي بكر وأنه احتج لأوليته بالخلافة: بأنهم من قريش ومن شجرة رسول الله...))، فهذه الرواية بمضامينها لا تخلو من علامات يقصد منها لفت أنظار المتلقي إلى أن ثمة عصبة أحاطت بالإمام (عليه السلام) وهي تميل إليه ميلاً نفسياً. والراوي بذلك يهيئ النفوس لتحدس موضوع الخطبة لأن هذا السياق التأريخي يعيد الأذهان إلى تذكر الوقائع التي أعقبت وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وانعقاد البيعة لأبي بكر محتجاً لنفسه بأنّه من قريش.

هذه المقدمة تلهم السامع على ان يخمن مضمون الكلام الذي لن يخرج عن جنبات هذا السياق، وهكذا كان فقد احتج الإمام (عليه السلام) لنفسه في الإمامة فقال: ((**إن كانتِ الإمامةُ في قريشٍ فانا أحقُ قريشٍ بها، وإن لا تكنْ في قُريشٍ فالأنصارُ على دعواهُم**))[4].

ومما يستقطب النظر في هذا السياق هو حيادية الراوي الذي لم يقحم نفسه في الحوادث التي جرت، فهو يراقب ما يجري في الخارج[5]، بوصفه شاهداً حاضراً ليس من شأنه التدخل والتحليل،

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٢٢.

(٢) يُنظر: التحليل البنيوي للمعنى والسياق، ص١٣.

(٣) يُنظر: تحليل الخطاب الروائي، (الزمن –السرد التبئير) سعيد يقطين، ص٩٥.

(٤) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٤٨.

(٥) ينُظر: تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، يمنى العيد، ص١٣٧.

فهو يحتفظ بمسافة مناسبة بينه وبين ما يجري[١] وهذا ما يوجب الوثوق بشهادة الراوي والاطمئنان لما صدر عنه لانتفاء العاطفة في مروياته التي يكون الباعث عليها غالباً هو الهوى الذي يميل بصاحبه إلى كفة معينة.

وقد يكون السياق محيطاً بأوائل الخطبة وأواخرها فيرقب الراوي الحادث اللغوي منذ بداياته، ملماً بأسبابه، مفضياً إلى نهاياته، عارفاً بردود الأفعال التي تعقب ذلك الحادث، وهذا ما وقع في سياق الخطبة (١١)، فالراوي يقوم بحكاية الوقائع التاريخية على نحو متسلسل ومنطقي يجسد تنامي الحوادث وتسارعها، إذ يذكر وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله) وتجهيزه، ثم يبطئ القص، ويقف السارد عند اجتماع أمير المؤمنين (عليه السلام) مع لُمّة من الناس في أحد دور الأنصار، إذ تجري محاورة لا تخلو من مراء وجدل لا يكون الإمام (عليه السلام) طرفاً فيها، وإن كان هو محور موضوعها، فيُشمُّ رائحة فتنة أوشكت أن تنشب نارها فيتهيأ لإطفاء نائرة القلوب، هنا يُرجع الراوي البصر، فينظر إلى الإمام (عليه السلام) وقد حل حبوته وجثا على ركبتيه، فهاتان حركتان لم تُذْكرا اعتباطاً لأنهما تنبئان عن أهمية ما سيذكر، فهما يستدعيان لفت أنظار الحاضرين صوب جهة الإمام، تطلعا لما سيقوله، وهنا يبدر السارد، فيذكر ملاحظة نجمت عن طول مراقبة وهي قوله ((وكذا كان يفعل إذا تكلم)) [٢]، فمعاودة هذين الفعلين (حل الحبوة، والجثو على الركبتين) إنما هو لمعاودة الفعل الملازم وهو الكلام.

ثم يذكر الراوي الخطبة ومغادرة الخطيب، ويلقف شيئاً ما باحَ به أحد الحاضرين وهو أبو سفيان الذي علّق على مغادرة الإمام (عليه السلام) المكان قائلاً: ((**لشيء ما فارقنا ابن أبي طالب**)) [٣]، ولهذا الكلام عقيب الخطبة دلالته، فكأنَّ القائل لم يفهم الخطبة أو لم يرتضِها، فأعاد الأمرُ إلى بدئه، وهو اجتماعهم في احد بيوتات الأنصار، لأخذ البيعة للإمام (عليه السلام) غافلاً عن نتائج ذلك وهو وقوع فتنة عظيمة كما اخبر الإمام (عليه السلام) في خطبته تلك.

هذه الملاحظات التي تجود بها عينا الرقيب وتفيض على لسانه سيكون لها اكبر الاثر في تفسير الخطاب، وإزالة المبهمات والغوامض عنه، فبعض النقاد يرى أن كلمة صغيرة مثل (لا) إذا وضعت خارج سياقها قد تكتسب غموضاً لا حدَّ له، خلاف ما لو استعملت في سياقها فإن غموضها سيزول[٤].

---

(١) يُنظر: تقنيات السردالروائي في ضوء المنهج البنيوي، ص١٥١.

(٢) نهج السعادة ، في مستدرك نهج البلاغة ،ج١، ص٥٣.

(٣) م . ن، ج١، ص٥٤.

(٤) يُنظر: اللغة والمعنى والسياق، دراسة أسلوبية، ص٢١٨.

وهذا الكلام ينطبق بشكل أولي على الخطاب الذي يفرضه سياق معين حافل بالحوادث الخطيرة والمهمة التي لها أثر كبير في مجريات التاريخ ومستقبل الأمم .

وعلى هذا الأساس تكون السياقات التي يسردها الراوي نابعة عن وعي شديد، استطاع أن يلمَّ بأطراف النبأ من جميع جوانبه، عرفاناً منه بقيمة ما يدلي به في توضيح ما خفي لبعد زمانه أو مكانه.

من ذلك مثلاً، ما تنبه له ابن عباس وهو يرمق أدنى ما يصدر عن الإمام (عليه السلام) حتى لحظات عينيه ؛ لذا جاء بهذه العبارة الدقيقة ((**...نظر علي بن أبي طالب عليه السلام في وجوه الناس فقال...**)) [1]، لماذا يركز ابن عباس على نظرات الإمام (عليه السلام) قبل أن يخطب، ما علاقة هذه النظرات بما سيطرحه الإمام (عليه السلام) من كلام، من المعروف ان التحديق في الوجوه أثناء الكلام من قبل الخطيب يوجب هيمنة تجذب أنظار السامعين نحوه، وتفرض تصديقاً لما سيطرح من قول، فالكاذب مثلاً يزيغ بصره ولا يقدر على مواجهة الجمهور.

وتثبيت النظر في الوجوه يدفع إلى استشعار خطورة الموضوع المطروح، فيتشوف المتلقي لمعرفته، وعند التمعن في الخطبة يتبين فيها كثرة التوكيدات التي استهلت بها ((إني لأخو رسول الله...وقد علمتم أني...))، بل ان التوكيدات شملت معظم الكلام، حتى ان كلمة (لقد) تكررت ست مرّات فضلاً عن تكرار (أنّ وإنّ)، إذ جاءت كل واحدة منهما مرتين وكان يعضد كلامه بإشهاد الحضور وإشراكهم مباشرة عبر مخاطبتهم بما يتيقن أنهم على دراية به، (علمتم، عرفتم)، مقسماً الضمائر بينه وبينهم على طول الكلام الذي أراد منه إثبات أوليته في الإسلام وبعض سوابقه فيه وفضائله كمؤاخاته مع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم). ولا يعقل أنّه أراد بثّ هذه الأمور لمجرد الإخبار بل أراد من خلالها أن يوثق حقه، بتذكير الموجودين به ،وجعلهم مؤيدين له أمام من لم يكن حاضراً للكثير من هذه الوقائع، لبعده أو لعدم ولادته . قال الإمام (عليه السلام) في هذه الخطبة: ((**إنِّي لأخُو رَسُولِ اللهِ، وَوَزِيرُهُ ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنّي أَوَّلُكُمْ إيماناً بالله ورسوله ، ثمَّ دَخَلْتُمْ بَعْدِي في الإسلامِ رسلاً وإنِّي لَابْنُ عمِّ رَسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وأخُوهُ، وشَرِيكُهُ في نَسَبِه ، وأبو وِلْدِهِ، وَزَوْجُ ابنتهِ سيّدةِ ولدِهِ وسيِّدةِ نساءِ أهل الجنةِ.**

وَلَقَدْ عرفتُمْ أنّا ما خَرَجْنا مَعَ رَسُولِ الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مَخْرَجاً إلَّا رَجَعْنا وأَنَا أَحَبُّكُمْ إِلَيْهِ وأَوْثَقَكُمْ فِي نَفْسِهِ وَأَشَدُّكُمْ نِكَايَةً لِلعَدُوِّ و أثراً في العدُوّ.

وَلقَدْ رَأَيْتُمْ بِعْثَتَهُ إيَّايَ بِبَراءَةَ .

وَلَقد آخى بَيْنَ المسلمينَ فما اختارَ لنفسه أحداً غَيْري، وَلَقَدْ قَالَ لِي :

أنتَ أخِي وَأنَا أخُوكَ فِي الدُّنيا والآخِرةِ[2].

---

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٦٦_٦٧.

(٢) يُنظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو بكر الهيثمي، ص١١١. =

وَلقَد أخْرَجَ النَّاسَ من المَسْجِدِ وَتَركَني(١) .

وَلقَدْ قالَ(٢): **أنتَ مِني بمنزلةِ هارُونَ مِن مُوْسَى إلا أنَّهُ لا نَبِيّ بَعْدِي))** (٣).

فهذه الخطبة تحيل على وقائع تاريخية قريبة العهد، لا تعزُّ على الذاكرة ولا تتأبى على الأذهان . وهي تتراكم جميعاً فتسجل سياقاً خارجياً متراصاً يخدم الموضوع ؛ إذ يشير إلى مؤاخاته مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) واستيزاره يوم الدار وسبقه إلى الإيمان وقرابته مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والمصاهرة إليه عبر الزواج من ابنته . فضلاً عن بلائه في الحروب وبَعْثه ليبلغ سورة براءة . وسدّ أبواب المسجد إلا بابه، وحديث المنزلة الذي نصَّ على أن منزلته من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كمنزلة هارون من موسى (عليه السلام) ما خلا النبوة، فهذه فرقته عن هارون (عليه السلام) .

فما مرَّ يفسر نظر الإمام (عليه السلام) إلى وجوه الناس، فهو بصدد الإخبار عن علو كعبه في الإسلام تمهيداً لبيان أحقيته في الخلافة . والإخبار يحتمل الصدق والكذب ، وما بينهما من مرجحات اليقين والظن والشك والوهم هي التي تميل بكفة الخبر إلى إحدى الجهتين، فأراد الإمام (عليه السلام) أن ينفي الوهم والشك عمّا يُخبر به، ويسير به إلى دائرة اليقين، فعمد إلى هذه الوسيلة وهي النظر في الوجوه ليشد إليه المستمعين ويثبت صدقه عبر التأثير في نفوسهم(٤) . فهذا جزء من السياق الخارجي الذي تُلمح فيه بوادر تسعى لسد ثغرة من ثغرات الجهل بالخبايا المحيطة به وتفتح الباب مشرعة للمعنى، فالسياق الخارجي يساعد على فك ما أغلقت أسراره في التراث العربي الواصل إلينا عبر سبر ملابسات الخطاب والتوغل في شعابها.

وقد ينعكس الأمر فيحيل الخطاب على السياق ويتنبأ بخصوصياته، كالخطبة التي يوصي فيها الإمام (عليه السلام) أصحابه بجملة وصايا:

((أَيُّها النّاسُ إذَا هَزَمْتُمُوهُمْ فَلَا تُجْهِزُوا عَلى جَرِيحٍ وَلَا تَقْتُلوا أَسِيراً، وَلا تَتْبَعُوا مُوَلِّياً، وَلَا تَطْلُبُوا مُدْبِراً، ولا تَكْشِفوا عورةً، ولَا تمثلوا بقتيل ولا تهتكوا ستراً، ولا تقربُوا شيئاً مِن أموالِهم إلّا مَا تَجدونَه في عَسْكرِهم من سِلاحٍ أوْ كُراعٍ أو عَبدٍ أو أمَةٍ، وما سِوى ذَلكَ فَهُوَ مِيراثٌ لورثتِهُمْ على كتابِ اللهِ)) (٥).

---

(١) يُنظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ص١١٤-١١٥.

(٢) يُنظر: م.ن.ص١٠٩.

(٣) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٦٦-٦٧.

(٤) يُنظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص٥٢٨ فقد ورد فيه أن تبعة الخبر تعود على المُخبِر فهو الموصوف بالصدق إن كان صدقاً وبالكذب إن كان كذباً.

(٥) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٣٥٢.

تجدر الإشارة الى أن بعض هذه الألفاظ تحيل على حقل دلالي معين، وإلى أنَّ ثمة اشتجار قد لاحت بوادره فهي ألفاظ حرب، قد عجت الخطبة بها تمثلها الكلمات (جريح، أسيراً، مولياً، مدبراً، قتيل، عسكرهم، سلاح، كراع) فضلاً عن الأفعال (هزمتموهم، لا تُجهزوا، لا تقتلوا).

فهذه المفردات تنم عن جو الخطبة ، وقد اصطفت في نسقٍ متتالٍ وسريع، عبر جمل قصيرة توحي بتعجل ملقيها، لأن الظرف لا يسمح بالتأني ولا بالتهاون، وهذا يفسر تتابع أفعال النهي مع فاعلها في كلمة واحدة يتلوها المفعول به. وهذه الجمل وقعت جميعاً في حيز إذا، ببركة العطف الذي جمعها كلها في بوتقة واحدة، حتى إذا حان أوان الكلام عن أموال القوم وهي مما يقع تحت بوارق الطمع أطال المكث هنا ليبين لهم أنَّ القتال لا يبيح الاعتداء على الأموال التي لا مدخل لها في الحرب، لأنَّ هؤلاء القوم لم يخرجوا عن ربقة الإسلام، ومناجزتهم القتال كانت لأجل الدفاع عن النفس، وساق في البين دليلاً برهن لهم به صحة حديثه، إذ جعل حكم ما يتركونه من أموال لورثتهم كما شرّع القرآن، وهذا يعني أنهم على الملة، وإن سقط منهم من سقط في سوح الحرب.

وأباح لهم ما وجدوه في عسكر العدو من السلاح والكراع والعبيد والإماء، فهذا تفصيل لم يغرب عن باله، ولم يشغله ما هو فيه عن بيان الحكم الشرعي، لما هو مظنة الابتلاء الوشيك، وكأنه علم ما جُبلتْ عليه نفوسُهم من حب للأموال وانها لن تطاوعهم على الإذعان للحكم والاستسلام له بسهولة، وانهم سيراجعونه في مقالته هذه أكثر من مرة، حتى يتبين لهم أنه الحق .

فسياق الخطبة ومضمونها يخبران عن السياق الخارجي إذْ ان صيغة النهي المتكررة تزجر عن ارتكاب هذه الاعمال التي لا تتصور إلا في سوح الحرب والمعركة قد بدأت. لتحيل هذه النواحي إلى السياق الخارجي الذي مثل مسرحاً يضج بالحوادث، فيحكي عن فئتين تتنازعان وقد تشابكتا بالسلاح، وان كفة المعركة يتوقع ميلها إلى جهة الخطيب لقوله (إذا هزمتموهم) وقد تجلى في هذه الوصية بُعدٌ إنساني يتوسل الشفقة والرحمة طريقاً إلى العدو في حالات ضعفه جريحاً وأسيراً ومولياً ومدبراً وقتيلاً، كما يطلب إليهم أن تَعفَ أنفسهم فلا تطلب ما في العسكر من أموال، وأن لا يهتكوا للعدو ستراً.

والخطبة كشفت عن هوية القائل أيضاً، فهو من المصلحين، ما دامت شهوة القتل وسفك الدماء والغلبة وإذلال الآخر واستضعافه والاستيلاء على أمواله ليست من غاياته، فبإمكان السامع أنْ يحدس من خلال ذلك أن الجهة الموصى إليها هي طرف حقٍ لاصطفافها خلف قائد لا يبتغي البطش ولا الطغيان، وعند الرجوع إلى الرواية التي تقدمت الخطبة، وسردتْ أخبارها سنجد أن الراوي يبدأ الرواية بالمحدد الزمني فيقول: **((في يوم الجمل قبل اشتباك الحرب...))** فالجمل صار اسم علم على معركة جرت وقائعها في البصرة ... وبدا أن الخطبة كانت على قيد مسافة من بدء الحرب، وأن بواكيرها لاحت عندما قُتل من أصحابه شخصان، ثمّ رُشِقَ عمار بالسهام واتصل به

الرمي، فهذه نذر الحرب ونشوبها باتَ مفروغاً منه، لذا احترز الإمام (عليه السلام) من أعمال انتقامية فردية، قد يقوم بها بعض أفراد جيشه فصدع بالخطبة رافعاً صوته بها، لأنَّ المقام يفرض ان يجهر بمقالته ويصدح بها ليسمعه الجميع، لئلا يفوت هذا الإنذار أحد ويقترف من الإثم ما يتنافى مع الإسلام ومبادئه السامية التي تأبى أن يبدأوا عدوّهم بالقتال ويستذلوه بالاستيلاء على أمواله، وهذا تطابق قائم بين المضمون والسياق الخارجي الذي أشّرَ بوصفه معطى أولياً، حميمية العلاقة بين القائد وجنوده الذي لم ينس مبادئه التربوية حتى في سوح القتال، وهو ينهاهم على نحو إلزامي عن الإساءة إلى العدو على سبيل التشفي.

وسياقات بعض ما جرى بعد المعركة تكشف عن صعوبة توجيه هذا الرعيل الذي بقي يجادل ملحاً لتقسيم الذراري والأموال بينهم غير مستوعبين لجواز قتل هؤلاء مع عدم جواز سبي ذراريهم.

فاضطر الإمام (عليه السلام) أن يُعيدهم إلى صوابهم عبر إجابتهم إجابة صادمة إعادتهم إلى صوابهم[1]، وأبانت حجم المحنة التي يعيشها الإمام (عليه السلام) مع قومه، دون أن يتخلى عن مهمته في إصلاح ذواتهم وتهذيبهم.

وإذا كان الظرف المعبأ بأنواع من السياقات الخارجية المختلفة يفرض موضوعاً معيناً على المتكلم، فلا يسعه أحياناً الخروج عنه، فإن للمتلقي أن يفسر الخطاب في ضوء ذلك، وأن يفتش في السياق الداخلي في غضون التنقيب عن المعنى الذي قد يتعدد للمفردة الواحدة باختلاف الإطار الذي يتضمنها وهذا يقود إلى الاستعانة بالنظرية السياقية التي قال بها فيرث – وأُشير اليها في أول المبحث – وجعلها قيد النظر عبر تسييق المفردة الواحدة لتجود بما تكتنزه من معان، فهي مدلول واحد له دوال مختلفة.

القيمة عند دي سوسوروأثرها في تسييق المفردات:

ومن هذا المنطلق كان للبحث أن يتتبع بعض المفردات التي ألمت بدلالات متنوعة بحسب تسييقها. لكن قبل ذلك ينبغي معرفة الأمور التي تؤثر في تقلب المعنى ضمن دلالات متعددة، فالاستعارة مثلاً تحرك الدال عن معناه المعجمي الذي هو مدلوله الأصلي وتحيل على معنى آخر مجازي،وهذايعني أن ثمة امراً معيناً هو الذي يجعل الكلمات تتغيردلالاتها بتغير السياق الذي وردت فيه فكيف يُوجَّه– في ضوء ذلك – رأي دي سوسور الذي مفاده أنَّ الدّال والمدلول كوجهي الورقة الواحدة[2]، والحال ان الدلالة المتنقلة أو المتولدة – بسبب المجاز – قصمت هذه العلاقة بين الدال والمدلول فدي سوسور يرى ((أن الدّال، مع كونه يبدو وكأنّه قد أُختير بحرية كاملة ليمثل

(١) نهج السعادة،في نهج البلاغة،ج١، ص٣٧٢ فقد طلب إليهم أن يقرعوا على أُمِهم عائشة لأنها رأس الأمر !

(٢) يُنظر: أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة مدخل إلى السيموطيقيا، سيزا قاسم، نصر حامد أبو زيد،ص٥٥.

الفكرة التي يعبر عنها، ثابت، وليس حراً بالنسبة للمجتمع اللغوي الذي يستخدمه . وليس لجماهير الناس رأي في الموضوع. فالدال الذي تختاره اللغة لا يمكن استبداله بغيره.)) [١]، وهو يرى أيضاً ((...الكيان اللغوي يستمد وجوده من الارتباط بين الدال والمدلول)) [٢]، وما دام قد تحدث عن المجتمع اللغوي فهو يتحدث عن الدال والمدلول المرتبطين في حال الكلام. ((...وبدهي أن المظهر التأليفي للكلام رئيسي لأنّه يترتب عن كون الكلام مكوناً من تكرار الأدلة المتماثلة، ولايصير كل دليل عنصراً في اللسان إلا لكون الأدلة تتكرر من خطاب لآخر أو في الخطاب الواحد...)) [٣]، وتكرار الأدلة يسري على جميع الشواهد المتقدمة وجميع المفردات التي يتم تسييقها في الأداء اللغوي الذي يشمل اللغة والكلام.

وإذا كان انفصال الدال عن المدلول متعذر في اللغة بحسب رأي دي سوسور الذي ورد آنفاً لأن ما تختاره اللغة لا يمكن استبداله – كما قال – فانفصالهما في الكلام ميسور، ولاسيما في الأداء المجازي، فالدال هنا لم يتقيد بمدلوله الوضعي، بل انفصم عن دلالته المعجمية، فتحرك الدال ليعطي معنى ثانياً.

وهنا انتفت اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول ؛ لأنَّ مسوغ الانتقال الذهني من الدال إلى المدلول في الاستعارة هو التشابه لا الاعتباط[٤].

وإذا كان التشابه يشرح علة انتقال الدال من مدلول إلى ثانٍ، فهو لا يفسر كيفية الانتقال ولا طبيعة تغاير المدلولين ولاسيما ان التشابه بينهما يمكن ان يؤسس لبقاء الذهن في حيز المدلول الأول فحسب.

فلماذا – مثلاً – انتقل الذهن من المعنى المعجمي الأول إلى المعنى المجازي بسبب التشابه،على أن التشابه مع المدلول الأول –وهو المعنى المعجمي_ألصق وأبين لذلك يقفز إلى الذهن من فوره بسبب التبادر الذي هو أوضح علامات الحقيقة.

ولماذا ينتقي الذهن دلالة بعينها دون غيرها من الدلالات ولِمَ لَمْ يكتفِ بالمعنى الأصلي للدلالة ؟

وهنا تثار المسألة الثانية، ما هو المرجع الذي يحيل عليه الدال فينتج مدلولاً بعينه، فالأمر لا يخلو إمّا أن يكون ذلك المرجع أمراً بسيطاً فحينئذ لا يكون له إلاّ مدلول واحد، وإمّا أن يكون مركباً وحينها لا بُدَّ أن ينتجَ أكثر من مدلول ! وقد أحسن دي سوسور إذ أهمل أمر المرجع[٥]، ولم

(١) علم اللغة العام، فرديناند دي سوسور، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، ص٩٠.

(٢) علم اللغة العام ، ص١٢٢.

(٣) مبادئ في علم الأدلة، رولان بارث، ترجمة وتقديم محمد البكري، ص٣٥.

(٤) يُنظر:علم اللغة العام، ص٩١، ويُنظر: أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة مدخل إلى السيموطيقيا،ص١٨٩.

(٤)ينظرعلم اللغة العام،ص١٣٣،وينظر: : أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة مدخل إلى السيموطيقيا،ص٥٧

يتطرق اليه وإلاّ فإنَّ وجهة نظره حول ارتباط الدال بالمدلول وعدّهما كوجهي الورقة الواحدة ستخدش إذا كان المرجع مركباً، إذ سيتولد منه قهراً أكثر من مدلول واحد.

وتوجيه فكرة دي سوسور بما نبه إليه رولان باث أن دي سوسور ((...يستعمل صورة الورقة ليعبر بوضوح عن ظاهرتي الدلالة والقيمة...)) (١).

وعند الرجوع إلى كتاب علم اللغة العام وجدتُ أن دي سوسور يجعل القيمة عنصراً من عناصر الدلالة فهو يقول ((عندما نتحدث عن قيمة كلمة ما، نفكر أولاً بالصفة التي تجعل الكلمة تمثل فكرة ما وهذا في الحقيقة جانب من القيمة اللغوية))(٢). ويقرب ذلك بضرب مثل للكلمتين (Mouton) الفرنسية و(Sheep) الانكليزية، ويرى أنّ لهما الدلالة نفسها ولكن القيمة مختلفة لاختلاف خصوصيات الاستعمال(٣).

وقيمة الكلمة لديه مرتهنة بعاملين، الأول: استبدالها بفكرة معينة وهذه الفكرة هي الدلالة، والآخر مقارنتها بقيم متشابهة معها ويقصد بالقيم الكلمات الأخرى التي تتقابل معها، وهنا يتحدد محتوى الكلمة(٤).

ولو جاز تطبيق كلامه على اية مفردة في سياقاتها المختلفة يتبين أن دلالتها إنّما اختلفت لاختلاف القيمة اللغوية الداخلة في كل استعمال، إذْ ظهر أن القيمة هي التي تحدد محتوى الكلمة وبذلك تتحكم في توجيه دلالتها.

وبحسب فيرث فإن المعنى السياقي للمفردة البنائية إما أن يكون كامناً ضمن سلسلة معان سياقية ممكنة مجردة من كل نص، وإما ان يكون فعلياً، يتحقق ضمن سياق آني في مثال ما ومكان ما ونص ما.وتراكم المعاني السياقية الآنية هو الذي يحددالمعنى السياقي الكامن(٥)

تسييق المفردات:

وعليه فمن الكلمات التي سيتم تسييقها مفردة(الصبر)، فقد وردت في سياقات مختلفة وتضمنت خلال ذلك قيما متنوعة غيرت دلالاتها.

ففي معرض حث الناس على مكارم الأخلاق قال (عليه السلام) ((...**ومِنْ كُنوزِ الإيْمانِ الصّبرُ على المصَائبِ**)) (٦).

---

(١) مبادئ في علم الأدلة، ص٨٩.

(٢) علم اللغة العام، ص١٣٣ .

(٣) يُنظر: م.ن.ص١٣٦.

(٤) يُنظر: م . ن ، ص١٣٤ .

(٥)ينظر:المعنى وظلال المعنى،أنظمة الدلالة في العربية ،ص١٢١

(٦) م . ن ، ج١، ص٧٩ .

فالصبر نقيض الجزع[١]، والمصائب تتطلب احتمالاً وجلداً وتماسكاً، والسياق يفرض من الصبر أحسن أنواعه الذي لا يخالطه شكوى ولا تذمر بقرينة (كنوز الإيمان) فإذا شابه شيء من ذلك لم يعد كنزاً، بل لم يعد صبراً، لأن الشكوى هي مفردة من مفردات الجزع، والتذمر بعض صوره، وهما وما شابههما يقوضان الصبر ويعدمان هيأته.

وهذا استعمال لهذه المفردة ضمن الإطار المعجمي المتطابق مع القصد العرفي السائد، فهذا أشهر معانيها المتداولة.

وحيوية اللغة لا تقف عند حد، لذا جاءت هذه الكلمة لتشير إلى مدلول آخر حقيقي أيضاً، وسط سياق خارجي تفرضه أجواء حرب وشيكة، فالمقام مقام حث على الجهاد، فلابد من بسط الأمور أولاً وتوضيح بعض ما خفي ليكون القوم على بينة مما يقومون به لئلا تشتبه عليهم المواقف . ولأجله سرد عليهم أولاً بعض البوادر التي قام بها العدو وهيج بها دواعي المعركة، منها تتبع الرجال الصالحين، فقال في ذلك: ((...**ثم تَتَبعُوا مِنْهُم مَنْ نَجَا يَأخُذُونَهم فِي كلِ حَائطٍ وتَحت كلِ رابيةٍ ثمَ يَأتونَ بِهم فَيضْربونَ رِقَابهم صَبْراً**...))[٢].

فالمقصود بكلمة (صبراً ٩ هنا ، معنى مزدوج هو القتل مع الحبس[٣]، فإذا انتفى أحدهما لم يكن صبراً، ولذا احتملت هذه المفردة معنى مكثفاً ناب عن حدثين كبيرين، تجلت بهما طاقة اللغة وقدرتها على التصريح.

وقد ساق هذه المفردة لتحمل معنى آخر، في ظرف مشابه للظرف السابق فثمة معركة ستشب مع بواكير صباحٍ أراد الإمام (عليه السلام) أن يُحيوا ليله بالعبادة، إذ هذا آخر حظهم من الحياة، فمن جملة ما قاله ((...**فأطْيلُوا اللَّيلةَ القِيامِ وأكثُرُوا تِلاوةَ القُرآنِ وَاسْألُوا اللهَ الصّبرَ والنّصرَ**)) [٤]، فالمراد من الصبر في هذا المضمار الثبات في المعركة، أي حبس النفس على شدائدها، فلا فرار من ساحة الحرب، إمّا النصر وإمّا الشهادة.

ولهذه المفردة التي تقلبت في شعاب الحقيقة معانٍ مجازية منها ((...**وسَيَنْتقِمُ اللهُ مِنَ الظَّلَمَةِ مَأْكلاً بِمَأكَلٍ، ومَشرَباً بِمَشرَبٍ مِنْ لُقَمِ العَلْقمِ، وَمشارِبِ الصَّبِرِ الأَدْهَمِ**...)) [٥]،

فليس ثمة من يشرب المر، فالمقصود شدّة المرارة التي يتجرعها الشارب، بقرينة كلمة (الأدهم) التي تدل على السواد، ومعلوم أن الشيء إذا ازداد اسوداده ازدادت مرارته، فهذه الصفة

---

(١) يُنظر: القاموس المحيط، مادة صبر،ص٣٩٣.

(٢) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٣٥٠.

(٣)ينظر: أساس البلاغة، ج١، ص٥٣٤ ، والقاموس المحيط، ص٣٩٣.

(٤) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص١٢٣.

(٥) م . ن ، ج١، ص٢٤٩.

مشعرة بتناهي الحد في الموصوف، فكأنما جيء بها قرينة إلى موصوفها ليسجلا معاً مبالغة تفصح عن تفاقم الأمور على الظَلَمَة.

وقد سيقت ثانية لتدل على القهر والغلبة، إذ قال (عليه السلام) في مقام الاستعداء على قريش: **((اللّهمَ إنّي استعديكَ عَلى قُريشٍ وَمَن اعانهم فإنّهم قدْ قطَعوا رَحمِي، وأكْفؤوا إنائِيَ، وأجْمَعُواعَلى مُنازَعَتيَ حقاً كنتُ أوْلَى بهِ مِن غَيرِي، وقَالوا: ألا إنّ في الحَقِ أنْ تأخذَهُ وفي الحقِ أن تُمْنَعَه فاصْبِرْ مَغْمُوماً أو مُتْ مُتأسّفاً))**[1].

لا يبرز معنى الكلمة هنا إلا بتسلط السياق الخارجي على المضمون الداخلي، فالمقام مقام تظلم وشكوى من قومه الذين استفردوا به، فاستضعفوه واستخفوا بحقوقه وقهروه عليها وكان لسان حالهم معه أن يطالبوه بالصبر على اهتضام ملكه مستظهرين عليه بجمعهم، وكانت غاية الاستهانة لما طلبوا إليه الصبر (فاصبر مغموماً) فالفعل (اصبر) خرج عن مضمونه إذ لا يُراد به هنا البعث على الفعل حقيقة، مادام الآمر أدنى درجة من المأمور في الواقع، إذ الباعث لا يداني المبعوث فالمقامات محفوظة، والإمام (عليه السلام) وإن كان مستخفضاً لجناحه لكنه الأعلى مقاماً، على ان هذا لا يقدح في ماهية الفعل، ولا الغرض الذي جلب لأجله إذ قصد به بيان الظلم الواقع عليه، فهو يدل على القهر والغلبة بقرينة الحال التي تلت الفعل مخبرة عن صاحبها.

ولهذه المفردة معنى آخر في قوله: **((...والصبرُ جُنَّةٌ مِن الفَاقَةِ...))** فالصبر مفهوم معنوي وقد ترشح منه أثر مادي هو الحجاب والستر، فالكلام مبني على الاستعارة لذا حقق صورة فنية، نجمت عن تحريك المدلول في الطرفين، فالصبر في أصله المعجمي ليس جُنّة لكنَّ لمّا أريد به العفاف تبدل مدلوله ؛ إذ كيف يتصور أن يكون حاجزاً عن الفقر والاحتياج لولا أنّه يقيد المرء بالعفة عما في أيدي غيره! ساعد على اختيار هذا المعنى السياق الداخلي، إذ سبقهما قوله: **((...أشرفُ الغِنَى تَرْكُ الْمُنى))** فالوصل بين الجملتين سبكهما في قالب معنوي واحد أفضى بهما إلى تحصيل أسباب القناعة بحبس النفس على الرضا بما في أيديها وهو مدلول العفة.

من المفردات التي كثُر تداولها على لسان أمير المؤمنين (عليه السلام) وهي مفردة (الموت) التي يتحدد معناها المعجمي بالسلب، إذ تعرف هذه الكلمة بأضدادها، جاء في القاموس ((ماتَ يَموت ويَمات، ويَميتُ، فهو مَيْت وميّت: ضد حي...)) [2]، فالموت إذاً ضد الحياة، فهو في أصله مفهوم عدمي لا يتقوم بعرَض ايجابي، ويُفترض أن هذه الكلمة تشتمل على معانٍ سياقية كامنة ما دامت مجردة من النص، وأن هذه المعاني ستبرز عند دخولها في سياق فعلي.

---

(١) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٣٦٤.

(٢) القاموس المحيط، مادة:مات ، ص١٦١.

فمن السياقات الفعلية التي وردت فيها كلمة (الموت) قوله يوم الجمل يحث قومه على الجهاد **((أيُّها الناسُ إنّ المَوْتَ لَا يَفُوتُهُ المُقيمُ ولا يُعْجِزُهُ الهارِبُ، لَيْسَ عنِ المَوتِ مَحِيصٍ، ومَنْ لَمْ يُقْتَلْ يَمُتْ، وإنّ أفْضَلَ المَوْتِ القَتْلُ...))** (١).

في هذه المساحة الصغيرة وردت كلمة (الموت) ثلاث مرات، لبيان انه حقيقة قائمة تُلاحقُ الفردَ، فهو إن لم يُقتل طوعاً في سوح الجهاد مات حتف أنفه ميتة لا تُتْحفه بمفاتيح الكرامة.

والظاهر أن المراد بهذه المفردة في أول وثاني ورود لها انقضاء الأجل ببلوغ سببه فهو أمر حتمي لا مفر منه.

وهذه الدلالة السياقية الفعلية تتسق مع المعنى المعجمي، لأنّ انقضاء الحياة بحلول الأجل لا يستلزم جميل الإطراء وحُسن الأحدوثة، فهو زوال واندثار وانطواء الأثر وخمود الذكر.

أما في وردودها ثالثاً (ان أفضل الموت القتل) حملت معنى السبب ، لأن القتل سبب الموت، ولا تنحصر ألاسباب به لكنّه أفضلها، فالكلام على تقدير محذوف هو (أسباب أو سبب) وهنا يلاحظ أنّ المعنى الآني أو الفعلي اكتسب صبغة وجودية وفي هذا مغايرة للمعنى المعجمي ذي الدلالة العدمية.

وحملت معنى الفناء في قوله يذم الدنيا **((ألا وإنّها قد تَصرّمتْ وآذَنتَ بانقضاءٍ، وتنَكّرَ مَعْرُوفُها، وأصبحتْ مُدْبرةً مُولّيةً، فهي تَهْتفُ بالفَناءِ وتَصْرَخُ بالمَوْتِ...))** (٢).

السياق كله متجانس، والألفاظ أسماء كانت أم أفعال متضافرة في ارساء قواعد النهاية وزوال الدنيا، فقوله (تصرخ بالموت) هو نظير ما تقدمه تهتف بالفناء)، فبرد المعطوف على ما قبله يتحصل معنى الفناء. والغرض من عطف المعنى على مرادفه توكيده وتقويته ولاسيما ان المخبر عن الجملتين واحدٌ والعطف بالواو زاد الأمر وضوحاً وظهوراً(٣).

وسياق الكلمة هنا يتوافق مع أصلها المعجمي إذ الفناء من لوازم الموت التي لا تنفك عنه ولا تفارقه، بل هو أبرز آثاره الناجمة .

وربما أريد بالموت الجهل في قوله ينعت الإسلام **((فبالإيْمَانِ يُسْتَدلُ على الصَّالِحَاتِ، وبالصالحاتِ يُعْمّرُ الفِقْهُ، وبالفقهِ يُرهَبُ المَوْتُ...))** (٤)، فالفقه هو الفهم والفطنة(٥)، والعلم بالشيء، والعلم يقابل الجهل تقابل الملكة وعدمها، ولا يقابل الموت إلا على نحو مجازي.

---

(١) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٣٣٢.

(٢) م.ن،ج١، ص٥٥٥-٥٥٦.

(٣) يُنظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص٢٢٦.

(٤) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة ، ج١، ص٦١٦-٦١٧.

(٥) يُنظر: أساس البلاغة، ج٢، ص٣٢.

ومعنى الكلمة في سياقها الآني يطابق معناها في السياق الكامن من جهة ان الموت والجهل عدميان لا ينضويان على شيء وجودي.

ومن الاستعمالات التي بها أريد بهذه الكلمة غير ظاهرها قوله نافياً عن نفسه تهمة اللعب **((زَعَمَ ابْنُ النَّابغَةِ أنّي تِلْعابَةَ تِمْزاحَةُ ذُو دَعابَةٍ أُعَافِسُ وأُمَارِسُ، هَيْهاتَ يَمْنَعُني مِن ذَاكَ خَوْفُ المَوْتِ...))** [1]، لا ينبغي أن يكون المراد من (الموت) معناه الحقيقي وهو القائل لابنه الحسن **((...إنَّ أبَاكَ واللهِ ما يُبالِي وَقَعَ عَلَى المَوْتِ أَوْ وَقَعَ المَوْتُ عَلَيه))**[2]، فالسياق يقتضي دفعَ التهمة عن نفسه ونفيَ أن يكون من اللاعبين اللاهين ؛ فلا علاقة مباشرة بين هذا وبين خوف الموت، اللهم أن يكون قد خاف الحساب الذي هو من وراء الموت ومسبب عنه، والسياق هنا آني لأن المفردة زحفت على إحدى محاور سلسلة المعاني في السياق الكامن واكتسبت صبغة وجودية نأت بها عن المعنى المعجمي السلبي.

وجاءت هذه المفردة في قوله (عليه السلام) يذم المنهزم الفار من المعركة إذ يلزمه الذل والعار **((...فموْتُ الرّجُلِ مُحِقّاً قَبْلَ إتْيَانِ هذِهِ الْخِصَالِ خَيْرٌ [له]** [3] **مِنَ الرِّضا بالتلبس بها والإِقْرارِ عَلَيْها))** [4]. إن سيرورة الخطاب هنا ترجح معنى معيناً وتستبعد غيره، فقد تضافر السياق الخارجي والداخلي معاً في ترجيح (الشهادة) مدلولاً ملائماً لهذه اللفظة، فالمقام مقام اشتجار قومه مع العدو، وقد حاز العدو ميمنة جيش الإمام (عليه السلام) عن موقعها فكان لابد له أن يحثهم على الاستبسال والجهاد ونبذ التواكل والإدبار، لأنَ ما بعد النكول والهزيمة هو العار المسبب عنهما ومقابل العار هو العز وهو مسبب عن إحدى اثنتين في المعركة، إما النصر وإما الشهادة التي هي موت المرءِ مُحِقّاً، وبذا يتشخص المراد وتكون لفظة الموت في هذا المنطوق عَلَماً على الشهادة، وتتجسد في حِلْيَة جديدة في ظل السياق الفعلي.

ولهذا الاستعمال ما يشابهه في خطبة له بصفين عندما كان يحثّ قومه على القتال والصبر في المعركة ويحذرهم الفرار لإنّه عارٌ في الدنيا ونارٌ في الآخرة، فقال **((عَاوِدُوا الكَرَّ واسْتَحْيَوا مِن الفَرِّ...وطِيبُوا عَنْ أنْفُسِكُمْ أنْفُساً وامْشُوا إلى المَوْتِ مَشْياً سُجُحا...))** [5]، فكلمة (الموت) انفصلت عن معناها المعجمي وخرجت إلى معنى ثانٍ هو الشهادة وموطن الانفصال هو مضمون الشهادة لأنّها تنضوي على معنى الحياة والإشادة والخلود، وبذلك جاء التنزيل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

(1) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج2، ص29.

(2) م.ن ،ج2، ص135.

(3) هذا القوس من المؤلف.

(4) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة، ج2، ص137.

(5) م . ن، ج2، ص158.

أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1]، فالحياة والموت على طرفي نقيض وهما من الأضداد ولئن صدق لفظ الموت على معنى الشهادة فلأنه علّة ومقدّمة لتحصيلها. فالسياق الفعلي قطع ما بين المعنى الآني والمعنى المعجمي الذي يستوي بمفهوم العدم لا الحياة.

وقد خرجت هذه الكلمة من قفص الاستعمال الحقيقي إلى أفق المجاز الواسع، عندما خطب قومه بعد ان منعهم العدو من الماء فخيرهم بين الذلّة أو الموت في عز، فقال ((**أمّا بَعدُ ،فَإنّ القَوْمَ قَدْ بَدَؤُوكُمْ بالظُّلم، وفَاتَحُوكم بالبغي، وَاسْتقبلوكُم بالعُدوَان وَقَدِ اسْتَطْعموكُم القتالَ حَيْثُ مَنعوكم الماءَ، فأقِرّوا على مَذلّةٍ وتَأْخِيْر مَحلَّة، أو رَوُّوا السُّيوفَ مِن الدِّمَاء تُرْوَوْا من الْمَاء، فالمَوْتُ في حَياتِكُم مَقْهورينَ، والحياةُ في مَوْتِكُم قَاهِرينَ**)) [2]. أُشربت كلمة (الموت) هنا في استعمالها الأول معاني الذل والخنوع والخضوع في حال كونهم مغلوبين على الماء، لأن الماء هنا مثّل رمز الوجود والعز ودليلاً على الغلبة والشموخ، فهو مقوّم للحياة بشقيها المحسوس والمعقول، لذا كانت حيازته في ساحة المعركة علامة الظفر والنصر ودليلاً على الإباء والشموخ حتى إنَّ الموت من دونه هو الحياة، لذا اشتملت كلمة (الموت) في استعمالها الثاني على هذا المعنى الذي حققه تشابك السياق الخارجي والداخلي.

وجاءت بمعنى القتال إذ حتم هذا المعنى السياق الخارجي والداخلي معاً فبعد ان تخاذل أصحاب الإمام (عليه السلام) عنه أياماً عادَ يستنفرهم ثانية وقد جمع إلى الاستنفار التوبيخ واللوم فقال لهم : ((**...وأيمُ اللهِ إني لأظن بكم أن لو حمِسَ الوغى واستحرَّ الموت، قد انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج الرأس**)) [3].

في الكلام تعريض لهم بالجبن والتواكل، وهما قد يكونان سبب التخاذل ،وحريّ بمن كان جباناً أن يتوقى سوح الحرب في أوج استعارها وعليه فاستحار الموت هو ناجم من اشتداد المعركة الذي تدل عليه جملة (حمس الوغى) ومن ثم دل على تفاقم الاقتتال والقتل الذين هما من أسباب الموت والسياق يرشح القتال معنى مشخصاً في السياق الآني إذ هو المفسر لاستحار الموت في المعركة!.

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر، فقد خرج معنى الموت المعجمي إلى معنى القتل أيضاً في حوار جرى بينه وبين الأشعث إذ رام الأخير أن يفتك بالإمام (عليه السلام) فقال له (عليه السلام): ((**أبالموت تُهدِّدُني؟ فوالله ما أبالي وقعتُ على الموت أو وقع الموت علي**)) [4]، فكأنَّ الكلامَ (أبالقتل تُهدِّدني).

---

(١) آل عمران : ١٦٩.

(٢) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة ، ج٢، ص٩١.

(٣) م . ن ، ج٢، ص٤٢٩.

(٤)نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة ،ج٢، ص٦٠٦.

وبذلك ((يقوم النشاط التأويلي على أساسَ الوضع داخل السياق . فهو يُرجع الفقرة، حتى ولو كانت جد مختصرة (يمكن ان تكون كلمة) إلى محيطها...)) [١].

ومن الكلمات التي فارقت سنخها وتبدت في مظهر آخر كلمة الشجرة التي قالها في معرض مدح الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) **((وأشْهدُ أنّ مُحَمَّداً عَبدُهُ وَرَسولُهُ المقرُ فِي خَيرِ مُسْتقرٍّ، المُتَنَاسَخُ مِن أكَارمِ الأصْلابِ وَمطهَّراتِ الأرْحامِ المُخْرَجُ من أكْرَمِ المَعادنِ مَحْتِدا، وأفْضَلِ المَنابتِ مَنْبِتا، من أمْنَعِ ذرْوَة، وأعزِّ أُرُومة، من الشّجَرَةِ التي صَاغَ اللهُ منها أنبياءَهُ وانْتَجَبَ منها أُمَناءَهُ الطَّيبةِ العُودُ، المعتدلةِ العمُودُ، الباسقةِ الفُرُوعُ، الناضِرةِ الغُصُونُ، اليانعةِ الثمار الكريمةِ الحَشاءُ))** [٢].

فالشجرة فارقت معناها المعجمي[٣] وخرجت إلى معنى: الأصل والمحتد بقرينة الكلمات (المعادن، المحتد، المنابت، أرومة) ولأجل أن يلبس المجاز ثوب الحقيقة رشح لهذه الاستعارة التصريحية ملائمات هي (طيبة العود والباسقة الفروع والنضرة الغصون واليانعة الثمار) فقرّب بين الحقيقة والمجاز وادخلهما في مشتبك واحد.

إنَّ التقاط هذا المعنى وإسباغ صفة المجاز عليه كان بسبب التعويل على السياق اللغوي الذي تجسد في هذه الجمل المتتابعة من خلال تفكيك هذه الجمل المحيطة بكلمة (شجرة) وإحالة كل كلمة إلى مرجعها الذي تحيل عليه، ليتبلور المعنى المجازي، إذ انَّ العود الطيب والعمود المعتدل والفروع الناضرة والثمار اليانعة من خصائص الشجر النابت، وإذا قصد به طيب المحتدّ تبين المجاز الكامن الذي أظهره السياق الفعلي.

ولعل سياق الموقف، أو سياق المقام هو الذي دفع الإمام إلى استعمال هذه الكلمة عندما بلغه ان قريش احتجت لنفسها يوم السقيفة بأنّها شجرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

فقال (عليه السلام): **((احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة))** [٤].

فإنما أعاد الإمام (عليه السلام) لفظ (الشجرة) عليهم لبيان المغالطة التي وقعت فيها قريش عندما وضعت ما ليس بعِلّة محلّ العلة[٥]، فالشجرة لا تطلب لذاتها وإنما لثمرها والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إنّما كان ثمرة من ثمارها، فما ينوب عنه يكون مثله في الماهية.

وما تقدم لا يمنع من استعمال اللفظة في مساقها الأصلي محتفظة بأصلها المعجمي، من ذلك ما استعمل في صفة أقوام عَرَفهم بحسن العبادة: **((...إذَا ذَكَرُوا اللهَ مَادُوا كما تَميدُ الشّجَرَةُ يومَ**

---

(١) فنون النص وعلومه، فرانسوا راستيي، ص١٢٤.

(٢) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٥٨٤-٥٨٥.

(٣) يُنظر: أساس البلاغة، ج١، ص٤٩٤-٤٩٥.

(٤) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٥١.

(٥) يُنظر: المنطق، محمد رضا مظفر، ص٤٨٤.

الـرّيحِ العاصِـفِ)) [١]، وقريب من هذا التعبير في صفة أصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يطري حسن سمتهم معدداً خلالهم الحسنة فقال (عليه السلام): **((...فإذا ذُكِرَ الله تعالى مَادُوا كَمَا يَمِيدُ الشّجَرُ فِي يَوْمِ الرّيحِ...))** [٢]، استثمرت هذه الكلمة في استعمالها الحقيقي لتثري المشهد الدلالي الذي يبغي رسم صورة العبد الناسك الخائف من ذكر مولاه فاعتراه ما أرعد فرائصه كالشجرة التي تشتد بها الريح في يوم عاصف.

هذه الصورة التي اقتطعت من محور الطبيعة ابقت الكلمة ضمن مدار الاستعمال المألوف على الرغم من أنّها كانت وسيلة المتحدث في إذكاء أجواء المبالغة تشويقاً وترغيباً.

إنّ تسييق الكلمة على نحو متدرج – كما في المفردات الآنفة – يكشف عن السياق الأكبر الذي أسماه فيرث سياق الثقافة، إذ كلّ واحد من السياقات المختلفة يؤدي وظيفة عضو في السياق الأكبر [٣].

أي أنّ الكلمة الواحدة عندما تدخل في أكثر من سياق واحد وتكشف عن أكثر من معنى، تصب جميعاً في مجرى السياق الكبير المنضوي تحت السياق الثقافي على نحو تراكمي.

علماً أن تسييق المفردة الواحدة يتيح إمكانية أكبر في التواصل لأنّ الدال الواحد يمكن إرجاعه إلى عدد من الدوال ((... وهذه هي حال القواعد الشعرية التي يكون التواضع فيها ضعيفاً، وتكون الوظيفية التقصيرية متطورة، والعلامة مفتوحة...)) [٤].

وبعود الكلام إلى أوله واقتفاء أثر بعض الكلمات التي حملت دوال مختلفة تتبين صحة هذه المقولة، ككلمة صاحب، وما جاورها في الاشتقاق في خطب الإمام (عليه السلام) فقد حملت دالات مختلفة باختلاف التأويل اللاحق في شتى السياقات التي وردت فيها.

ومن ذلك ورودها على الأصل في قوله (عليه السلام) **((أمَا وَاللهِ لَقَدْ كَانَ أصْحابُ رَسُولِ اللهِ** [صلى الله عليه وآله وسلم](٥) **وَهُمْ يُكابِدُون هذا اللَّيْلَ، يُراوِحُونَ بَيْنَ جباههم وَرُكَبِهِمْ))** [٦] إلى آخر ما ذكر من أحوالهم، غير خافٍ أن المراد بكلمة (أصحاب) هو الملازمة بين المتصاحبين والانقياد وعدم النفور فهذا ما يتبادر إلى الذهن من حاق اللفظ بمعونة السياق الذي لا يتسرب منه غير هذا المعنى.

---

(١) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٢٥٣.

(٢) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص٥٥١.

(٣) يُنظر: المعنى وظلال المعنى، أنظمة الدلالة في العربية، ص١٢٣.

(٤) السيميائيات دراسة الانساق السيميائية غير اللغوية، بييرجيرو، ص٣٣.

(٥) ما بين القوسين المعقوفتين أضافهما المؤلف.

(٦) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٢، ص٥٥٠-٥٥١.

ويدانيه في استعمال اللفظ ذاته في معنى مشابه قوله مستجيراً **((أَمَا وَاللهِ لَوْكَانَ لِي عِدَّةُ أَصْحَابِ طَالُوتَ ، أَوْ عِدَّةُ أَهْلِ بَدْرٍ ، وَهُمْ أَعْدَادُهُمْ ، لَضَرَبْتُكُمْ بِالسَّيْفِ حَتَّى تَؤُولُوا إِلَى الْحَقِّ وَتُنِيبُوا لِلصِّدْقِ))** (١).

فهنا كلمة (الأصحاب) لا تقف عند حدود التقيد بالملازمة بل يتعدى معناها إلى الموالاة والنصرة والانقياد كأصحاب طالوت الذي دانوا له بالولاء ونصروه.

فكلمة أصحاب في الاستعمالين السابقين اتحد معناهما مع شيء من التفاوت في النسبة – أي نسبة الصحبة – اقتضى ذلك السياق الذي يسوّر كل واحد من هذين الاستعمالين، فحدود الصحبة مع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لم تتعدّ حدود التأثر الأخلاقي والمشابهة في السلوك فكان أصحابه يكابدون الليل ساهرين بالعبادة – هذا ما يفرضه نص الخطبة من تحليل – .

أما أصحاب طالوت فقد تجاوزت الصحبة هذا المدى وتجسدت سلوكاً مبدئياً في التفدي والمؤازرة على قلة العدد.

ومن هنا يلاحظ تدرج مفهوم الصحبة ليكتسب سعة في الاستعمال الثاني فضلاً عن التأثر الأخلاقي الذي قيّد حدودها في الاستعمال الأول .

وإذا لوحظت المبدئية والخلق الإسلامي والديني في الخطابين المنصرمين فستتجلى صحبة فارقت المحتوى الأخلاقي والديني ومع ذلك كان اللفظ يدل على محتواها في قوله متأسفاً **((إِنَّ بُسْرَ ابْنَ أَرْطَاةٍ قَدْ غَلَبَ عَلَى الْيَمَنِ ، واللهِ مَا أَرى هؤلاءِ القَوْمَ إِلَّا سَيَغْلِبُونَ عَلَى مَا فِي أَيْدِيكُمْ ، وما ذَلِكَ بِحقٍّ فِي أَيْدِيهم وَلَكن بِطَاعَتِهم وَاسْتِقَامَتِهمْ لصاحبهم ومَعصيتِكُمْ لِي وَتَناصرهُم وتَخاذلِكُم...))** (٢).

هاهنا مقايسة واضحة أفرزت الاختلاف بين قبيلين فرّق بينهما تخندق أحدهما حول الباطل والتحاق الآخر بكفة الحق. ومع ذلك تباين سلوك كل فئة مع ما هو مرجو منها، فالفئة الضآلة استمسكت بعرى قائدها حتى عبّر عن ذلك الإمام (عليه السلام) بما يلفت النظر فقال (واستقامتهم لصاحبهم)، فالاستقامة لا تتصور مع الباطل، لكنه (عليه السلام) أراد أن يبين شدّة طاعتهم لقائدهم وعدم تفرقهم عنه واستقامة دواخلهم معه، فلا يخالطها غش أو دغش لذا لم يعوجوا إلى غيره أو يميلوا إلى سواه، وانتفت بذلك عوامل النفرة وكان صاحباً لهم على الحقيقة بأمارة الطاعة والانقياد، ولمّا لَمْ يَرَ الإمام (عليه السلام) من قومه انصياعاً ، بل رأى تخاذلاً وعصياناً لم يكن لهم صاحباً لفقدان موجبات الصُحبة.

فمعنى (صاحبكم) في هذا السياق يتضمن الولاء والانقياد التام الذي لا تشوبه مخالفة أو احتجاج.

---

(١)نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٦٣ .

(٢) م . ن، ج٢، ص٥١٢.

وربما استعملت هذه اللفظة في مورد مشابه في سياق مقارب، إذ يقول لهم: **((وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ، لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي صَاحِبُكُمْ ، وَالَّذِي بِهِ أُمِرْتُمْ ، وَأَنِّي عَالِمُكُمْ ، وَالَّذِي بِعِلْمِهِ نَجَاتُكُمْ ، وَوَصِيُّ نَبِيِّكُمْ ، وَخِيَرَةُ رَبِّكُمْ ، وَلِسَانُ نُورِكُمْ))**[1]. لا يمكن الاكتفاء بهذه الجملة (اني صاحبكم) في مقام تفسير هذه الكلمة فلابد من الرجوع إلى السياق الحاف الذي تقدم هذه الجملة وتأخر عنها، ليتحدد معناها. سُبقت هذه الجملة بالقسم وامتزجت بأن المؤكدة ثم تلتها قرائن اسهمت في تحديد المعنى الأصلي وهي (الَّذِي بِهِ أُمِرْتُمْ، وَأَنِّي عَالِمُكُمْ ، وَالَّذِي بِعِلْمِهِ نَجَاتُكُمْ، وَصِيُّ نَبِيِّكُمْ، خِيَرَةُ رَبِّكُمْ، لِسَانُ نُورِكُمْ) هذه الجمل وأشباهها تعين على استنباط معنى كلمة (صاحبكم)، لأن الصحبة في معناها المألوف لا تحتاج إلى العلم ولا إلى الوصاية النبوية أو الخِيَرَةِ الإلهية ولا إلى الهداية والإرشاد ولا إلى توكيد أسبابها بالقسم، إذن مجموع هذه الأمور كلها هو الذي يرشح معنى الوصي أو الخليفة أو القائد أو الولي أو كلها معاً لعدم تنافرها في مقام الجمع.

وقد ترشح من مفردة صاحب معنى غريب لعدم انسجامه مع المعنى المعجمي في ملائماته ومقتضياته، كقوله (عليه السلام) متبرماً **((اَللَّهُمَّ إِنِّي سَئِمْتُ الْحَيَاةَ بَيْنَ ظَهْرَانِيِّ هؤُلاَءِ الْقَوْمِ وَتَبَرَّمْتُ الأَمَلَ ، فَأَتِحْ لِي صَاحِبِي حَتى اسْتَرِيحَ مِنْهُم ويَسْتَرِيحوا مِنِّي وَلَنْ يُفْلِحُوا بَعْدِي))**[2].

إنَّ السياق اللغوي يرجح معنى ينأى عن المعنى المعجمي ، لأنَّ ما يتيحه الكلام المحيط بالمفردة يرفض المعنى الأصلي الذي يضيق عن استيعاب حالة الإنسان الذي سأم الحياة وسط قوم يستشعر معهم الغربة فبعدت الشقة بينه وبينهم حتى تمنى الموت بدلاً من العيش معهم، هذا التمني أحال العدو الذي يُتوقع الموت على يديه إلى صاحب . ولو رُدَّ الكلام إلى أصله لكان معناه (فأتح لي قاتلي) ولا يبعد أن يكون في معنى الصحبة الملازمة بين القاتل والقتيل وهي بهذه الحيثية صحبة دائمة لا تنقطع بالموت، لأنَّ القاتل سيكون أبداً علماً على القتيل.

وهذا لا يمنع ان تأتي هذه المفردة في نطاق الاستعمال الدارج والمألوف كقوله (عليه السلام) محذراً وواعظاً **((كُفْرُ النِّعْمَةِ لُؤمٌ ، وَصُحْبَةُ الْجَاهِلِ شُؤمٌ...))**[3].

إن السياق اللغوي المحيط بهذه المفردة يُسيّجها بدواعي الوعظ والإرشاد، لذا لن تخرج مفردة الصحبة عن محتواها المعجمي وستتطابق معه في المقتطف الذي يحذر من قرين السوء ولو من جهة جهل هذا القرين مما قد يؤدي إلى تقويض الصحبة أو التردي في مهالك الجهل .

---

(١)نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة ج١، ص٦٣.

(٢)م . ن، ج٢، ص٥٥٤-٥٥٥.

(٣) م . ن، ج١، ص٧٧.

إن تنويع المعاني للمفردة الواحدة يسفر عن الطاقة الإيحائية التي تنعم بها المفردات في ظل السياق الكامن . فإذا أخرجت إلى حيّز الفعل اظهر السياق الآني هذا المعنى المستور وأبدى مدلولاته الخافية.

وبرهان ذلك ظاهر في المفردات التي تم تسييقها آنفاً، إذ اتسعت المسافة بين المعنى المتواضع عليه والمعنى المستعمل الذي يستنطقه السياق الحاف . على اعتبار ان التحليل إنما يطال اللفظة في مجالها الحي عندما تستعمل لا عندما تكون إرثاً حبيساً مكنوناً في معاجم اللغة، إذ ((إنّ تحليل الخطاب بالضرورة تحليل للغة في الاستعمال...))[١].

في ضوء ما تقدم يمكن تسييق مزيداً من المفردات التي تعكس أبعاداً مختلفة للّفظ فتظهره في مدلولات متنوعة.

فمن المفردات التي اتسعت في فضاء الاستعمال، مفردة (مطايا) التي جاءت في خطب الإمام (عليه السلام) متشحة بعلامات مختلفة التأويل.

ففي إشارته (عليه السلام) إلى المتقين بعد ان عدد حسناتهم ((**أُولَئِكَ عُمَّالٌ لِلَّهِ ، [وَ]**[٢] **مَطَايَا أَمْرِهِ وَطَاعَتِهِ ، وَسُرُجُ أَرْضِهِ وَبَرِيَّتِهِ...**))[٣]، لاشك أن للسياق الداخلي أثر في توجيه دلالة هذه الكلمة، فالوصف المحيق بهؤلاء المتقين يتوخى بيان مقدار تذللهم وانقيادهم فهم (عمّال الله) وهذه دالة واضحة ستسهم في فك شفرة المعنى بوصفها إحدى الوسائط التي تحدده وتتحكم في بيانه . لأنّ هذا المركب الاضافي (عمال الله) أصَّل لهذا المسلك المتوغل في العبودية بما تحمله كلمة (عمّال) من تفانٍ واخلاص واجتهاد غير منقطع استحقوا به أن يضافوا لله تعالى بهذا القيد، قيد فناء النفس في المعبود . وعليه سيكون لفظ(مطايا) قد ورد بمعنى (حَمَلَة) أي هم حملة أمره وبذلك تتحقق الملاءمة الدلالية التي قال بها كوهن[٤] يساعد على تحرير المعنى ما جاء بعدئذٍ (وسُرُج أرضه) إذ هذه ستكون بمثابة قرينة تضيء مبهمات المعنى لأنّ الخط التتابعي يفترض أن الكلمات قد رصفت على نحو مترادف أو شبه مترادف.

واستعملت مفردة (مطية) لتعطي مدلول (الوسيلة) في قوله (عليه السلام) محذراً من الاغترار بالدنيا حاثاً إياهم على الطاعة ((**ورَحِمَ اللهُ امْرءاً أزَّمَ نَفْسَهُ مِنَ التّقْوَى بِزمامٍ، وَألجَمَهَا مِنْ خَشْيةِ رَبِّها بِلجَامٍ، ... جَعَلَ الصّبْرَ مَطيّةَ نجَاتهِ، والتّقْوَى عدة وَفَاتهِ**)) [٥].

---

(١) تحليل الخطاب، ص١.

(٢) ما بين المعقوفتين أضافها المؤلف.

(٣) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٥٠٤.

(٤) يُنظر، بنية اللغة الشعرية، ص١٠٦.

(٥) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج٣، ص١٣٨.

وقد أخرجها السياق الفعلي عن مجالها الضيق فَلاحَ منها معنى آخر يُلمَحُ من خلاله الصلة التي تربط المدلول الجديد بالمدلول الوضعي، بيان ذلك: أنَّ العربي في صحرائه ربّما اشتد عليه الحر وأنهكه العطش وكاد ان يشرف على الهلاك وقد أعياه التعب فذهبت به هذه الأمور كُلَّ مذهب ومع ذلك ينجو إذا امتطى دابة قوية تجوز به هذه المفازة القاحلة، من هنا تسمى هذه الدابة بالناجية، لأنّها كانت وسيلته في النجاة، هذا اللحاظ كان نصب عيني الإمام (عليه السلام) وهو يحث على الزهد في الدنيا والصبر على اجتناب المعاصي ولجم هوى النفس بتقريبٍ جامعٍ هو جعل المطية وسيلة النجاة في العالمين عالم المحسوس وعالم المعقول.

وبهذا تنتفي المنافرة الاسنادية بين (الصبر مطية) إذ هذان المسندان لا يتلاءمان إلا إذا اعيدت الجملة إلى معيارها الصحيح، وذلك بأن نُحيل مفردَةِ (المطية) إلى معنى يلائم كلمة (الصبر) وهي كلمة (وسيلة) لعلاقة المشابهة[1].

وفي تسييق آخر لهذه المفردة أفرز السياق الآني لها معنى جديداً في قوله (عليه السلام) يعظهم ويزهدهم في الدنيا ويطلب إليهم الاعتبار ممن سبقهم: **((فأصْبَحتُم حُلُولاً في ديارِهِم، ظاعنين على آثارهم، والمطايا بكم تسير سيراً، ما فيه أيْنٌ ولا تفتير...))** [2].

إن كلمة (مطايا) هنا لا تحتمل المعنى الظاهر وإن كانت لا تتعالى عليه، لأن المقصود هنا هو الاعتبار والتذكر، لذا على اللفظ ان يجوز معناه الأصلي ويتعداه ليتحقق المعنى المراد، لأن إبقاء كلمة مطايا على دلالتها الأصلية لن يوصل إلى المتلقي الفكرة المنشودة.

فلابدّ من رد المعنى الظاهر إلى آخر يستجلي خباياه السياق وهو (الأيام) لأنّها هي التي تسير بهم سيراً حثيثاً لا إبطاء فيه ولا فتور لتصل بهم إلى غايتهم المحتومة وهي الموت، وهنا مكمن التحذير.

وهكذا يكون لتسييق المفردة أثر في بعث معانٍ جديدة إلى الحياة، لأن الكلمة لا تستمد حياتها إلا من السياق بحسب النظرية السياقية، لذا كان فيرث لا يحفل بما تشير إليه الكلمة في الخارج ولا بما تحيل عليه، فهو يرى ان السياق هو المنهل الوحيد الذي يستقي اللفظ معناه منه[3] وكان مصداق رأيه في هذه المفردات التي كانت قد أثبتت ما ذهب إليه فيرث.

وخلاصة ماتقدم ان للسياق بنوعيه الخارجي واللغوي أثراً في تحقيق المعنى ، فالسياق الخارجي يرسم الآفاق المحيطة بالبيئة التي تنعقد الخطبة في ضوئها ويحدد أحيانا أطرها الأجتماعية ويتنبأ بظروفها ، كأن انعقدت في سلم أوحرب.

---

(١) ينظر: بنية اللغة الشعرية، ص١٠٩.

(٢) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة ، ج٣، ص١٧٨.

(٣) يُنظر: المعنى وظلال المعنى، أنظمة الدلالة في العربية ، ص١٢٢.

وإن تسييق المفردات يمنحها مدلولا مختلفا، يؤثر فيه عاملان هما القيمة والسياق اللغوي الذي هو نابع من مجاورة الألفاظ لبعضها في تركيب معين وفق نسق معين وبذلك يكتسب الدال أكثر من مدلول مردد بين الحقيقة والمجاز.

هذه المجاورة اللفظية هي عماد سياق التلفظ وعنه انبثقت المصاحبة المعجمية التي سيجيء الكلام عنها في المبحث القادم.

المبحث الثالث: المصاحبة المعجمية أو التضام

لاشك أن المجموعات اللفظية المتلازمة هي وحدة البناء الأولى التي تتراسل مع وحدات أخرى فتنتج نصا متماسكا؛ فهي اذن قوام كل لبنة، ونواة كل تعالق. وهي وسيلة الاتصال بين الألفاظ، فتكون النسبة حينئذ هي واسطة الاتصال بين كل لفظين، ويتم التواشج والتلاقح بين الجمل والفقرات بوسائل مختلفة، كالعطف بالحروف والإحالة بالضمائر والتكرار والتضام أو المصاحبة المعجمية أو اللفظية وسواها لتنتج نصا مترابطاً.

فالمصاحبة المعجمية هي احدى ظواهر الاتساق النصي[١] وركيزة مهمة من ركائزه، وقد حدّت بتعاريف عدة، منها ((الارتباط المعتاد لكلمة في اللغة بكلمات أخرى معينة في الجمل))[٢] وإذا دقق النظر في هذا التعريف، فإن صفة (المعتاد) التي وصفت بها كلمة (الارتباط) تدلل على ان هذه المصاحبة نمطية لا تخرج عن المألوف، ويخيل للسامع ان المصاحبة خلوٌ من الانزياح وما يتبعه من تراكيب مجازية، سوى المجاز المعتاد، الذي خلا من الفن لفرط انتشاره وذيوعه. ساعد على هذا التصور قوله في التعريف (بكلمات ... معينة) فيلزم من التعيين محدودية الأفق التصاحبي، مع ان اتساعه يمثل صورة ثانية من صور التعبير الإبداعي.

ومن تعاريفها الأخرى ((...ميل بعض الألفاظ إلى مصاحبة ألفاظ معينة أخرى دون غيرها...))[٣] وهذا مثل التعريف السابق يفلت من نطاقه الإنشاء الإبداعي، ويُبقي المصاحبة في قيد المألوف، لوجود عنصري التنبؤ والتوقع ضمن مدارها، فالمصاحبة حينئذ عادية[٤]. واسماها هاليداي ورقية حسن(التضام) وقررا انها ((توارد زوج من الكلمات بالفعل أو القوة نظرا لارتباطها بحكم هذه العلاقة او تلك))[٥] فهنا يلمح شيء من التحرر في انسياب الكلمات التي تتابع مثنى مثنى بحكم ارتباطها الفعلي– وهذا يُدخلها ضمن الحيز الذي يتسلط عليه العرف اللغوي المألوف– أوارتباطها بالقوة وهذا يخرج بها إلى دائرة الإبداع، لخروجها ساعتئذ عن الإطار المحدود، فهي تتوخى إثارة المخيلة ومفاجأة القارئ وإدهاشه، فتخرج بذلك إلى فضاء الابتكار والابداع، الخلاق لتصبح بذلك مصاحبة غير عادية أو غير مألوفة[٦].

---

(١) يُنظر: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي، ص٢٥.

(٢) المعنى وظلال المعنى، أنظمة الدلالة في العربية، ص١٢٢.

(٣) الاتجاهات الحديثة في علم الأساليب وتحليل الخطاب، علي عزت، ص٣١.

(٤) يُنظر: م. ن، ص٣٣.

(٥) لسانيات النص،مدخل الى انسجام الخطاب ص٢٥

(٦) يُنظر: الاتجاهات الحديثة في علم الأساليب اللغوية وتحليل الخطاب، ص٣٣.

وهناك من يرى انها ((اطراد مجموعة من المفردات في شكل ثنائي يشي بالاجتماع المعنوي))[١] يلاحظ على هذا التعريف أن فيه جنبتين، جنبة تقييد يدل عليها قوله (شكل ثنائي) فقد حصرها بين جدران الثنائيات، وهذا يعني دخولها قهرا في محيط التقابل أو الترادف أو التناسب أو أي علاقة ثنائية أخرى، أما جنبة الإطلاق- وهي ثانية الملاحظتين- فتدل عليها كلمة (اطراد) و(الاجتماع المعنوي) فكلا هذين المعنيين لا يُقَيّدُ بحدٍّ، ويتسع مفهوما، فينضوي تحت هذه المسميات مضامين كثيرة، وتراكيب تدخل في عمق الإبداع، لذلك تكون هذه المصاحبات غير مألوفة فمن شأن مثلها أن يدفع الناقد باتجاه اقتراح تأويلات متنوعة تنسجم مع النص وتكشف عن آلياته نشوءا أو تكوينا حتى ينمو ويستحيل نصا متكاملا، فتغدو عملية القراءة هنا متشخصة لرصد هذه المصاحبات وتفسيرها بما يتفق مع السياق لمن يرى أن الكلمة تستمد معناها من السياق وحده[٢] وتتخطى المعنى المعجمي الذي تشير اليه الكلمة أو تحيل عليه عادة[٣] فهي تكتسب دلالتها الحقيقية عند الاستعمال، فعندما تقرن الكلمة إلى أخرى ويتضامان معا، ويصيران خيطا في نسيج النص الكبير يتجلى لهما معنى آخر ولذا يَفترِضُ من يقول بالنظرية السياقية :ان ثمة مصطلحين للكلمة احدهما المعجمي والآخر هو المصطلح التصاحبي وكل واحد منهما معادل للآخر[٤] وإنما الفارق بينهما هو انفراد الكلمة في الحالة الأولى، فهي بمثابة مادة غفل، تنتظر من يصوغها لتتحول إلى خانة المصطلح التصاحبي.

وقد جعل كل من هاليداي ورقية حسن من المصاحبة او التضام عنصرا مهما في تشييد العلاقة النسقية التي تقوم على ازدواج الكلمات، في مقام الخطاب ضمن علاقات مختلفة منها علاقات التعارض والكل والجزء، والجزء مع الجزء... وهذا كله عماد النصية التي نادى بها هذان المؤلفان[٥].

ويرى جميل عبد المجيد- ضمن مشروعه في تطوير البلاغة العربية، وتعديل موضوعاتها لتتواءم مع اللسانيات الحديثة- انه يمكن الإفادة من هذه المصاحبات في بعث بعض موضوعات البديع إلى الحياة كعلاقات التباين المبتنية على الطباق، فبدلا من الاقتصار على تتبع هذه العلاقة في جزئية بسيطة لا تتجاوز مستوى الجملة ، أوالجملتين- وان حدث بينهما السبك- إلا انه ينبغي عدم التقيد بالتعاقب المباشر بين الجملتين التي يرد فيهما طرفا الطباق، لتوسعة المساحة التي

(١) مدخل إلى التحليل اللساني للخطاب الشعري، نعمان بوقرة، ص٨٩.

(٢)ينظر: المعنى وظلال المعنى، أنظمة الدلالة في العربية،ص١٢٣.

(٣) ينظر: م.ن ، ص١٢٢.

(٤) ينظر:م ن.

(٥) ينظر: لسانيات النص مدخل الى انسجام الخطاب، ص٢٥.

يحدث فيها طباق السبك ، ليصل ذلك السبك إلى الفقرات، وحينئذ يغدو الطباق مؤشرا سطحيا للربط بين الفقرات[١] انتهاءً بسبك النص نفسه. وبذلك التناول تتجاوز البلاغة الحديثة، العيب الذي رميت به البلاغة القديمة، وهو اقتصارها على معالجة الجمل، والوقوف عند جزئياتها دون ان تتعداها إلى فناء النص الرحيب، وفضائه الواسع.

ضمن هذه الأفكار والآراء التي مرت في مقاضاة المصاحبة المعجمية، ورصدها ضمن النظرية السياقية مرة وجعلها ضمن ظواهر اتساق النص وقواه السابكة له في المثاني المتقاربة أخرى، يمكن الانطلاق من هذه الرؤى والمفاهيم لمعرفة خبايا النص ونسيجه المتلاحم، دون أن يعني ذلك انه سيتم الفصل بين هذه المبتنيات في أثناء المعالجة، بل العكس، كلما أمكن دمجها معا في تحليل النص، زادت قدرتها في سبر أغواره ،واستكناه اسراره، واستكشاف ما غمض من خفاياه. وسيكون البدء بالمتلاصقات النحوية التي تمثل نسبة ناقصة كالمركب الإضافي والوصفي والعلاقة بين المتعاطفين وما شابهها، مما يعد أمثلة ناصعة وواضحة لرصد المصاحبات المعجمية بنوعيها، العادية وغير العادية.

فمن المصاحبات المعجمية التي يستدل عليها بتمام السياق قوله ((...**استماع الثناء**))[٢] بعد أن نفى عن نفسه حب الإطراء في جملة سابقة قال فيها: ((**وقَدْ كَرِهتُ أنْ يَكُونَ جَالَ فِي ظَنِّكُمْ أنّي أُحِبُّ الإطْرَاءَ واسْتِمَاعَ الثَّنَاءِ**))، فالترادف والتقارب المعنوي بين مفردتي (الإطراء والثناء) فضلا عن توازنهما اللفظي والصوتي، يساعد كثيرا على اختيار لفظة (الثناء) والتنبؤ بها، فهي واقعة في أعلى سلم المدى التصاحبي، وتكاد تكون اللفظة الأولى التي يَحدسها السامع في هذا المقام، دون أن يَخِلَّ هذا الحدس بمشربها الجمالي، فالألفة لا تقدح بمعالم الجمال، بل ان التناغم الإيقاعي هنا بين مفردتي الثناء والإطراء، جعل في التوقع قدرا من التجانس النوعي المبتني على حس التزيين لذلك قد تكون هذه اللفظة مانعة من توارد ألفاظ مشابهة، تحمل المعنى نفسه، لكن النسق الايقاعي يطردها، فمما تترشح عنه المجموعة اللفظية – التي تتشابه في المدى التصاحبي – من مفردات مقترحة تترادف مع مفردة الثناء كلمات (الحمد– المدح– الشكر) لكن المستوى الصوتي يؤخرها عن الورود، ويطرح مفردة الثناء مقترحا أوليا يأتلف مع ما قبله مشكلا معه انسجاما عاليا على مستوى الخطاب، ولاسيما مع توارد الفاظٍ جاءت على النسق الصوتي ذاته، ككلمتي (الكبرياء، والبلاء) اللتين جاءتا من انصهار النص في بوتقة الاتساق اللفظي عبر الائتلاف في المستوى الصوتي.

---

(١)ينظر :البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص١٠٩ وما بعدها ولاسيما ص١١١.

(٢) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص١١٨.

ومن الموارد القائمة على أساس المصاحبة المعجمية في نطاق الإضافة، مما لا يخطئه التوقع مفردة الذنوب في قوله ((**ولوأن اهل المعاصي وكسبة الذنوب...**))[١] والذي جعل من هذا التوقع مطابقا قوله قبلها ((اهل المعاصي)) فهذه قرينة لفظية، تشير ضمنا وربما صراحة إلى ما بعدها، فالذنوب والمعاصي يضمهما حقل دلالي واحد، ولذا كانت المصاحبة مظنونة بين جمع التكسير (كسبة) وما أضيف إليها (الذنوب) ، على انه لا يمكن إغفال المفارقة بين هاتين المفردتين فالاكتساب مفردة امتزجت في الأذهان بالرزق والرزق لا يكون الا طيّب المصدر فما خَبُثَ مصدره لا يُعدُّ رزقاً وإن درَّ مالاً وفيراً. وتكاد لفظة الاكتساب تترشح عن بُعدٍ مادي، فنتائج الكسب عادة هي الأموال المكتسبة، وهي مرئية ملموسة وهنا مكمن المفارقة، فالذنب هو الإثم، ومنشؤه كل خبث فلا يتماهى مع الكسب الطيب، والذنب معنوي تحس آثاره في النفس، ويستشعرها الوجدان المتردد بين لذة الرغبة وعذاب الضمير، لذا يتأرجح المذنب بين السرور والندم. فمن هذه المنطلقات يتغاير الكسب مع الذنب ويصعب ان يكون اللفظ المرتقب بعد كلمة (كسبة) هو (الذنوب) لولا قرينة سابقة (أهل المعاصي) ولولا شيوع مثل هذا التعبير في الآي القرآني[٢] وهذان جعلا المصاحبة عادية وكان من حقها أن تكون غير مألوفة. وللقرآن فضل في حدس كثير من المصاحبات المنبثقة من أصل الاستعمال القرآني، كقوله (عليه السلام) ((**...أَشْرَفَ مِنهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فانْهَارِبِهِ فِي نَارِ جَهنَّمَ...**))[٣] فالصفة هار يطمح بها الذهن فور استماعه لفظة (جرف) لذيوع هذه المصاحبة القرآنية[٤] فالمصاحبة هنا أيضا دخلت في محور المصاحبة المألوفة، على الرغم من فرادتها وتميزها وذلك لانسباكها بالتعبير القرآني، وإلا كان من حقها أن تكون مصاحبة غير مألوفة.

ومن المصاحبات المألوفة، بسبب السياج الذي يحوطها، والمدى الذي يكتنفها، قوله ((**واعلموا أنّ الله جعل أَمْرَاسَ الإسْلام مَتِينَةً ،وعراه وثيقة...**))[٥] ،فكلمة (متينة) يترقبها الذهن ويضفي من جانبه – لولاها– الفاظاً متوقعة مثل (قوية، محدودة) لكن كلمة متينة ترجح على هذه الكلمات، لأن في أصل معناها إشارة إلى الصلابة، فتنسجم مع كلمة (وثيقة) في الجملة التالية التي تنطوي على معنى الإحكام، وبذلك فُضّلتْ على الكلمتين المقترحتين ، لأن كلمة قوية تنضوي في أصولها على الضعف، فيقال في تحديدها انها ضد الضعف[٦] وبذلك يشوب القوة نقص لأنها حُدّتْ تحديداً

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٣٩٥.

(٢) ينظر مثلا، سورة البقرة، ٨١، ﴿بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

(٣) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٢١٩.

(٤) يُنظر: التوبة، ١٠٩. ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ﴾.

(٥) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص٥٠.

(٦) يُنظر: القاموس المحيط، مادة،القوة،ص١٢١٨.

سلبياً[١]، فصار الذهن يستحضر ضدَها معها، فبدلاً من أن يمازجها معنى زائد اعتراها النقصان فغدتْ اقلَ صلاحا للمصاحبة من كلمة متينة التي اقترنت فعلا بكلمة (امراس). أما كلمة محدودة فالسياق يطردها، لأن الحديث ليس في المديات الزمانية والمكانية التي يمتد عليها جناح الإسلام، ليصح ارتباطها بكلمة (امراس). وبذلك فاقت كلمة (متينة) مشاركاتها في المجموعة اللفظية، وبزتها في المدى التصاحبي. وقد تتكرر حاجة اللفظ المحوري للمصاحبة، فتتابع اكثر من كلمة لتسد تلك الحاجة ليتلافى العوز المفترض في بنية الكلام، كقوله (عليه السلام)عن معاوية: ((...**يَدْعُو الجُفَاةَ الطّغَامَ الظَّلمة...**))[٢] فهذه صفات متعددة لمحذوف موصوف، يجوز تقديره بـ(قومه او أصحابه). وقبل الخوض في المصاحبة المعجمية، لابد من الحديث عن حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، فابن جني يرى أن هذا النوع يكثر في الشعر دون النثر، لأن القياس يحظره في النثر، إذ الغرض من ذكر الصفة أيا كان ينتهي إلى طلب الاسهاب والاطناب، وحذف الموصوف يستدعي الإيجاز والاختصار، ولذلك يرى ان الحذف غير لائق ولاسيما مع استبهام الموصوف[٣].

من خلال هذا العرض ، يبدو أن ابن جني تناول الموضوع من ناحية منطقية فكأنه رأى في حذف الموصوف تقّويتاً للغرض، وان جَمْعَ الإطناب إلى الإيجاز في سياق واحد قبيح عقلا لاستلزامه التناقض بين هذين الطرفين– على أن توسيع زاوية النظر وتوجهيها إلى ناحية أخرى يحل الإشكال، فحذف الموصوف وقيام الصفة مقامه قد يكون لأجل تلبس الموصوف بالصفة إلى حد الاندماج التام بينهما، فكأن الموصوف قد استحال إلى الصفة ذاتها لطول مزاولته إياها، حتى عرف بها وصارت علما عليه، فهنا ليس ثمة استبهام للموصوف هذا من ناحية، وغاية المتحدث حينها لن تكون للاختصار والإيجاز ليلزم الإشكال العقلي الذي طرحه ابن جني من ناحية ثانية.

وعلى أساس ما تقدم يمكن النظر إلى تراكم الصفات في قول الإمام (عليه السلام) الذي أُورد هنا على أساس حاجة اللفظ المحوري المحذوف– الذي أشير إلى انه من الممكن أن يقدر بـ(قومه أو أصحابه) – إلى أكثر من صفة لينجز الكلام بغيته، ويحقق مراده، إذ كل صفة هنا هي غير الأخرى، فلا تستلزمها بحيث يتمثل الذهن باقي الصفات ويستحضرها إذا ذكرت الواحدة منها. ثم إن الوصف لا يكتمل إلا بمجموع هذه الصفات، فعند ربقها في خيط واحد تتبلور عملية الوصف وتتضح ملامح الموصوف. لعجز الصفة الواحدة عن القيام بهذه الوظيفة. فعندئذ لا يمكن أن يفسر توارد الصفات على انه نوع من الاسهاب ولا ان يكون الدافع الوحيد لهذه الصفات هو محض الذم، فالأمر ينصرف أيضا إلى الإخبار الذي يستهدف تعيين الموصوف وتشخيصه. وعندئذٍ يتسع

(١) ينظر، مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، ص٨٤ وفيه: ان الحد السلبي مفاده ذكر النقيض.

(٢) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص٣٨٨.

(٣)ينظر،الخصائص،ج٢، ص٣٩٠.

المدى التصاحبي في محور لولبي يستقطب ألفاظاً كثيرة يمكن ان تنتمي إلى المجموعة اللفظية التي تجمع الألفاظ المشتركة إلى بعضها. لكن ذلك لا يعني فتح قاموس الاقتراحات على مصراعيه في اختيار كل لفظة يستوعبها المدى التصاحبي. لأن الألفاظ المتوقعة يجب ان تكون دقيقة ليتحقق المعنى المطلوب ،فتفاوت الألفاظ هنا في مدلولاتها يحتم التفاوت في الألفاظ التي يمكن التنبؤ بها ليستوفي البيان قصده. وقد يصعب التكهن بالمدى التصاحبي الذي يصاحب اللفظ المحوري في حالة تعدده إذا قصَدَ المتحدثُ أمرين متناقضين وأسبغهما على موضوع واحد، كقوله (عليه السلام): ((...**انّـتُمْ فِيهـا سَـفْرٌ حُلُـولٌ**...))[1] فاللفظان المصاحبان لمفردة (انتم) أريد بأحدهما وهو الأول (سفر) المبالغة، لان المراد الإخبار بأنهم ذوو سفر ؛ فالجثة لا يخبر عنها بالمعنى فضلاً عن المجاز الذي تحمله الكلمة، فهم – في حقيقة أمرهم –حاضرون ،وأخبر عنهم بأنهم سفر؛ لارتكاض الأيام بهم إذ ؛هي تقلهم من دار الدنيا إلى دار الآخرة. أما اللفظ الثاني (حلول) فهو حقيقي استعمالا ودلالة، لكن جعله خبرا ثانيا (لأنتم) بعد (سفر) يحتم قيام مفارقة أسلوبية لتفاوت المعنى بين الخبرين وتنافي ما بينهما، لأن إثبات الأول يحتم نفي الثاني، أما جمعهما خبرين في قرن واحد لمبتدأ واحد في آن معا، فيلفت النظر إلى قيام مصاحبة غير مألوفة تتحدى الأسلوب النمطي وتتوخى توجيه السامع إلى معان جديدة تبرزها الحاجة، فتسد ثلمة في مجريات الكلام كانت ستبقى شاغرة لو لم يقم تمام الخبرين لردم هوتها.

ويصح أن ينظر لهذه المصاحبة من جهة أخرى فلو فرض بذل مزيد من التأمل لسبر أبعاد هذه الجملة، لربما ترجح عد الخبرين بمثابة كلمة واحدة وجعلها نظير قولهم ((بين بين أو صباح مساء أو حلو حامض)) فكأنها مسكوكة واحدة أريد بها بيان مجمل حالهم في الحياة الدنيا. فهم على جناح سفر وارتحال مهما طال مكوثهم وقرارهم في هذه الفانية، فليس ثمة بقاء ولعل ذلك اشد وعظا وتأثيراً في النفوس مما لو جعل الإخبار بكل واحدة من الكلمتين، فهي وان كانت ستفيد تفصيلا، لكن الكلام معها سيغدو متدرجا وفق مسير الحياة المألوف من مكث قد يطول او يقصر، ثم العروج إلى الرحيل، فلعل الوقع سيكون اقل مما لو جُعِلَتْ الكلمتان خبرا واحدا، إذ يوحيان بتعجيل المصير، وسرعة الرحيل وان للموت عينا على الحياة لا تفارقها، فيتعين عندئذ حلول التنغيص في كل لذة لاستدامة ذكر الموت. ومن هذه الجهة ستكون المصاحبة اشد غرابة لتعذر التنبؤ بها في هذه الهيأة الخاصة.

وإنما يسهل التنبؤ بالمصاحبة عندما يُحفُ اللفظ المحوري بالثنائيات– بما هي ثنائيات مفككة وغير مدمجة كما في الشاهد السابق وفق ثاني الرؤيتين اللتين تم ذكرهما آنفاً– سواء أكانت وفق

(١) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة، ج٣، ص١٣٧.

محور الترادف أم وفق محور التباين، فمثلا في قوله (عليه السلام) ((...**على العُلَماءِ أَنْ لا يُقِرُّواعَلى كِظَّةِ ظالِمٍ ولا سَغَبِ مَظْلومٍ.**))[1] هنا يخطر في الذهن أنه في الجزء المنفي من العطف (سغب مظلوم) يسهل التنبؤ بكلمة مظلوم والإتيان بها مضافا إليه، فهي تتصدر المجموعة اللفظية التي يمكن أن يحدسها المتلقي ، فهو قد يقرن إلى كلمة سغب، ألفاظا من مثل (ضعيف، جائع، محروم) وما شابه هذه المفردات التي تصب معانيها في مصب الاستضعاف والحرمان، لكن الكلمة التي تقفز على طرف لسان التوقع ،وتحوم حول اللفظ المحوري (سغب) هي كلمة :مظلوم يرشحها لذلك التقابل المفترض بينها وبين كلمة ظالم؛ إذ البناء التركيبي يستدعي هذه الكلمة، لتضاد الأخرى من طرف آخر، ثم ان هناك شبه معنوي بين المفردتين (كظة– سغب) وهو الإجهاد الذي يعانيه الأول من امتلاء الطعام فيلتقط أنفاسه بصعوبة، والتعب الذي يكابده الآخر جراء الجوع، فضلا عن الفرق المعنوي، فيدل الأول على الامتلاء والثاني على ضدِّهِ[2]، من اجل ذلك أضيفت الأولى إلى الظالم ، والثانية إلى المظلوم .فهنا تكمن إيماءة مفادها استحواذ الظالم على حصة المظلوم فهو سبب في هذا الظلم الذي يقع سواء أكان ظلما ماديا أم معنويا. ولهذا كله ربما لم يعسر على المُسْتَقْبِلِ أن يحزرَ تمام المضاف والمضاف إليه المعطوفين على ما قبلهما وفق مفهوم التقابل بين البنائين، فـ(كظة وسغب) متضادان، ومضافاهما أيضا متضادان، فإذا وضع المتلقي هذه الأمور في حسبانه أمكنه تقدير الآتي من الكلام، واقتراح مجموعة لفظية ملائمة، ولاسيما في مجال المركب العطفي. ففي قوله (عليه السلام) ((... **إلى دار الثواب والعقاب والجزاء والحساب...**))[3] يتيسر للسامع أن يتلقف اللفظ المصاحب بسهولة، وان لا يتخطاه لأن مقومات الخرص قائمة هنا، إذ يكاد الذهن يستحضر العقاب، فور سماعه لكلمة (الثواب) وكلمة (الحساب) بُعيد ذكر (الجزاء) لوجود علاقة التضاد والتوازن اللفظي، ولما تستدعيه دلالات هذه الألفاظ ،ولكثرة اصطحاب بعضها لبعضها الآخر في نصوص كثيرة، جعلتها مألوفة ميسورة؛إذ هي تنتمي لحقل دلالي مشترك. ولا يبعد عن هذا الشاهد بل هو أيسر منه قوله (عليه السلام) ((...**حَمَلْتُ أَمْرَ أَسْوَدِّها وَأَحمرِّهَا**))[4]،

---

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة ، ج٢، ص٤٢٠.

(٢) وهذا النوع من المصاحبة المعجمية يؤدي إلى سبك النص وهو من أقسام التباين، للمضادة بين اللفظين، ينظر :البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ، ص١٠٨.

(٣) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٣، ص١٣٧.

(٤) م . ن، ج٢، ص٥١.

فهذا التدبيج[١] مبني على التضاد، إذ ربما قصد باللون الأحمر اللون الأبيض وقد اريد منهما التقابل بين العربي والأعجمي، ولعله يصح حمل هذا التدبيج على أساس معنوي، فيراد من الأسْود أجلّاء القوم وساداتهم، اما الأحمر فلمن هم دونهم مرتبة :كالعبيد والموالي. وكيف كان فأن هذه المصاحبة لا يتعذر حدسها وتظنيها لأنها من قبيل المسكوكات التي يستعملها الناس شرعا واحدا، وما ذلك إلا لبداهتها إذ سارت هذه التعابير وسادت، فباتت معروفة للجميع، وصار هذا النوع من المصاحبات مألوفا لسابق علم الناس به وكثرة تعاطيهم إياه في محاوراتهم ومخاطباتهم اليومية.

والمصاحبة المعجمية غير خاضعة لميزان محدد ودقيق، بل هي تتراوح بين المألوفة إلى حد لا يعدوه التوقع والاختراص، وبين مصاحبة تتردد بين ألفاظ عدة معظمها يصب في خانة المألوف أو ما هو قريب منه، وبين نوع ثالث يصعب التكهن به وبهيأته ان لم يتعذر ذلك، وهذا النوع يحتاج إلى فضل تدبر وتأمل لاستكناه ما وراءه من مقاصد وقيم تعبيرية تنبع من مراد المتحدث في إيصال مبتغاه ضمن أصول المحاورات والخطاب. وفي ضوء هذا التصنيف يدخل التناسب ضمن معايير مراعاة النظير، وهو التوفيق بين لفظين متناسبين لا بالتضاد[٢]. كقوله (عليه السلام) ((...**لعملوا فيكم بعمل كسرى وقيصر...**))[٣]. فهذان اللفظان (كسرى وقيصر) لما بينهما من توافق وتناسب يعدان من المصاحبات المألوفة التي لا يعز على المرء أن يشخصها للتلازم الخارجي بينهما، فالدلالات الالتزامية تجعل اللفظ المحوري علما على الآخر ودليلاً ينص عليه، فما أكثر ما ترافق الاسمان في حديث القوم ليصبح التنبؤ باللفظ المصاحب ليس بغريب. فكلمة كسرى ترافق كلمة قيصر وهما معا يدلان على ظلم الرعية وقهرها ويشيران إلى انعدام العدل والإنصاف، فمن شابهت سيرته سيرتهما لابد أن يسوم قومه سوءا. ومن هنا تكون للمصاحبة المعجمية وظيفة رمزية، إذ ترمز بالأسماء إلى الأفعال، لشدة الملازمة بينهما، وهكذا صار اسما كسرى وقيصر رمزاً لكل جور وظلم. وما ذلك إلا لوجود التناظر بينهما.

والمصاحبة المعجمية لا تقتصر على الأسماء، بل قد تتعداها إلى الأفعال فالجمل، إذ ربما كان اللفظ المحوري يجذب غيره ويستدعيه وفق مبدأ المثاني وما بينها من علاقات يوجبها التقارب كالترادف، أو التباين كالتقابل، ففي قوله (عليه السلام) ((**اما وشر القول الكذب وإنَّهُ لَيُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ...**))[٤].

---

(١)ينظر: تحرير التحبير في صناعة الشعر النثر وبيان اعجاز القرآن، ابن أبي الاصبع المصري، ص٥٣٢ ففيه ان التدبيج هو: ((أن يذكر الشاعر ألواناً يقصد بها الكناية أو التورية بذكرها عن أشياء من مدح أو وصف أو نسيب أو هجاء أو غير ذلك من الفنون أو لبيان فائدة الوصف...)).

(٢) ينظر: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص١١٢.

(٣) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٢، ص٢٨٥.

(٤)نهج السعادة ، في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص٢٩.

يستدعي السياق- وهو سياق ذم- أن تكون الكلمة التي بعد (يحدث) كلمة (يكذب) ، فقد أوعز (عليه السلام) قبيلها بأن شر الكلام هو الكذب، فكان هذا تمهيدا لغمز الشخص المذموم الذي دارت عليه دائرة الحديث بالكذب كلما حدث، ولما كان الفعل الأول مضارعا (يحدث) كان فعل الذم مضارعا أيضا (يكذب) ليدل على ملازمة الكذب لحديثه ملازمة مستديمة، فلا يتفوه إلا بالأكاذيب، فكلما انبرى متحدثا جانبه الصدق ووافاه الكذب، وهذا غاية الذم وقصاراه، ولذا استمر (عليه السلام) يبين مزيدا من الصفات الرذيلة، فقال ((...**وَيَعِدُ فَيُخْلِفُ**...)) فالوعد إما سبيله الإنجاز وهذه محمدة لمن يصنعها، وإما سبيله الخُلْف، وتلك مذمة لمن يقوم بها ، ولما كان المقام مقام انتقاص وتوهين، فالفعل (يعد)- وهو اللفظ المحوري هنا- يميل ميلا شديدا للارتباط بكلمة (يخلف) ولا يكاد يلتفت المرء إلى غير هذه الكلمة في هذا المقام، لان ما يقابل انجاز الوعد خلفه- كما تقدم- وإذا ما استمر الإمام (عليه السلام) في الكلام، فسيشير إلى موبقة ثالثة، ((...**وَيَحْلِفُ فَيَحْنَثُ**...)) ينسبق الفعل (يحنث) فيملأ أول حقول المجموعة اللفظية، فهو يفضلها، ولكنه لا يعزل غيرها، فقد يتأهل فعل ما ، يكون ملائما لهذه المصاحبة، فيقترح فعلاً مثل (لا يَبَرُ) فهذا فعل منافس، لكنه لا يستحق أن يكون الأول لأن البنية النسقية المتقدمة، تحتم مجيء فعل ذي طابع مثبت تركيبا لا دلالة، وهذا ينهض له الفعل الذي انتقاه الإمام (عليه السلام) (يحنث) أما (لايَبُر) فإنما يتأخر في مرقاة ثانية ؛ لوجودلا النافية معه في التركيب وهذا لا يتسق مع الفعلين اللذين تقدماه (يكذب ويخلف) من هذه الجنبة جنبة التركيب، وإلّا فمن جهة الدلالة تتفق الأفعال في إبراز صفات سلبية يتسم بها الشخص موضوع الحديث، فهذا المجرى السلبي في الكلام وظف أفعالاً مضارعة سلبية أيضا لتدل على ان هذه المعاني (الكذب، خلف الوعد، حنث القسم) كلها لصيقة بهذا الشخص، فهي لا تنفك عنه ولا تتخلف.

وقد تترادف الأفعال لأنها تعود إلى مبدأ واحد، كقوله (عليه السلام) : ((**أما بعد،فإن القوم بَدَؤُوكُمْ بالظُّلْمِ**...))[1] فالسامع هنا قد لا يتخيل الفعل الثاني، لأن منحى الكلام غير معلوم الاتجاه، لكن بعد قوله (عليه السلام) ((**وفَاتَحُوْكُمْ بِالْبَغْيِ**...)) للسامع ان يتخيل الفعل (واستقبلوكم) وهو بعيد نوعا ما عن توقعات المتلقي، لكن الكلمة يمكن ان تنتظم في لائحة المظنونات[2]، فتكون إحدى مفردات الفئات التي تنتمي إلى مجموعة لفظية تشترك في مرجعية واحدة قوامها البداية والاستهلال لذا يمكن أن تندرج هناك مع أفعال أخرى كـ(استهلوكم- استبقوكم- تقدموكم) وسواها من الكلمات التي يمكن أن تنسلك في هذا العقد. والكلام ذاته يجري في متعلق الأفعال من الكلمات المجرورة فإذا

(١) م.ن.ج٢، ص٩١.

(٢) قد يدخل في هذا السبك النحوي لأنه يقوم على تكرار البنية النحوية . يُنظر: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص١٢١.

كانت المتعلق الأول هو الظلم، فمتعلق الفعل الثاني ربما أمكن تقديره بكلمات تتشابه في المدى التصاحبي لاشتراكها في المجموعة اللفظية ذاتها وهي ألفاظ تتمحور حول مفاهيم الجور والبغي لذا يمكن أن يكون في سجل هذه المجموعة متعلقات تنبثق من هذا المنطق فتحتوي هذه القائمة مجرورات مثل (الجور، الشر، العذاب، القسط) وكانت ستأتلف في مدرج مشترك مع الكلمات الأساسية المذكورة في الخطبة. وهكذا سيكون المتلقي وفق مفصل المصاحبة المعجمية شريكا في تتبع آليات رسم الخطاب والتكهن بها، كلما نجح في رصد الكلمات التي من المؤمل أن تكمل المشهد الخطابي؛ ولذا يرى فيرث أن المصاحبة المعجمية هي المنهاج الأكثر فائدة في دراسة البنية ضمن مستوى التمثيل اللغوي(١).

وقد تتصاحب الأفعال معاً، إذا كان الموضوع يغطي جانبا معينا يستدعي تتابع أفعال متشابهة، كقوله(عليه السلام) ((**إنَّ الفِتْنَةَ إذا أَقْبَلَتْ شَبَّهَتْ...**))(٢) فالفعل (أقبلت) يستدعي الفعل (أدبرت) و (شبهت) يستدعي أفعالاً نظيرة للفعل أسفرت مثل (انكشفت،برزت، برحت،) وسواها من الأفعال التي تدل على ظهور الأمر واتضاحه بعد خفاء والمصاحبة هنا تقوم على أساس التوازي النحوي وموضوعه هنا تمام الجملة.

فالمصاحبة المعجمية إذا لا تقتصر على اللفظ المفرد، بل تتعداه لتكون الجملة متسمة بسمة المحورية ويحوجها جملة أخرى تصاحبها. والذي يجعل عملية التنبؤ هنا فيها شيء من اليسر أن التوازي يبتني أساسا على التناصف بين المقاطع، وفق توافق أو تخالف معنوي، وهو بذلك يحقق الوظيفة الشعرية(٣). والوظيفة الأدبية التي تكسب الكلام صفة النصية. لأن الغرض من التناصف القائم على أساس الموازنة المعنوية بين كل لفظين لا يقتصر على مجرد التحسين والتزيين(٤) بل هو يتولى مهمة تحقيق الانسجام والاتساق بين مكونات النص. وعملية التوازي تجعل إمكانية الكشف عن اللفظ،- بل عن الجملة- امرا حيويا يضفي على النص جمالية مشفوعة بالتخيل، لأنها تضع المستور من النص موضوع الظاهر المكشوف وتخلط التلقي بالانتظار والتشوف المحفوف بالتشويق والإثارة.

والتوازي هنا يتحقق بين الجمل المتتابعة، فتتنجز بذلك الوظيفة البنيوية التي تعني ربط الجمل وشد بعضها إلى بعضها الآخر، ليستوي النص قائما في نسيج متماسك محبوك؛ لأنه ينطلق عن جنبه شعورية واحدة تستولي على الوجدان، فتظلل النص بأفيائها، ولذا لا يبرح مكانه،

(١) يُنظر: المعنى وظلال المعنى، أنظمة الدلالة في العربية،ص١٢٢.

(٢) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٢،ص٣٦٤.

(٣) يُنظر: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص١٢٢.

(٤) يُنظر: م . ن، ص٣٢.

حتى يعطي نفسه حقها في إشباع الموضوع واستيفاء جوانبه حتى لا تبقى ثلمة أو ثغرة إلا عالجها وأغلق رتاجها، ولذا استمر (عليه السلام) في الخوض في حديث الفتن مشبها إياها حين تحوم بحوم الرياح ((...**يُصبِنَ بلدا**...)) وعلى السامع الذي يتلقى الحديث ان يحدس الجملة المحورية وفق التوازي القائم على البنية المقلوبة، ويفترض أنها ستتطابق مع قوله (عليه السلام) ((**ويُخْطِئنَ آخَرَ**...)) بناءً على المعطيات التي يرتكز عليها التوازي النحوي، الذي تتعادل فيه الجمل وتستوي القسمة فيها شقين، كل واحد منهما عدل الاخر، مما يمثل تكرارا يحفظ الشكل البنائي للنص ويصون خواصه الأسلوبية، وتجربة المبدع الافهامية والتواصلية. ولهذه العلة لا يترك (عليه السلام) ما يخوضه من حديث ولا ينتقل منه إلى آخر حتى ينال مبتغاه، لذا واصل الحديث عن الفتن ونقّحَ واحدة منها لتكون مدار الكلام فقال عنها ((...**خَصَّتْ فِتْنتُها وعَمّتْ بَلِيْتُها**...)) فهنا توازٍ نحوي آخر بين (خصت وعمت) وبين (بليتها) و (فتنتها) والبنية هنا مكررة أيضا، مما يضمن للنص وحدته ويبين مساره النسقي الذي يدعمه عنصر المداومة عبر السياحة في الحقول الدلالية ذاتها التي تغذي النص وتشكل جميع مضامينه الثنائية، بصرف النظر عن كونها متنافرة او متوافقة. فالخطاب ينطلق من نبرة تستهدف التبصير بعواقب الفتن وعدم الانجرار وراءها ولزوم توخي الحذر وعدم الغفلة، فالدافع المهيمن وراء انعقاد النص تحكمت سطوته في توجيه مقاصد الخطاب نحو حقيقة واحدة هي (الفتن) التي كان لها أكثر من وجه واحد، وكان لابد من بيان حقيقة هذه الوجوه وتسليط الضوء عليها هذا التعدد لتلك الوجوه أسهم في تحقيق رابط مضموني فضلا عن الرابط النحوي القائم على تناسق الخطاب في بناه التركيبية . وبذلك تتسع دائرة المصاحبة المعجمية فلا تنحصر باللفظ يستدعي اللفظ، بل ربما شملت الجملة وهي تستقطب أخرى تماثلها في التركيب والمعنى، كما في المثال السالف، والمثال الذي سيذكر، إذ تستدعي المصاحبة المعجمية أن تتناوح جملتان معا وفق مبدأ البنية المقلوبة، ذلك المبدأ الذي يقع تحت خط التوازي ويمثل في سنخه تكرارا للتركيب النحوي ،وبالتالي يحقق تماسكا وانسجاما في الخطاب يقول (عليه السلام): ((...**وأَرَاهُمْ طَرَفاً مِنَ اللَّذاتِ، لِيَسْتَدِلُّوا بِهِ عَلَى مَا وَرَاءهُمْ مِنَ اللّذّاتِ الخَالِصَةِ الَّتِي لَا يَشُوْبُهَا أَلَمٌ**...))[1] فإذا كان السامع قد أَلِفَ أسلوب الإمام (عليه السلام) وعرف أنه يقابل البنية بالبنية أدرك أنه سيأتي بجملة ثانية بإزاء الجملة الأولى ويقلب ناحية الحديث إلى طرف محاذٍ، والمصاحبة المعجمية ستجعل توقع الجملة الأخرى قيد الإمكان، فإذا كانت الجملة الأولى قد تطرقت في مضامينها للحديث عن لذات الجنة وأنها صفي من كل شوب. فللسامع أن يتحرك وفق المصاحبة المعجمية فيظن أن الحديث سيكون عن الآم النار أو عذابها، وأنها خلو من كل لذة. فهنا ستكون الجملة موازية للجملة وتتسع مساحة التضام ليسترشد بها في

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٣، ص١٠١.

استصحاب جملة ودرء أخرى يُظن أن السياق لا يتقبلها، لبعدها عن الموضوع او النسق الذي انتظم حول محوره هيكل النص.

ولا يقتصر المقام في استخبار الجملة المتوقعة والبحث عنها على الجملة ذات التركيب القصير التي تحمل مضمونا بسيطا غير معقد، فقد ينسحب أمر التضام إلى جملٍ أكثر تعقيدا في تركيبها لكن اقتفاء أسلوب الإمام (عليه السلام) وتتبعه قد يُسهم في الإنباء بالكيفية التي ستكون عليها تلك الجمل على الرغم من صعوبة ما، قد تحيط بها بسبب الطبيعة التركيبية لها. ومما ينتقى لتأكيد هذا الغرض قوله (عليه السلام) ((**ألا وَإن الخَطايا خَيْلٌ شُمُسٌ حُمِلَ عليها أهلُها وخُلِعَت لُجُمُها فَتَقَحّمَت بِهُم في النَّار، الا وإن التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها وأعطوا أزمتها فتقحمت بهم في الجنة**))[1]، هذه الجملة طويلة لاتصالها بعدة جمل، فالجملة الأولى مكونة من اسم إن (الخطايا) وخبره وصفته (خيل شمس) والمتمعن في هذه الجملة وأجزائها لا يرى للمصاحبة في بدو الأمر ضرورة ولا يجد لها مكانا، لبعد المسافة بين الخطايا والخيل، فالتعبير هنا مجازي ؛ اذ لا تلازم واضح بين الخطايا والخيل، فربق الكلمتين مع بعضهما يعود إلى استعمال خاص ذي طابع شخصي متفرد، ففي الاستعمال المألوف قد يندر قرن الكلمتين إلى بعضهما، أما قرن كلمة (شُمُس) إلى (خيل) فهذا ممكن ؛لأن بعض الخيل شمس يصعب قيادتها وبالعودة إلى الجانب التركيبي للجملة ستُلمح مصاحبة متوقعة وهي قوله(حمل عليها) فجملة الحال تتوافق مع صاحب الحال (خيل) لكن باقي الجملة يتراوح بين إمكانية التوقع وعدمه وهي جملة العطف (خلعت لجمها) ويصعب التنبؤ بآخر الجملة وهي المستهلة بالفاء الفصيحة (فتقحمت بهم في النار) لكن المدقق في أسلوب الإمام (عليه السلام) سيتنبأ بجملة مصاحبة ترافق الجملة المحورية الآنفة، وهي جملة موازية، ذات بنية مقلوبة، تؤدي إلى تحكم هذا النوع من التركيب في بنية النص، لتكراره وكثرة دورانه النسبي في أسلوبه الخطابي، إلّا ان طول الجملة النسبي قد يعفو على تمام المطابقة، فتند بعض التوقعات وتخرج من فضاء التوقع ، ولربما أمكن المتلقي أن يتوقع الجملة المصاحبة عبر التأمل في المفردات التي شكلت الجملة السابقة ولن يغرب عن السمع أوجه التماثل بين الجملة الفائتة والجملة التالية لها، فقد امتدتا في نطاق متواز لفظا ومعنى، فقابل الإمام (عليه السلام) بين الخطايا والتقوى، والخطايا جمع تكسير، مفردة الخطيئة، وهي كل خطأ متعمد، لذلك صح أن تحمل على الذنوب والآثام، فهما لا يكتسبان هذين الاسمين إلا مع الإصرار والتصميم، وإلا فما وقع سهواً وغفلة ليس ذنبا ما دام المرء لم يقصده من هنا نهضت الخطايا بإزاء التقوى، فهي اسم يلزم منه صيانة النفس وحفظها ووقايتها من الوقوع في المعاصي عبر التحذر منها، بأنها (مطايا ذل) لتنهض محاذية للوصف الآنف في

(١).ن.ج١، ص٢١٩.

الجملة السابقة (خيل شمس) على ان الوصف (ذلل) جاء لتوكيد موصوفه، فالدابة الممتطاة هي أصلا سهلة القياد، فإذا وقع الوصف اسما لها (مطايا) ثم وصفت بأنها (ذلل) كان هذا من قبيل المبالغة في حمل الصفة على الموصوف ،عكس وصف الخيل بأنها شُمُس فالوصف للبيان لا للتوكيد، إذ معظم الخيل ليست شُمُسا وإلا تعسر الانتفاع بها. ثم ساوى بين الجملتين (حمل عليها) فالغرض من الخيل والمطايا واحد هو الركوب والامتطاء، وان كان التعبير هنا قد حُلي بحلية المجاز، لكن لمح أصل الاستعمال باقٍ لمن رام أن يلحظه، أما كلمة (أهلها) وهي نائب فاعل في الجملتين، فإنما هي لبيان ان لكل من الخطايا والتقوى أهل يختصون بها، وكل ينجذب إلى ما هو حقيق به. ثم جاء بجملة العطف (وأعطوا أزمتها) كما جاء في الجملة السالفة بـ(خلعت لجمها) فشتان بين خلع اللجام الذي يُنبئ عن صعوبة القياد وشكاسة الخلق والتمرد وبين إعطاء الزمام الذي يدل على المرونة والمطاوعة؛ لذلك ورد عقيب ذلك قوله (ﷺ) ((**فأوردتهم الجنة**)) فقد كان مسيرهم سهلاً لا كزازة ولا غلظة فيه، وقد اتصل المفعول بالفعل مباشرة، دون أن يفصل بينهما فاصل دلالة على هذا المسير السهل، وهكذا وصل الفعل إلى مفعوله الثاني مباشرة وهو قوله (الجنة) للدلالة نفسها، فليس ثمة فاصل بينهما، فالمُبتغى متحصل بلا مشقة، وليس كذلك ما قابل هذا في الجملة الأولى، ففيها (فتقحمت بهم في النار) فالإقحام فيه معنى الرمي والإهلاك، ومما يدل على شدته، عدم وصوله إلى مستحقه مباشرة فثمة واسطة عزلت المفعول عن فعله وهي (الباء) و(في) الحرفان الجاران فالباء حجزت الفعل عن مفعوله الأول وصارت هي الواسطة الموصلة بينهما، كما ان حرف الجر (في) الظرفية أوصلت المفعول الأول (هم) إلى ظرفه (النار) فهي غاية الإقحام ومنتهاه وقد انغلق باب المصاحبة المعجمية هنا. فاختتمت الجملة الأولى بهذه الكلمة (النار) أما الجملة الثانية فلم تقف عند مفردة (الجنة) كأن الجنة هي أول المطاف لذا اتصل الحديث ببعضه وتشعب في وصف هيئة الدخول المتمثلة بانفتاح الأبواب، وتضوع روائح الجنة وختمت بآية قرآنية. فالمصاحبة المعجمية المبنية هنا على التوازن توقفت عند حد معين.وقد تباين الغرض في كل جملة، فالنار مثلت النهاية في الجملة الأولى، لاقتضائها العذاب والهلكة وليس ورائهما وراء، إلا في دركات الشدة. فالعذاب مساوق للموت، أما الجنة فهي أولى درجات النعيم، التي تستشعر وتلمس مذ يقف المرء على بابها فيستنشق نسيمها ويؤذن له في الدخول. فالجملة انقطعت من حيث بدأ التشويق والترقب تاركة للسامع أن يتلقف خبرها من خلال الآيات والأحاديث لا من خياله، إذ لا يستطيع الخيال أن يطاول هذا اليقين ويستحصله. على ان انبتات التضام بين الجملتين في نقطة معينة لا يُلغي إمكانية استمرار المصاحبة في الجملة الثانية، تاركة العنان للمتلقي ليتوخى المظنونات التي يمكن أن تستوعبها المجموعة اللفظية المشاكهة لها في المبتنيات والمعاني.

وقد تدخل الجمل ضمن فناء المصاحبة عبر المراوحة بين النفي والإثبات ، فينصرف الذهن إلى الجزء المقابل من خلال استماعه لشطر الجملة الأولى ((...**مَنْ لَا يَدَعُ وَهُوَ مَحْمُودٌ ، يَدَعُ وهو...**))[(١)]، فللمرء أن يتوقع كلمة (مذموم) للمغايرة بين الفعلين سلباً وإيجاباً. وعند قوله (عليه السلام) فيها ((**وَمَنْ لَمْ يُعْطِ قَاعِداً، مُنِعَ...**)) (قائما) هي الكلمة الأنسب في مدار التوقعات[(٢)]، وجاءت بحكم التجاذب القائم بين شطري الجملة المردد بين جانبي النفي والاثبات، لتشكل بنية مقلوبة متعاكسة في أول طرفيها، لذلك قد ينصرف الذهن– ولو بصعوبة– إلى توقع الفعل أيضا، ففي ضوء الجملة الأولى له أن يحزر الشطر المقلوب في الجملة الثانية، بعد ان يستخلصه من عدة مظنونات، قد يصيب احدها، وقد لا يصيب لصعوبة التطابق بين القول الفعلي المنجز، وبين المظنون المتخيل. ولاسيما ان الجمل قد تختط منهجا غير مؤكدٍ، فربما ظن المستمع الترادف في حين ان النسق سيتأسس على التباين والعكس يصح، فقد يظن التباين لكن الكلام مناطه الترادف، فالحدس ستكتنفه الصعوبة من هذا الجانب.

ففي مقام الحديث عن حتمية الموت، اخبر بأنه (إن الموت **لا يَفُوتُهُ الْمُقِيم،ولا يعجزه الهاربُ...**))[(٣)] فحتى يستطيع السامع أن يُدرك الجملة المصاحبة لهذه اللفظة يجب أولا ان يدرك إلى اين سيتجه مسار الخطاب، ليتسنى له تعرف المدى التصاحبي الذي سيفرض مجموعة لفظية، فيها حقلان، احدهما للفعل والآخر للاسم، ولما كان الفعل سلبيا، فينبغي أن يَتوقعَ فعلاً سلبيا مسبوقا بـ(لا النافية) ليتحقق التوازن بين الجملتين. وفي هذا الإطار يمكن أن يُرْصَدَ عمودان للفعل، احدهما تذكر فيه الأفعال المتشابهة والآخر تذكر فيه الأفعال المتباينة، وهذه العملية بما تشتمل عليه من تعقيد، قد لا تتطابق مع الفعل المستعمل ، أو الأسماء المستعملة في الجملة فعلاً، لكنها ترسم أبعاداً معينة للجملة يحددها خيال المستمع ،على ان الاستعمال قد يفوق الخيال ويربو عليه، لذا فإن جملة ((ولا يُعْجِزُهُ الهارِبُ)) قد لا ينوشها الذهن حتما ولا تكون في متناوله لكنه ربما كان قادرا على صوغ مقترحات مصاحبة تقترب منها، ما دام بات عالما بالخطوط العريضة التي تتحكم في نسج النص وتحدد آليات انتظامه.

مما تقدم يستخلص ان المصاحبة واسطة مهمة في بناء الخطب واتساقها لاعتمادها بنيات ثنائية مرتكزة على التجاور والترادف اوالتقابل دلالة،وهي تلك تقرب البعيد المظنون، وتستبق الخطاب المنجز، لتتجاوز مجاورة اللفظ للفظ لتمتد إلى تضام الجملة إلى الجملة، فتكون المصاحبة

---

(١) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة ج١، ص٧٣.

(٢) ينظر: المطول على شرح تلخيص المفتاح، سعد الدين التفتازاني، ص٧٣ إذ شابهت هذه التوقعات ما عرف عند العرب بالارصاد أو التسهيم.

(٣) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة ،ج١، ص٣٣٢.

دليلا منصوبا على انسجام النص وتماسكه فيبوح بحضور التجانس في البنيات والوحدات الخطابية، ذلك انها تخضع إلى ضابط معياري محدد، تُضبط مقاييسُه وفق استعدادات الألفاظ للتآلف والتماهي مع مثيلاتها، ثم يتنامى هذا المفهوم، فيتعدى بآلياته إلى الجمل، وبذلك يكون عينا على النص، يستجلي ما غمض من دقائقه وما غاب من إسراره عبر واسطة الحدس والإنباء والبحث عن المفردة الملائمة التي يتقوم بها الخطاب، وفق ثنائيات متعاقبة تتسلسل بتسلسل الأحداث وتواليها. مع نزوع واضح إلى مد مبتنيات المصاحبة بالصور الحيوية التي تشي بشخصية المنشئ لارتباطها بأسلوبه الأدبي المتفرد الذي لا يشاركه فيه احد. دون أن يمنع ذلك من أن يُشارِك المتلقي في إنشاء النص عبر جملة مقترحات يرسيها وفق ما يسمح به المدى التصاحبي وما تتطلبه المجموعة اللفظية.

الفصل الثاني

بنائية الخطبة

المقدمة والعرض والخاتمة

مدخل: **بنائية الخطبة**:

قبل الخوض في تعرف الهيكلية التي على أساسها تشكلت خطب الإمام علي (عليه السلام). لابد من التنويه الى ان الشكل الخارجي لخطبه(عليه السلام) قد لايعدو في مظهره الشكل السائد لعموم الخطب المنجزة في العصر الإسلامي والأموي والعباسي ،وهي هيكلية نمطية تبدأ بالمقدمة فالغرض فالخاتمة .وعندما استقرأت هذه الخطب عبر كتاب (جهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة) وجدت ان معظم الخطب خلت من المقدمة –ربما اهملها الراوي –والمقدمات المذكورة غالبا ما توجز الحمد، ولاتعقبه بالصلاة على النبي(صلى الله عليه وآله)،وإن اعقبته لم تشفعه بالشهادة له بالنبوة ،وإن شفعته بها لم تطل بل توجز هذا هو النمط الغالب . وهناك خطب خلت من الحمد عن قصد كالخطبة البتراء [1]. وكخطب عبد الله بن الزبير الذي امتنع فيها من الصلاة على النبي (صلى الله عليه وآله) متعمدا ويستهلها بالانتقاص من بني هاشم[2].وقبله فعل ذلك عمرو بن العاص ،إذ كان قد استهل خطبة له بعدالحمد والصلاة بالانتقاص من الإمام علي (عليه السلام)[3] فسجلت خطبته بذلك تنافرا بين اجزائها وعدم انسجام واضحين . ومن الخطب التي تنافرت اجزاؤها خطبة المنصور عندما أخذ عبد الله بن حسن[4] فقد بدأت بالحمد والصلاة ،وثناها بالنيل من الإمام علي (عليه السلام) وولده !

وليس كذلك خطب الإمام (عليه السلام) التي يكون الحمد فيها ديباجة كاملة، يشفعها بالصلاة على النبي(صلى الله عليه وآله) فقد ((كان علي يعلم أصحابه الصلاة على النبي(صلى الله عليه وآله) ...)) [5]. ثم يعرج على الغرض فالخاتمة .

وقبل تناول الخطب لابد من معرفة ماهية الخطابة:-((...هي قوة أو ملكة نستطيع ان نكتشف بها على وجه نظري أو تأملي ما يمكن أن يكون شأنه الإقناع في كل حالة على حدة))[6].

---

(١) ينظر: البيان والتبيين،ج٢،ص١٩٤وكتاب الأمالي ،صلة ذيل الأمالي ،أبو علي اسماعيل بن القاسم

(٢) ينظر:جهرة.خطب العرب ،في عصور العربية الزاهرة،ج٢،ص١١٤

(٣) ينظر:م.ن.ج٢،ص١٤

(٤) م.ن.ج٣،ص٢٣

(٥) كتاب الأمالي، صلة ذيل الأمالي ،ص١١١٥.

(٦) الخطابة ، أرسطو، ص١٥.

فالإقناع هو الوظيفة الأساسية التي تتصدى الخطابة لإنجازها . وحتى يحقق الخطيب هذه الغاية لا مناص من أن يرتب خطبته وفق تنظيم معين يقوم على أساس الربط بين الأفكاروالأدلة والحجج على نحو متسلسل تنعكس آثاره على هندسة البناء .

يقول (أرسطو) ((...لا يكفي أن نملك الحجج بإيجادها وإنتاجها، بل لابد كذلك من إجادة العبارة عنها وتحسينها وتقديمها كما يجب ان تعرض.)) [١].

فإذا ما احسن الخطيب تقديم حججه وعرضها كما ينبغي أثَّر في المستمعين عاطفيا وأقنعهم عقليا.وأسلوب العرض يقتضي أن يقسم الخطيب خطبته على نحو تشتمل فيه على الأجزاء الضرورية وهي في الأصل اثنتان المقدمة والعرض وله أن يترك الخاتمة إذا أراد أن يتجنب التطويل[٢].

وهذا معناه أن الخطبة غالباًما تبدأ بالمقدمة فالعرض فالخاتمة، ووفق هذا النمط ستعالج بنائية الخطبة، علماً أن الخطب التي احتواها الكتاب لم ترد جميعها كاملة، فبعضها ورد بهيأة مقطّعات .

وخطب الإمام (عليه السلام) تبدأ عادة بالحمد، فالعرض فالخاتمة إلا إذا استجد خطب ما، فقد يترك الإمام (عليه السلام) المقدمة هنا، ويعرج على مقصوده مباشرة ويبدأ بعرض أدلته والدخول في الموضوع من فوره.

والخطب التي سيقتص البحث اثرها من جهة البناء هي خطب التوحيد والخطب الاجتماعية التي تنضوي تحتها خطب الوعظ والإرشاد لأن غايتها إصلاح المجتمع، وخطب السياسة وتنضوي تحتها خطب الحرب والفخر السياسي واللوم لترك الجهاد، لأن دوافع الفخر واللوم سياسية.

---

(١) الخطابة:ص١٧٩.

(٢) يُنظر: م . ن ، ص٢٢٢، ٢٢٣ . وقد سمى أرسطو المقدمة (العرض) وأسمى العرض الإثبات ثم أسمى المقدمة (مقدمة) والعرض (الإثبات بالدليل)، ينظر: ص٢٢٣.

المبحث الأول : المقدمة

مقدمة خطب التوحيد

تبدأ خطب التوحيد عادة بالحمد والتهليل والتمجيد، تعقبها الشهادة بالوحدانية والرسالة، لكنه (عليه السلام) في الخطبة (١٤٦) ترك ذلك كله ودلف إلى الموضوع رأساً، كان المقام يقتضي ذلك فالخطبة أقيمت على منبر الخطابة في الكوفة، رداً على سؤال وجهه إليه ذعلب: هل رأيت ربك؟[١].

وهذا يفترض أن السؤال اعقب خطبة مرت حوت الحمد والتمجيد والشهادة، لذا استغنى بذاك الذكر الأول عن ذكرها ثانية.

أو ان خطورة الموضوع أعجلته عن ذلك ؛ لأن الرؤية البصرية الحقيقية تتطلب ان يكون المرئي جسماً ذا أبعاد، يشار إليه بالحس، متحيزاً في جهة، وأن يقع النظر عليه كله فيكون محدوداً وإلا إذا وقع النظر على بعضه لزم ان يكون مركباً، وهذا كله مستحيل في حقه تعالى[٢].

فلنفي الجسمية والتركيب والإشارة والجهة عنه سبحانه ولاسيما ان السائل كان في المسجد وهذا يعني احتمال وجود عدد من الحضور يعتدّ بهم، فأراد أن ينفي ما يمكن أن يكون قد علق في اذهانهم من إمكان رؤيته تعالى.فبادر من فوره إلى مقدمة فيها الثناء عليه سبحانه.((لم تره العيون بمشاهدة الإبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان)) .

يتجلى التواصل جليا في هذه الخطبة عبر ثنائية الحوار المباشر المؤثرة في حركية النص والأبعاد الكلية لبنيته،وهو موجه الى المخاطب السائل ، وذلك على نحو لايلغي الآخرين فهو خطاب ذو صفة جمعية. فثنائية الحوار هي المظهر الأول من مظاهر الحجاج. وهو من آلياته المنطقية.

المظهر الثاني من مظاهر الحجاح يتجلى في الرابط الحجاجي لكن،فإذا كان المتكلم قدجاء بالنتيجة (ا) والنتيجة(ب) بوصفهما حجتين متضادتين في اتجاههما،فإن(لكن) الحجاجية تربط بين هذا التعارض الحجاجي وعادة ما تكون الحجة الثانية اقوى من الأولى [٣].

فتوالت هنا حجتان :الأولى لم تره...والثانية رأته...فأبطلت (لكن) الرؤية البصرية وأثبتت الرؤية القلبية.

---

(١) ينظر: نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة ، ج١، ص٥١٥.

(٢) يُنظر: محاضرات في الإلهيات، جعفر السبحاني، ص١٤٥-١٤٦، ويُنظر: مطارح النظر في شرح الباب الحادي عشر، صفي الدين الطريحي، ص٩٥-٩٨.

(٣) ينظر:اللغة والحجاج، ابو بكر العزاوي،ص٥٨ وما بعدها.

ولإن افتتاح الكلام ((...منطقة خطرة في الخطاب : ابتداء الخطاب فعل عسير انه الخروج من الصمت)) [١].فاستهلال الكلام بالحجج يعد نمطا غير معتاد،وقد أرسى مبادئه الأمام(عليه السلام)، ولاسيما ان استهلال الخطب في العصر الجاهلي كان نمطه عادياً[٢]، حتى جاء الإسلام، فاعتاد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على استهلال الخطبة ((...بذكر الله تعالى وحمده والشكر لمعطياته ... وقد درج الإمام (عليه السلام) على هذا النسق من الاستهلال وأفاض فيه تفصيلاً وتنويعاً...))[٣].

ومصداق هذا الكلام يتمثل في هذه الخطبة التي وصف فيها الإمام (عليه السلام) البارئ بناء على طلب من احد متهودة اليمن قال له: **((يا أميْرَ المؤمنينَ صفْ لنا خالقك وانعتْهُ لنا حتى كأنا نَراهُ وننظر إليه، فسبّح علي عليه السلام ربه عز وجل وعظمه وقال: الحمدُ للهَ الذَّي هُوَ الأوّلُ، لا بَدِئَ مِمّا، ولَا بَاطِنَ فِيما ولَا [يَزالُ مَهْما][٤] ولا مُمازِجَ مَعَ مَا ولا حَالَ بما))**[٥].

ولقد كان الحوار هو الباعث على الخطبة بوصفه ((فعالية خطابية ، وهو الأصل في الكلام)) [٦].فالحوار ملازم للتواصل والحجاج والإقناع[٧] .

ولما كان موضوع الخطبة مقدساً لم يشرع الإمام بالخطبة حتى سبح الله تعالى وعظمه.ثم شرع بحمده تعالى وأفاض فيه تنويعاً وتلويناً ومن خلال هذا الحمد مهد لموضوع الخطبة.فقد مزج الحمد بصفات الإكرام وصفات الجلال[٨] لما اثبت له تعالى القدم ونفى عنه الحدوث والحلول والتركيب ...

وربط الاسم الموصول (الذي) بيّن أواصر الاستهلال ومد في أفق الجملة، فجاءت بعده هذه الجملة (هو الأول) وبها اثبت للذات الإلهية القدم، لأن (الأول) مرادف للقدم ويعني هذا استحالة العدم عليه، فالقديم هو المصاحب لجميع الأزمنة المحققة والمقدّرة [٩]. وجاءت الجملة مثبتة فتماهت مع إثبات صفة القدم له تعالى.

---

(١) التحليل النصي، تطبيقات على نصوص من التوراة والأنجيل والقصة القصيرة،ص٣٧.

(٢) يُنظر: تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي، محمود البستاني، ص٣٩.

(٣) م . ن، ص٢١٦.

(٤) المعقوفتان من المؤلف.

(٥) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٥٦١.

(٦).ينظر:مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية ،مقالة: النورسي رجل الحوار والإقناع ،أبو بكر العزاوي،ص٣٨

(٧) ينظر:م.ن.ص٣٩

(٨) يُنظر:دليل الفكر إلى شرح الباب الحادي عشر، علي علمي الاردبيلي،ج١، ص١١٧.

(٩) ينظر: م . ن، ص٩٧.

وقد بدأ الكلام بالنتيجة (الحمد لله الذي هو الأول) فأوليته هي الصفة التي يروم الإمام (عليه السلام) إثباتها،وإقناع المخاطب بها((ويقضي الاستدلال أو المنطق...أن يرفق ذكر النتيجة بذكر الأدلة أو الحجج التي تخدمها وتؤدي إليها...)) [1].ولذا أورد الإمام الحجج مباشرة : (**لا بَدِئَ مِمّا، ولَا ولَا بَاطِن فِيما ولَا يَزالُ مَهْما ولا مُمازِجَ مَعَ مَا ولا حَالَ بما**). هذه الحجج تؤيد النتيجة السابقة وتقويها وتصبو إلى تحقيق الغاية التي انشئت الخطبة لإجلها؛فلما فرغ (عليه السلام) من ذكر صفة الإكرام وهي القدم عمد إلى سلب ما لا يجوز عليه من الصفات فنفى عنه تعالى سمة الحدوث ونزهه عن ان يكون سبحانه محلاً للحوادث أو أن يكون متحيزاً في محل أو جهة، أو أن يكون مُمَازَجْاً مع غيره . فقابلت هذه الصفات السلبية تلك الصفة الثبوتية، فكانت كالمفسرة لها.

وبعد هذه المقدمة بسط (عليه السلام) موضوع الخطبة وكان منسجماً مع الصفات التي ذكرتها المقدمة، فكانت البؤرة التي ابتني عليها النص هي التنزيه ونفي ما لا يجوز عليه تعالى من الصفات.

وهكذا مهدت المقدمة لموضوع الخطبة وشكلت معه نسقاً معنوياً ووشائج دلالية متقاربة.

وقد أفاض الإمام (عليه السلام) في الحمد ودل على موضوع الخطبة من خلاله في قوله مستهلاً **((الحَمْدُ للهِ الذِّي لَا مِنْ شَيءٍ كانَ وَلَا مِنْ شَيءٍ خَلَقَ مَا كوَّن مُسْتَشْهِدُ بِحُدُوثِ الأَشْياءِ عَلى قِدمِه وبما وسَمَها من العجْزِ عَلى قُدْرتِهِ وَبِما اضْطَرَّها إليهِ مِنَ الفَناءِ على دَوَامِه))** [2].

امتزجت هذه المقدمة بالبراهين الدالة على وجوده، فأومأت إلى موضوع الخطبة وأشارت إليه، فقد نفى الإمام (عليه السلام) عنه سبحانه العدم وأثبت له القدرة مستدلاً عليها بمخلوقاته (مُستشهد بحدوث الأشياء على قدمه وبما وسمها من العجز على قدرته) فبرهن على وجوده وقدمه منتقلاً من المعلول إلى علته، وهو ما اصطلح عليه المتكلمون – فيما بعد– بالبرهان الإنّي[3] وأسموا هذا الأسلوب :الاستدلال من الأثر إلى المؤثر[4]. وبضم اول المقدمة إلى تاليها (... الذي لا من شيء شيء كان ... وبما اضطرها اليه من الفناء على دوامه) أُثبِتَ انه تعالى سرمدي والسرمدي هو الدائم غير المنقطع[5].هذه المقدمة وطأت لموضوع الخطبة ، وأبانت عنه فهو مُنْصَبٌّ على وصف وصف الذات الإلهية لايخالطه موضوع آخر.وبذلك شُدّتْ أوتادُ النسق الذي على أساسه عرض

(١) الخطاب والحجاج ،أبو بكر العزاوي، ص٢٠.

(٢) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ٥٧٧.

(٣) يُنظر: مطارح النظر في شرح الباب الحادي عشر، ج١، ص٤٥.

(٤) يُنظر: دليل الفكر إلى شرح الباب الحادي عشر، ص٥٣.

(٥) يُنظر: م . ن، ص٩٩.

الإمام فكرته،عبر تنويع النعوت وتتاليها في بنية متناسقة ، احكمت رباط الفكرة في سلسلة جمل منتظمة.

ويكاد يطّرد في خطب التوحيد محض الموضوع له وعدم مزجه مع موضوع آخر: ((**الحَمْدُ لله الذي لا تُدْرِكُهُ الشَّواهِدُ، ، ولا تَراهُ النَواظِرُ ولا تَحْجِبه السَّواتِر، الذي عَلا بِكُلِّ مَكْرُمَة، وبانَ بِكُلِّ فَضيلَة وجَلَّ عَنْ شِبْهِ الخَليقَة وتَنَزَّهَ عَن الأفْعالِ القَبيحَة وصَدَقَ في ميعادِهِ وارْتَفَعَ عَنْ ظُلمِ عبادِهِ، وقامَ بالقِسْطِ في خَلْقِه، وعَدْلِه عَليهِم في حُكْمِه وأحْسَنَ إليهِمْ في قَسْمِه**)) [1].امتزجت الأدلة مع بعضها لتعضد النتيجة التي اضطلعت بها المقدمة؛ فإذا كان سبحانه لاتدركه المشاهد تعينت البراهين الملازمة :

- **لا تَحُوزُهُ المشاهِدُ**
- **لا تَراهُ النَواظِرُ**
- **لا تَحْجِبه السَّواتِر**

هذا هو الشطر الأول من المقدمة. وهي منقسمة على قسمين يفصلُ بين الأول والثاني منهماالاسم الموصول (الذي) فالشطر الأول انتهى بقوله (لا تحجبه السواتر)، وقد تميز الشطر الأول بالتوازي النحوي والصوتي[2]، تمثل التوازي النحوي بتركيب الجمل من (لا النافية + فعل مضارع مع ضمير المفعول + الفاعل)، والتوازي الصوتي تمثل بالبنيات الوزنية القائمة على تكرار أوزان بعدد معين وثابت[3]. وهو متمثل بجميع الجمل في هذا الشطر (لا تُدركه الشواهدُ ولا تحوزه المشاهد)، وهاتان الجملتان لهما فضيلة الارتباط بالسجع إذ كل واحدة منهما منتهية بالدال، وارتبطت الجملتان اللتان بعدها بصوت الراء، فضلاً عن توازن البنية النحوية، هذا الترابط النحوي والصوتي يصب في خدمة المضمون ويشير إلى تجانسه وتماسكه وهو من مظاهرالحجاج .

بدأ الشطر الثاني من هذا القسم بكلمة (الذي) وتوالت بعدئذٍ الجمل الدالة على بيان الصفات الثبوتية صفات الجمال والإكرام ونفي الصفات السلبية، وبذلك شبكت المقدمة بالغرض الذي خلص للتسبيح. وكان السياق السائد هو سياق الوجهة الحجاجية الواحدة لاسياق التعارض الحجاجي![4] وهذا يعني إن جميع الحجج ترتبط مع المقدمة بعلاقة رابطة تقوي هذه المقدمة وتؤيدها. وقد تكون هذه الحجج معللة للمقدمة فالرابط بينهاهي العلاقة التعليلية.أي مادام لاتدركه الشواهد فقد بان وعلا وجلَّ...

---

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٥٨٧-٥٨٨.

(٢) يُنظر: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص١٢٢.

(٣) يُنظر: م . ن، ص١٢٢.

(٤)الخطاب والحجاج : ص٢١

الجزء الثاني من المقدمة بدأه الإمام بالتهليل ((**ولا إله إلاّ هوَ الواحدُ القَهّارُ، العزيزُ الجَبَّارُ، الّذي لمْ يَتناهَ في الأوهامِ بتحديدٍ ولمْ يَتمثلْ في العقولِ بتصويرٍ ولم تَنَلْهُ مقاييسُ المقدِّرينَ ولا استخرجتْهُ نتائجُ الأوهامِ ولا أدركتْهُ تَصاريفُ الاعتبارِ فأوْجدَتْهُ سُبْحانَهُ مَحدوداً، ولا شَخصاً مَشْهوداً وَلا وقَّتَتْهُ الأوقاتُ فَتَجري عليهِ الأزمنةُ والغاياتُ، ولمْ يَسبِقْهُ حالٌ فيَجري عليهِ الزوالُ**)).

هذا الشطرُ من المقدمةِ امتزجَ فيه التعليمُ بالتذكير، فكان متناسباً مع أحوال المتلقي، فحيث كان المخاطب عالماً بأنه تعالى واحد، قهار، عزيز ذكّرهم بذلك وحيث غابت عنهم الحقائق الواصفة له تعالى تصدى لتعليمهم إياها فالمخاطب إذا كان ((...خالي الذهن يتقبل المعرفة الملقاة اليه وهذه الحالة اقتضت خطابة تعليمية)) [1].

وتعززت اواصر التماسك النصي هنا؛ لتكرار الجمل المبدوءة بأدوات السلب.وقد بدأ هذا الجزء بنتيجة طويلةهي: (**لا إلـه إلاّ هـوَ الواحـدُ القَهّـارُ، العزيـزُ الجَبَّـارُ**) وتعززت هذه النتيجة بالرابط الحجاجي الذي، فكان مؤدى البراهين إن الله تعالى هو:

- **الّذي لمْ يَتناهَ في الأوهامِ بتحديدٍ**
- **الذي لمْ يَتمثلْ في العقولِ بتصويرٍ**
- **الذي لم تَنَلْهُ مقاييسُ المقدِّرينَ**

وقد حقق هذا الرابط انسجاماعاليا على مستوى تماسك النص وتآزر الحجج وتلاحمها في إسناد النتيجة ، وهي وحدته سبحانه وقاهريته وعزته وجبروته .

وقد لا يقتصر الحمد على المقدمة، بل يشتمل عليه كل مفصل من مفاصلها كالخطبة – ١٦٤ – فقد استهلها بالحمد، فقال: ((**الْحَمْدُ للهِ الَّذي لاَ يَمُوتُ وَلاَ تَنْقَضي عَجائِبُهُ، لأَنَّهُ كُلَّ يَوْمٍ لأَنَّهُ كُلَّ يَوْمٍ، مِنْ إحْداثِ بَديعٍ لَمْ يَكُنْ، الَّذي لَمْ يُولَدْ فَيَكُونَ في الْعِزِّ مُشارَكاً، وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْرُوثاً هالِكاً، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الأَوْهامُ فَتُقَدِّرَهُ شَبَحاً ماثِلاً... وَلَمْ تُدْرِكْهُ الأَبْصارُ فَيَكُونَ بَعْدَ انْتِقالِها حائِلاً، الَّذي لَيْسَتْ لهُ في أَوَّلِيَّتِهِ نِهايَةٌ، وَلاَ في آخِرِيَّتِهِ حَدٌّ وَلاَ غايَةٌ، الَّذي لَمْ يَسْبِقْهُ وَقْتٌ وَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ زَمانٌ، وَلَمْ يَتَعاوَرْهُ زِيادَةٌ وَلاَ نُقْصانٌ، وَلم يُوصَفُ بِأَيْنَ وَلاَ بِمَ وَلاَ بِمَكانٍ، الَّذي بَطَنَ مِنْ خَفِيَّاتِ الأُمُورِ، وَظَهَرَ في الْعُقُولِ بِما يُرَىٰ في خَلْقِهِ مِنْ عَلاَمَاتِ التَّدْبِيرِ الَّذي سُئِلَتِ الأَنْبِياءُ عَنْهُ فَلَمْ تَصِفْهُ بِحَدٍّ، بَلْ وَصَفَتْهُ بِأَفْعالِهِ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ بِآياتِهِ، وَلاَ تَسْتَطِيعُ عُقُولُ الْمُفَكِّرِينَ جَحْدَهُ، لأَنَّ مَنْ كانَتِ السَّمٰواتُ وَالأَرْضُ وَما فِيهِنَّ وَما بَيْنَهُنَّ فِطْرَتَهُ، وَهُوَ الصَّانِعُ لَهُنَّ، فَلاَ مُدْفِعَ لِقُدْرَتِهِ، الَّذي بَانَ مِنَ الْخَلْقِ فَلاَ شَيْءَ كَمِثْلِهِ، الَّذي خَلَقَ خَلْقَهُ لِعِبادَتِهِ، وَأَقْدَرَهُمْ عَلَىٰ طَاعَتِهِ بِما جَعَلَ فِيهِمْ، وَقَطَعَ عُذْرَهُمْ بِالْحُجَجِ، فَعَنْ بَيِّنَةٍ هَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَعَنْ بَيِّنَةٍ نَجا مَنْ نَجا، وَللهِ الْفَضْلُ مُبْدِئاً وَمُعِيداً**)) [2].

---

(١) في بلاغة الخطاب الاقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، محمد العمري، ص٤١.

(٢) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٦٠٣-٦٠٤.

هذه مقدمة طويلة لا يمكن تفكيك أواصرها وتجزئتها لأنّ الاسم الموصول توزع على مفاصلها فربط كل جزء بما قبله وربقه مع ما يليه ، والرابط الآخر هو الفعل الذي استتر فاعله محيلاً إلى ما قبله.وتكرار الوحدات الموصولة والضمائر المحيلة أضفى دلائل التماسك على الخطاب.

فقد تكررت (الذي) سبعَ مرّات ،هذا التكرار منع من اجتزاء المقدمة والاكتفاء ببعضها دون بعض، لأنَّ موقع الذي في كل مرّة كان صفة، والصفة لا تستقل بنفسها، فهي تابعة للموصوف مع جملة الصلة تدل عليه وتتصل به، وقد شكل تواردها عدّة مرات نسقاً متوالياً والنسق المتوالي هو المظهر الأبرز من مظاهر تركيب الخطاب لأنّ ((...الخطاب... مصطلح يعيّن الطريقة تشكل بها الجمل نسقاً تتابعياً... فإنَّ النصوص ... تترابط... لتصنع خطاباً أوسع نطاقاً...)) [١].

من جهة ثانية يتضاعف أثر (الذي) ويتسع لأنَّ تكرار صيغتها يمثل مظهراً من مظاهر الترابط النصي عبر تكرار الصيغة الذي يعد أحد مظاهر الإحالة داخل النص[٢]، ومن ثم يزيد من تماسكه وانسجامه. فضلاً عن ان دواعي التوصل بها يهدف إلى زيادة التقرير والتوصل بالموصول يعد ذريعة إلى التعظيم[٣].ومن ناحية اخرى مثل تكرارها لازمة أسلوبية فكانت المحور الذي ابتنيت المقدمة عليه.اما من الناحية الحجاجية فالاسم الوصول الذي((...هو رابط حجاجي مدرج للحجج فهو الذي ربط ...بين النتيجة القصودة والحجج المؤدية إليها)) [٤].

وقد تجلى هنا دور السلم الحجاجي في صياغة المسألة :

– من لايموت، لا تنقضي عجائبه.

وبيان هذه الحجة يتجلى فيما لو قلبت الحجتان[٥]، بحسب قانون القلب، وذلك بأن نأتي بنقيض الحجتين :(عليه السلام)

– من تنقضي عجائبه، يموت.

والحجة الثانية (لا تنقضي عجائبه)لازمة لعدم الموت.لذا أبان علة عدم انقضاء عجائبه سبحانه: **لأَنَّهُ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ.**

وثمة روابط حجاجية متعددة تعضدالكلام : كالفاءالحجاجية في قوله :

(الَّذِي لَمْ يُولَدْ فَيَكُونَ فِي الْعِزِّ مُشَارَكاً ، وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْرُوثاً هَالِكاً ، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الأَوْهَامُ فَتُقَدِّرَهُ شَبَحاً مَاثِلاً... وَلَمْ تُدْرِكْهُ الأَبْصَارُ فَيَكُونَ بَعْدَ انْتِقَالِهَا حَائِلاً).

---

(١) مقدمة في نظريات الخطاب، ص٣١.

(٢) يُنظر:تحليل الخطاب، ص٢٣٠، ٢٣١.

(٣) يُنظر: المطول على شروح التلخيص، ص٢٤.

(٤) الخطاب والحجاج:ص٢٢.

(٥) يُنظر:اللغة والحجاج،ص٢٢.

فالفاء الرابطة تعلل وتفسر مابعدها، فهي تنسق ما بين الحج والنتيجة،فالحجة لم يولد، تستصحب نتيجة ملائمة وهي المشاركة في العز...وهكذاالى آخر الحجج المعروضة.

ومن مظاهر الحجاج توالي الواو الرابطة الحجاجية التي حققت وظيفتين هما ،ترابط النص وانسجام الحجج في مقام عرضها وبسطها لتتماهى مع النتائج.

ومن المظاهر التي تؤشر ترابط أجزاء المقدمة تكرار الفعل ذي الفاعل المستتر الذي يحيل على ما قبله– الذات الإلهية–، فيمثل نمطاً إضافياً يساعد على تماسك المقدمة وعدم تفتيتها وهذا من مظاهر ترابط النص داخلياً لأن الإحالة القبلية تؤدي إلى اتساق المقدمة وتناسق أجزائها وهذا من أهم عناصر السبك[١]،الذي يتعزز بوحدة المحال عليه.

هذه الإحالة تتمثل بقوله ((ولم يوصف بأين ... فلم تصفه بحد..)) وسوى هذه من الأفعال التي اشتملت على الضمير المحيل على ما قبله الذي يزيد من تلاحم الأجزاء، ويُظهرها بمظهر الخطاب المتجانس.

بدأت المقدمة بنفي أمور ثلاثة عن الله تعالى، وهي الموت والولادة والاستيلاد وهذه من خصائص الكائن الحي (الممكن الوجود)، فلما تنزه عنها استوى إلهاً (لا يموت، ولا تنقضي عجائبه ... لم يُولد فيكون في العز مشاركاً ، ولم يَلد فيكون موروثاً هالكاً...) استوجب كل نفي ان ينفي ملازمه معه، فالموت يعني الفناء ويلزم منه بطلان قدرته تعالى التي بها مَلاكُ الخلق وإظهار العجائب، فلما نفى الإمام عنه الموت اثبت له القدرة والخالقية وهي دلائل التوحيد الأفعالي، ولما نفى أن يكون سبحانه مولوداً اثبت وحدانيته وهذا من معاني التوحيد الذاتي[٢]، ثم عاد الموضوع إلى بدئه لما سلب عنه الاستيلاد، فيلزم منه ان تقبل ذاته الموت فهنا عاد يثبت له صفة الحياة وهي من لوازم التوحيد الذاتي أيضاً. وماهية المقدمة تمزج بين التعليم والوعظ لأنّها طرحت موضوعاً يجهل المخاطب بعضه ويعلم بعضه الآخر، فالمتلقي بين حالين، حال خلو الذهن من كل ما يلقى إليه وهذا متمثل ببداية المقدمة والحال الأخرى حال علمه بما يسمع ولئلا ينساه أو يتناساه عمدت المقدمة إلى تذكيره به[٣].وبهذا أُبْطِلَ أنْ يقاس سبحانه وتعالى على عباده، فيتصوره المتصور محدود الحياة والقدرة.

وقد توافقت هذه المقدمة مع الغرض الذي كان انعكاساً للمقدمة، ففي مفاصل الخطبة جميعاً تكرر الحمد وهذا نوع من التكرار الجزئي[٤] الذي يكشف عن انسجام النص وتماسكه ليحقق بنية

---

(١) يُنظر:تحليل الخطاب، ص٢٢٨ وما بعدها .

(٢) يُنظر: محاضرات في الإلهيات، ص٤٥ .

(٣) يُنظر: في بلاغة الخطاب الاقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، ص٤١.

(٤) يُنظر: تحليل الخطاب، ص٢٣١.

نصية متكاملة تترابط في الدلالة والمعنى.لأن دلالة الحمد هنا شكلت رابطاً إحالياً تجاوز حدود الكلمة الواحدة فضلاً عن الجمل المتعددة التي شكلت المقدمّة فربطت ((...بين عناصر منفصلة ومتباعدة من حيث التركيب النحوي، ولكن الواحد منها متصل بما يناسبه أشد الاتصال من حيث الدلالة والمعنى)) [١].وبذلك أفضت المقدمة الى المطلوب وهي الاعتراف بفضله سبحانه.

وبهذا كانت المقدّمة في خطب التوحيد جزءاً أساسياً من أجزاء الخطبة، لا يتركها الإمام (عليه السلام) إلا إذا أعجله أمر ما عنها ؛ فيدخل من فوره في الغرض الاساسي، وبها يقرن الحمد إلى وصفه سبحانه بما يليق به وتنزيهه عما لا يليق بذاته القدسية، وقد يتوسط الاسم الموصول (الذي) بين الحمد والوصف كالأمثلة التي مرّت، وكهذه الخطبة ((**اَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي لا يَفِرُّهُ المنعُ ولا يُكْديهِ الإعْطاءُ...**)) [٢]، بوصفه رابطا حجاجيا،يمثل حلقة وسيطة بين اجزائها فضلا عن الروابط الأخرى كالفاء والواو. وذلك هو الغالب في خطب التوحيد الخالص، ربّما لأنّها وسيلة تعين على الإسهاب في وصفه تعالى، فكلمة (الذي) تعد حلقة الوصل التي تساعد على تشقيق القول وتفريع المطالب والتفصيل في جوانب الحديث عن الذات الإلهية، بما يشبع شغف المتطلعين إلى المعرفة.

والمقدمة في خطب التوحيد لا تكاد تنماز عن الغرض الأصلي بسبب وحدة الموضوع الذي يتقاسمانه، لكن الحمد يمثل دالاً أساسياً يعزل الخطبة عن الغرض، وقد تضم إليها الشهادة كما تقدم، على ان ذلك قد يتخلف كما هو الحال في الخطبة (١٦٤) الآنفة الذكر فقد تفرّق الحمد في تضاعيفهاجميعاً فكان جزءاً من المقدمة، وكان البؤرة المهيمنة التي ابتني عليها النص.

وبذلك شكلت المقدمة في خطب التوحيد مَعْلَماً مهماً وجزءاً ممهداً يؤلف مع الغرض وحدة خطابية كاملة، لا تستغني الخطبة عنه إلا لطارئ يطرأ.

مقدمة الخطب الاجتماعية

إنّ خطب الوعظ والإرشاد تنتهج غاية معينة، وهي إصلاح المجتمع لذا ستصنف هذه الخطب ضمن هذا النطاق مع خطب الجمعة والأعياد والخطب الموقوفة للنكاح والخطب التي تنتهج إرساء قواعد المساواة بين الناس وسواها من المضامين المتقاربة في النوايا والمتوافقة في الأهداف.

(١) نسيج النص،بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، الأزهر الزناد، ص١٢٤.

(٢) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٦٠٨

و((المقدمة هي ابتداء الخطاب...)) [١]، والغاية منها استدراج المستمع واستمالته ولفت انتباهه[٢]، وهي قد تكون أجنبية عن الموضوع، غريبة عنه أو متعلقة به على نحو مخصوص[٣]، كما هو في مقدمات خطب التوحيد.

وقبل تناول هذه المقدمات بالبحث تجدر معرفة أن بعض هذا النوع من الخطب قد طُويت مقدماته فلم تُذكر، بل تمت الإشارة إليها على نحو موجز.

ففي الخطبة التي خطبهاالإمام في الكوفة قادماً من البصرة، وقد حررها للوعظ والإرشاد، لم يذكر راوي الخطبة المقدمة، مع أنه أسهب في ذكر تفاصيل أخرى فقد أوجز الحديث عنها قائلاً ((...ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله وقال...)) [٤].

فلم تذكر مفردات الحمد ولا كيفية الصلاة على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ومثل ذلك تكرر في خطبة ابتغى الإمام (عليه السلام) من ورائها إصلاح النفوس إذ تكرس موضوعها للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقول الراوي: ((...ان علي بن أبي طالب خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال **أيُّها النّاسُ إنّما هَلَكَ مَنْ هَلَكَ مِمّنْ كانَ قَبْلَكُمُ...**)) [٥].

فالإشارة إلى المقدمة كانت مقتضبة لا يتيسر معها التكهن بماهية المفردات التي اشتملت عليها المقدمة ومدى ارتباطها بالغرض الرئيسي للخطبة.

أكثر من ذلك، قد يُعرِض الراوي عن الإشارة للمقدمة، فيعمد إلى رواية الخطبة مباشرة دون أن تُذكرَ التفاصيل . وهنا لا يُعلم أأعرض الإمام (عليه السلام) عن المقدمة لسبب ما، أم أنه (عليه السلام) بدأ بالمقدمة لكن الراوي لم يذكرها غفلة أو نسياناً أو تعمداً .ربّما لأنّه يرى في مضامين جميع المقدمات قدراً مشتركاً فيعرض عنها. وقد أشار محمود البستاني إلى أنّ خطب الإمام (عليه السلام) قد وصلت في معرض النقص أحياناً وقد عزّى ذلك إلى عدة أسباب منها ((...نسيان الراوي، أو بسبب اقتصاره على موضع الشاهد، أو بسبب ملابسات النسخ...)) [٦].

من هذه الخطب التي وردت دون مقدمة الخطبة (١٦٩) فقد قال راويها ((قال أمير المؤمنين (عليه السلام) لأصحابه يوماً وهو يعظهم :

---

(١) الخطابة، ص٢٢٤.

(٢) يُنظر م . ن، ص٢٢٦.

(٣) يُنظر: م . ن ، ص٢٢٥.

(٤) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٤٦٣.

(٥) م . ن ، ج١، ص٥١٨.

(٦) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الاسلامي، ص٢١٦.

تَرَصَّدُوا مَوَاعِيدَ الآجَالِ ، وَبَاشِرُوهَا بِمَحَاسِنِ الأَعْمَالِ...)) [1]، فقد شرع في ذكر الغرض منصرفاً عن المقدمة، فلم يشر إليها بتاتاً، ولا يعقل أن يكون الإمام (عليه السلام) قد أعرض عنها لمجرد الإعراض وهو الحريص على افتتاح خطبه بمطالع حسنة، فهو القائل: ((إنَّ أَحْسَنَ مَا ابْتَدأ به المُبتدئونَ ونَطَقَ به النَّاطِقُونَ وتَفَوَّهَ بِهِ القائلُونَ: حَمْدَ اللهِ والثَّناءَ عليه بِما هُوَ أَهْلُه، والصِّلاةَ على النبي محمدٍ وآله))[2].

فقد صرّح الإمام (عليه السلام) بالابتداء الحَسِن، وأبان عنه وهو حمد الله تعالى والثناء عليه متلواً بالصلاة على النبي وآله.

وهذا ما يشير ضمناً إلى درجات الابتداء المتفاوتة في الجودة فمنها ما هو حسن، ومنها ما هو أحسن – وهو الغاية – وحتى لا يشط العقل في البحث عن ماهية هذا الابتداء عيّنه بـ(الحمد) وهو بهذا التعيين اثبت القصدية في الابتداء ونفى العشوائية عنه والاعتباطية[3]، فهو عمل مخطط له.

وهذا يعني أن الإمام (عليه السلام) يقصد إلى ان يبدأ جميع خطبه بالحمد أياً كان الموضوع الذي سيتطرق إليه، وأنّه لا يفوّت المقدمة إلا لِعللٍ وأسبابٍ تمنعه من إيرادها.

وهو في مقدماته لا يسير على نمط واحد، وإنما يتفنن في ذلك، فمن خطبة له يردّ بها على الذين انكروا عليه تسويته بين الناس في العطاء والفيء قوله مبتدئاً: **((أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّا نَحْمَدُ رَبَّنَا وَ إِلَهَنَا وَ وَلِيَّ النِّعْمَةِ عَلَيْنَا ظَاهِرَةً وَ بَاطِنَةً بِغَيْرِ حَوْلٍ مِنَّا وَ لاَ قُوَّةٍ إِلاَّ امْتِنَاناً عَلَيْنَا وَ فَضْلاً لِيَبْلُوَنَا أَ نَشْكُرُ أَمْ نَكْفُرُ فَمَنْ شَكَرَ زَادَهُ وَ مَنْ كَفَرَ عَذَّبَهُ))** [4].

كان هذا الشطر الأول من الخطبة لمْ يبدأ بالحمد، إلا على نحو إشراك الآخرين، لذا بدأت الخطبة بالنداء (أيها الناس) هذا الخطاب الذي يعكس تفاوتهم في قبول حكمه تعالى، فلو ارتضوا حكمه لكانوا مؤمنين ولناداهم ايها المؤمنون، لكن انكارهم هذه المساواة يعكس عدم قبولهم الحكم الإلهي؛ فهم دون المؤمنين مرتبة ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾[5].

---

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغةج١، ص٦٣٢.

(٢) م . ن ، ج١، ص١٣٨.

(٣) التحليل النصي،تطبيقات على نصوص من التوراة والانجيل والقصة القصيرة، ص٣٧ إذ يقول هناك ((...الابتداء يعني تقطيعاً لا نهائياً بطريقة اعتباطية.))

(٤) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٢٢٨.

(٥) النساء : ٤٥.

من آليات الحجاج اللغوي الواضحة هنا أفعال الكلام ،فالفعل (نحمد) هو فعل انجازي ، ذو صيغة تقريرية مفادها طلبي بحسب السياق الذي وردت فيه فهو إذن فعل سياقي[١]

وقد تدرج بهم في المقدمة رويداً؛ لتتغلغل في وجدانهم فأرسى قواعد المساواة بينهم وبينه بأن قرنهم إليه في وحدة العبودية للخالق الذي ساوى بينهم في أصل الخلقة ولم يفاوت بينهم في درجات الإنسانية وجعل (عليه السلام) الحمد عملاً جماعياً فأشركهم في الحمد (فَإِنَّا نَحْمَدُ رَبَّنَا وَ إِلَهَنَا)، ثمَّ ذكَّرهم بأنَّ هذه النِعَم التي يقسمها عليهم هي مخلوقة له سبحانه وتعالى وقد أفاضها عليهم جميعاً تفضلاً منه سبحانه، فليس يسعهم أن يُبدعوا مثلها، وهذه النعم هي مواطن ابتلاء وامتحان ومحك اختبار فمن شكرها استحق الزيادة، ومن لم يؤد حق شكرها استحق العذاب.وبإرجاع هذه النعم جميعاً إلى الله تعالى سيدرك المسلمون أنهم متساوون في هذه النعم إذ لا فضل لأحدهم على الاخر، وميدان التفاضل هو العبودية.

وبذلك تتحقق أهم الاسس التي أقام عليها الإسلام مفهوم العدالة الاجتماعية وهي المساواة الإنسانية الكاملة[٢]، بين أفراده في أصل المنشأ.

أما الشطر الثاني من المقدمة فهو الشهادة بالإلوهية وبالرسالة: **((أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اَللَّـهُ وَحْـدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ أَحَداً صَمَداً وَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ بَعَثَهُ رَحْمَةً لِلْعِبَادِ وَ اَلْبِلاَدِ وَ اَلْبَهَائِمِ وَ اَلْأَنْعَامِ نِعْمَةً أَنْعَمَ بِهَا وَ مَنّاً وَ فَضْلاً صَلَّى اَللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ))**.

هذا الشطر الثاني يشير إلى نعمة العبودية ضمناً عبر التصريح بالشهادتين لأنَّ العبودية لله الواحد نعمة إذ هي انقاذ من الضلال والإقرار برسالة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نعمة وهي رحمة أيضاً عمّت بركتها جميع المخلوقات، وهي تعد من العطاء الالهي والفضل الرباني، والمقدّمة بشطريها تنص على أن النعم منه سبحانه، فموارد تقسيمها يكون وفقاً لأحكامه التي يفترض أن تُمتثل لا أن تُرد ويُعترض عليها، ومن مظاهر الحجاج اللغوي التي سأشير اليها هنا هي تلك الثنائيات اللغوية المتمثلة بالترادف بين كلمتي (نعمة ورحمة) فبينهما فوارق في الدلالة متقاربة وتشتمل الرحمة على النعمة وكل نعمة هي رحمة .

ولذا فقد نَضجتْ في عهده (عليه السلام) ((... فكرة العدالة الاجتماعية على أساس من حقوق الجماعة التي لا بد ان تنتهي بإزالة الفوارق الهائلة بين الطبقات...)) [٣]. وهذا كان مضمون الخطبة وغرضها الرئيسي .

---

(١) اللغة والحجاج،ص١٢٠،.

(٢) يُنظر: العدالة الاجتماعية في الإسلام، سيد قطب، ص٣٢.

(٣) الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، جُورج جرداق، ص١٢٠.

ومن المقدمات التي عالجت أغراضها موضوع مساواة الأشرَاف بعامة الناس في العطاء وعدم المفاضلة بينهم قوله (عليه السلام): ((**اَلْحَمْدُ للَّهِ وَلِيِّ الْحَمْدِ ، وَ مُنْتَهَى الْكَرَمِ ، لاَ تُدْرِكُهُ الصِّفَاتُ ، وَ لاَ يُحَدُّ بِاللُّغَاتِ ، وَ لاَ يُعْرَفُ بِالْغَايَاتِ وَ أَشْهَدُ أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ نَبِيُّ الْهُدَى، وَمَوْضِعُ التَّقْوَى ، وَ رَسُولُ الرَّبِّ الأَعْلَى ، جَاءَ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِ الْحَقِّ ، لِيُنْذِرَ بِالْقُرْآنِ الْمُنِيرِ ، وَالْبُرْهَانِ الْمُسْتَنِيرِ ، فَصَدَعَ بِالْكِتَابِ ، وَ مَضَى عَلَى مَا مَضَى عَلَيْهِ الرُّسُلُ الأَوَّلُونَ**)) [1].

هذه المقدمة أيضاً انمازت قسمين، القسم الأول تكرّس للحمد والتوحيد، وذكْر صفاته تعالى، والملفت للنظر في هذه الخطبة أنه (عليه السلام) صرّح بأنه جلّ علاه ولي الحمد ومنتهى الكرم، وهاتان الصفتان تدلان على انه سبحانه يفيض بالنعم على عباده، وفي هذا إلماع إلى موضوع الخطبة.

وإتباع الحمد بالشهادتين، جاءَ في سياق الثناء على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لأنَّه جاء بالحق والهدى والكتاب وقد اقتفى في مسيرته سنن من قبله من الأنبياء.

هذا الثناء لم يأتِ جزافاً، ففيه حثٌّ على انتهاج هدي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وإتباع طريقته وتعاليمه وعدم الخروج عن مسلكه في كل شيء ومن ذلك مجاراته في المساواة بين المسلمين، فالإسلام في جوهره لا يفرق بين النّاس إلاّ على أساس التقوى أما العطاء فهم فيه سواء لذا كان (عليه السلام) ((...شديد الحرص على أن يحقق المساواة بين الناس في قوله وعمله وفي وجهه وفي قسمته لما كان يقسم فيهم من المال...)) [2]، وهكذا تلمح في طيات هذه المقدمة بعض أغراض الموضوع الرئيسية فهي تمهد له وتشير إليه.

ومن الخطب الاجتماعية التي تصدّى لها الإمام (عليه السلام) خطب النكاح وفيها يقدّم بين يدي الخطبة ما فيه حمده تعالى والثناء عليه، كقوله وقد زوّج امرأة كان يلي أمرها من بني عبد المطلب: ((**اَلْحَمْدُ للهِ الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ الْحَلِيمِ الْغَفَّارِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ** ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ .

أَحْمَدُهُ وَأَسْتَعِينُهُ وَأُومِنُ بِهِ وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ ؛ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلا ؛ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَلا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ وَلِيّاً مُرْشِداً .

وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً (صلى الله عليه وآله وسلم) **عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ بَعَثَهُ بِكِتَابِهِ حُجَّةً عَلَى عِبَادِهِ ؛ مَنْ أَطَاعَهُ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ عَصَاهُ عَصَى اللهَ ،صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَثِيراً إِمَامُ الْهُدَى وَالنَّبِيُّ الْمُصْطَفَى**)) [3].

---

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٢٣٤، ٢٣٥.

(٢) الفتنة الكبرى، علي وبنوه، طه حسين، ج٢، ص١٤٥.

(٣) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٣، ص١٠٣.

فهذه المقدمة تكرَرَ الحمد في تضاعيفها بصيغة أسمية غير مرّة (الحمدُ للهِ العزيز الجبار) فدلّ بذلك على وجوب الحمدُ له سبحانه على نحو الدوام لأنّ ((... موضوع الاسم على ان يثبت به المعنى للشيءِ من غير ان يقتضي تجدده شيئاً بعد شيء)) (١).

وهذا يعني أنّ مفهوم الحمد ثابت له سبحانه فهو من مظاهر التعظيم التي لا تتحقق إلا بثناء اللسان، ومورده لا يختص بالنعم فهو أعمّ منها، لذا كل وصف له تعالى بالجميل تبجيلاً وتعظيماً يعد حمداً(٢).

من أجل ذلك أردف الإمام (عليه السلام) ذلك الحمد بالثناء عليه في سردٍ متتالٍ لأسمائه التي تدل على العزّة والغلبة من جانب وعلى الحلم والمغفرة من جانب آخر وتوارد هذه الصفات على هذا النحو يجعل العبدَ بين الأمل والرجاء.

وكرر الحمدَ ثانية بصيغة الفعل المضارع (أحمدهُ و...) وقد دلَّ الحمد هنا على التجدد لمكان الفعل((وأما الفعل فموضوعه على أنّه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء))(٣).

واختلاف الحمد بالصيغتين اقتضته المغايرة بين اعتبارين، فباعتبار الإلوهية يكون الحمدُ ثابتاً له سبحانه وتعالى وأسبابه غير منقطعة، أما باعتبار العبودية فالحمد يتكرر من العبد كلما تكررت دواعيه وتجددت أسبابه كالاستعانة والتوكل والإيمان، وهي التي ذكرها الإمام (عليه السلام) (أحمدُهُ واستعينهُ وأومنُ به وأتوكل عليه...).

ثم أردف الحمد بالشهادة الدالة على الوحدانية.

وشهد بالرسالة للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)فإن طاعة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) طاعة لله سبحانه ومعصيته معصية لله جلَّ شأنه، فكأنما أرادَ (عليه السلام) أن يربط كل فعل يدخل تحت موارد الطاعة الإلهية بالإسلام ومنه النكاح.

ولذا لم يتخل عن الاستهلال بالحمد في خطبة له أخرى تصب في الغرض نفسِهِ ((**الحمدُ للهِ، أحمدهُ واستعينه وأؤمن به وأتوكلُ عليه وأشهدُ أنْ لا اله الله وَحْدَهُ لا شريكَ له وأشهدُ أنَّ مُحَمّداً عبدهُ ورسوله، أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْكَرِهَ الْمُشْرِكُونَ وصلى الله على مُحَمّدٍ وآله السّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ**)) (٤).

فهذه المقدمة صنو سابقتها في تكرار الحمد بصيغتين اسمية وفعلية، ثم الشهادة بالوحدانية والرسالة وذيلها بالسلام ليشرع في الموضوع.

---

(١) دلائل الإعجاز، في علم المعاني ،ص١٧٤.

(٢) يُنظر: دليل الفكر إلى شرح الباب الحادي عشر، ج١، ص٨.

(٣) دلائل الإعجاز، ص١٧٤.

(٤) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٣، ص١٠٥.

وعندما خطب الإمام (عليه السلام) الصديقة الزهراء كرر الحمد عدّة مرات في خطبته، فشكّل الحمد نسقاً متوالياً ضمَّ اجزاء الخطبة وحبكها في نص متماسك فقال أولاً: **((اَلْحَمْدُ لِلَّهِ اَلَّذِي أَلْهَمَ بِفَوَاتِحِ عِلْمِهِ اَلنَّاطِقِينَ، وَأَنَارَ بِثَوَاقِبِ عَظَمَتِهِ قُلُوبَ اَلْمُتَّقِينَ، وَأَوْضَحَ بِدَلَائِلِ أَحْكَامِهِ طُرُقَ اَلسَّالِكِينَ، وَأَبْهَجَ بِابْنِ عَمِّي اَلْمُصْطَفَى اَلْعَالَمِينَ، حَتَّى عَلَتْ دَعْوَتُهُ دَعْوَةَ اَلْمُلْحِدِينَ، وَ اِسْتَظْهَرَتْ كَلِمَتُهُ عَلَى بَوَاطِلِ اَلْمُبْطِنِينَ، وَ جَعَلَهُ خَاتَمَ اَلنَّبِيِّينَ، وَسَيِّدَ اَلْمُرْسَلِينَ، فَبَلَّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ، وَصَدَعَ بِأَمْرِهِ، وَأَنَارَ مِنْ اَللَّهِ آيَاتِهِ))** [1].

فهنا تحدّث الإمام (عليه السلام) عن النعم المتتالية التي كان طوق سراها انبعاث النبي (صلى الله عليه وآله) بالرسالة، لذا ترشح الحديث عنه في مضمارين:

الأول : أنه (صلى الله عليه وآله) خاتم النبيين، وهذا يعني أنّ الطريق الطويل في هداية الناس الذي افتتح على يد النبي آدم (عليه السلام) ما زال في تسامٍ وتكامل فكان لابد ان يفضي إلى غايته ويستتم مرامه بالوصول إلى مآربه التي من أجلها عبدّت هذه الجادة بتسنم الرسول (صلى الله عليه وآله) شارة ختامها، فكانت هي الشهادة على تكامل أفق الرسالة إذ كان يقف في المنحى الأعلى، مستوياً على طرفه القصي، فمهره بإمضائه للدلالة على ختام النبوة معتلياً طرف السيادة في المدرج العلوي.

والثاني: في المقوّمينِ الدلاليين[2]، في قوله (وابهج بابن عمي المصطفى) فقد يكمن خلف تبيين صلة القرابة هذه الدافع النفسي والعاطفي ليؤدي معنى الفخر، ويومئ إلى المصاهرة، دون أن يكسر البنية المعنوية التي قوامها المنظور الديني، وعليه فالأنسب أن ينظر للكلمتين (ابن عمي المصطفى) على أنهما تركيب واحد، ويسبغ عليهما المنظار الديني، لتكون كلمة المصطفى حاوية على الدلالة الانتقائية التي ترمز إلى أقصى درجات الكمال والتفرد، مما يؤهله للمنصبين النبوة والرسالة في أسمى مراتبهما وهذا ينسجم مع البنية الكلية للمقدمة.

أما المقطع الثاني من المقدمة، فقد بدأ بالحمد أيضاً وكان كسابقه حافل بالذكر المزدوج الذي يجمع ذكر النبوة إلى معالم الإلوهية إذ يقول (عليه السلام) **((فَالْحَمْدُ لِلَّهِ اَلَّذِي خَلَقَ اَلْعِبَادَ بِقُدْرَتِهِ، وَأَعَزَّهُمْ بِدِينِهِ، وَأَكْرَمَهُمْ بِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ** (صلى الله عليه وآله) **، وَرَحِمَ وَكَرَّمَ وَشَرَّفَ [وَعَظَّمَ][3]))** لا يبعد أن يكون الفعل (خلق) يحمل إيماءة تشير إلى موضوع الخطبة الرئيس وهو المصاهرة مع الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله)، والخلق بإزاء العدم يستطال عليه بالقدرة الإلهية، من هنا اشتبك مع نعمة الدين، لذا وسم الإمام (عليه السلام) المخلوقين بميسم العبودية وفي هذا التعبير تذكير لهم بهذا التشريف ففيه إشادة برفعتهم لذا دمجهم ذكراً بشرفية الرسالة، وقد كان للعناصر الإحالية في قوله (أعزهم بدينه)

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٢٤-٢٥.

(٢) ينظر: التحليل النصي، تطبيقات على نصوص من التوراة والانجيل والقصة القصيرة، ص٤٠.

(٣) المعقوفتان أضافهماالمؤلف.

و(أكرمهم بنبيه) المتمثلة في ضمائر المفرد المذكر وضمائر الجمع أثر في تكثيف العبارة واختصار الكلمات، وجمع عناصر الإسناد ومتممات الجملة في نسقٍ قصير متوازٍ.

وقد تحكمت في النص افعال متوالية متراصة مع بعضها في المعنى وهي الأفعال (رحم وكرم وشرف وعظم) وقد كانت نواة الربط في هذه الأفعال هي الواو العاطفة التي مثلت رابطاً منطقياً فكان هذا الربط الإضافي[1]، قد مزج بين الأفعال المتصاقبة المعنى، إذ تتحزم بمفاهيم النبوة والتسامي مما يسوغ الحمد الآنف الذكر، ويمهد الطريق لحمدٍ جديد يقوي الصلة بما قبله، بآية ما تصدره وهو الواو العاطفة التي راكمت حمداً على حمد لتسدي إحساساً بعظمة العطاء الممتد الذي لا يستطاع شكره **((اَلْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نَعْمَائِهِ وَأَيَادِيهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اَللَّهُ شَهَادَةَ إِخْلاَصٍ تُرْضِيهِ، وَصَلَّى اَللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلاَةً تُزْلِفُهُ وَتُحْظِيهِ))**.

وقد مثّل هذا الحمد خاتمة النسق، وشابه سابقيه في التركيز على الذكر المزدوج الذي يجمع الرسالة إلى الوحدانية وفي الحديث عن النعم والرسالة، ولكنه لم يفصّلْ أسباب الحمد هنا بل اجملها بالنعم والأيادي، كأنّما اكتفى بالدلالة عليه فيما ذكره أولاً عندما عمد إلى تعداد بعض مظاهره فيما فات من النسقين.

ومن الخطب الاجتماعية خطب أعياد الفطر والجمعة لأنّ الغاية منها في الغالب إصلاح النفوس وتهذيب الأخلاق بما تحويه من مضامين متعددة تستهدف غالباً الحث على التقوى وبيان الاحكام الشرعية، فهي وإن غلب عليها الطابع الديني، إلا ان الوازع الاجتماعي أغلب ؛ لأنّ الدين لا يعزل الإنسان عن المجتمع، وفي هذه الخطب لا يترك الإمام (عليه السلام) المقدمة التي تشتمل على الحمد والشهادتين، ففي أحدى خطب الجمعة استهل براعتها بالحمد فقال (عليه السلام):

((اَلْحَمْدُ لله أَهْلِ الْحَمْدِ ووَلِيِّه، ومُنْتَهَى الْحَمْدِ ومَحَلِّه، الْبَدِيءِ الْبَدِيعِ، الأَجَلِّ الأَعْظَمِ الأَعَزِّ الأَكْرَمِ الْمُتَوَحِّدِ بِالْكِبْرِيَاءِ، والْمُتَفَرِّدِ بِالآلاَءِ، الْقَاهِرِ بِعِزِّه والْمُسَلِّطِ بِقَهْرِه، الْمُمْتَنِعِ بِقُوَّتِه، الْمُهَيْمِنِ بِقُدْرَتِه، والْمُتَعَالِي فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ بِجَبَرُوتِه، الْمَحْمُودِ بِامْتِنَانِه وبِإِحْسَانِه، الْمُتَفَضِّلِ بِعَطَائِه وجَزِيلِ فَوَائِدِه، الْمُوَسِّعِ بِرِزْقِه، الْمُسْبِغِ بِنِعَمِه.

نَحْمَدُه عَلَى آلاَئِه وتَظَاهُرِ نَعْمَائِه، حَمْداً يَزِنُ عَظَمَةَ جَلاَلِه، ويَمْلأُ قُدْرَ آلاَئِه وكِبْرِيَائِه)) [2].

تكرّست مقدمة الخطبة للحمد، فكان سبحانه أهل الحمد ووليه ومنتهاه، ثم استوسقت صفات الثناء التي تنوه بخالقيته وعظمته وعزته مع غيرها من صفات التبجيل. ثم كرَّ يحمده تعالى بلحاظ

(١) ينظر: لسانيات النص مدخل الى انسجام الخطاب، ص٢٣

(٢) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج٣، ص١٤١.

العبودية هذه المرة، لذا جاء الحمد بصيغة الفعل المضارع (نحمده على آلائه...) ولذا ذكر تظاهرُ نعمه، وتظافر آلائه.

وهذا الإلحاح على الحمد يكشف عن تغلغل العبودية في وجدان المتكلم، ولذا بدتْ آثارها في تضاعيف كلامه، ولا يبعد ان تكون الغاية من تكثيف موضوع حمده تعالى والثناء عليه والإفاضة فيه هي تذكير الموجودين بأسباب الطاعة والبخوع له تعالى، فضلاً عن تعليمهم سنن الحديث وآدابه، فلا يبدأوا الكلام إلا بأحسن الذكر وأفضله وهو حمده تعالى، وتلقينهم ما يليق به سبحانه من الصفات التي لا تجوز إلى غيره ولا تقتصر إلا عليه.

فوظيفته (عليه السلام) مزدوجة، وهو بعدُ يهدف إلى إسباغ مظاهر العبودية في كل مفاصل الحياة، بما في ذلك وقائع الكلام. ثم شرع (عليه السلام) بذكر الشهادتين: ((**وأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَه إِلَّا اللَّهُ وَحْدَه لَا شَرِيكَ لَه الَّذِي كَانَ فِي أَوَّلِيَّتِه مُتَقَادِماً وفِي دَيْمُومِيَّتِه مُتَسيْطِراً، خَضَعَ الْخَائِقُ لِوَحْدَانِيَّتِه وربُوبِيَّتِه وقَدِيمِ أَزَلِيَّتِه، ودَانُوا لِدَوَامِ أَبَدِيَّتِه**)).

وفي هذه الشهادة تكمن المطالب العالية، فقد نفى الشريك عنه سبحانه بعد ان اثبت له الوحدانية. ثم بين أنه سبحانه واجب الوجود عندما ذكر أنه سبحانه (كان في أوليته متقادِماً) وقد أعاد هذا المفهوم أخرى (قديم أزليتّه) وثالثة (دوام أبديته) لأن كونه ((...قديماً أزلياً، باقياً وأبدياً [يرجع] إلى انه واجب الوجود فإنها من اللوازم البديهية لوجوب وجوده تعالى، إذ يستحيل العدم السابق واللاحق عليه بعد فرض كون وجوده واجبا)) [1].

وهكذا زج الإمام (عليه السلام) الدلائل العقلية التي تثبت اللوازم البديهية لوجوبه تعالى في هذه الشهادة.

ثم جاء بالشهادة الدالة على النبوة، المرادفة للشهادة الأولى، فقال (عليه السلام): ((**وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً** (صلى الله عليه وآله) **عَبْدُه ورَسُولُه، وخِيَرَتُه مِنْ خَلْقِه، اخْتَارَه بِعِلْمِه، واصْطَفَاه لِوَحْيِه، وائْتَمَنَه عَلَى سِرِّه، وارْتَضَاه لِخَلْقِه، وانْتَدَبَه لِعَظِيمِ أَمْرِه، وإِمْضَاءِ مَعَالِمِ دِينِه، ومَنَاهِجِ سَبِيلِه، ومِفْتَاحِ وَحْيِه، و[جَعَلَهُ][2] سَبَباً لِبَابِ رَحْمَتِه**)) .

كان من الممكن أن يُكتفى بالشطر الثاني من الشهادة لتستتم بها المقدمة، لكن حائلاً سيحول دون ذلك وهو أن توالي كلامه يحيل إلى الغائب الذي هو النبي (صلى الله عليه وآله) إذ قال في اول الفقرة التي تليها: ((**ابْتَعَثَه عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وهَدْأَةٍ مِنَ الْعِلْمِ، واخْتِلَافٍ مِنَ الْمِلَلِ، وضَلَالٍ عَنِ الْحَقِّ، وجَهَالَةٍ بِالرَّبِّ، وكُفْرٍ بِالْبَعْثِ والْوَعْدِ**)).

---

(١) بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الإمامية، محسن الخرازي، ص٤١.

(٢) المعقوفتان من المؤلف.

ولا يمكن ان تقف المقدمة عند هذا الحد لأن الرابط المحيل[1] في الفعل (أرسله) الذي سيجيء في أول الفقرة القادمة ، يفترض أن يكوّنَ الجزء الثاني الذي سيأتي نصاً مندمجاً مع الخطبة، قال الإمام (عليه السلام) في هذا القسم: **((أَرْسَلَهُ إِلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ بِكِتَابٍ كَرِيمٍ قَدْ فَضَّلَهُ وَفَصَّلَهُ وَبَيَّنَهُ وَأَوْضَحَهُ وَأَعَزَّهُ وَ حَفِظَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَهُ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ضَرَبَ لِلنَّاسِ فِيهِ الْأَمْثَالَ وَصَرَّفَ فِيهِ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَعْقِلُونَ أَحَلَّ فِيهِ الْحَلَالَ وَحَرَّمَ فِيهِ الْحَرَامَ وَشَرَعَ فِيهِ الدِّينَ لِعِبَادِهِ عُذْراً وَنُذْراً لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَيَكُونَ بَلاَغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ فَبَلَّغَ رِسَالَتَهُ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ وَ عَبَدَهُ حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيماً كَثِيراً))**.

فالكلام آخذ بتلابيب بعضه، ومتشابك في مداخله، ففي قوله (عليه السلام) (ابتعثه على حين فترة من الرسل) وقوله ثانياً (أرسله إلى الناس أجمعين) بمثابة توكيد وبيان وتحقيق[2] لقوله (عليه السلام) أولاً (اختاره بعلمه) فالكلام متشابه في المعنى والمحتوى، وهذا يعني أن جميع هذه الأجزاء التي اشتملت على هذه الجمل تشكل بمجموعها المقدمة ولاسيما ان علاقة (الاستبدال) التي تربط بين هذه الأفعال الثلاثة (اختاره – ابتعثه–أرسله)) تسهم في شد الجمل إلى بعضها وتثبت انها نص واحد[3].

ولعلّ المقدمة استطالت هنا لارتباطها بحيثيات الموضوع وغرضه الرئيس الذي يشتمل على التقوى والزهد في الدنيا والتذكير بأهوال الآخرة فضلاً عن تهيؤ الإمام المسبق لهذه الخطبة مع رعيته واستعدادهم المألوف لها.

وقد تكررت مثل هذه المقدمة في خطب تشابهها في المناسبة، وسأكتفي بهذا النموذج دالاً على سواه.

مقدمة خطب السياسة

تشكل الخطب السياسية الثقل الاكبر من نتاج الإمام علي (عليه السلام) وقد ضممتُ اليها الخطب العسكرية التي قالها الإمام (عليه السلام) في حروبه، لأنّ دوافع حروبه الثلاثة كانت جميعها سياسية، فحرب الجمل كانت تهدف إلى سلب الخلافة منه (عليه السلام) وإن حملت شعار الطلب بثأر عثمان ابن عفان، ومثلها حرب صفين، لم يكُنِ الشاميون يهدفون إلى الاقتصاص من قتلة عثمان بقدر ما كانوا يبتغون الاستيلاء على مقاليد الحُكم، وحرب النهروان مثلهما، فإن كانت الشبهة التي اعترت الخوارج ذات طابع ديني، إلا انها نبعت في إطار حرب سياسية ونجمت عن مكيدة سياسية أيضاً.

---

(١) ينظر: تحليل الخطاب ص٢٣١. وفيها ان الرابط الإحالي يعني استمرار معاني المفردات داخل النص وهذا من أشكال الترابط النصي.

(٢)ينظر: دلائل الإعجاز،،ص٢٢٧.

(٣) ينظر، تحليل الخطاب، ص٢٢٩.

إلا أن هذا لا يمنع من أن تُعامل المقدمات معاملة خاصة، فالخطب التي قد قِيلتْ في واقعة حربية لاشك ستختلف في ماهيتها وبعض مقدماتها عن السياسية الأخرى التي قيلت بعيداً عن سوح الحرب. دون أن يقدح ذلك في أصل التقسيم لأن بواعث الخطب متشابهة وغاياتها البعيدة تكاد تكون واحدة.

ولأجل ذلك ستضاف لهذه المجموعة الخطب التي كانت تحمل بين ثناياها اللوم والتبكيت لترك الجهاد.

وقد كانت اغلب الخطب التي وصلت منه (عليه السلام) عندما تسلّم مسؤولية الحكم[١]، وكانت مدّة حكمه عاجة بالحوادث التي استوجبت أن يبينها في محافل شتى لذا وسمت الخطب السياسية بالاستدلالية لتوضيحها بعض الأمور الخافية[٢].

وهنا أيضاً طويت بعض مقدِّمات هذه الخطب إذ زواها الراوي وحجبها مكتفياً بالإشارة إليها، على الرغم من ان الراوي قد يسرد بعض ملابسات الخطبة وظروفها، كالخطبة التاسعة، إذ لم يذكر الراوي المقدمة ولكنه اشار اليها فقط فقال ((...فقام (عليه السلام) خطيباً فحمد الله وأثنى عليه...))[٣].

وبمثل هذه الإشارة الموجزة طويت مقدمة أحدى الخطب السياسية التي قالها (عليه السلام) عندما بايعه الناس ((... ان أمير المؤمنين (عليه السلام) حين بويع خطب فحمد الله وأثنى عليه...)) [٤]، وللأسف يتكرر هذا مراراً فيُحْرَم الباحث من الفائدة التي يمكن أن يحصلَ عليها، ففي تلافيف المقدمة قد تكمن الإشارة إلى الموضوع ، لكن الراوي قد يستسهل طرح المقدمة ويكتفي بإيراد الغرض ربما لما يراه من نمطية المقدمة ولعدم انتباهه للفروق الدقيقة التي تفصل كل مقدمة عن الأخرى، وهكذا لم يذكر الراوي المقدمة في أول خطبة خطبها الإمام (عليه السلام) بالمدينة في خلافته إذ ورد ((قال الجاحظ: قال أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى: (هذا) أول خطبة خطبها علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه [بالمدينة في خلافته] حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال: أما بعد فلا يُرعين مُرع إلا على نفسه...)) [٥]، فهذه الخطبة اختزلت مقدمتها بالإشارة المقتضبة إليها.

لكنّ هذا لا يمنع من وصول بعض الخطب كاملةً مع مقدماتِها، فقد جاء في مقدّمات أحدى خطبه: **((الحمدُ للهِ الذي عَلا فاسْتَعْلى وَدَنا فتَعالى وارتفع فوقَ كُلّ مَنْظَر وأشهدُ أنَّ لا إله إلا الله وحْدَهُ لا شريكَ**

(١) ينظر: تاريخ الأدب في ضوء المنهج الإسلامي، ص٢١٤.

(٢) ينظر: م . ن .

(٣) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٤٨.

(٤) م . ن، ج١، ص٢٠٠.

(٥) م . ن، ج١، ص٢٠٨.

لَه وأشهدُ أنَّ مُحمداً عَبْدُه ورسُولُهُ خاتَم النبيين وحُجْةَ اللهِ على العالمين، مُصَدِّقاً للرُسُل الأولينَ وكانَ بالمؤمنينَ رؤوفاً رحيماً، فَصَلّى اللهُ وملائكتَهُ عليهِ وعلى آلهِ)) [1].

فقد أردف الإمام (عليه السلام) الحمد، بذكر التوحيد الصفاتي لله سبحانه الذي يقتضي ((... الاعتقاد بأنه لا شبه له في صفاته الذاتية...)) [2]، فهو المتعالي في علوه ودنوه معاً، وهو باسط سطوته (وارتفع فوق كل منظر) فهي الشهادة له سبحانه بأن العباد جميعاً تحت رقابته .

ثم جرى على عادته، فجاء بالشهادة التي تدل على وحدانية الله تعالى، سالباً عنه صفة الشريك، وتلا ذلك الشهادة للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بالعبودية والنبوة وأنّه على منهج من سبقه من الرسل والصلاة على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).يلاحظ هنا تماسك المقدمة عبر ضمائر الإحالة في قوله (علا فاستعلى ودنا فتعالى...) فضمائر الغائب المذكر تحيل إلى ذات واحدة هي الذات الإلهية. وقد كان المخبر عنه في هذه الجمل واحداً، وعطف الجمل على بعضها بالواو زاد المعنى قوةً وظهوراً[3].

فضلاً عن ان البنيات الوزنية الصوتية تضفي ترابطاً من نوع آخر ، فجملتا (علا فاستعلى ودنا فتعالى) تقومان على أساس تكرار الأوزان بعدد معين وثابت، زادته البنية النحوية المقلوبة[4] في قوله (دنا فتدلى) فهي في المفهوم مقلوب (علا فاستعلى)، لأنّ العلو يستتبعه الاستعلاء، ومنطقياً يستتبع الدنو – دنواً مثله لكن الموضوع يتأبى على المنطق المعهود لأن الذات إذا دنت تعالت، وهنا تكمن قدرة التعبير عن المبدء المتعال، ويَظهر تماسك خطاب المقدمة.

وعلى الرغم من أن الخطبة سياسية ، إلا ان موضوعات أُخر كالحثّ على التقوى والحذر من المعاصي قد خالطتها، فضلاً عن إثبات أحقيته في هذا الأمر(الخلافة) الذي لا يثبت إلا بنبي، ولعل هذا مسوّغ يربط المقدّمة بالغرض الرئيس.

وربما أشارت المقدمة إلى موضوعها بتلميح هو ابلغ من تصريح، كخطبته التي قالها في ذي قار وكان أن سبقه أصحاب الجمل إلى البصرة وقد استشرت الفتنة هناك، فقال في أولها: **((الحمدُ للهِ على كلِّ أمرٍ وحالٍ، في الغُدو والآصالِ وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلا الله، وأنَّ محمداً عَبدُهُ ورسولُه، إبتعثَهُ رَحْمَةً للعبادِ، وحياةً للبلادِ، حِينَ امتَلأتِ الأرضُ فِتْنَةً واضطربَ حَبلُها وعُبِدَ الشّيْطانُ في أكنافِها، واشتمل عدوُّ اللهِ إبليسَ على عقائدِ أهلِها))**[5]، فأومأ إلى الفتنة الحاضرة بفتنة الجاهلية السابقة، وقبل الخوض في تفاصيلها لابد

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٢١٦.

(٢) بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الامامية، ص٤٨.

(٣) يُنظر: دلائل الإعجاز ، ص٢٢٦.

(٤) يُنظر: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص١٢١.

(٥) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٣١٩.

من القول هنا أنَّ المقدمة اشتبكت مع الغرض على نحو يصعب عزلها منه، فكلما حاولتُ تشخيصها استعصمت بما يليها من كلام، حتى عسر تحديدها، فلو وقفتُ بها عند قوله (عليه السلام) (وأنَّ محمداً عبدُهُ ورسُلُهُ) لثار الإشكال في قوله بعد ذلك (ابتعثه رحمة للعباد) فالضميران : المستتر الذي يعود على الذات الإلهية (هو) ،والضمير الظاهر (هاء المفعول) يحتمان وصل الكلام بسابقه وجعله بنية متكاملة.

وقد وجدتُ أن الكلام الذي بعده يستقلُ بنفسه لولا الفاء العاطفة التي وردت في مستهله، إذ يقول (عليه السلام): **((فكانَ محمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهِ بن عبدِ المُطلب الذي أطْفَأ اللهُ به نيرانها، وأخْمَدَ بهِ شِرارَها، ونَزَع به أوْتادها، وأقامَ بهِ مَيْلَها...))** فالفاء تجبرني على أن أعدَّ الكلام كله كلاماً واحداً فهي تفيد الإشراك في المعنى، فضلاً عما توجبه من الترتيب دون تراخ[1] وهذا يعني أنّ هذا المقطع مُرتبط بما قبله على نحو لا يحتمل الفصل، لأنّه مترتب عليه دون تراخ، فضلاً عما يقتضيه العطف من معنى، فهو يشير إلى أن الحوادث متسلسلة في تواليها بالتضمين لا بالتصريح، وقوة الترابط المعنوية تكمن بهذا التضمين كما يصرح هاليداي ورقية حسن[2].

وهكذا يفرض العطف ربط هذا المقطع الذي يبدأ بـ(فكان محمد بن عبد الله...) بما قبله من جهتين :مادية كون العطف احد الوسائل التي تحقق التماسك النصي، ومعنوية في دلالته على تعاقب الحوادث.

وتحديد المقدمة في هذا النص من الخطاب يبدو مهمة عسيرة لأن المقطع التالي يبدأ بالنعت فيقول **((إمامُ الهُدى، والنّبيُ المُصْطَفى صلى الله عليه وآله، فَلقَد صَدَع بِمَا أُمِرَ بِهِ وبَلَّغ رسالاتِ ربِهِ، فأصْلَحَ اللهُ بهِ ذَاتَ البَيْنِ، وآمَنَ بهِ السُّبُلَ وَحَقَنَ بهِ الدِّمَاءَ، وألّفَ بهِ بينَ ذَوِي الضّغائِنِ الواغرَةِ فِي الصُّدورِ حَتّى أتاهُ اليقِينَ...))**.

والنعت يفترض منعوتاً قبله يشير إليه، فهذه إحالة داخلية إلى الوراء وهي من أسباب ترابط النص[3]، وهذا يعني أن هذا الجزء أيضاً داخلٌ في المقدمة.

وإذا بقيتُ استتبع ظواهر الترابط النصي، فستطول المقدمة وتتداخل حدودها مع الغرض. وهذا يعني أن تقسيم الخطبة إلى مقدمة وغرض لا يلزم منه عدم تداخل الأقسام . فقد تتوثق صلة المقدمة بالغرض كما في هذه الخطبة حتى ليصعب انتزاعها منه وتبيين حدودها.

---

(١) يُنظر: دلائل الإعجاز، ص٢٢٤.

(٢) يُنظر: تحليل الخطاب، ص٢٢٩.

(٣) يُنظر: م . ن ، ص٢٣٠.

وسأقف بالمقدمة عند هذا المقطع الذي ذكرتُه آخراً، المختوم بكلمة (اليقين) ؛ لأنّه (عليه السلام) لما بدأ بالحمد على كل حال وثنّى بالشهادتين وصرّح بنعمة الرسالة التي استُنقِذَ بها الناس من الضلال بعد اضطرابهم وانغماسهم في الفتن، وانهماكهم في طاعة الشيطان، لزم أن يكون ما جاء به الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من تبليغ رسالات ربه وما قام به من إصلاحٍ وحقنِ دماء وتأليف القلوب إلى غيرها من الجهود المبذولة قد استتمت نعمتها ببلوغ اليقين، وبذا يكون ختام فصل الرسالة باليقين ختاماً لهذه المقدمة.

وعليه ستكون الصلة وطيدة بين المقدمة والغرض، فالإمام يهدف إلى عرض الفتنة التي استشرت في البصرة والدماء التي سالت هناك ، والتي ستسيل لو لم تُقلَعْ جذور تلك الفتنة بمن سيسير فيهم بسيرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بجمعهم على الحق ودحض الفتن وإطفاء نائرة القلوب، فبقياس أحدى الحالتين (حال الأمة في جاهليتها) مع حالها في حاضرها آنذاك تتبين الصلة الوطيدة بين المقدمة والغرض،ومن ثم يتجلى التماسك في الخطاب.

وفي خطبة له أخرى، قالها وهو يستعد للمسير مع جنده من النخيلة إلى الشام، متأهباً لحرب صفين جاء في مقدمتها: **((الحَمْدُ للهِ ، وأَشْهَدُ أنْ لا إلـهَ إلا اللهُ ، وَنَحنُ عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشّاهِدِينَ، وأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، صلَّى اللهُ عليهِ وآله وسلّم))**[1].

على الرغم من أنه (عليه السلام) أوجز الكلام في هذه المقدمة، لكنه – جرياً على ما دأب عليه – تلبث يسيراً أمام الثناء عليه سبحانه، مذكّراً بالإنعام التي لا تعد ولا تُكافأ، مردفاً ذلك بالشهادتين والصلاة على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فهذا نسق تعوَّدهُ (عليه السلام) ولم يصرفه عنه انشغاله بالتهيؤ للقتال. بل الصلة معقودة بين المقدمة والغرض، لأنّه قاصد إلى الدفاع عن الدين، ويصف الأعداء بأنهم أعداء الله، وبذلك لا تكون المقدمة أجنبية عن الغرض بل هي لصيقة به ومشيرة إليه.

وثمة روابط حجاجية ربطت البرهان بالنتيجة (الحمدلله) هي الواو العاطفة التي تكررت لتحقق تماسكا نصياً وحجاجيا في آن واحد،فقوله: **غَيْرِ مَفْقُودِ الإنْعامِ ولا مُكافِئِ الإفْضالِ**، برهانان يبينان اسباب الحمد.وقوله ثانياً : **وَنَحنُ عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشّاهِدِينَ**،هو مفهوم حجاجي ،إذ مقتضى الشهادة تصديقها والاستجابة لها.

ومن المقدمات التي تدل على موضوعها وتمهد له قوله يحثّ أصحابه على الصبر في مناجزة العدو : **((الحَمْدُ للهِ الَّذِي لا يُبْرَمُ مُا نَقَضَ، ولا يُنْقَضُ مَا أبْرَمَ، وَلَو شاءَ ما اختلفَ اثنانِ في هذهِ الأُمّةِ ولا تَنازَعَتِ الأمّةُ فِي شَيْءٍ مِنْ أمْرِهِ ولا جَحَدَ المَفضُولُ ذا الفَضلِ فَضْلَهُ))**[2].

---

(١) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة ج٢، ص٦٢.

(٢) م . ن، ج٢، ص١٢٢.

فهذه المقدّمة لخطبة قيلت ليلة اللقاء بالعدو، هيمن فيها بَعد الحمد، وصفه تعالى بالمشيئة في أفعاله، على نحو لا يفقد الإنسان خياراته في موارد الابتلاء الإلهي[١].وبعد الحمد ثمة جملتان متلازمتان تلازما منطقياً؛إذ هما يخضعان لقانون عكس النقيض،وهذا يعني ضرورة هذا الاستلزام وحتميته. [٢].

لا يُبْرَمُ مُا نَقَضَ، ولا يُنْقَضُ مَا أبْرَمَ.وعكس نقيضيهما،هو:

يُنْقَضُ مَا أبْرَمَ ،و **يُبْرَمُ مُا نَقَضَ**.وهذان لايجوزان عليه تعالى؛بمقتضى الإخبار في الجملتين الواردتين في الخطبة .والنقض والإبرام هي من خصائص المخلوق اللاحقة له، لذا سَلْبها عنه سبحانه يُثبت لهُ القدرة المطلقة.

وفي المقدمة تلميح يتضمن توضيح أسباب نشوب النزاع بين كل فريقين، فهي منوطة بإرادته سبحانه، وقد رد (عليه السلام) أصل كل تناحر وتنازع بين الأمة إلى تفويت حكم الدين والعقل الذي يقتضي تقديم المفضول وتأخير الفاضل، وقد طرح هذه الآراء من منظور التسليم للمشيئة الإلهية والرضا بقضائه سبحانه.

والحبل الوثيق الذي يشدُ أركان الخطبة بالمقدمة هو النزاع بين طرفين، فقد مهد لهذا كله في المقدمة، وعالجَ أسبابه في الغرض. وقد خلت المقدمة من ذلك النسق المألوف وهو أن يعقبَ الحمدَ الشهادتان والصلاةُ على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولعل ذلك لحراجة الموقف، فاختزل شيئاً من المقدمة ليدخل في أمورٍ تخص اللقاء بالعدو. وهذه المقدمة متشابكة مع الغرض، مما يكشف عن طرح متدرج يجمع الخطاب إلى بعضه وفق أسس النصية الحديثة !والروابط المنطقية التي تأبى تقطيع النص، وهذا يعني أن قسمة الخطبة إلى أجزائها الثلاثة لا يخضع للمنطق قهراً، وإنّ عَزْل الأجزاء على نحو متمايز أمر يصعب تحقيقه في جميع الخطب، لأنَّ الخطب وإن كانت تشترك في خطوطها العامة، لكن لكل خطبة نمطها الخاص الذي لا يشترط أن يشابه الخطب الباقية.

ولذا خرجت هذه الخطبة عن النسق المألوف في الاستهلال، فاكتفت بالحمد والثناء الموجز، على الرغم من أنَّ هذا النسق سار على هديه خطباء العرب ((...حتى أصبح قاعدة فنية للخطب والرسائل التي طُبِعت العصور اللاحقة فيما بعد...)) [٣].

ورُبَّ خطبة خطبها الإمام (عليه السلام) قبيل نشوب القتال في صفين، ومع ذلك لم يُخلها من الحمد والثناء المستفيض، قارناً اليها الشهادتين، قال (عليه السلام) مستهلاً: ((**اَلْحَمْدُ لِلَّهِ عَلى نِعَمِهِ الْفاضِلَةِ**

(١) ينظر: العدل الإلهي، مرتضى المطهري، ص٣٦.

(٢) ينظر،الخطاب والحجاج،ص٧٣

(٣) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي، ص٢١٦.

عَلى جَميعِ مَنْ خَلَقَ مِنَ الْبَـرِّ وَ الْفاجِرِ، وَعَلى حُجَجِهِ الْبالِغَةِ عَلى خَلْقِهِ مَنْ أَطاعَهُ فيهِمْ وَ مَنْ عَصاهُ ، إِنْ رَحِمَ فَبِفَضْلِهِ وَمَنِّهِ ، وَإِنْ عَذَّبَ فَبِما كَسَبَتْ أَيْديهِمْ ، وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبيدِ .

اَحْمَدُهُ عَلى حُسْنِ الْبَلاَءِ وَتَظاهُرِ النَّعْماءِ ، وَاَسْتَعينُهُ عَلى ما نابَنا مِنْ أَمْرِ دُنْيا أَوْ آخِرَةٍ ، وَ اُؤْمِنُ بِهِ وَ اَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ ، وَكَفى بِاللَّهِ وَكيلاً ، وَاَشْهَدُ أَنْ لا اِلـهَ إِلاَّ اللَّه وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وَاَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، اَرْسَلَهُ بِالْهُدى وَدينِ الْحَقِّ ، اِرْتَضاهُ لِذلِكَ وَكانَ اَهْلَهُ وَ اصْطَفاهُ عَلى جَميعِ الْعِبادِ لِتَبْليغِ رِسالَتِهِ...)) [1].

هذه المقدمة منشبة بالغرض، مشتبكة معه أيضاً، يصعب تخليصها منه، زاد من هذه الصعوبة أن الصلاة على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تكررت مراراً في الخطبة (خمس مرات) واذا كانت الصلاة عادة تؤذن بنهاية المقدمة، فإن إعادتها قد تكون من أسباب توغل المقدمة بالغرض، لأن التكرار إذا كان كلياً أو جزئياً يعد من أشكال التماسك اللغوي والترابط النصي[2]، فليكن هذا التكرار لإعادة ربط الذاكرة بالمسيرة التبليغية للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي ما أقيمت الحرب إلا لإحياء دينه وإعادة الأمور إلى نصابها.

وعلى صعيد الخطاب فهذا التكرار يسهم في اتساق الخطاب لأنّه أحد عناصر الإحالة الذي تضمن استمرار الخطاب عن طريق ربطه بنموذج ذهني متماسك من أوله إلى آخره[3].

والتكرار الذي يجعل النص منسجما بنائيا وحجاجيا حتى انه يسهم في نمو النص وتوالده،هو تكرار حجاجي؛ إذ يربط اللاحق بالسابق. [4]،

وبهذا يجوز إنهاء المقدمة عند الصلاة الأولى الكاملة على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وعندها سيدخل فيها ما لم أذكره وهي الصفات النبوية التي ازدان بها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في قوله: **((وجعَلَهُ رَحْمَةً مِنْهُ عَلى خَلْقِهِ، فَكَانَ كَعلْمِهِ فيهِ رَؤُوفاً رَحيماً. أَكْرَمُ خَلْقِ اللَّهِ حَسَباً، وَأَجْمَلُهُ مَنْظَراً، وَأَسْخَاهُ نَفْساً، وَأَبَرُّهُ بِوَالِدٍ، وَأَوْصَلُهُ لِرَحِمٍ، وَأَفْضَلُهُ عِلْماً، وَأَثْقَلُهُ حِلْماً، وَأَوْفَاهُ بِعَهْدٍ، وَآمَنُهُ عَلى عَقْدٍ. لَمْ يَتَعَلَّقْ عَلَيْهِ مُسْلِمٌ وَلاَ كَافِرٌ بِمَظْلَمَةٍ قَطُّ، بَلْ كَانَ يُظْلَمُ فَيَغْفِرُ ، وَيُغْدَرُ فَيَصْفَحُ ، وَيَقْدِرُ فَيَعْفُو. حَتَّى مَضى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُطيعاً للَّهِ، صَابِراً عَلى مَا أَصَابَهُ، مُجَاهِداً فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ حَتَى أَتَاهُ اليَقِينُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ))**.

وبهذا ترتبط المقدمة بالغرض، فهذا الاسهاب في الثناء على الرسول الكريم على هذا النحو التفصيلي يسبر غور الأعماق الوجدانية للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بحكم طول الملازمة بين الطرفين.

---

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٢، ص١٤٦و١٤٧.

(٢) ينظر: تحليل الخطاب، ص٢٣١.

(٣) قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، احمد المتوكل، ص١٤٥)

(٤)،الخطاب والحجاج،ص٤٩وما بعدها

وقد زخرت المقدمة بالأدوات اللغوية التي تعضد قول الإمام (عليه السلام) ،كالتكرار اللغوي الذي ((...يعد من أبرز أساليب الحجاج اللغوية إذ يعتمده المرسل لأثبات دعواه أو قضيته ،وللتكرار وظائف خطابية عدة عبر عنها بالإفهام والإفصاح والكشف وتوليد الكلام والتشييد من امره ،وتقرير المعنى وإثباته))[(١)].

فتكرار الضمير المتصل في المقدمة كان عاملا حجاجيا ساعد في إثارة الحماس وتحريك الهمم وشحذ الحضور عاطفياً[(٢)] المقدمة مع الغرض هدفاً واحداً هو القتال في سبيله تعالى، وهنا تكون المقدمة منسجمة تماماً مع الغرض وتصب في خدمته، وهي دفعهم إلى قتال العدو وحثهم عليه.

وربما أوجز الإمام (عليه السلام) الحوادث العظيمة في مقدمات خطبه، فقد اختزل حادثة التحكيم وأبان رأيه فيها من خلال صيغة الحمد، التي استطاعت ان تجعلَ المستمعَ يحدِسُ موضوعَ الخطبة لصراحة الإشارة وقوتها وشدّة دلالتها، فقد ورده ما فعل الحَكمانِ وجاءته قصةَ خيانتهما، فاستهل خطبته بما يليق بالمقام قائلاً: **((الحمدُ لله وإنْ أتى الدَّهْرُ بالخَطْبِ الفَادحِ والحَدَثُ الجَليلِ، وَاَشْهَدُ أَنْ لا الِـهَ إلاَّ اللّه ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُوُلُهُ))**[(٣)].

تُظهر هذه المقدمة مدى الإنابة والخضوع والصبر الجميل والعبودية المحضة له سبحانه على الرغم مما تعرّض له الجيش من نكسات وردت عليهم بسبب شبهة التحكيم التي حرمت جيش الإمام (عليه السلام) من نصرٍ محقق.

فقد عدّ الإمام (عليه السلام) خيانةَ الحكمين خَطْباً فادحاً وحدثاً جليلاً لما استتبعتْهُ من نكبات أطالت أمد الحرب، وأظهرت انشقاق معسكر الإمام (عليه السلام) وما نجم عنها من فتنة ظهور الخوارج. وهذه كلها عوامل تزيد من تمزق الامة وضياع الحق وانحدار الإسلام، وهو ما لم يُرْده الإمام (عليه السلام)، لذا لما بدأ خطبته بالحمد قرنه فوراً بالتصريح (أتى الدَّهرُ بالخطبِ الفادحِ والحَدَثُ الجليل).

تتجلى هنا شدّة التهذيب والتأدب في حضرة الإله سبحانه، فقد نسب (عليه السلام) وقوع الحوادث إلى الدهر، فكان إسناداً اعتبارياً بلحاظ أنّ الدهر هو الوعاء الزمني الذي كان ظرفاً لجريانها، فهذا الإسناد من المجاز العقلي إذْ أُسنِدَ الفعلُ إلى زمانه.

ثم قرن الحمد إلى الشهادتين جرياً على عادته أن يصرفه عنها ما وقع من الخطب الجلل.

---

(١) سياقات اللغة والدراسات الدينية،لاآليات الحجاجية في الخطاب الديني ،،حليمة مسعي،ص٢١٤،

(٢) ينظر: في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية،ص٥٥، إذ يرى ان الإمام (عليه السلام) في خطبه مع أهل العراق أسلوب يميزه عن التعامل مع الخوارج.

(٣) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة ،ج٢، ص٢٨٢.

والمقدمة هنا حاكية عن موضوعها، ممهدة له. و قد امتدح أرسطو ضروب الخطاب التي تكون عينة منتقاة من الغرض ((وهكذا يعرف المستمعون مقدماً حول ماذا يدور الخطاب فلا يضل [كذا] فكرهم معلقاً، لأنَّ ما يظل ليس محدداً يبقي الفكر في الإبهام والغموض وإذن إن وضعنا الابتداء في يديه ورهن اشارته إذا جاز التعبير كنا أعطينا ما يشبه خيطاً يسمح له بان يتابع الخطاب.))[١].

وهذه المقدمة تُعَدُّ جزءاً منتقى بدقة يتلاحم مع الغرض ويقود إليه، وفيها سرعة تتناسب وخطورة الموضوع، فلم يَطُلِ الحمدُ حيث أوجب المقامُ قِصَرَه، لكنه جاء مغطياً لجنبات الموضوع، شاملاً له، فكانتِ المقدمة مصداقاً لما قيل عن البلاغة بأنها ((...الإيجاز في غير عجز...)) [٢].

والحفاظ على المقدمة في الظروف الحالكة مهما صعبت، من الخصائص التعبيرية عند الإمام (عليه السلام)، وهي تعكس صورة العبد المتفاني الذي لا يشوبُ يقينَه شكٌّ، فقد تسلل عنه جنده بعد معركة النهروان، وكان قد عسكر بهم في النخيلة ليقاتلوا أهل الشام، ولكنهم تركوه فلم يبقَ معه غير رؤوس أصحابه، فخاطبهم (عليه السلام) واستهل خطبته بهذه المقدمة: **((الحمدُ للهِ فاطِرِ الخلقِ وفالقِ الإصباحِ، وناشِرِ المَوْتَى وباعثِ مَنْ في القُبُورِ. وَاَشْهَدُ أَنْ لا اِلهَ إلاَّ اللَّه ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ))**[٣].

تبدأ الخطبة بالحمد له سبحانه، لترسمَ صورةَ عبدٍ شكور لا يشغله ما هو فيه من فرار عسكره عنه قبيل المجابهة مع العدو، عن الثناء عليه سبحانه بأحسن الثناء، الأمر الذي يعكس الاطمئنان النفسي وعمق الإيمان الذي يتمتع به المتكلم، فلم يشرع بالحمد حتى بدأ بذكر بعض مظاهر أفعاله سبحانه (التوحيد الأفعالي) الذي يدل على التوحيد في الخالقية والربوبية[٤]، فدلَّ على الإيجاد من العدم، ونشر الموتى وبعث من في القبور، وقد زاوج هنا بين كل فصلين (فاطِرِ الخلقِ وفالقِ الإصباحِ) و (ناشر الموتى وباعث من في القبور) هذه المزاوجة تعدّ نوعاً من الإطناب غير المعيب، بل هو مستحسن لدخول الفصل الأخير في معنى الفصل الأول[٥].

ففالق الإصباح داخلٌ في معنى فاطر الخلق، لأن فلق الإصباح بعض فنون الخلق والإنشاء والابتداع. والأمر لا يختلف ولا يتخلف في قوله باعث من في القبور، فهو في المعنى داخل في مفهوم نشر الموتى، فمفهوم الموتى أعمّ من الذين ضمّهم القبر، فهم بعض الموتى.

---

(١) الخطابة، ص٢٢٥.

(٢) كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، ص١٩٠.

(٣) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص٣٥٠.

(٤) يُنظر: بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الامامية، ص٤٩.

(٥) يُنظر: كتاب الصناعتين في الكتابة والشعر، ، ص١٩٥.

ثم أردف الحمدُ بالشهادتين على نحو مبتسر ولكنه بليغ، فسلب الشريكَ عن الله تعالى وهذه غاية التوحيد. وأثنى على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خير ثناء إذ وصفه بالعبودية أولاً وثنّى بالرسالة، فالعبودية هي الموصلة إلى اليقين وهي ختام الرسالة، والرسالة هي أفق ينفتح على العبودية، ويدعو إليها وهذا أول الوصول إلى الله تعالى.

وعلى الرغم من ان الخطبة قيلت استعداداً للحرب إلا أن التذكير بالآخرة غلب عليها، وكذا أوصى بأداء العبادات على نحو تفصيلي ودعاهم إلى أن يُعرضوا عن الدنيا ويكونوا من أبناء الآخرة، وبهذا تكون المقدمة في صلب الموضوع، إذ كانت قد لفتت أذهان السامعين إلى حقيقة الموت في البعث والنشور.

وهكذا تماهت المقدمة مع الغرض فهي أشارت مسبقاً إلى ابتدائين ابتداء الخلق في قوله (عليه السلام) (فاطر الخلق) فهذا أول نشوء الخليقة وابتداء الأيام ببدء نهاراتها بحلول الصباح (فالق الإصباح) وبين هذين تتجدد مسيرتين، مسيرة المجتمع الإنساني، ومسيرة الفرد بوصفه احد أبناء هذا المجتمع إلى أن تنتهي الرحلة ببعثين أو نشورين، نشورٌ يتمثلُ ببعث جميع الموتى يوم القيامة، وبعث لمن في القبور. ولا يبعد ان تكون العبارة عمَّت طرفين من الموتى وهم من مات تواً فلم يُقْبَر، فهو ينُشر ومحلُ ابتداء نشره من الحياة الدنيا، وطرف آخر مات وقُبر وارتحل عن الدنيا وأدخل النشأة الأخرى، وهي البرزخ[1]، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[2]، ومحل بعث هذه الفئة هي الحياة البرزخية. وليضمن الفرد سعادته في الدارين، شرع الإمام (عليه السلام) يوصيهم بالتقوى وهنا تواشجت صلة المقدمة بالغرض ولكنهما بعدتا عن السياق، فلم يُشِر الإمام إلى موضوع الحرب ولم يحثهم على الجهاد إلا على نحو ضمني وهو دخول الجهاد في العمل الصالح، والفوز به يوم النشور!

وقد تندك الخطبة بالغرض وتفضي اليه سريعاً كقوله (عليه السلام):

((الحَمْدُ للهِ عَلَى مَا قَضَى مِن أمْرٍ وَقَدَّرَ من فِعْلٍ و[على ما][3] ابْتلانِي بِكُم أيّتُها الفِرْقَةُ التي لا تُطيع إذا امَرْتُها، ولا تُجيبُ إذا دعَوْتُها...))[4]. فقد خلص من الحمد إلى الغرض رأساً، ففي مقدمة كلامه بوارق

(١) يُنظر: بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الإمامية، ص٤٨٤.

(٢) المؤمنون : ٩٩-١٠٠.

(٣) المعقوفتان من المؤلف.

(٤) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص٣٨٨.

التوبيخ لهم وبوادر تبكيتهم، وهكذا انغرزت خيوط المقدمة في النسيج الذي سبك الغرض. وهذا يكشف عن ضيق صدره بما يعملون، لذا بثَّ مكنون مشاعره من فوره.

ومثلها في الوجازة وتداخل المقدمة مع الغرض قوله (عليه السلام) وقد استنفر الناس مع معقل بن قيس الرياحي: **((الحمدُ للهِ الذي لا يُعزُّ من غَالَبَهُ، ولا يُفْلِحُ مَنْ كَابَدَهُ، إنَّهُ بلَغَني أنَّ خيلاً وُجِّهَت نَحْوَ مكّةَ...))**[1]. فقد وطّأت المقدمة للغرض مباشرة وأدت إليه من رأس وقد توصل لمرامه عن طريق الاسم الموصول (الذي) وبها وصف أعداء الله في حالتين، كليهما تكشف عن ذلّ وخيبة، ثم انتهى إلى موضوعه خطفاً فقال (أنه بلغني ان خيلاً)، وهذا يعني أن الإمام (عليه السلام) لا يتخلى عن المقدمة في كل حال مهما بلغت شدّتها، والمقدمة لابد أن تبدأ عنده بالحمد، فهو (عليه السلام) لما أراد استنهاض الناس إلى حرب أهل الشام لم يبدأ مقدمته فقط بالحمد المستفيض، بل أوقف خطبته كلها لحمده سبحانه وتنزيهه وتوحيده، ولم يتطرق إلى الحرب والجهاد، فقد بدأ بالمقدمة قائلاً: **((الحمدُ للهِ الواحِدُ الأحدِ الصَّمَدِ المُتفرِّد الذي لا من شَيءٍ كَانَ ولا مِنْ شَيءٍ خَلَقَ مَا كَانَ...))** [2]، وهكذا اطنب في ذكر صفاته سبحانه محبةً وعبوديةً وانقطاعاً قلَّ نظيرُه، وبدت الخُطبة بعيدة عن السياق الخارجي لا تتلاءم مع شدّة الموقف، ولكنها تأتلف مع السياق النفسي والعاطفي للإمام (عليه السلام) الذي لا يَأْنَسُ إلا بذكره تعالى، وما مرَّ من شواهد كان خير دليل على ذلك، وهذا يعني أن الحمد ليس وسيلة لافتتاح الكلام فقط، ولكنه يُشبع حاجة النفس إلى العبودية، والتوكل عليه سبحانه والاستعانة به في كل حين فهو (عليه السلام) لا تصرفه العوارض عن الذكر المستمر.

ولربما تَصدر الحمد كافة خطب الإمام (عليه السلام) محاكاةً للقرآن الكريم، فكما تصدرت هذه الكلمة فاتحة الكتاب (الحمد) جعلها الإمام (عليه السلام) المهيمنة على جميع ابتداءاته مفيضاً بعدها على جناب الذات الإلهية ما يليق من الصفات استوسق ذلك الشهادتان، فالصلاة على النبي وآله.

هذا هو النسق الذي قد يتغير في بعض تفاصيله أحياناً، لكنه لا يتخلف، لذا يصح عدّ هذا النسق من آداب الكلام الراقية التي تُتْحفُ من يتبعها.

---

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،، ج٢، ص٤٩٤.

(٢) م . ن، ج٢، ص٢٧٣.

المبحث الثاني: العَرْض

تتقوّم ماهية الخطبة بالعرض، فهو الجزء الرئيس فيها، فربما تخلى الخطيب عن المقدّمة والخاتمة لأي سبب كان، لكنه لا يمكن أن يتخلى عن العرض. وإلاّ انتفتِ الخطبةُ من رأس.

وقد جعله أرسطو ثانيَ القسمين الأساسين في الخطبة من جهة تسلسل وقوعه، أما من جهة أهميته فقد جعله أرسطو الجزء الأهم وأسماه الإثبات. وإذ نظر أرسطو للموضوع من زاوية منطقية جعل العرض في غايته مقارناً للبرهان وقال: ((...كل عرض مسبق ليس له إلا غاية واحدة وهو إقامة البرهان...)) [1]، وبذلك يكون العرض أهم الأجزاء في تسلسل الأفضلية بعد إن حلَّ ثانياً في تسلسل الوجود.

وتصنيف الخُطبةِ يكون بحسب الموضوع الذي ينبري له العرض، واذا تنازعه موضوعان أو أكثر كانت الغلبة للموضوع المهيمن وإلا كانت الخطبة منوّعة والأخيرة يصعب تصنيفها، فالأفضل أن تراعى أولية الموضوع، ثم تصنف الخطبة في ضوئه.

وقد لاحظتُ أن العَرض في بعض خطب الإمام (عليه السلام) يلتبس بالخطبة، حتى ليصعب انتزاعه منها، وهذا يدلّ على تدرج الطرح وتسلسله وترابط مفاصل الخطبة وتلاحمها وتماسكها نصياً.

والعرض الذي يشتمل على الغرض الذي لأجله أنشأت الخطبة، يتلو المقدمة التي خلصت للحمد والثناء، وبذلك ((...تجعل المتلقي في حضور عبادي لأهم معالم دينه...))[2].

هذا الحضور العبادي الذي يستولي على أذهان الجمهور، يوظفه الإمام خير توظيف للدخول في صلب الموضوع وقد تهيأ الجمهور وجدانياً وذهنياً لاستقباله.

ومعالجة العرض ستكون بحسب التسلسل الذي ذكر في معالجة المقدمة، فالبداية ستكون أولاً مع خطب التوحيد.

العرض في خطب التوحيد

تتميز الخطبة (١٤٦) بأنها خلت من المقدمة، وأنها في أولها اخذت سمت الحوار الذي يقع بين الراعي والرعية. فقد سأل ذعلب أمير المؤمنين (عليه السلام): ((هل رأيت ربك؟ فأجابه (عليه السلام) بالإيجاب، قائلاً: ((ويلك يا ذعلب ما كنتُ أعبدُ رباً لم أره، فقال يا أمير المؤمنين كيف رأيته؟))[3]. هذه المحاورة بمثابة مقدمة غير مألوفة، وطَّأت للموضوع وعبَّدَت مسالكَهُ .

---

(١) الخطابة، ص٢٢٢.

(٢) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي، ص٢١٧.

(٣) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٥١٥.

لذا بادر الإمام (عليه السلام) فنفى الرؤية البصرية وأثبت لهُ سبحانه الرؤية القلبية، بإسلوب الحجاج مبرهنا على استحالة رؤيته فكان هذا المقطع مدخلاً أوّلياً قام على أساس المزاوجة بين النفي والإثبات، فقال (عليه السلام): **((لَمْ تَرَهُ اَلْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الإبصار وَلَكِنْ رأتهُ اَلْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ اَلْإِيمَانِ))**.

هذا المقطع يشتمل على مقدمات (مواد قياسية) مطوية تنفي عن الله سبحانه الرؤية، فلو كان سبحانه جسماً ،لأمكن رؤيته، ولكنه ليس بجسم ، فلا يمكن رؤيته، فهذا نوع من البرهنة قوامها القياس المُضمر الذي طُويت أحدى مقدماته[1]، وقد خلُص إلى القياس الاستثنائي[2]، بقوله (ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان)، فهذا الشطر بمثابة توكيد للشطر الأول .

ولما نفى عن الله سبحانه أن يكون جسماً وإلا لوقع تحت مشاهدة الحس، عادَ فأثبتَ له صفات العظمة التي تليق بذاته وتنفي عنه ان يكون جسماً كمثل باقي الأجسام، **((إنَّ ربي لطيفُ اللَّطافَةِ لا يُوصَفُ باللُّطفِ، عَظيمُ العَظَمَةِ لا يُوصَفُ بالعِظَم، كَبيرُ الكِبْرياءُ لا يُوصفُ بالكِبْر، جَليلُ الجلالةِ لا يُوَصَفُ بالغِلَظ..))**.

بدأ هذا المقطع بالتوكيد (إنّ) وجاء اسمها مضافاً إلى ياء المتكلم لتتم المناسبة بين (كاف الخطاب) التي وردت في سؤال ذعلب وبين إجابة الإمام (عليه السلام) هذا من ناحية الشكل.

أما من ناحية المضمون فإضافة كلمة (رب) إلى ياء المتكلم تعزز الافتخار بالعبودية وتعمق الإحساس بها.

وقد جاء خبر (إن) مركباً (لطيف اللطافة) لغرض المبالغة في إسداء هذه الصفة إلى الذات الإلهية ولأجل توكيدها. لكن الإمام (عليه السلام) عاد فقال (لا يوصف باللطف) فصار التركيب مدهشاً لأنه ينحل إلى جملتين متباينتين في المعنى داخلتين في التناقض؛ لأنّ معنى كلامه (عليه السلام) (انّ ربي لطيف اللطافة انّ ربي لا يوصف باللطف!) ولأجل هذا تُرك العطف بالواو، وفصل بين الكلامين لأنّ الجملة الثانية بانت من الجُملة الأولى وأصبحت أجنبية عنها مما اوجب ترك العطف[3]، وإلاّ لو كانتا معطوفتين لبان التناقض في القولين في حال اقترانهما ولأصبح معنى الكلام (ان الله لطيف اللطافة ولا يوصف باللطف).

---

(١) ينظر: المنطق، ج٢، ص٢٨٩ ، ويُنظر: في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسةالخطابة العربية، ص٧٣-٨١ ، ويُنظر: الخطابة: ص١٥٨ وما بعدها . وفي ضوء المطروح يكون هذا القياس من التناقض: ان الجسم يُرى، ما ليس بجسم لا يُرى.

(٢) القياس الاستثنائي: وهو المصرّح في مقدماته بالنتيجة أو بنقيضها،و يسمى (استثنائيا) لاشتماله على كلمة (الاستثناء). يُنظر: المنطق ، ص٢٣٥.

(٣) يُنظر: دلائل الإعجاز، ص٢٣١.

وعلى الرغم من ترك العطف وكون الجملة الثانية منقطعة عن الأولى ؛ لأنّها مُستأنفة فالإشكال قائم، لأنّ موصوفاً واحداً هو (لطيف اللطافة، لا يوصف باللطف).

وحل الإشكال في هذا القول أن يُنظر إلى معنى اللطف.

((لطف: شيء لطيف: ليس بجاف... وأنا ألطفُ به: إذا أريتهُ مودة ورفقاً في المعاملة، وهو لطيف بهذا الأمر: رفيق بمداراته ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ وقد لطف بهم...))[١].

وجاء في اللسان: ((لطف: اللطيف: صفة من صفات الله واسم من اسمائه. وفي التنزيل العزيز ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾، وفيه: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ . ومعناه والله أعلم: الرفيق بعباده. قال أبو عمرو اللطيف الذي يوصل إليك أرَبك في رفق واللطف من الله تعالى التوفيق والعصمة... يقال لطف به وله بالفتح يلطف لطفاً إذا أرفق به. فأما لَطُف بالضم يلطُف فمعناه: صغر ودق...)) [٢].

وفي القاموس ((لَطَف... لُطفاً بالضم، وودنا، والله لك : أوصل إليك مرادك بلطف، وككرم لطفاً ولطفاة: صغر ودق، فهو لطيف واللطيف: البر بعباده، المحسن إلى خلقه بإيصال المنافع إليهم برفق ولطف، أو العالم بخفايا الأمور ودقائقها، ومن الكلام ما غمض معناه وخفي. واللُطْفُ بالضم من الله التوفيق...)) [٣].

وبسبر هذه المعاني والتدقيق فيها يتحصل أن المراد باللطف الأول في قوله (لطيف اللطافة) ما يوجب كونه سبحانه عالماً بدقائق الأمور وخفاياها، المحسن إلى عباده البارّ بهم الرفيق في مداراتهم، الموصل اليهم مرادهم، صاحب التوفيق والعصمة غير الجافي. وبهذا صح ان يوصف باللطيف مبالغة.

أما اللطف الذي لا يصح أن يوصف به سبحانه هو ما كان من صفات الأجسام، كالصغر والدقة، لأنَّ هذا لا يليق به تعالى بعد أن ثبت أنه ليس بجسم وإلا لصحّ رؤيته، وقد ثبت في أول الخطبة عدمها. وبهذا ارتبط هذا الجزء من الكلام بسابقه فهو مُفصِّل لما ورد مُجملاً من قبل.

وعلى هذا القياس في باقي صفاته سبحانه، فالعظمة له سبحانه ((لا تكيّف ولا تحدّ ولا تمثّل بشيء)) [٤]، والعظيم ((...الذي جاوزَ قَدْرُهُ وجلَّ عن حدود العقول التي لا تتصور الإحاطة بكنهه وحقيقته...)) [٥].

---

(١) أساس البلاغة ، ج٢، ص١٦٩.

(٢) لسان العرب، ج٥، ص٤٠٣٦.

(٣) القاموس المحيط، ص٧٨٧.

(٤) لسان العرب، ج٤، ص٣٠٠٤.

(٥) م . ن.

وهذه العظمة هي التي تصح على الذات الإلهية! أما باعتبار فخامة الجسم وكبره ووصف الطول والعرض والعمق به، فهذا ما يجب ان ينزه عنه سبحانه.

والجلالة(الجليل) هي العظمة اللائقة به سبحانه وليس المقصود بها الغلظة التي توصف بها الأجسام عادة . وهكذا يبطل التنافي بين صفاته اللائقة به وبين ما لا يجوز عليه من الصفات.

ثم قال (عليه السلام): **((قَبْلَ كُلِّ شيء لا يقالُ شيء قَبْلَهُ، وبعدَ كُلّ شيء لايقال لـه بعدٌ))**، هذا المقطع يبين أنّ الكلام يستدعي بعضه بعضاً، فعدم جواز الرؤية استدعى سلب صفات الجسم عنه سبحانه وأبانت الصفات (اللطف والعظمة والجلال) مغايرته لسائر المخلوقات، فاستوى بهذه إلهاً والإله في محيط الوجود يكون سابقاً على الوجود ومصاحباً له وباقياً بعده. ويلزم من هذا أن يكون واجب الوجود لأنها من لوازمه، أي القِدَم والأزلية والبقاء والأبَديّة فهي تستدعي وجوب الوجود.

ووجوب الوجود يقتضي القدرة، ((والقادر هو الذي إذا شاء أن يفعل فعل، وإذا شاء أن يترك ترك...)) [1]، لذا قال (عليه السلام) عقيب ذلك: **((شاء الأشياء لا بهمة))**، وقد احترز (عليه السلام) بقوله (لا بهمة) عن صفات المحدود والممكن لأنها من شوائب النقص ولا تليق به تعالى، ولذا فإنَّ سلبها عنه يستلزم اتصاف ذاته بالصفات الكمالية[2]، وبمثل هذا الاحتراز قال (عليه السلام) **((درّاك لا بخديعة))**، ولأنَّ الإدراك يستلزم الإحاطة بالمعلوم، فقد اثبت له (عليه السلام) ذلك دون أن يكون حالّاً في المكان، وقد عالج أمير المؤمنين (عليه السلام) هذه الفقرة خير علاج فقال: **((في الأشياء كُلِّها غير متمازج بها، ولا بائنٌ منها، ظاهر لا بتأويل المباشرة، متجل لا باستهلال رؤية، ناءٍ لا بمسافة، قريب لا بمداناةٍ، لطيف لا يتجسم))**.

لما نفى الإمام (عليه السلام) الجسمية عنه الله سبحانه لأنها تستلزم الأجزاء والمحل، ومن **((...لا جسم له ولا حدَّ له ولا مكان لـه وكـان محيطاً على كل شيء...))** [3]، أبان الإمام علي (عليه السلام) موارد هذه الإحاطة بما تعجز عنه العقول عن طريق المراوحة بين النفي والإثبات الذي يؤدي بالتالي إلى سلب ما لا يليق به سبحانه فلما قال (عليه السلام) (في الأشياء كلها) كان على الأوهام ان تتخيل ذلك على نحو الممازجة فنفاه، فلم يبقَ إلا المباينة فنفاها أيضاً، لما تتطلب تلك الأمور من محدودية الموصوف وهو سبحانه غير محدود ولا يتناهي ومن كان كذلك فإن الإبصار لا يجوز عليه[4]، وهكذا الأمر في باقي فقرات هذه الخطبة التي كرّ الإمام (عليه السلام) فيها على الحديث عن عدم إمكان رؤيته تعالى من خلالها،فأضفى بعداً منسجماً متماسكاً لتكرار مفاصل الفكرة الرئيسة.

---

(١) بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الامامية، ص٤٦.

(٢) م . ن، ص٣٩.

(٣) م . ن، ص٥٢.

(٤) م . ن .

وبهذا تتلاحم أجزاء الخطبة وتنمو في نسق متوازٍ وهو عين مالاحظه البستاني وهو يحلل احدى خطب الإمام علي (عليه السلام) إذ يقول: ((...ينبغي ان نلحظ كيف ان الموضوعات قد خضعت للنمو والتلاحم بحيث يفصل ما هو مجمل ويطور وينمي الموضوع...)) [1]، فارتباط هذا المقطع بالمقطع الأول (لم تره العيون) وبالمقطع الثاني (ان ربي لطيف اللطافة) يعقد أواصر الموضوع في وحدة عضوية واحدة[2]،تعكس تماسكا نصيا ظاهرة معالمه.

ثم عاد (عليه السلام) يثبت له الوجود غير المسبوق بالعدم وهذا ما كان قد تناوله في مقطع أسبق إذ قال (قبل كل شيء...) ولكنه هنا يعيد الفكرة من جهة أخرى **((مَوْجودٌ لا بَعدَ عَدَم فَاعلٌ لا باضْطِرار مُقدَّرٌ لا بِحركةٍ، مُريدٌ لا بِهَامَةٍ، سَميعٌ لا بآلة بصيرٌ لا بأداةٍ، لا تَحْويهِ الأماكِنُ، ولا تتضمنهُ الأوقاتُ، ولا تحُدُّهُ الصفاتُ، ولا تأخُذُهُ السِّناتُ، سَبَقَ الأوقاتَ كَوْنَهُ، والعَدَمَ وُجُودُهُ والابْتداءُ أزَلُهُ...))**.

بدأ هذا المقطع بإثبات أقدمية وجوده سبحانه، فَهو وجود لم يسبقْ بعدم، وانهى هذا المقطع بالفكرة ذاتها، (سبق...العدمَ وجوده...) فهذه جملة خبرية لها فحوى متشابه، تلغي الحدود بين أول هذا المقطع وآخره وتثبت لله سبحانه الأزل بقوله (وسبق...الابتداء أزله). فكل هذه الجمل تؤسس لحقيقة الموجود المطلق الواجب، احترازاً من الموجود الممكن الذي يسبق وجوده العدم، لذا جاءت الجمل ما بين أول المقطع وآخره لتعضد هذه الفكرة وتبينها، عن طريق المناوبة بين النفي والإثبات، فالإمام (عليه السلام) يثبت لله سبحانه الفاعلية وينفي جزءاً منها لا يلاءم الذات الإلهية وهو الاضطرار، وبهذا الأسلوب اثبت الإرادة ونفى الهمة، وأثبت السمع ونفى الآلة التي يسمع به وأثبت له البصر ونفى أدواته. هذه المزاوجة المستمرة بين النفي والإثبات هي نوع من الترابط الشكلي الذي يقوم على أساس توالي الجمل المتلاصقة[3]، والمترابطة معنوياً والدليل على ذلك أن هذه الجمل استغنت عن أي حرف يربطها، فكأن كل جملة تبين وتؤكد وتحقق معنى الجملة التي قبلها[4].

وقد زاد من الارتباط الإيقاع الصوتي الذي حزّم الجمل التي تليها في محزم جمالي واحد (ولا تضمنهُ الأوقاتُ، ولا تحُدُّهُ الصفاتُ، ولا تأخُذُهُ السِّناتُ).

ثم بدأ نمط جديد من الجمل، ذو إيقاع مختلف، **((بتشعيرِهِ المشاعِرَ عُرِفَ أن لا مَشْعَرَ لَه، وبتجهيرِهِ الجَواهِرَ عُرِفَ أنْ لا جَوْهَرَ له، وبمُضادَّتِهِ بينَ الأشياءِ عُرِفَ أنَّ لا ضِدَّ لَهُ وبمُقارنتِهِ بينَ الأشْياءِ عُرِفَ أنْ لا قرينَ له))**، تقوم هذه الجمل من ناحية الشكل على أساس نحت الكلمات من بعضها وهذا يسهم في قيام علاقات مبنية على تقارب الصيغة الداخلية في هذه الجمل (تشعير، المشاعر، مشعر) و(تجهير،

(١) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي، ص٢١٨.

(٢) يُنظر: م . ن، ص٢١٩.

(٣) يُنظر: تحليل الخطاب، ص٢٣٤.

(٤) يُنظر: دلائل الإعجاز، ص٢٢٧.

الجواهر، جوهر) وهكذا الحال في الجملتين التاليتين، فهذا نمط من الاشتقاق الذي يستعمل مادة لغوية واحدة، ويتجلى أثره في البعد الصوتي، وبهذا يدخل الاشتقاق ((...في مستوى آخر من السبك وهو السبك النحوي. ومن ثم يكون الاشتقاق من حيث اتحاد الأصل المعجمي بين طرفيه – مسهماً في السبك المعجمي، ومن حيث التكرار الصوتي، مسهماً في السبك النحوي))[1].

والاشتقاق في الجملتين الأوليتين تعددت أطرافه لأنه تجاوز اللفظتين وبهذا يكون السبك بين أجزائها أكبر، أما في الجملتين الأخيرتين فقد اقتصر الاشتقاق على لفظتين (مضادته – ضد) (مقارنته – قرين) .

وقد تكررت لفظة عُرف في هذه الجمل الأربع على امتداد المقطع ومثلتْ عنصراً رابطاً بين أجزائه،ووّقِفَ هذا التكرار شكلاً ومضموناً ليجسد الغاية من الخطبة وهي نفي رؤيته لنفي تجسيمه.

وانبثق عن هذا المقطع، مفصل آخر يمّت إليه بصلة، لأنّه انعقد لبيان التضاد بين الأشياء، والمقارنة بينها: **((ضادَّ النورَ بالظُلمةِ، واليبسَ بالبلل، والخَشِنَ باللينِ، والصَّرد بالمَحرُور. مؤلف بين متعادياتها ومُفَرق بين متدانياتها، دالّة بتفريقها على مُفرقِها. وبتأليفها على مُؤلفها، وذلك قوله تعالى ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ففرق بين قبلُ وبعدُ ليعلَمَ أن لا قبل لهُ ولا بَعْدَ له، شاهِدةٌ بغرائِزها أن لا غريزةَ لِمُغرزها، مخبرة بتوقيتها أن لا وقت لموقّتها وحجَبَ بعضَها عن بعضٍ ليُعلَمَ أنْ لا حجابَ بينهُ وبين خلقه))**.

كان صدر هذا المقطع يلفت انظار الآخرين لمفهوم التضاد من خلال امثلة حسية استلها الإمام (عليه السلام) من الواقع لخدمة الغرض الذي يسعى إليه وهو أن يجعل الحضور يدركون أنماط العلاقة القائمة بين الكائنات توصلاً لتفهم الوجود الكلي، ليخلق ذواتاً تتمثل الطاعة أمام هذا السلطان العظيم الذي يُستدل على عظمته من خلال آليات تقع في متناول اليد وهي المقارنة بين المتضادات التي يستشعرها الحس.

وبذلك يكون الإمام (عليه السلام) قد لجأ إلى طريقة فنية لإثبات وجوده سبحانه تقوم على الطباق بين الألفاظ، إلا ان هذا الطباق جاء عفوياً فغايته ليست فنية وإن كانت صورته كذلك.

ومنه توصل إلى أنّ أصل الوجود (الثنائيات)، ولذلك جاء بهذه الآية القرآنية،؟ لتعضد شواهده ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ . . .﴾ ثم عاد إلى موضوع أزليته سبحانه وقدمه وتأبّده، عن طريق التضاد أو الطباق الفني الذي يقرن (قبل إلى بعد) ليؤكد وجوب وجوده الذي لا ينفك عن القدرة، عبر هذه الجمل ذات الخط الأفقي المتتابع (شاهِدةٌ بغرائِزها أن لا غريزةَ لِمُغرزها، مخبرة بتوقيتها أن لا وقت لموقّتها...) هنا أيضاً استجلب التكرار الاشتقاقي الذي تعددت انماطه (غرائزها–غريزة–مغرزها) و(توقيتها– وقت–موقتها) ليزيد اشتباك هذه الجمل. و يصل من خلالها إلى المقطع الأخير **((كان**

(١) البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص١٠١.

ربّاً إذ لا مربوبَ، وإلهاً إذ لا مألوه، وعالماً إذ لا معلوم، وسميعاً إذ لا مسموع))، هذا المقطع من صلب الغرض وليس ختام الخطبة، واستخدم فيه الإمام (عليه السلام) الأسلوب النحوي ذاته الذي تكرر عدة مرات في هذه الخطبة وهو المزاوجة بين النفي والإثبات، والاشتقاق اللفظي الذي يزيد من تماسك النص (رباً – مربوب،وإلهاً – مألوه،وعالماً – معلوم،وسميعاً – مسموع) وهذا الترابط بين جميع أجزاء الخطبة يقتضي أن أجزاءها تنامت وتشابكت لإيصال الهدف، وهو أن من كان يحمل صفات الربوبية يتعالى عن نطاق النظر البشري المحدود، ولذا تراصت جميع المقاطع لتوكيد هذه الحقيقة، ولو بإعادة المعنى بصور مختلفة، لتستوي بنية متكاملة منغلقة على موضوع واحد، وبذلك يكون العرض موقوفاً على غاية واحدة، وإن كانت أساليب تحقيقها متنوعة.

ومن الخطب التي انصبّ العَرض فيها على موضوع التوحيد، بعد مقدمة يسيرة – سبقت الإشارة إليها – قوله ينعت الله عز وجل **((ليس بشبحٍ فَيُرى، ولا بجسمٍ فيُتجزَّأ، ولا بذي غايةٍ فيُتناهى، ولا بمُحْدَثٍ فَيُتَصَرَّفُ، ولا بمستترٍ فيُتكشف، ولا كان بعد أنْ لم يكن، بل حارت الأوهامُ أن تُكيفَ المُكَيفَ لِلأشياءِ [و] من لم يَزَلْ بِلا مكانٍ ولا يزول لاختلاف الأزمانِ، ولا يَغْلبُهُ شأن بعد شانٍ))**[1].

يتحكم المنطق العقلي والأ سلوب الحجاجي في الجمل الخمس الأولى، فقد عمد الإمام (عليه السلام) إلى نفي الملزوم، لينتفي لازمه معه، وكان سبيله إلى ذلك نحوياً نفي الملزوم بليس أو (لا) وتوكيد ذلك النفي بالباء، ومعلوم أن ((...حكم النفي إذا ادخل على كلام، ثم كان في ذلك الكلام تقييد على وجه من الوجوه، ان يتوجَّه إلى ذلك التقييد، وأن يقع له خصوصا)) [2]، ((وإذا كان هذا حُكمُ النفي إذا دخل على كلام فيه تقييد، فإن التأكيد ضربُ . فمتى نفيت كلاماً فيه تأكيد، فإن نفيك ذلك يتوجّه إلى التأكيد خصوصاً ويقع له)) [3].

وعلى ما تقدم يكون الإمام (عليه السلام) قد نفى على نحو الخصوصية والتقييد، نفياً مؤكداً ان يكون سبحانه (شبحاً، جسماً، ذي غاية، مُحْدَث، مُستتر)، وربما كان هذا النفي المبالغ فيه لاقترانه بالتوكيد، وما ذاك إلا لأن الشخص الذي أُنشأتِ الخطبةُ لأجله وهو احد متهودة اليمن، كان طالباً للحكم، فهو متحير[4]، فلا هو بالخالي الذهن ليأتيه الحكم خال من المؤكدات تماماً، ولا هو

---

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج ا ج١، ص٥٦٢.

(٢) دلائل الإعجاز، ،ص٢٧٩.

(٣) م . ن، ص٢٨٠.

(٤) يُنظر: شرح المختصر ،على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني ، في المعاني والبيان والبديع، سعد الدين التفتازاني، ص٤٨.

بالمنكر، ليزداد الكلام توكيداً[1]، وهكذا احترس الإمام (عليه السلام) من اللغو الزائد في كلامه ومن النقص الفاحش أيضاً، فجاء الكلام على قدر السؤال.مترساً بالبراهين،معضوداً بالأدلة.

والملاحظ أن الإمام (عليه السلام) كلما نفى الجسمية وملازماتها انصرف فوراً لإثبات سرمديته سبحانه ولذا توصل من نفي تشخيصه سبحانه إلى إثبات أزليته، وهذه يتوجه منها إلى إثبات قدرته لأن ((...الإيجاد (والتأثير والفاعلية) يدور مدار الوجود...)) [2]، وكان سبيله إلى إثبات ذلك عن طريق الجمل المتقاربة والمتشابكة من خلال الاشتقاقات الموزعة على أجزائها (تكيف – المكيف – تَزِلْ – يزول) فضلاً عن حرف العطف الذي يفيد إشراكاً في الحكم وهو احد وسائل السبك التي تربط النص إلى بعضه، وتُظهر وحدةَ الخطاب.

ثم قال (عليه السلام) مكملاً حديثه: ((**البَعيدُ من تَخيلُ القُلُوب، المتعالي عن الأشباه والضروب [الوتْرُ وهو] [3] علاّمُ الغيوب، فَمَعانِ الخَلْقِ عَنْهُ مَنْفيّة، وسَرائرُهُم عليه غيرُ خفية، المعروف بغير كيفيةٍ، لا يُدْرِكُ بالحواسِّ، ولا يُقَاسُ بالناس، لا تُدْرِكُهُ الأبْصارُ ولا تُحيطُ به الأقْدَارُ. ولا تقدّره العُقُولُ ولا تَقعُ عليهِ الأوْهامُ**)).

تتعلق هذه الفقرة بما قبلها توضيحاً وتفصيلاً وتوكيداً، فبعد أن أبان (عليه السلام) ان الله سبحانه لا يتكيف كما تتكيف الأشياء (بل حارت الأوهام ان تكيف المكيف للأشياء...)، عاد ليؤكد ذلك من خلال الصفات (البعيد والمتعالي والوتر وعلام الغيوب)، فهذا كله تفصيل لبيان موارد العجز عن تخيله سبحانه. والصفات التي ذكرت تحيل على ما قبلها إحالة داخلية إلى الوراء[4]. وبدون هذا الرجوع لا يمكن فهم الخطاب، إذ لابد من معرفة المرجع الذي تحيل عليه الصفة، وبهذه الإحالة يستند الخطاب إلى نفسه، ويلتف على مرتكز ثابت غايته وصفه تعالى وصفاً مغايراً للبشر.

لقد سلك الإمام (عليه السلام) في سبيل تحقيق هذه الغاية ما أسماه علماء البديع (المذهب الكلامي)، ومعناه ((...ايراد حجة للمطلوب على طريق أهل الكلام...)) [5]، وهذه حجج متوالية، فلو كان تعالى قريباً من القلوب لأمكن تخيله، ولو كان دانياً، لأمكن تشبيهه ... إلى آخر ما ألقاه من حجج.

ثم أعقب الكلام بالنفي، وحاجة الإمام (عليه السلام) إلى النفي في مثل هذه الموارد كبيرة لأن سلب الصفات التي لا تجوز على الله سبحانه تقتضي ذلك، وبهذا السلب تتقوم ماهية الذات الإلهية

---

(١) يُنظر: م . ن، ص٥٢.

(٢) بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الإمامية، ص١٥٤.

(٣) المعقوفتان أضافهما المؤلف.

(٤) ينظر: تحليل الخطاب، ص٢٣٠.

(٥) المطول على شرح تلخيص المفتاح، ص٧٨.

لاستنادها حينئذ إلى التنزيه، فما لا يدرك بالحواس ولا يقاس على الناس هو ليس من جنسهم وبذا يتحقق مراد الإمام (عليه السلام) وهو إثبات ألوهيته سبحانه .

وقد عمد (عليه السلام) إلى السجع في كل جملتين، لتعضد الجمل بعضها من خلال البنية الايقاعية المتضافرة (حواس والناس – الأبصار والأقدار) ، ثم لما أوشك الإمام (عليه السلام) أن ينهي خطبته كسر هذه البنية الصوتية وختم خطبته بجعلها مرسلة إذ لا تقدره العقول ولا تقع عليه الأوهام.

ويلاحظ أن كلمة الأوهام تكررت في هذا المقطع والمقطع السابق، والتكرار يكشف عن حاجة ماسة وعن ضرورة داعية إليه[١]، والإمام في مثل هذا المورد لا يستعمل سوى كلمة (الأوهام)، فكلما أراد ان يبين عجز الإنسان عن الوصول إلى كنهه سبحانه، لجأ إلى هذه اللفظة، وبدا أنه لا يقوم مقامها شيء، لأنّ مقابل اليقين والظن والشك هو الوهم ، واليقين غير متحصل فما دونه أبعد. لذا لن يجد المرء مهما حاول التنقيب عن الذات الإلهية سوى الأوهام وبها ختم الخطبة.

وهذه الخطبة كسابقتها، تستهدف نعت الذات الإلهية، وهي تلتف في مساق دائري، يدور حول الهدف، لذا تنامت مفاصلها حول محور واحد، استوت به بنيةً متكاملة.

ومن الخطب التي عالجت الموضوع نفسه، الخطبة (١٦٠) وقد سميت بخطبة التوحيد، بعد المقدمة تخلص الإمام (عليه السلام) للعرض، لا يبدو العرض منفكاً عن المقدمة، لأنه بدأً بفعل منفي يحيل على ما قبله إحالة داخلية إلى الوراء، فالخطاب متماسك العُرى مستوسق الجمل، جاء في أول مقطع بعد المقدمة:

((لم يَخلُ منهُ مَكانٌ فيُدْرَكَ بأيْنِيّةٍ، ولا لـه شَبَحُ مِثالٍ فيوصفَ بكيفِيّة، ولم يَغِبْ عن شَيْءٍ فَيُعلمَ بحيثيّة...))[٢].

تتواشج جمل هذه الفقرة لتؤدي معنىً واحداً، جاء النسق في الخط الأفقي طويلاً، وعلى عادته (عليه السلام) يلجأ إلى أسلوب النفي في مثل هذه المحاور، ليثبت له التوحيد، توازن الجمل والسجع أضفى على هذا المقطع وحدة نسقية وصوتية ومعنوية، لأنَّ أول الجملة يلتقي مع آخرها، فهذه حلقة التقى طرفاها .

أما في المقطع الآخر فقال: **((مُباينٌ لِجَميعِ ما جرى في الصِّفاتِ، وَمُمْتَنِعٌ عن الإدْراكِ بما ابْتَدَعَ من تَصْريفِ الذَّواتِ، وَخارِجٌ بالكِبرياءِ والعَظَمَةِ مِنْ جَميعِ تَصَرُّفِ الحالاتِ))**.

---

(١) يُنظر: كتاب الصناعتين في الكتابة والشعر،ص١٩٤.

(٢) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٥٧٧–٥٧٨.

هذا المقطع كسابقه، يتميز بالفقرات المتوازنة الطويلة، المتميزة بالسجع الذي ختم كل فقرة بالتاء الطويلة، وهي حرف مهموس[1]، والهمس فيه معنى الخفاء، وفي هذا مماهاة مع ما خفي عن الإدراك.

وقد كان السجع قد توزع جميع فصول الخطبة، وميزَّ بعضها عن بعض، **((فَلَيْسَتْ لَهُ صِفةٌ تُنالُ، ولا حَدٌّ يُضْرَبُ لَهُ فيه الأَمْثالُ، كلَّ دونَ صِفاتُه تَحابِيرُ اللُّغاتِ، وضَلَّ هُنالِكَ تَصاريفُ الصِّفاتِ، وَحارَ في مَلكُوتِهِ عَميقاتِ مَذَاهِبِ التّفْكِيرِ، وانْقَطَعَ دُونَ الرُّسُوخَ فِي عِلْمِهِ جَوَامِعُ التَّفْسِيرِ، وحَالَ دُوْنَ غَيْبِهِ المَكْنُونِ حُجُبٌ مِنَ الغُيُوبِ تاهَتْ فِي أَدْنَى أَدَانِيها طامِحاتُ العُقُولِ))**.

في أول جملتين استهل الكلام بالنفي (ليست ولا) كانت الغاية من ذلك منع الصفات، أن تناله سبحانه. وأن لا تضرب الأمثال حدوداً له، كانت الجملتان اسميتين فقد أراد (عليه السلام) أن يبين أن هذا النفي مستديم وثابت، لذا جاء الفعلان المصاحبان للجملة الاسمية، والواقعان خبراً لها في حالة البناء للمجهول (تُنال – يُضرب) ليستديم العجز ويثبت القصور للجميع، وبدأت الجملتان التاليتان بفعلين ماضيين (كلَّ وضلَّ) فغدا الكلل والضلال ناجزين، فالمحاولات المتجددة والمستمرة الباحثة في حقائق وجوده تعالى انتهت إلى الحيرة، ودلَّ الفعلان الماضيان اللذان بدأت بهما الجملتان اللتان تبعتاهما (حار – انقطع) على التردد الذي أعقبه العجز، وخُتمَتْ كل جملتين بحرف متشابه (اللام، فالتاء الطويلة فالراء)، وجمعت بينهما جميعاً الواو لتدل على اشتراك الحكم لهذه الجمل لكن في آخر جملتين كسرت هذه القاعدة، فلم يجمعهما السجع في آخر جملتين، ولم تضمهما الواو (وحالت دون غيبة المكنون حجب من الغيوب، تاهت في أدنى أدانيها طامحات العقول)، فالجملة الثانية كما لو كانت تكمل الجملة الأولى وتفسرها، فهي متعلقة بها في المعنى، وقد صفدتهما في نسيج واحد (الهاء) في كلمة أدانيها، إذ كانت إحالة داخلية إلى الوراء اتفقت معها الحاجة إلى العطف، وقد استطالت هذه الجملة، وبدا إيقاعها طويلاً والتفصيل فيها أكثر، ربما لأنها آخر جملة في هذه الفقرة فكأنها توجز خلاصة ما مضى من الكلام، وتعمق فصول الحيرة في الخوض في الأسرار الإلهية .

ولأجل ذلك جاء المقطع التالي قصيراً، سريعاً، هيمن عليه حرف الدال الذي كان قد تكرر على نحو لافت للنظر، ((واحد لا بعدد، دائم لا بأمد، قائم لا بعمد))، كان التركيب هنا قائم على النفي والإثبات ليتوصل الإمام إلى مقصوده، وقد توالت الجمل الإخبارية لتؤكد (التوحيد، والسرمدية، والقدرة) وهذه من اللوازم االتي تثبت بعضها بعضاً وقد وقعت الأخبار منفية والمسند

(١) سر صناعة الاعراب، ج١، ص١٥٥.

إليه حذف لتعيينه في سالف الكلام[1]، وتكرار الدال – وهي حرف مجهور– ازداد جلاء بالتنوين[2]، لوضوح القصد بعد طول تفصيل.

ثم عاد يؤكد بعض ما قرره سالفاً كأنما لينتزع بذور الشك والحيرة أو التردد في حديث يصعب على غير الإمام الخوض فيه، إذ انه في كل مرّة يبسط الكلام في جانب مختلف: **((ليسَ بجنْسٍ فتعادِلُهُ الأجْناسُ، وَلا بشَبَحٍ فتُضارعُهُ الأشْباحُ، لَيسَ لَهَا مَحِيصٌ عَنْ إدْرَاكِهِ لَها، ولا خُرُوجٌ عَنْ إحاطَتِهِ بِها، ولا احْتِجابٌ عن إحصائِهِ لها، وَلا امْتِنَاعٌ من قُدْرَتِهِ عَلَيْها))**.

تناوبت هذه الجمل على النفي بين (ليس ولا) والنفي لا محيص عنه في إثبات التوحيد وتنزيهه عما لا يليق به للملازمة بين الأمرين. ((...وبالآخرة هذه السلوب تستلزم اتصاف ذاته بالصفات الكمالية، فإن سلب احد النقيضين في حكم إثبات النقيض الآخر ... فإذا كان المبدء المتعال مسلوباً عنه النقائص والعيوب، فهو يكون صرف الوجود وصرف الكمال وغنياً ومستقلاً في ذاته وثابتاً ومطلقاً وواجداً لجميع الأوصاف الكمالية...)) [3]، فإذا سلب الإمام عن الله تعالى صفات الأجناس والأجسام أفضى ذلك إلى الاعتراف بإلوهيته وهيمنته على خلقه وتتجلى بذلك قدرته .

ولأنّ النص يعالج موضوعاً واحداً فقد كثرت الإحالات الداخلية فيه وحقق التضام بين أجزائه تماسكاً في فقراته ،فالهاء في (تعادلهُ وتضارعه وفي لها وإحاطته...) تدلل على أن الموضوع لصيق ببعضه، وأن نموه متدرج، فالفقرة الأولى لا تنفك عن الثانية وهكذا، فالوحدة البنائية والموضوعية هي حجر الأساس في طريقة نسج العَرض وتنظيمه، فالإمام ينتهي من فقرة إلى أخرى في تريث، لأن كل فقرة تستقل بمحتواها وتتنوع مضامينها وتقود إلى الفقرة التي تليها، إلى أن يصل فقرة الختام، فقال فيها: **((كفى بإتقان صُنْعِهِ لها آية، وبتركيب خلقها عليه دلالة وبحدوث ما فطر[ه] على قدمِهِ شهادةُ، فليس له حد منسوب، ولا مثل مضروب ، ولا شيء هو عنه محجوب، تعالى عن ضرب الأمثال والصفات المخلوقة علواً كبيراً))**.

يبدو من خلال هذه الفقرات أن البديع امر ضروري لا تنفك عنه لغة الخطاب عند أمير المؤمنين (عليه السلام)، فهذه الفقرة كسابقاتها يلاحظ فيها التناسب في أجزائها، والسجع في بعض جملها (منسوب ومضروب ومحجوب) وكسر النسق الصوتي الغالب على جميع فقرات الخطبة .فهذه من عوامل انسجامها في جميع الأبعاد الشكلية والمعنوية والإيقاعية لتحقق مبتغاها في وصف الذات الإلهية وهذا الوصف مِسك ختامها ،كما في الخطب التي مرت، فالعَرض يتخصص لنعت الذات

(١) يُنظر: المطول شرح تلخيص المفتاح، ص٢٢.

(٢) يُنظر: سر صناعة الاعراب، ج١، ص١٩٧.

(٣) بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الإمامية، ص٣٩-٤٠.

الإلهية وبه تنتهي الخطبة ، وقد ارتكزت حول محور واحد فنموها يمثل بنية منغلقة حول موضوع معين، وهذا يعكس شدّة اهتمام الإمام علي (عليه السلام) بهذا الغرض ومدى حرصه على إيصاله إلى الجمهور المتلقي لأنه يكر عليه من جوانب مختلفة لتكتمل انحاء الفكرة، ولأجل هذا تبدو الخطبة في مدار محددة آفاقه، وهي تنمو على نحو مستدير لا طولي ولاهرمي.

ومن الخطب التي أوقفها الإمام (عليه السلام) للتوحيد، وقد استطالت مقدمتها حتى بدت ضعفي العَرض هذه الخطبة التي اقتصر فيها الغرض على التسبيح والتنزيه فقال (عليه السلام): ((**فَسبحانَهُ مِنْ عَظيم عَظُمَ أمْرُهُ، ومِن كَبير كَبُرَ قَدْرُهُ، ليسَ بِذي كِبرٍ امْتدّتْ بِهِ النّهاياتُ فكبّرتْهُ تَجْسيداً ولا بِذي عظمٍ الْتَحَقَتْ به الغاياتُ فعظَّمتْهُ تَجْسيماً، عَلا عَن التّجسيم والتّجسيدِ والتّصْوير والتّحديدِ عُلُواً كبيراً، شَواهِدُهُ بذلكَ قائلَة، وأحكامُهُ فيه فاصِلَةٌ، قدْ هَجَمَتِ العُقُولُ عَلَيْها بدلالَتِها، فَظَهَرَ لَدَيْها تبيانَ حِكْمَتِها، حَتى جَلَت عن المُرتابينَ البُهَمَ وكشَفَتْ عَنْهُمُ الظُّلَم**)) [1].

تتألف هذه الخُطبة من مقطعٍ واحد منسجم، فقد حققت الواو وهي رابط واحد أنواعاً مختلفة من الربط[2]، كلها تصب في مصب التعظيم والتنزيه، والمسار الذي اتجهت فيه الخطبة هو مسار دائري، لأنها ما ان اتجهت في خط طولي، حتى عادت تكر على المقطع الأول، فالكلام كان أولاً عن العِظَم ثم الكبر ثم فصَّلَ الحديث في الكِبْر ماهيته وطبيعته، وعاد يفصّل في العِظَم هذه المرة حقيقته وكنهه، فهذا مسار لولبي، يلتف فيه الخطاب على نفسه، ثم ينبثق منه خطٌ أفقي جديد، يجعل الكلام يتنامى في مسار طولي، ليلتف أخرى على نفسه إذ عاد إلى الجملة الثانية. فبعد أن ختم المسار اللولبي الأول بقوله: (ولا بذي عِظم التحقت به الغايات فعظمته تجسيماً) حتى قال من فوره (علا عن التجسيم والتجسيد والتصوير والتحديد علواً كبيراً) ، فكلمة (التجسيم) الواردة في أول هذا المقتطف هي انبثاق جديد في حدّ نفسها، وبلحاظ ما سبقها من كلام تعدّ انعطافاً على ما فات لأنها بمنزلة تَكرارٍ للمفردة (تجسيماً) ومثلها كلمة (تجسيد) .

هذا الانعطاف أو الاستدارة يؤكد التدرج المتئد الهين الذي تسير فيه خطب الإمام (عليه السلام) في مجال التوحيد، لكأنما يستعذب الإمام (عليه السلام) التمكث الطويل في رحاب الذات الإلهية، فهو (عليه السلام) ما أن يتقدم خطوة في مسالك الاستدلال، حتى يرتد أخرى، ليستل مما تقدم مفردة ما، فينسج عليها كلاماً جديداً فيصل بين الكلامين عن طريق هذا التكرار، وبذلك يتحقق الاتساق المعجمي، والتكرار

(١) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة ج١، ص٥٨٩.

(٢) يُنظر: النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، فان دايك، ص٩٠ وفيها ((...إنّ رابطاً واحداً بعينه يجوز ان يعبّر عن مختلف أنواع الربط...)).

متحقق في هذه الخطبة عن طريق شكلين من أشكاله ، فهو ((...يتطلب إعادة عنصر معجمي، أو وروود مرادف له أو شبه مرادف، أو أسماً عاماً...)) [1].

والتكرار متحقق، فالعنصر المعجمي (عظيم) تكررت مادته مراراً (عظيم، عَظُمَ، عِظَم، عظمته) ومثله (كبير، كَبُرَ، كبّرتهُ، كبيراً)، وكذلك (تجسيداً ،التجسيد) ومثلها (تجسيماً، التجسيم) و(علا، علواً) .

اما ورود المترادف فتحققه مفاهيم (العظمة والكبر) و(التجسيد والتجسيم) و(التصوير والتحديد) و(والنهايات والغايات)، و(البُهم والظلُم) فهذا التكرار المتوزع بهذه الكثرة في هذه المساحة الصغيرة هو سبب رئيس لهذا النمط الالتفافي الذي تبدو به خطب التوحيد.

وهنا يتجسد النزوع الفني في التماثل الصوتي الذي يجمع كل جملتين إلى بعضهما عن طريق السجع (أمرُهُ وقدْرُهُ ،قائلة وفاصلة، دلالتيها وحكمتها، البُهَمَ والظُلَمَ)، هذا التناغم الصوتي يفصح عن البعد الروحي الذي يجمع النص ويتوزع على مفاصله، ويلاحظ في هذه الخطبة عدم انكسار النسق الصوتي في خاتمتها، فكأنما في البين إشارة إلى أن الكلام وإن توقف فهو لم ينته، وبذلك تتجلى سرمدية غير المحدود الذي يَستنفذ الخطاب ولما تتجلى صورته بعد.

وللإمام (عليه السلام) في خطب التوحيد واحدةٌ غاير نمطها في البناء سابقاتها، إذ توزع الحمد على جميع فواصلها، وقد استطالت مقدمتها، وحوى آخر فصل على الشهادتين، وتميزت بأنّ لها خاتمة، فغايرت الخطب التي سلفت في هندسة بنائها على غير معهود منه.

بدأ المفصل الأول من العرض مرتبطاً بالمقدمة، وهذا حُسنُ تخلص لقوة الترابط بين المفصلين، والرابط هنا هو (ثم) فهذا ترابط دلالي يدل على التراخي الزماني، فكأنّ ثمة فاصلاً حجز بين المقطع الأول والثاني.

وفي مستهل هذا المقطع إشارة صريحة بموقع كلمة (الحمد) من الكلام، فهي لها الرتبة الأولى في افتتاح الكلام وفي ختام الدنيا بمجيء الآخرة، إذ يقول (عليه السلام) : ((**ثُمّ إنّ اللهَ - وَلَهُ الحَمْدُ افْتتحَ الكتابَ بالحمدِ لنفسِهِ، وختَمَ أمْرَ الدُّنيا ومَجِيءَ الآخِرَةِ بالحمْدِ لِنَفْسه** فقال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾))[2]، وتأسيساً على هذا الكلام بدأ بالحمد: ((**اَلْحَمْدُ لِلَّهِ اللاَّبِسِ الْكِبْرِيآءَ بِلا تَجَسُّدٍ ، وَالْمُرْتَدى بِالْجَلالِ بِلا تَمْثيل، وَالْمُسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ بِلا زَوالٍ ، وَ الْمُتَعالى عَنِ الْخَلْقِ بِلا تَباعُدٍ مِنْهُمْ ، الْقَريبِ مِنْهُمْ بِلا مُلامَسَةٍ مِنْهُ لَهُمْ، لَيْسَ لَهُ حَدٌّ يَنْتَهي إِلى حَدِّهِ، وَلا لَهُ مِثْلٌ فَيُعْرَفَ بِمِثْلِهِ، ذَلَّ مَنْ تَجَبَّرَ غَيْرَهُ ، وَ صَغُرَ مَنْ**

(١) لسانيات النص، مدخل الى انسجام الخطاب، ص٢٤.

(٢) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٦٠٤.

تَكَبّرَ دُونَهُ ، وَتَواضَعَتِ الْأَشْياءُ لِعَظَمَتِهِ ، وَانْقادَتْ لِسُلْطانِهِ وَعِزّتِهِ ، وَكَلَّتْ عَنْ إِدْراكِهِ طُرُوفُ الْعُيُونِ ، وَقَصُرَتْ دُونَ بُلُوغِ صِفَتِهِ أَوْهامُ الْخَلائِقِ)).

توالت النعوت في أول هذا المقطع متسارعة على الرغم من طول الجمل النسبي، بدت الآثار الفنية منذ أول وهلة لتوالي المجاز في تركيب الجمل، وقد جعل تركيب المفردات (اللابس والمرتدي والمستوى والمتعالي) بالألف واللام ذريعة لتعظيمه سبحانه وبيان رفعته لأن الألف واللام إذا أدخلت على أسماء الفاعلين كانت اسماً موصولاً[١]، ومن وسائل التعظيم وذرائعه القصدُ إليه بالاسم الموصول[٢].

وفي الجمل الخمس الأولى حقائق تقريرية أزجاها الإمام عن طريق المناوبة بين النفي والإثبات ،ولأن الجمل اسمية، كانت هذه الحقائق قائمة مستقرة وراسخةمستمرة.

وربطت (بلا) بين هذه الجمل الخمس لأنها كانت برزخاً بين طرفي الإيجاب والسلب وتكرارها هذا زاد من تماسك النص واتساقه.

بعد هذه الجمل، حل النفي (بليس ولا) وهو ما يتكرر في خطب التوحيد ما دام المقام مقام تنزيه، فهذه وسيلته (عليه السلام) لاستجلاب هذه الغاية، لم تسبق ليس بأداة ربط، لأنّ الربط متحقق بالقوة، إذ هذه الجملة (ليس له حد ينتهي إلى حده) كأنها تُجمل ما تم تفصيله في الجمل السابقة، وبذا غاب الرابط لشدة الارتباط[٣]، لأنّ معاني الجمل الخمس الأولى يُستخلص منها عدم محدوديته سبحانه وعدم وجود مثال له، ثم تبعت الجمل الاسمية جمل فعلية بدأتْ بالأفعال (ذل ، صغر، تواضعت ، انقادت، كلت ،قصرت) وبهذا تميزت هذه الجمل بالحركية، وقد دلّت الأفعال على وهن وصغار وتطامن لأن المقام في الاستدلال على عجز المخلوقات عن مطاولة كبريائه وعظمته.

والخطاب في هذه الفقرة متماسك لما فيه من عناصر التكرار القائمة على إعادة المرادف وفق أسلوب المقابلة (ذل وتجبر ،صغر وتكبر ،تواضعت لعظمته ،وانقادت لسلطانه...) .

فضلاً عن إعادة العنصر المعجمي (حدّ – حدّه) و(مثل – مثله) وبهذا تحقق انسجام النص الذي عزز منه تواشج الجمل صوتياً بسبب السجع، وقبل ان يختم الفقرة غيّر البنية الصوتية منعطفاً على الجمل المرسلة مؤذناً بانتهاء هذا المقطع، ليولد مقطع جديد يبدأه الإمام (عليه السلام) بالنعت فتتتصل الخطبة في مسار محوري تحدّد أركانه كلمات التعظيم والإجلال.

---

(١) يُنظر: المطول شروح تلخيص المفتاح، ص٢٠٧.

(٢) يُنظر: م . ن، ص١٩٧.

(٣) ينظر: نسيج النص،بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، ص٣٩.

يقول الإمام (عليه السلام) في هذا المحور: **((الأوَّلُ قبلَ كُلِّ شيءٍ [ولا قبل له]** [1] **والآخرُ بَعْدَ كُلِّ شيءٍ ولا بَعدَ لَهُ، الظاهرُ على كلِّ شيءٍ بالقَهْرِ له، والمشاهِدُ لجميعِ الأماكنِ بلا انتقالٍ إليها، لا تَلْمسُهُ لامِسَةٌ ولا تَحُسُّهُ حاسّةٌ، هو الذي في السَّماءِ إله وفي الأرضِ إله وهو الحكيمُ العليمُ، أتْقَنَ ما أرادَ مَنْ خَلْقَهُ من الأشياءِ كُلِّها، بِلا مثالٍ سَبَقَ إليه ولا لُغوبٍ دَخَلَ عليه في خَلْقِ ما خَلَقَ لَديهِ، ابْتدأَ ما أرادَ ابتداءَهُ وأنشأَ ما أرادَ إنشاءَهُ على ما أرادهُ من الثَّقلينِ الجنِّ والإنسِ، لِتُعرَفَ بذلكَ ربوبيَتِهِ وتُمَكّن فيهمُ طواعيته))**.

يقوم هذا المقطع على أساس بنية اثنينية تجمع كل كلمة إلى ما يقابلها ومحور هذا الجزء هو القدرة، وبؤرتهُ هي (كلمة) الأوّل التي اُستُهِلَ بها النص، لما فيها من إشارة إلى ابتداء الخلق وانشائه.

أساس المقابلة هو التضاد بين الألفاظ (الأول – الآخر، و قبل – بعد، وفي السماء إله – في الأرض إله، والجن – الإنس) وهذا التضاد يشير إلى حقيقة الذات الإلهية المقصودة بكل هذه النعوت، لتثبت له الأمور من طرفين، وتوالي الصفات جاء للتعظيم مدحاً وتوكيداً[2].

وعوداً إلى المسار الدائري، يكر الإمام (عليه السلام) على مفهوم الحمد فيبدأ به المقطع الأخير: **((نحمدُهُ بجميعِ محامِدِهِ كُلّها على جَميعِ نَعْمائِهِ كُلّها، ونَسْتَهْديهِ لمراشدِ أمورنا ونَعوذُ بِهِ مِنْ سَيْئاتِ أعْمالِنا، ونَسْتَغْفِرهُ للذنوبِ التي سَلَفَت منا))**.

جعل الإمام (عليه السلام) الحمد عملاً مشتركاً ومتقاسماً بينه وبينهم، ففي الكلام عظة وتأديب من طرفٍ خفي، مهّد له وصفه الآنف الذكر، المتعدد الأشكال لله تعالى، وبهذا النعت بدأ الطريق سالكاً للحمد والدعاء والاستغفار (نحمده – ونستهديه – ونعوذ به – ونستغفره) وهذا تصديق لمظاهر عظمته، لذا كان التخلص بالشهادتين مناسياً: **((ونَشْهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأنَّ محمداً عَبْدُهُ ورسولُهُ، بَعَثَهُ بالحقِّ [نبياً] دالاً عَليْهِ وهادياً إليهِ، فَهَدانا بِهِ مِنَ الضَلالَةِ واسْتَنْقَذَنا بِهِ مِنَ الجَهالَةِ، مَنْ يُطِعِ اللهَ ورَسُولَه فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظيماً، وَنالَ ثَواباً كريما... ومَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَه فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبيناً واسْتَحَقَّ عَذاباً أليماً فأنجِعوا بِما يَحِقُّ عَلَيْكُمْ من السَمْعِ والطاعَةِ وإخلاصِ النَّصيحَةِ وحُسْنِ المؤازَرَةِ وأعينوا على أَنْفُسِكُم بِلزومِ الطَريقَةِ المُسْتَقيمَةِ وهَجْرِ الأمورِ المَكْروهَةِ، وتَعاطوا الحَقَّ بَيْنَكُم وتَعاوَنوا عليه، وخُذوا على يَدَيِّ الظالِمِ السَفيهِ، ومُروا بالمَعْروفِ وانْهَوا عن المُنْكرِ، واعرِفُوا لذَوي الفَضْلِ فَضْلَهُم))**.

نمت هذه الخطبة باتجاه مختلف؛ فتمخض آخرها للوعظ والإرشاد،إذ يقتضي حَمدُ البارئ التصديقُ بوحدانيته وبما أرسل من رسول، ونهاية الإيمان تسفر عنها الطاعة والتظاهر مع الجماعة، والوقوف بوجه الظالم، وهذا مفاده الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والوصية بأصحاب الفضل كان آخر جملة في هذا الفصل.

---

(١) المعقوفتان اضافهما المؤلف.

(٢) يُنظر: المطول شرح تلخيص المفتاح، ص٢٧.

سرى الحمد في طيات الخطبة جميعاً، وهو من قادها في هذا المسار المنطقي، لذا كان لهذه الخطبة خاتمة غايرت الخطب السابقة . بعد أن توزع الحمد منها في أركان أربعة، فاستطالت مساحتها به وسيلة لذكر صفات الجلال والإكرام.

وقد تواشجت، إحدى خطب التوحيد مع الغرض ودلّت عليه، فعندما بدأ الإمام (عليه السلام) قوله: ((الحمدُ للهِ الذي لا يَفِرُهُ المنعُ ولا يَكديهِ الإعطاء...)) أشاع في النفوس أن الحديث سيكون عن المواهب الإلهية والعَطاء الذي لا ينفذ والنعم التي لا تجازى، وأبان الفرق بين عطاء الله تقدست ذاته وبين عطاء غيره، معللاً ذلك: ((**إذْ كلُّ مُعْطٍ يَنْتَقِصُ سِواهُ [وكُلّ مانعٌ مَذْمومٌ ما خَلاهُ،]**[١] **وَهوَ المَنانُ بفوائدِ النِّعمِ وعوائدِ المَزيدِ ضِمْنَ عَيالةِ خلقه، وأَنْهَجَ سَبيلَ الطَلَبِ للراغبينَ إليه، وليسَ بما سُئلَ بأَجْوَدَ منْهُ ممّا لَمْ يُسأل، وَمَا اخْتَلَفَ عليهِ دَهْرُهُ فَيَخْتَلِفُ فيهِ الحال، [ولا كانَ في مَكانٍ فَيجوزَ عليهِ الانْتِقال]، وَلَوْ وَهَبَ ما شَقَّتْ عَنْهُ مَعادِنُ الجِبالِ، وضَحَكَتْ عَنْهُ أَصْدافُ البِحار - مِنْ فِلْزِ اللُّجَيْنِ وَسَبائِكِ العِقْيانِ، وَنِثارَةُ الدُّرِ وَحصائِدِ المَرجانِ - لِبَعْضِ عَبيدِهِ لما أَثَّرَ ذلكَ في جُودِهِ وَلا أَنْفَدَ سَعَةَ ما عِنْدَهُ، ولكانَ عِنْدَهُ مِنْ ذخائِرِ الإفْضالِ ما لَمْ تَنْفَدْهُ مَطالِبُ السُؤالِ، ولا تَخْطُرُ لِكَثْرَتِهِ على بالٍ لأنّهُ الجَوادُ الذي لا تَنْقُصهُ المَواهِبُ ولا يَبْخَلُهُ إلحاحُ المُلحينَ وإنّما أَمْرُهُ إذا أرادَ شيئاً أنْ يَقولَ لَهُ كُنْ فَيَكونَ، فما ظَنُّكُم بِمَنْ هو هكذا [وَلا هَكذا غَيْرُهُ]** [٢] **سبحانه وبحمده**))[٣].

بدأت الجملة بالتعليل؛ وبذا ارتبط الغرض بالمقدمة برابط سببي، لاعتماده على الجمع بينهما وفق التتابع المنطقي القائم على ربط السبب بالنتيجة[٤] من زاوية القضايا الكلية (كل معط ينتقص سواه، وكل مانع مذموم ما خلاه) فالعطاء والمنع لا يليقان إلا به سبحانه لأنه المالك الحقيقي، دون المالك الاعتباري الذي يتحيف الإعطاء ويشعر بنضوب موارده ما ان يتبين النقص في مقدار ما أُتِيَهُ من مال وثروة، وهو يُبخّل إذا منع، خلافاً للمالك الحقيقي الذي تكمن الحكمة خلف منعه وإعطائه معاً؛ لأنّ ملاك المنع والإعطاء يدور مدار المصلحة المناسبة للعبد.

وكان هذا مدخلاً حسنا لبسط النعم الإلهية التي تفضل بها سبحانه على عباده منّاً وإكراماً، وطريقاً مهيعاً لبيان قدرته تعالى وتفرده، وذلك قوله(ع): (وما اختلف عليه دهر فيختلف فيه الحال، ولا كان في مكان فيجوز عليه الانتقال)، فهاتان الجملتان تمتّانِ إلى ما قبلهما بسبب، فهما نظيرتان لما سبقهما[٥]؛إذ تشتركان مع ما قبلهما في بيان معالم العظمة الإلهية، ومنها عاد الإمام (عليه السلام) إلى موضوع جود الله تعالى وكرمه، فهذا نسق لولبي داوم عليه الإمام في خطب التوحيد .

---

(١) المعقوفتان من المؤلف.

(٢) المعقوفتان من المؤلف.

(٣) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة ،ج١، ص٦٠٨-٦٠٩.

(٤) يُنظر: نسيج النص، بحث في ما يكون به الملفوظ نصا،ص٤٨.

(٥) يُنظر: دلائل الإعجاز، في علم المعاني، ص٢٢٤.

وفي عوده هذا رَمَزَ للعطاء الإلهي بالصور الحسية الرمزية التي بدأت من قوله (عليه السلام) (ولو وهب ما شقّت عنه معادن الجبال...) إلى قوله (ولا تخطر لكثرته على بال)، ومن خصائص الصور الرمزية ، أنّها تثبت أمراً كلياً فوق المحسوس وأنها تقع من العالم الحقيقي في سياق روحي، ولا خلافَ في دلالتها[1].

ثم انسابت الجمل المعللة لعطائه تعالى، (لأنه الجواد الذي لا تُنقصُهُ المواهب ولا يُبخلُهُ إلحاحُ المُلحين) ومن هاتين الجملتين دلف إلى التوحيد الأفعالي الذي قوامهُ المشيئة التكوينية، وختم هذا المقطع بالتنزيه والتحميد (فما ظنكم بمن هو كذا ولا هكذا غيره سبحانه وبحمده).

واختيار الإمام (عليه السلام) مدخل العطاء والجود الالهيين الذي لا حدود له، كان مقصوداً لأن الخطبة أقيمت رداً على جواب من سأله ((يا أمير المؤمنين هل تصف لنا ربك فنزدادُ لهُ حباً ومعرفة)).

ولما كانتِ النفسُ مجبولةً على حب من أحسن إليها، وليس كمثل الاحسان الالهي إحسان، فهو سبحانه يفيضَ سر الوجود على الكائن الحي، ويرفده بنعم الصحة والجوارح والإيمان وسواها من النعم التي لا تحصى حتى يحين اجله ، وقلما يلتفت الإنسان شاكراً، فانتهزها أمير المؤمنين (عليه السلام) فرصة فأظهر الوعظ في ثياب التوحيد، تذكيراً وتعلمياً.

وخاطب الجميع عن طريق إجابة السائل، وتوجيه الكلام له: **((أَيُّهَا السَّائِلُ ، اعْقَلْ مَا سَأَلْتَنِي عَنْهُ ، وَلاَ تَسْأَلَنَّ أَحَداً عَنْهُ بَعْدي ، فَإِنّي أَكْفيكَ مَؤُونَةَ الطَّلَبِ ، وَشِدَّةَ التَّعَمُّقِ فِي الْمَذْهَبِ ، وَكَيْفَ يُوصَفُ الَّذي سَأَلْتَنِي عَنْهُ؟ ، وَهُوَ الَّذي عَجَزَتِ الْمَلاَئِكَةُ ، عَلى قُرْبِهِمْ مِنْ كُرْسِيِّ كَرَامَتِهِ ، وَطُولِ وَلَهِهِمْ إِلَيْهِ ، وَتَعْظيمِ جَلاَلِ عِزَّتِهِ ، وَقُرْبِهِمْ مِنْ غَيْبِ مَلَكُوتِهِ ، أَنْ يَعْلَمُوا مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ مَا عَلَّمَهُمْ ، وَهُوَ مِنْ مَلَكُوتِ الْقُدْسِ بِحَيْثُ هُمْ مِنْ مَعْرِفَتِهِ عَلى مَا قَطَرَهُمْ عَلَيْهِ ، فَقَالُوا : سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ))**.

إذا كان الشطر الأول انصب على تعزيز المحبة للذات الإلهية بالارتكاز على وصفها بالجود والفضل، فما تلا ذلك انصب على بيان الوسيلة التي تعرّفه تعالى للعباد، فالسائل أراد من سؤاله تحصيل المحبة وبلوغ المعرفة عن طريق الوصف للخالق المعبود!

أحال هذا المقطع على ما هو خارج النص فهذه إحالة مقامية[2]، لأنّ الإمام في غضون خطبته أحال على نفسه، في إرجاع السائل إليه: (وَلاَ تَسْأَلَنَّ أَحَداً عَنْهُ بَعْدي ، فَإِنّي أَكْفيكَ مَؤُونَةَ الطَّلَبِ ، وَشِدَّةَ التَّعَمُّقِ فِي الْمَذْهَبِ)، المقام فيه تعليم وتحذير، صفوة القول، ان هاهنا توجيهاً وتنبيهاً في الرجوع إلى العالِم في الأمور المتلابسة والمتشابهة، وعدم الغوص فيها. وكان دليله

(١) ينظر: التركيب اللغوي للادب (بحث في فلسفة اللغة والاستطيقا)، لطفي عبد البديع، ص١٩٢.

(٢) لسانيات النص، مدخل الى انسجام الخطاب، محمد خطابي، ص١٧.

على ذلك عقلياً، فهاهم الملائكة مع قربهم من الملكوت المقدس، عجزوا عن الوصول إلى ما لم يُصلهم إليه سبحانه، وقد عضد الإمام (عليه السلام) هذا الدليل العقلي بآخر سمعي وهو الآية التي ختم بها المقطع من سورة البقرة، إذ أبانت محدودية علم الملائكة وأن ليس لهم من العلم سوى ما حباهم به تعالى !.

ثُمَّ دلّهم على المنبع الصافي للمعرفة وهو القرآن الكريم، فحديث الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) فما ورد عن أئمة الهدى (عليهم السلام) . فهذا تدرج من أعلى سُلّم المعرفة إلى ما بعده. فهذه إجابة قرنت الوعظ والإرشاد والتعليم في مشبك واحد : **((فعَلَيْكَ أَيُّهَا السَّائِلُ بِمَا دَلَّكَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنْ صِفَتِهِ ، وتَقَدَّمَكَ فيه الرُّسُلُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ ، فَائْتَمَّ بِهِ وَاسْتَضِئْ بِنُورِ هِدَايَتِهِ ، فَإِنَّما هِيَ نِعْمَةٌ وَحِكْمَةٌ أُوْتيتَهَا ، فَخُذْ مَا أُوْتيتَ وَكُنْ مِنَ الشاكِرِينَ ، وَمَا كَلَّفَكَ الشَّيْطَانُ عِلْمَهُ مِمَّا لَيْسَ عَلَيْكَ فَرْضُهُ ، وَفِي سُنَّةِ رَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وآله وسلّم وَلاَ عَنْ أَئِمَّةِ الْهُدَى أَثَرُهُ، فَكِلْ عِلْمَهُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَإِنَّهُ مُنْتَهَى حَقِّ اللَّهِ عَلَيْكَ))**.

للبديع نصيب في أول كلمة وآخرها، فقد بدأ هذه الفقرة بكلمة (عليك) وأنهاها بها بعد طول كلام، وهذا ما يسمى بـ(تَشابهِ الأطراف) [(١)]، وكَلمةُ (عليك) في أول الفقرةِ هي اسم فعل أمر، وفي آخرها شبه جملة وما بينهما تُسْتبطنُ المشقّة والصعوبة، لأنَّ في الأمر إلزام وتكليف وبعث على الفعل، أما (على) حرف الجر، فهو يستعمل في الأفعال الشاقة المستثقلة والمشاق التي ((...تخفض الإنسان وتعلوه وتفرعه حتى يخضع لها ويخضع لما يتسداه منها...)) [(٢)].

وبدا أنّ ما بين (عليك) الأولى و(عليك) الثانية طريق وعرة مسالكه، وقد آض ذا شعبتين، الأولى تقف على مشارفها الرُسل التي مضت، وقد اقتفى أثرهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة الهداة، والدليل فيه القرآن الكريم. والشعبة الثانية من سلك فيها فإنما اتّبع خطوات الشيطان، فهذه الفقرة ممحضة للنصح والهداية. ومنها خرج إلى تعريف الراسخين في العلم.

((وَاعْلَمْ أَيُّهَا السَّائِلُ ، أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أَغْنَاهُمْ عَنِ الاقْتِحَامِ على السُّدَدِ الْمَضْرُوبَةِ دُونَ الْغُيُوبِ الإقْرَارُ بِجُمْلَةِ مَا جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِن تفسيرِ الْغَيْبِ الْمَحْجُوبِ ، فَقَالُوا : ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ ، فَحَمَدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اعْتِرَافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْ تَنَاوُلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْماً ، وَسَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِيمَا لَمْ يُكَلِّفْهُمُ الْبَحْثُ عَنْ كُنْهِهِ رُسُوخاً ، فَاقْتَصِرْ على ذلِكَ...)).

هذه الفقرة توضح ما سبقها، فإن الرجوع إلى العالِم لا يكون جزافاً، وإنما لما فيه صفات تحتم ذلك الرجوع، وقد بيّن الإمام ماهية من يجب الرجوع إليه واسماهم (الراسخين في العلم) وهم الذين

---

(١) يُنظر: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان اعجاز القرآن ، ص٥٢٠.

(٢) الخصائص، ج٢، ص٢٨٦ ، ولسان العرب، مادة (على)، ج٤، ص٣٠٩١، وقد نقل ابن منظور معظم كلام ابن جني وأحال عليه.

ذكرهم القرآن وبهم ميزة مائزة لهم عن غيرهم وهو أنهم لا يتجاوزون المدى المسموح لهم، فلم يقتحموا الشبه والحجب، ولم يتوغلوا في عميق المذاهب لذلك عدّوا راسخين في العلم.

ومن هذا الموقع تخلص إلى ذكر صفات الله تعالى، فامتزج آخر وصف الراسخين بأول نعته تعالى في فقرة واحدة فكان هذا من براعة التخلص[1]، فقال (عليه السلام): بعدئذ: **((وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ ، لَمْ يَحْدُثْ فَيُمْكِنَ فيهِ التَّغَيُّرُ وَالانْتِقَالُ ، وَلَمْ تَتَصَرَّفْ فِي ذَاتِهِ كُرُورُ الأَحْوَالِ ، وَلَمْ يَخْتَلِفْ عَلَيْهِ عَقْبُ الأَيَّامِ وَاللَّيَالِي))**.

في هذا الخطاب بيان أنه سبحانه لا يقاس بخلقه، فإن كان مرور الأيام وكرّها يحدث تغييراً في أحوال العباد، وبه ينتقلون من حالٍ لحال، فليس كذلك سبحانه، لأنّه ليس مُحْدَثاً وإنما هو قديم والقديم لا تؤثر فيه تعاقب الأيام والليالي وكرّها، وبذا تثبت ألوهيته، واقتداره للتلازم بينهما. ثم قال (عليه السلام): **((وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الْخَلْقَ عَلى غَيْرِ مِثَالٍ امْتَثَلَهُ ، وَلاَ مِقْدَارٍ احْتَذى عَلَيْهِ مِنْ خَالِقٍ كَانَ قَبْلَهُ ، بَلْ أَرَانَا مِنْ مَلَكُوتِ قُدْرَتِهِ ، وَعَجَائِبِ مَا نَطَقَتْ بِهِ آثَارُ حِكْمَتِهِ ، وَاعْتِرَافِ الْحَاجَةِ مِنَ الْخَلْقِ إِلى أَنْ يُقِيمَهُمْ بَلِيغُ تَقْوِيَتِهِ ، مَا دَلَّنَا بِاضْطِرَارِ قِيَامِ الْحُجَّةِ لَهُ عَلى مَعْرِفَتِهِ .وَلَمْ تُحِطْ بِهِ الصِّفَاتُ فَيَكُونُ بِإِدْرَاكِهَا إِيَّاهُ بِالْحُدُودِ مُتَنَاهِياً ، وَمَا زَالَ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ ، عَنْ صِفَةِ الْمَخْلُوقِينَ مُتَعَالِياً [عَنْ الأَشْبَاهِ وَالأَنْدَادِ] ، وَانْحَسَرَتِ الْعُيُونُ عَنْ إِدْرَاكِهِ وجَلَّ عَنْ أَنْ تَنَالَهُ الأَبْصَارُ فَيَكُونَ بِالْعِيَانِ مَوْصُوفاً وَارْتَفَعَ عَنْ أَنْ تَحْوِيَ كُنْهَ عَظَمَتِهِ فَهَاهَاتُ رَوِيَّاتِ الْمُتَفَكِّرِينَ،و لَيْسَ لَهُ مِثْلٌ فَيَكُونُ بِالخَلْقِ مُشَبَّهاً بِهِ ، وَمَا زَالَ عِنْدَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِهِ عَنِ الأَشْبَاهِ وَالأَنْدَادِ مُنَزَّهاً))**.

بدأ الكلام بـ(هو) فالضمير يحيل إلى ما قبله إحالة ما ورائية، والواو قبله تفيد التشريك والعطف لوجود مناسبة بينهما، والعطف والإحالة يزمّان الخطاب بزمام رابط فينعطف الكلام على بعضه ويعود آخره على أوله فينسجم النص ويتسق وتتضح معالمه وأهدافه، ولذا لما اثبت ألوهيته إذ لم يكن محدثاً اثبت له القدرة في هذه الجمل التالية، واشد معالم الاقتدار التي يتمكن الحسّ من فهمها وتلمس آثارها هي انه ابتدع المخلوقات على غير مثال سابق يحتذيه، وطرح (عليه السلام) في البين دليلاً وجدانياً هو حاجة الخلق الفطرية إلى قوته واقتداره وهذان هما حجّة على الخلق في معرفته، ولكن معرفته ليست حسّيّة، لذا توالت الجمل على إنكار المعرفة بالحس وإثباتها بآثاره الدالة عليه، فلو ثبتت المعرفة الحسيّة لثبت أن له نظيراً ونِدّاً، وتبطل بذلك ألوهيته، لذا فإنّ أهل المعرفة يعلمون تنزيهه عن الأنداد والأشباه.

في هذه الفقرة تبدو معالم النمو التصاعدي وانتقال الموضوع من جانب إلى آخر، فبعد ان تحدث عن طريق أهل المعرفة أشار إلى طريق غيرهم في ادّعائهم الوصول إليه سبحانه:- **((كَذَبَ الْعَادِلُونَ بِاللهِ ، إِذْ شَبَّهُوهُ بِأَصْنَافِهِمْ ، وَحَلُوهُ بِحِلْيَةِ الْمَخْلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِمْ ، وَكَيْفَ [يَكُونُ] مَنْ لاَ يُقْدَرُ قَدْرُهُ مُقَدَّراً فِي رَوِيَّاتِ الأَوْهَامِ ، لأَنَّهُ أَجَلُّ مِنْ أَنْ تَحُدَّهُ أَلْبَابُ الْبَشَرِ بِتَفْكِيرٍ ، وَهُوَ أَعْلى مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ كُفْوٌ فَيُشَبَّهَ بِنَظِيرٍ . فَسُبْحَانَهُ**

(١) يُنظر: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر،وبيان اعجاز القرآن، ص٤٣٣.

وَتَعَالى عَنْ جَهْلِ الْمَخْلُوقِينَ ، فَسُبْحَانَهُ وَتَعَالى عَنْ إِفْكِ الْجَاهِلِينَ ، فَأَيْنَ يُتَاهُ بِأَحَدِكُمْ ، وَأَيْنَ يُدْرِكُ مَا لاَ يُدْرَكُ...))

بدت هذه الفقرة منقطعة عمّا سواها، فالكلام مستأنف، وثمة مقابلة بين أهل العلم الذين أشاد بهم وبين أهل الجهل الذين يقيسون معرفته تعالى على انفسهم ويتصورونه كمثلهم، لذا توالت عبارات التنزيه (فسبحانه تعالى عن جهل المخلوقين فسبحانه تعالى عن أفك الجاهلين) تكرر التسبيح لدواعي التنزيه وليتضاعف الاستنكار، وقوله (فأين يتاه بكم وأين يدرك ما لا يدرك) تحذير جديد من الركون إلى أهل الجهل الذي يدخلون غيرهم في ذات المتاهات التي هم عالقون بها.

وللخطبة هذه إطار مختلف عما سبقها، فقد تنامت عضوياً، وخالط موضوع التوحيد موضوعٌ آخر هو إرشادهم إلى أهل العلم والراسخين به والانقطاع عن غيرهم، ثم عاد ليصفه سبحانه وتعالى . وهو (عليه السلام) بإعادة الوصف أكد المسار اللولبي الذي تردد فيه خطب التوحيد، إذ تعطي انطباعاً للسامع بأنّ الإمام (عليه السلام) لا يودّ مغادرة الموضوع لذا يتلبث أمامه كل مفصل من مفاصلها، ويعود ليتحدث في مفصل آخر، ليعود ثانية إلى ما بدأه أولاً، وبدا أنه (عليه السلام) يستعذب الحديث الطويل عن الله تعالى ويعزّ عليه أن يقطعه، لذا فإنّ غالب الخطب تنمو على رِسلها في تدرج متئد.

العرض في الخطب الاجتماعية:

تتشعب مضامين العرض في الخطب الاجتماعية لاختلاف انحاء الموضوعات وتجدد بواعثها وتنوع غاياتها وأهدافها، واتساع نطاقها ومناسباتها. وهي مثل خطب التوحيد في مجيء بعضها مقتصراً على العرض دون المقدمة، إذ يغفل الراوي أحياناً ذكرها، لذا يتعذر معرفة براعة التخلص من المقدمة إلى العرض، وكيف أفضت اليه، فمن الخطب الاجتماعية التي أغفلت مقدماتها، خطبة كرسّها الإمام (عليه السلام) لإصلاح النفوس، ولذا لفت الإمام (عليه السلام) النظر إلى الاعتبار بالأمم السابقة:

((أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّمَا هَلَكَ مِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِرُكُوبِهِمُ الْمَعَاصِي ، وَلَمْ يَنْهَهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمُ الْعُقُوبَاتِ ، أَلاَ فَمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمْ الذي نَزَلَ بِهِمْ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ لاَ يَقْطَعُ رِزْقاً وَلاَ يُقَرِّبُ أَجَلاً...))[1].

في العرض هذا شطران، أحدهما توطئة للآخر، فالمقدّم شَخّص قضية مهمة وهي هلاك الأمم السابقة، والتالي أبان عن علّتها وهي انعدام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. لذا حضّ

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٥١٨-٥١٩.

الإمام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن بهما صلاح المجتمع، مقتلعاً جذور الخوف التي من الممكن أن تحول بين المجتمع وبين هذه الفريضة فهي لا تقطع الرزق ولا تقرب الأجل.

استهل الإمام (عليه السلام) الكلام بالقصر بإنّما، وفي هذا أشد التحذير لأنّ إنما تفيد إثبات ما بعدها ونفي ما سواها[1]. ومن خصائصها أيضا انها ((...تجيء لخبرٍ لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته...)) فهي تأتي لـ((تذكير بأمر ثابت معلوم. وذلك أن كل عاقل يعلم أنه لا تكون استجابةٌ إلا ممن يسمع ويعقل ما يقال له ويُدْعى إليه...)) [2].

ومن قوله الأخير (عليه السلام) (أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقاً ولا يقرب أجلاً) خلص ببراعة إلى الرزق الذي يمكن أن يصيبهم في الحياة الدنيا في المال والأهل أو النقص الذي يمكن ان يطرأ عليهم فكلها أمور مقدرة **((إِنَّ الْأَمْرَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ كَقَطْرِ الْمَطَرِ إِلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا قَدَّرَ اللَّهُ لَهَا مِنْ زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ فِي أَهْلٍ أَوْ مَالٍ أَوْ نَفْسٍ فَإِذَا أَصَابَ أَحَدَكُمُ النُّقْصَانُ فِي أَهْلٍ أَوْ مَالٍ أَوْ نَفْسٍ... فَلَا يَكُونَنَّ ذَلِكَ فِتْنَةً لَهُ فَإِنَّ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ مَا لَمْ يَغْشَ دَنَاءَةً يُظْهِرُ تَخَشُّعاً لَهَا إِذَا ذُكِرَتْ لَهُ ... كَانَ كَالْيَاسِرِ الْفَالِجِ الَّذِي يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَةٍ مِنْ قِدَاحِهِ تُوجِبُ لَهُ الْمَغْنَمَ وَ تَدْفَعُ عَنْهُ الْمَغْرَمَ وَ كَذَلِكَ الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ الْبَرِيءُ مِنَ الْخِيَانَةِ إِنَّمَا يَنْتَظِرُ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ [إِمَّا دَاعِيَ اللَّهِ] فَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لَهُ وَ إِمَّا رِزْقاً مِنَ اللَّهِ فَإِذَا هُوَ ذُو أَهْلٍ وَ مَالٍ، الْمَالُ وَالْبَنُونَ حَرْثُ الدُّنْيَا وَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ حَرْثُ الْآخِرَةِ وَ قَدْ يَجْمَعُهُمَا اللَّهُ لِأَقْوَامٍ))**.

يتجلى هنا تسلسل الأفكار وترابطها المنطقي وانبثاق آخر الكلام عن اوله وامتزاجه به وتلاحمه معه، ويبدو هنا أن هذه الخطبة متدرجة في محورين، افضى احدهما إلى الآخر واشتمل عليه، لأن النهي عن المعاصي يستلزم ضمناً النهي عن الحسد، والتحاسد من الأمور المنكرة التي تستلزم النهي عنها والأمر بخلافها، ومن دواعي الحسد الرزق في المال والولد. ومن أسباب عدم العمل بالأمر المعروف والنهي عن المنكر الخوف من انقطاع الرزقين وانتظار الرحمة الإلهية كفيل بتحققهما معاً؛ لذا لابد من امتثال امره تعالى، وبذلك تمدد بساط الخطبة في حيز طولي .

ومن الخطب الأخرى التي تناولت قضايا اجتماعية مهمة، الخطبة التي يحضّ الإمام (عليه السلام) فيها قومه على قبول المساواة بالفيء، وقد تميزت هذه الخطبة بحسن التخلص، فبعد الحمد والشهادتين انعطف الإمام على موضوع الخطبة الذي وطّأَ له في المقدمة، التي ألمح فيها على أن النعم منه تعالى وإنما تقسم بينهم بحسب التشريع الالهي، فما أن ذكر الشهادة الثاني حتى قال:- **((بَعَثَهُ رَحْمَةً لِلْعِبَادِ وَ الْبِلَادِ ، وَ الْبَهَائِمِ وَ الْأَنْعَامِ ، نِعْمَةً أَنْعَمَ بِهَا وَ مَنّاً وَ فَضْلاً . وَصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ فَأَفْضَلُ النَّاسِ أَيُّهَا النَّاسُ ، عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً ، وَ أَعْظَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ خَطَراً ، أَطْوَعُهُمْ لِأَمْرِهِ اللهِ ، وَ أَعْمَلُهُمْ بِطَاعَةِ اللهِ ، وَ أَتْبَعُهُمْ لِسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ، وَ أَحْيَاهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ . فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ**

(١) ينظر: دلائل الإعجاز، ، ص٣٢٨، وينظر: المطول شرح تلخيص المفتاح، ص٣٨٥.

(٢) دلائل الإعجاز، ص٣٣٠.

عِنْدَنَا فَضْلٌ إلاَّ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَ طَاعَةِ رَسُولِهِ ، وَاتِّبَاعُ كِتَابِهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ ، هَذَا كِتَابُ اللهِ بَيْنَ أَظْهُرِنَا ، وَعَهْدُ نَبِيِّ اللهِ وَسِيرَتِهِ فِينَا لاَ يَجْهَلُهَا إلاّ جَاهِلُ مُخَالِفٌ مُعَانِدٌ عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلّ يَقُولُ اللَّهُ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ **فَمَنِ اتَّقَى اللَّهَ فَهُوَ الشَّرِيفُ الْمُكَرَّمُ الْمُحِبُّ ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ طَاعَتِهِ وَ طَاعَةِ رَسُولِ اللَّهِ ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ :** ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ **وَقَالَ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى :** ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾))[1].

إنَّ البؤرةَ المركزيةَ لهذه الخطبة قوامُها الطاعة، لذا اغتنم الإمام (عليه السلام) ذكر الشهادة الثانية ليتخذه طريقاً إلى تكريس الطاعة، فجعل التوصل إلى طاعة الرسول سبباً إلى طاعته سبحانه، وحفَّ الكلام بالنصوص القرآنية المتتالية ليعضد الكلام بعضه بعضاً.

والطاعة هنا ليست مقصودة لذاتها بل لما تشير اليه إذ الأطوع لله سبحانه وللرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هو الأفضل لأن الطاعة قوام العبادة والتقوى وهما مدار الأفضلية.

وقد حفّت هذه الجمل بروابط شتى، وأدوات الربط يمكنها أن ((...تعمل على بناء تراكيب متتالية من الجمل...)) [2]، فهذه الروابط الإحالية تمثل : ((...علاقة معنوية تقع في المستوى الدلالي...)) [3]، ومن مظاهرها هنا إحالة الضمير (هاء الغيبة) في (بعثه) على ما سبقه من الكلام وهو (وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُه ورَسُولُه)، فقد مثلت الهاء عاملاً مهماً من عوامل اتساق المقدمة مع الغرض وأدت إلى إرساء علاقة دلالية بينهما، لأن الهاء تدل على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي سلف ذكره صريحاً، وتتابع الربط وفق آلية الاستبدال فالكلمات (رحمة – نعمة) تشير إلى ذات الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)، فضلاً عن تكرار المفردات، ولاسيما مفردة (طاعة) باشتقاقاتها المختلفة التي توزعت على إنحاء الخطاب وأركانه، وعلى الآيات القرآنية التي جِيءَ بها شواهد تؤيد النص، وقد جُعلت هذه المفردة مقياساً للمفاضلة بين الأشخاص (أفضل الناس، اعظمهم، اطوعهم، اعلمهم، اتبعهم، احياهم، وحشو الخطاب بالكلمات الدالة على المقارنة هي احدى وسائل اتساق النص، وبالتالي الخطاب الذي يتفرع عنه والمقارنة هنا كيفية وكمية، لأنها تنضوي على

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٢٢٨-٢٢٩.

(٢) النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ص١٢٨.

(٣) لسانيات النص ،مدخل الى انسجام النص، ١٩.

كلمات متفاوتة المعنى في الدلالة على الأفضلية[1]، والغاية من ذلك تنبيههم إلى مقياس المفاضلة الذي عماده التقوى، فهو يريد ان يوصل إليهم أنهم في أصل النشأة سواسية.

((ثم صاح (عليه السلام) بأعلى صوته : يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الأَنْصَارِ ، وَيَا مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ ، أَتَمُنُّونَ عَلَى اللَّهِ وَ عَلَى رَسُولِهِ بِإِسْلاَمِكُمْ .وَلله وَلِرَسولِهِ المَنُّ عَلَيْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ))

ثمة تراخٍ بين المقطعين بقرينة (ثم) وبقرينة نغمة الصوت التي وصلت أقصاها بدلالة قول الراوي (صاح بأعلى صوته) والنداء ضاعف من لفت الانظار اليه، هذه الجملة الاستفهامية لا يراد الإجابة عنها بنعم أو لا[2]، فهي قد قصد بها الاستنكار والتوبيخ. لأنهم أرادوا أن يُفضلوا بالعطاء لمكان سبقهم بالإيمان فقطع هذا الطريق عليهم.

ثم قال (عليه السلام): **((ألا إِنَّهُ مَنْ اسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا ، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا ، وَشَهِدَ أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ ، أَجْرَيْنَا عَلَيْهِ أَحْكَامَ الْقُرْآنِ وَ أَقْسَامَ الإِسْلاَمِ ، لَيْسَ لأَحَدٍ عَلى أَحَدٍ فَضْلٌ إِلاَّ بِتَقْوَى اللَّهِ وَ طَاعَتِهِ جَعَلَنا اللهُ وَإِيّاكُمْ مِنْ الْمُتَّقِينَ، وَأَوْلِيائِهِ وَأَحْبائِهِ الذينَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ))**.

في الكلام كرٌّ على ما استهلَّ به الغرض فإن مناط الفضل هو التقوى والطاعة، وكل المسلمين سواء في إجراء أحكام القرآن والإسلام عليهم. وفي الكلام تلطف ورفق، تتلمس بوادره في الدعاء لهم بمعيته في أن يكونوا من أولياء الله تعالى المتقين وأحبائه الذي لا بأس عليهم.

ثم قال (عليه السلام): **((أَلاَ إِنَّ هذِهِ الدُّنْيَا الَّتي أَصْبَحْتُمْ تَتَمَنَّوْنَهَا وَ تَرْغَبُونَ فيهَا ، وَأَصْبَحَتْ تُغْضِبُكُمْ وَتُرْضِيكُمْ ، لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ ، وَ لاَ مَنْزِلِكُمُ الَّذي خُلِقْتُمْ لَهُ ، وَ لاَ الَّذي دُعيتُمْ إِلَيْهِ . أَلاَ وَ إِنَّهَا لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ لَكُمْ وَلاَ تَبْقَوْنَ عَلَيْهَا . فَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ عَاجِلُهَا فَقَدْ حُذِّرْتُمُوهَا ، وَوُصِفَتْ لَكُمْ وَ جَرَّبْتُمُوهَا ، فَأَصْبَحْتُمْ لاَ تَحْمَدُونَ عَاقِبَتَهَا فَسَابِقُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ ، إِلى مَنَازِلِكُمُ الَّتي أُمِرْتُمْ بِعِمَارَتِهَا ، فَهِيَ الْعَامِرَةُ الَّتي لاَ تُخْرَبُ أَبَداً، وَ الْبَاقِيَةُ الَّتي لاَ تَنْفَدُ ، رَغَّبَكُمْ اللّهُ فيهَا وَدَعَاكُمْ إِلَيْهَا ، وَ جَعَلَ لَكُمُ الثَّوَابَ فيهَا، فانظروا يا معاشر المهاجرين والأنصار وأهل دين الله ما وصفتم به في كتاب الله ونزلتم به عند رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وجاهدتم عليه فبما فضلتم به؟ أبالحسب وَالنسب؟ أم بعمل وطاعة؟ فاستتموا نعمه عليكم – رحمكم الله – بالصبر لأنفسكم وَ الْمُحَافَظَةِ عَلى مَا اسْتَحْفَظَكُمْ اللَّهُ مِنْ كِتَابِهِ))**.

في هذا المقطع كما في سابقيه تراخٍ زمني بدلالة (ثم) التي نبه بها الراوي على انعطاف الخطبة في موضوعها، فثمة تسلسل هاهنا، هو الذي دفع الإمام إلى التزهيد في الدنيا لأنها فانية وعوضاً عن ذلك دعاهم إلى تعمير منازلهم الاخروية لأنها باقية، وقد رغبهم الله تعالى فيها، ثم ذكرهم بما وصفهم به القرآن الكريم وما فضلهم به وهو ليس الحسب والنسب وإنما

---

(١) يُنظر: لسانيات النص ،مدخل الى انسجام النص، ص١٩.

(٢) زعم كمال بشر أن الجملة الاستفهامية التي تكون نغمتها صاعدة هي التي تستوجب الإجابة بنعم أو لا، والأمر بخلاف ما قال كما يدلّ عليه المثال الواقعي، يُنظر: علم الأصوات، كمال بشر، ص٥٣٦-٥٣٧.

العمل والطاعة، ثم قال (عليه السلام): **((ألا وإنه لا يَضُرُّكم تَواضُعُ شيءٍ من دنياكُم بعد حفظِكُم وصيةَ الله والتّقوى. ولا يَنْفعُكُم شيٌء حافَظْتُم عليه من أمْرِ دُنْياكم بعد تضييعِ ما أمَرْتُم به من التَّقوى، فَعليكم عبادَ اللهِ بالتّسليم لأمْره، والرّضا بقضائِه والصّبْرِ على بَلائِه.**

فَأمَّا هذَا الْفَيْءُ فَلَيْسَ لأَحَدٍ فيهِ علَى أَحَدٍ أَثْرَةٌ ، قَدْ فَرَغَ اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ مِنْ قَسْمِهِ ، فهو مال الله ، وأنتم عباد الله المسلمون ، وهذا كتاب الله به أقررنا ، وعليه شهدنا وله أسلمنا ، وعهد نبينا عليه السلام بين أظهرنا . فسلموا رحمكم الله لأمر الله ، فَمَنْ لَمْ يَرْضَ هذا فَلْيَتَوَلَّ كَيْفَ شَاءَ . فَإِنَّ الْعَامِلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ ، وَالْحَاكِمَ بِحُكْمِ اللَّهِ ، لاَ وَحْشَةَ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ ، أُولئكَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ، وَ ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾))

التدرج في تسلسل الخطبة واضح، وقد اكتسى إلقاء الحجج أشكالاً متعددة، فقد بيّن الإمام أولاً كثرة نعم الله سبحانه وتعالى ثمّ ركّز على اظهر نعمة وهي بعثة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، ثمّ بيّن آثارها على كافة المخلوقات، وقد تجلت في محبيه بطاعته والطاعة أساس التقوى ثمّ ذكّرهم بماضيهم وما وصفهم به القرآن – وهذا من سمات الخطابة الناجحة ((وفي الحقيقة فإن أية خطبة تتجه إلى المستقبل... يجب بالضرورة أن نأخذ مثالاتها من الماضي...))(١). ثمّ عاد يُزَهّدهم بالدنيا ويؤكد أن مقياس المفاضلة هو التقوى وإن من لا يرضى بحكم الله تعالى ويُسلم له (فليتولَّ كيف شاء)، أما من أطاع سبحانه تعالى فهو من المفلحين.

تختلف هذه الخطبة عن خطب التوحيد، فالإمام (عليه السلام) في سعيه الحثيث لإصلاح المجتمع التزم أنماطاً متجددة في بناء هذه الخطبة التي نمت نمواً طولياً واضحاً، فكانت كل فقرة تؤدي إلى ما بعدها، فاستطالت في مديات واسعة، فما اكتملت إلا وقد ساقَ حججه كلها قبلها من قبل ومن لم يرضَ فهو شأنه .ويمثل توالي الحجج نسقاً يعكس التماسك المعنوي.

ونظير هذه الخطبة في إرساء مبادئ المساواة قوله بعد مقدمة حمد الله تعالى فيها وأبان أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) صدع بالحق ومضى على منهج الرسل قبله **((أما بَعْدُ: أَيُّها النَّاسُ: فَلاَ يَقُولَنَّ رِجالٌ قَدْ كانَتِ الدُّنْيا غَمَرَتْهُمْ ، فَاتَّخَذُوا الْعِقَارَ ، وَفَجَّرُوا الأَنْهارَ ، وَرَكِبُوا أَفْرَهَ الدَّوَابِّ ، وَلَبَسُوا أَلْيَنَ الثِّيَابِ ، فَصارَ ذَلِكَ عَلَيهِمْ عاراً وَشَنَاراً إنْ لَمْ يَغْفِرْ لَهُمُ الْغَفَّارُ ، إذَا مَا مَنَعْتُهُمْ ممَّا كانُوا فيهِ يَخُوضُونَ ، وَصَيَّرْتُهُمْ إلى ما يَسْتَوْجِبُونَ ، فَيَنْقِمُونَ ذَلِكَ وَيَسْتَنْكِرُونَ ، وَيَقُولُونَ : ظَلَمَنَا ابْنُ أَبِي طَالِبٍ وَحَرَمَنَا ، وَمَنَعَنَا حُقُوقَنَا . فَاللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمُسْتَعَانُ))**(٢).

في البين موازنة صوتية جمعت كل نسق صوتي إلى مثيله (عقارو انهار، دواب وثياب، شنار وغفار ، يخوضون ويستوجبون ويستنكرون) ثم انكسر هذا النمط الصوتي في ختام هذه الفقرة إيذاناً بانتهائها. فتوالت أفعال ماضية سريعة (ظلمنا، وحرمنا، ومنعنا، وحقوقنا).

(١) الخطابة، ص٢٣٧.

(٢) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٢٣٥.

وفي المقام تعريض برجالٍ لم تُذكرْ أسماؤهم، ولكن ثمة تعريض بهم بذكرصفاتهم، التي تشتمل على الطغيان والخيلاء والتكبر، ولا يخفى أنّ التعريضَ يتوصل به إلى المقصود على نحو ألطف وأحسن من التصريح، لئلا يثير حفيظة من طالبوه بعدم المساواة بالفيء، كما أن وخز الكلمات أبلغ بالكناية وعدم الأفصاح. وقد تدرج في التبكيت من تقريعهم على اقتناء العقار فركوب الفاره من الدواب، فلبس اللين من الثياب. فبدأ من الأنْفَسِ إلى الأقل نفاسة ووازن هنا بين عمق الدلالة والتدرج الهرمي لإبلاغ الرسالة في ضمان أسس العدل الاجتماعي إذ سمى ما اقتنوه من غير حلال عاراً وشناراً وبه تعرّضوا لغضبة الجبار، ولقد حدس الإمام (عليه السلام) أنهم سيسمون حكمه فيهم بالحق ظلماً وحرماناً ((وقد صدق ظن ابن أبي طالب في أنّ النافذين والوجهاء من القوم لن يتحملوا أسلوبه في الولاية ولن يطيقوا صلابته في الدفاع عن هذا الأسلوب...)) [1]، وقد كان (عليه السلام) ((...يرى أنَّ من الحق عليه أن يقيم العدل بأوسع معانيه بين الناس، لا يؤثر منهم أحدٌ على أحد...)) [2].

وقد توسع الإمام (عليه السلام) في هذه الخطبة بالاتجاه نفسه الذي توسع به في الخطبة السالفة، وتطرق إلى معانٍ مشابهة لها، فبيّن أنّ المسلمين محكومون بأحكام الإسلام، ومن قَبِلَ أحكامهُ كان تقياً استحق جزيل الثواب، ثم أبان أن ما حازوه سابقاً لم يكن لعلو حسبهم أو نسبهم، بل لتقواهم، ثم طلب إليهم أن ينصرفوا عن متاع الدنيا إلى الآخرة فإنّ على الحاكم أن يحكم بحكم الله تعالى ومن أبى فليس من المسلمين. فهذه المقارنات العقلائية بين محدودية عالم الدنيا الفاني وسعة عالم الآخرة الباقي لا تستهدف مجرد التأثير الظاهري والإقناع الآني بل تقصد إلى أن تتغلغل في نفوسهم ليرتضيَها وجدانهم، وقد خطَت هذه الخطبة خطوات واسعة لتشعب أهدافها، فنمت نمواً طولياً دون ان يخلّ ذلك في تلاحم اجزائها.

ومن الخطب الاجتماعية التي تطرق لها الإمام خطب النكاح، ففي أحداها ممن استهلت بالحمد وأعقبته الشهادتان قوله: **((أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَلِيِّ النِّعْمَةِ وَ الرَّحْمَةِ خَالِقِ الْأَنَامِ وَ مُدَبِّرِ الْأُمُورِ فِيهَا بِالْقُوَّةِ عَلَيْهَا وَ الْإِتْقَانِ لَهَا))** [3].

لقد جَعل محمود البستاني الوصية بالتقوى من المبادئ الفنية التي تميز بها الإمام (عليه السلام) فهذه التوصية ((...تشكل رابطة فنية بين الاستهلال والموضوع...)) [4]، وما قاله يصح في مقام

(١) الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ص١٦٢.

(٢) الفتنة الكبرى، علي وبنوه ، ج٢، ص٥٩.

(٣) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٣، ص١٠٥.

(٤) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي، ص٢١٧.

وجود هذه التوصية فإذا انتفت فإن حُكمَهُ هذا لا يطّرد. وفي هذه التوصية التي تصدرت الغرض ربما كان هناك إلماع إلى الموضوع في قوله (خالق الأنام) ثم انعطف الإمام إلى حمده سبحانه حمداً كثيراً اختلط بالنصح والوعظ حتى ليصعب إيجاد الرابط الظاهري الذي يشد الخطبة إلى موضوعها، فالمسألة إذاً تتعلق بالخطيب الذي لا ينفك يبتدر أول سانحة، ليوصيهم فيها بالتقوى، ويذكرهم بالآخرة: **((فَإِنَّ اللَّهَ - لَهُ الْحَمْدُ عَلَى غَابِرِ مَا يَكُونُ وَ مَاضِيهِ وَ لَهُ الْحَمْدُ مُفْرَداً وَ الثَّنَاءُ مُخْلَصاً بِمَا مِنْهُ كَانَتْ لَنَا نِعْمَةً مُونِقَةً وَ عَلَيْنَا مُجَلِّلَةً وَ إِلَيْنَا مُتَزَيِّنَةً خَالِقٌ مَا أَعْوَزَ وَ مُذِلٌّ مَا اسْتَصْعَبَ وَ مُسَهِّلٌ مَا اسْتُوعِرَ وَ مُحَصِّلٌ مَا اسْتَيْسَرَ مُبْتَدِئُ الْخَلْقِ بَدْءاً أَوَّلًا يَوْمَ ابْتَدَعَ السَّمَاءَ وَ هِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَيهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ لَا يَعُورُهُ شَدِيدٌ وَ لَا يَسْبِقُهُ هَارِبٌ وَ لَا يَفُوتُهُ مُزَائِلٌ يَوْمَ تُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ))**.

فقد تدرج الإمام من الحمد، وتيسير النعم، ثم استشهد بالآية القرآنية التي تدل على ابتداع السماوات والأرض وإحكام قبضته تعالى على خلقه مذ خُلقوا إلى أن يتوفاهم الأجل، فهذا المقطع على قصره تسلسل في بيان مسيرة الإنسان على الأرض ومنها انتقل إلى صلب الغرض الذي قامت الخطبة لأجله. ولم يذكرها الراوي واكتفى بالإشارة إليها ((ثم ان فلان بن فلان)).

وفي خطبة له ثانية في الموضوع ذاته اكتفى الراوي بذكر مقدمة الخطبة ولم يُنقل من الغرض إلا الوصية بالتقوى **((ثُمَّ إِنِّي أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا وَصِيَّةُ اللَّهِ فِي الْمَاضِينَ وَ الْغَابِرِينَ))** [1].

وفي خطبة أخرى في هذا المضمار، وقد خطب السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) لنفسه، أوجز العرض بعد مقدمة طويلة توالى الحمد فيها نسقاً متتابعاً، فقال (عليه السلام): **((...وَإِنَّ مَجْلِسَنَا هذَا مِمَّا قَضَاهُ اللَّهُ تَعَالى وَ رَضِيَهُ. وَ هذَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قَدْ زَوَّجَنِي ابْنَتَهُ، فَاطِمَةَ عَلى صِدَاقِ أَرْبَعَمِائَةِ دِرْهَمٍ وَ ثَمَانِينَ دِرْهَماً ، وَ قَدْ رَضِيتُ بِذَلِكَ فَاسْأَلُوهُ وَ اشْهَدُوا))**[2].

على الرغم من ان غرض الخطبة تكرّس لموضوعها، إلا أنّه لم يخل عن الذكر وربط الموضوع بالتشريع الإلهي، وقد تكرر اسم الإشارة في هذا المورد (ومجلسنا هذا، وهذا محمد بن عبد الله...) لكمال العناية بتمييز المشار إليه ((...لاختصاصه بحكم بديع...))[3]، هذا من الناحية الدلالية . أما من الناحية الإحالية فكلمة (هذا) الأولى أشارت إلى كيان ووجود وهو المجلس، لذا لم يستعمل الإمام كلمة (هنا) لأن المكان لم يكن من وكده، والإشارة في (هذا) الثانية كانت إشارة انتقائية[4] لخصوصية الشخص المشار إليه، ويلاحظ هنا سرعة الانتقال في مديات طولية بدأت

(١) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة، ج٣، ص١٠٤.

(٢) م . ن، ج١، ص٢٥-٢٦.

(٣) المطول شرح تلخيص المفتاح، ص٣١.

(٤) يُنظر: لسانيات النص مدخل الى انسجام الخطاب، ص١٩.

بأن ربطت النكاح بالرضا الإلهي وربط المجلس المنعقد بهذا الرضا أيضاً، ثم الدخول في الغرض عبر الإشارة الصريحة إلى الشخص الذي سيصهر إليه وقد ذكره باسمه وبعنوان رسالته ليستتم له الفخر الدنيوي والأخروي، ثم اشهد الناس على الخِطْبَة وبها اكتملت جميع نواحيها.

ومن الخطب الاجتماعية، التي تصدت للإصلاح الاجتماعي والديني وتربية النفوس وتهذيبها، ويلاحظ فيها تنوع المضامين هي خطب الجمعة، التي تتميز بطولها النسبي لأنها تتكون في الأصل من جزأين يفصل بينهما جلسة. فمنها خطبة بدأها بمقدمة طويلة – تمت الإشارة إليها في مبحث سابق. ثم استهل الغرض بالتوصية بالتقوى، ليربط فنياً بين المقدمة والغرض– كما قرر محمود البستاني– قال (عليه السلام): **((أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللَّه وأُوصِي نَفْسِي بِتَقْوَى اللَّه الَّذِي ابْتَدَأَ الأُمُورَ بِعِلْمِه وإِلَيْه يَصِيرُ غَداً مِيعَادُهَا، وبِيَدِه فَنَاؤُهَا وفَنَاؤُكُمْ، وتَصَرُّمُ أَيَّامِكُمْ، وفَنَاءُ آجَالِكُمْ، وانْقِطَاعُ مُدَّتِكُمْ، فَكَأَنْ قَدْ زَالَتْ عَنْ قَلِيلٍ عَنَّا وعَنْكُمْ كَمَا زَالَتْ عَمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ))** [1].

في الوصية تسلسل سريع، بدأه بوصيتهم بالتقوى وضمّ إليها وصية نفسه ليكون الكلام أكثر قبولاً، وعلل التقوى بالمصير إلى الله سبحانه، الذي ابتدأ الأمور فالدنيا زائلة عنهم كما زالت عن قبلهم، فلابد من الاعتبار.

ثم قال: **((فَاجْعَلُوا عِبَادَ اللَّه اجْتِهَادَكُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا التَّزَوُّدَ مِنْ يَوْمِهَا الْقَصِيرِ لِيَوْمِ الْآخِرَةِ الطَّوِيلِ فَإِنَّهَا دَارُ عَمَلٍ وَالْآخِرَةَ دَارُ الْقَرَارِ وَالْجَزَاءِ فَتَجَافَوْا عَنْهَا فَإِنَّ الْمُغْتَرَّ مَنِ اغْتَرَّ بِهَا لَنْ تَعْدُوَ الدُّنْيَا إِذَا تَنَاهَتْ إِلَيْهَا أُمْنِيَّةُ أَهْلِ الرَّغْبَةِ فِيهَا الْمُحِبِّينَ لَهَا الْمُطْمَئِنِّينَ إِلَيْهَا الْمَفْتُونِينَ بِهَا أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ** ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾))

تضمن هذا المقطع أمرين المقارنة بين دار الدنيا والآخرة في المسافة الزمنية وفي المهمة المنوطة بالإنسان في الدنيا وهي العمل – ليتلقف الجزاء.

والأمر الآخر هو ضآلة الدنيا فهي مهما تناهت في حجمها لن تعدو ان تكون امنية فحسب، وهنا استشهد بالآية القرآنية ليريهم قيمتها فهي متلاشية كعلف الحيوان.

ثم قال (عليه السلام): **((مَعَ أَنَّهُ لَمْ يُصِبِ امْرُؤٌ مِنْكُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَبْرَةً إِلَّا أَوْرَثَتْهُ عَبْرَةً وَلَا يُصْبِحُ فِيهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ إِلَّا وَهُوَ يَخَافُ فِيهَا نُزُولَ جَائِحَةٍ أَوْ تَغَيُّرَ نِعْمَةٍ أَوْ زَوَالَ عَافِيَةٍ مَعَ أَنَّ الْمَوْتَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ وَهَوْلَ الْمُطَّلَعِ وَالْوُقُوفَ بَيْنَ يَدَيِ الْحَكَمِ الْعَدْلِ يَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ** ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾.

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة ج٣، ص١٤٣.

فَاتَّقُوا اَللَّهَ عَزَّ ذِكْرُهُ وَسَارِعُوا إِلَى رِضْوَانِ اَللَّهِ وَاَلْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ وَاَلتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِكُلِّ مَا فِيهِ اَلرِّضَا فَإِنَّهُ ﴿قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾)).

انطلق الإمام من النظرة العامة، إذ قارن الدنيا بالآخرة، فهي معبر ودار تزود .ثم خصصها ونظر إليها من حيث هي هي إذ لا تعدو ان تكون لذة فانية، ثم قرنها الإمام إلى الإنسان نفسه لتكون النظرة خاصة جداً وتلم بها النزعة الوجدانية، فالإنسان بنفسه خبر امتزاج الفرح بالحزن والأمن بالخوف، والحذر من طوارق الحدثان، ومن وراء ذلك كله الخوف من الموت، فلم يبقَ سبيل إلى النجاة سوى العمل. ثم ختم هذا الجزء بالدعاء.

أما الجزء الثاني – بعد الجلوس– فقد كان في شطرين هما الحمد والدعاء الموشى بالاستغفار، كان الحمدُ هو مقدمة هذا الشطر، وغرضه أيضاً، أما الدعاء فهو الخاتمة. قال في الغرض:((...و **نَسْتَغْفِرُهُ مِنْ مَكَاسِبِ اَلذُّنُوبِ وَنَسْتَعْصِمُهُ مِنْ مَسَاوِي اَلْأَعْمَالِ و مَكَارِهِ اَلْآمَالِ وَاَلْهُجُومِ فِي اَلْأَهْوَالِ وَمُشَارَكَةِ أَهْلِ اَلرِّيَبِ وَاَلرِّضَا بِمَا يَعْمَلُ اَلْفُجَّارُ فِي اَلْأَرْضِ بِغَيْرِ اَلْحَقِّ**)).

يتفاعل المستوى المعنوي والصوتي في إنشاء ديباجة هذه الفقرة، (الأعمال،والآمال، والأهوال)، وكعادته (عليه السلام) يكسر البنية الصوتية عند الانتهاء إيذاناً بانغلاق الكلام وانفتاحه على منعطفٍ جديد. ويلاحظ في هذا النوع من الخطب اتساع المديات التي تجتازها الموضوعات وتناميها دون أن تتفكك العرى بين أجزائها. والأمر لا يختلف في خطب الأعياد، واكتفيت بخطبة الجمعة نموذجاً مقارباً لها.

العرض في خطب السياسة

تميزت الخطب السياسية للإمام (عليه السلام) بمزايا اختلفت عن سابقاتها إذ هو فيها قد يصل إلى مراده بالحجة والبرهان. وذلك بأقصر عبارة وأوجز بيان. لذا لا يُصْغَى لقول من قال إن الخطابةَ العربية ((... لم تعتمد الحوار الهادئ القائم على الحجة إلا في مناسبات محدودة، ولذلك ينتظر أن يكون عنصر الحجاج والبرهنة أضعف عناصر بنائها، غير انه ينبغي ان ينظر إلى القضية حسب المقامات والموضوعات المتناولة)) (١) ؛ لأن استقراء القائل يعد ناقصاً ثم إن فضيلة الحِجاج لا تقف عند المقامات والموضوعات فحسب، بل تقف عند القائل أيضاً، فخطيب بمستوى الإمام (عليه السلام) لا يفوته ان يحتجَ لنفسه، بما يثبت الحق لها، فبعد ان قيل له إنَّ قريشاً احتجت لأولويتها بأنها من شجرة رسول الله (صلى الله عليه وآله) سارع فأبطل حجتهم قائلاً: ((**إِنْ كانَتْ الإمامَةُ في قُرَيشٍ، فأنا أَحَقُّ قُرَيْشٍ بها، وإنْ لا تَكُنْ في قُرَيشٍ فالأَنْصارُ على دَعْواهُم**)) (٢). ينحل الكلام بحسب القسمة العقلية الثنائية

(١) في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية،ص٢٦.

(٢) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٤٨.

إلى قسمين لأن أساس القسمة هو الإمامة، فإمّا ان تكون الإمامَة في قريش أو في غيرهم – ثُم يقسم طرف النفي (غيرهم) ليشمل الأنصار وسائر الناس. ثم إنّ هذين الطرفين يشتملان في حقيقة الأمر على قضيتين قياسهما مضمر، إذ طويت بعض مقدماته، فالقضية الأولى تنحل إلى:-

الإمامة (الخلافة) في قريش.

- أنا قرشي.
- أنا إمام (خليفة).

وتنحل القضية الثانية إلى:

- الإمامة لعوام الناس .
- الأنصار من عوامهم.
- الأنصاري (إمام) خليفة.وهكذا ابطلت دعواهم بدعوى مضادة ،ليتحقق بذلك جدل برهاني!

وإنما قال الإمام (عليه السلام) أنا احق قريش بها لأنّ بني هاشم من أوسط قريش نسباً وغيرهم ألحى وأبعد، وقد حُفّت هذه الخطبة بالاستدلال وهو ما أشار إليه محمود البستاني[1].

ومن الخطب السياسية التي ألمع فيها إلى ضياع الحق والتباسه بالباطل: **((حَقٌّ وَبَاطِلٌ وَلِكُلٍّ أَهْلٌ وَلَئِنْ أَمرَ الْبَاطِلُ لَقَدِيماً فَعَلَ وَلَئِنْ قَلَّ الحَقُّ، فَلَرُبَّما وَلَعَلَّ، وَلَقَلَّمَا أَدْبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ، وإني لأَخْشَى أَنْ تَكونوا فِي فَتْرَةٍ وَمَا عَلَيْنا إلاّ الإجْتِهاد، وَقَدْ كانَت أمورٌ مَضَتْ مِلْتُم فِيها مَيْلَةً كَانَتْ عَلَيْكُمُ ما كُنْتُمْ فيها عِنْدي بِمَحْمودينَ. أما إنّي لَوْ أشاءُ أن أَقُولَ لَقُلْتُ عَفا اللهُ عَمّا سَلَفَ. سَبَقَ الرَّجُلانِ وَقامَ الثالِثُ كالغُرابْ هِمْتُهُ بَطْنُهُ وَيْلَهُ لو قُصَّ جَناحاهُ وقُطِعَ رأْسُهُ لَكانَ خيراً لَهُ))**[2].

تمثل هذه الخطبة وحدة دلالية موجزة، قامت على أساس تقسيم كل مورد اختلاف إلى حق وباطل لذا انزاحت الواو العاطفة عن معناها الوظيفي القائم على الجمع والإشراك، وتكرّست للتفريق والتقسيم، وقد انعكس التكافؤ الدلالي[3] في تكرار مضمون المعنى بقوله (ولكل أهل) ، وقد ردّ الإمام كل صراع ناشب على ظهر الحياة إلى التنازع بين هذين القبيلين. وانعطف الكلام إلى اللوم والتبكيت في قوله (ملتم ميلة كانت عليكم...) ولكنه (عليه السلام) لم يمكث طويلاً عند عتبة الملام لئلا تتقطع حبال التنصت والإصغاء، لذا استرسل يشير إلى الفترة الماضية موجزاً الحديث عنها، واتخذ من الغراب رمزاً يستدل من ورائه على ان من ملأ المنصب قبله لم يشغله، بل بقي شاغراً، لما عرف عن الغراب من تتبع الأماكن التي هجرها ساكنوها، المقفرة من أهلها[4]، فثمة إيماءة إلى خلو

(١) ينظر: تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي ، ص٢١٤.

(٢) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٢٠٠.

(٣) يُنظر: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص١٤٨.

(٤) يُنظر: الحيوان، الجاحظ، ج٢، ص٣١٥.

مقام الخلافة من أهله، نعم، إشغال المقام بغير أهله لا يجعله آهلاً، ولا يسلبه صفة الخراب! وبذلك اختزل الإمام الفترة الماضية مسلطاً عليها الرؤية من خلال الحاضر الآني وعلى هذا البساط الواسع الذي غطى آماداً زمنية متلاحقة تمددت أبعاد الخطبة في انتقال سريع.

ومن خطبة له طويلة نسبياً سرد فيها وقائع الماضي وصولاً إلى الحاضر بعد مقدمة أشار فيها إلى الفتنة الحاضرة عبر الحديث عن الفتن الماضية، وأظهر هناك أن انقشاع تلك الفتن تحقق ببعثة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، ثم سرد ما جرى بعد وفاة الرسول على نحو موجز، لكنه وقف طويلاً عندما قدموا إليه مبايعين، ليلقي الحجة عليهم في نكث البيعة، فقال مفصّلاً: ((...**أتيْتُمُوني لتُبايعُوني، فقلتُ: لا حَاجَةَ لي في ذَلك، ودَخلتُ مَنزلِي، فاسْتَخْرَجْتُموني فقبضتُ يَدِيَ فبَسطتُموها، وتَداكَكْتُم عليَّ، حتّى ظَنَنْتُ أنكم قاتليَّ، وأنّ بَعضَكُم قَاتِلُ بَعْض، فبايعتُمُوني وأنَا غيرُ مَسْرُورٍ بِذلك ولا جَذِل. وقد علم اللّه سبحانه أنّي كنتُ كَارِهاً للحُكُومةِ، بين أُمّة محمّدٍ صلى الله عليه وآله ... حتى اجْتَمَعَ عليَّ مَلؤُكم**)) (١)، ذكر الإمام (عليه السلام) أدّق التفاصيل مذ جاءوه راغبين في أن يتولى أمورهم، وإعراضه (عليه السلام) عن إرادتهم، ثم أبان تزاحمهم عليه ذلك التزاحم الذي كاد يفضي من شدّته إلى قتله (عليه السلام) أو قتل بعضهم للبعض الآخر، وهو (عليه السلام) مع اشتداد رغبتهم، لم يزده ذلك جذلاً ولا سروراً، وقد صرّح (عليه السلام) بأن بعض من ورد عليه مبايعاً قرأ النكث والغدر في عينيه، ثم تلا بتفصيل سريع نتائج النكث والتنصل من البيعة التي أفضت إلى الحرب. فالانتقال من موضوع إلى آخر في خطب السياسة ، يكون سريعاً ويغطي مدداً متفاوتة طويلة المدى .

ومن الخطب السياسية التي قيلت على شفا حرب صفين: ((**أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَعَثْتُ مُقَدِّمَتي ، وَأمَرْتُهُمْ بِلُزُومِ هذَا الْمِلْطاطِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْري فَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَقْطَعَ هذِهِ النُّطْفَةَ إلى شِرْذِمَةٍ مِنْكُمْ ، مُوطِنِينَ بأَكْنَافِ دَجْلَةَ ، فَأُنْهِضَهُمْ مَعَكُمْ إلى أعداءِ اللّهِ ، وَأَجْعَلَهُمْ مِنْ أَمْدَادِ الْقُوَّةِ لَكُمْ إنْ شَاءَ اللّهُ. وَقَدْ أَمَّرْتُ عَلَى الْمِصْرِ عُقْبَةَ بْنَ عَمْرو الأَنْصَارِيَّ ، وَلَمْ آلُكُمْ وَلاَ نَفْسي . فَإيَّاكُمْ وَالتَّخَلُّفَ وَالتَّرَبُّصَ ، فَإنّي قَدْ خَلَّفْتُ مَالِكَ بْنَ حَبيبٍ الْيَرْبُوعِيَّ ، وَأَمَرْتُهُ أَنْ لا يَتْرُكَ مُتَخَلِّفاً إلاَّ أَلحَقَهُ بِكُمْ إنْ شَاءَ اللّهُ**)) (٢).

فالخطبة تكرّست للحرب والحديث عن خطتها، وقد ندبهم إلى القتال بمعية عقبة بن عمرو فالانتقالات سريعة مناسبة لأجواء القتال الوشيك والبناء متماسك تشدّه وحدة الغاية وآنية الهدف.

ومن الخطب التي قالها في سوح الحرب، قبيل نشوب القتال، بعد الحمد الذي أومأ فيه إلى علة احتدام القتال: ((**وَقَدْ ساقَتْنا وَهؤُلآءِ الْقَوْمَ الْأَقْدارُ حَتّى لَفَّتْ بَيْنَنا فى هذَا الْمَكَانِ ، فَنَحْنُ مِنْ رَبِّنا بِمَرْاًى وَمَسْمَعٍ ، فَلَوْ شآءَ لَعَجَّلَ النَّقِمَةَ ، وَلَكانَ مِنْهُ التَّغْيِيرُ ، حَتّى يُكَذِّبَ اللّهُ الظَّالِمَ ، وَيُعْلِمَ الْمُحِقَّ أيْنَ مَصيرُه ، وَلكِنَّهُ**

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٣٢٠-٣٢١.

(٢) م . ن، ج٢، ص٦٢-٦٣.

جَعَلَ الدُّنْيا دارَ الْأَعْمالِ ، وَ جَعَلَ الْآخِرَةَ دارَ الْجَزآءِ وَ الْقَرارِ لِيَجْزِيَ الَّذينَ اَسآؤُا بِما عَمِلوُا ، وَ يَجْزِيَ الَّذينَ اَحْسَنُوا بِالْحُسْنى))[1].

في الخطبة إيجاز يتناسب مع ظرف الحرب القادمة، فالتفاصيل مطوية، والكلام مرسل، ليس فيه إيقاع صوتي يُبطئ سرعته، فالدلالة تشير باقتضاب إلى أنَّ ثمّة طرفين سيشتبكان، وإنّ قوم الخطيب هم الطرف المظلوم بقرينة (فَنَحْنُ مِنْ رَبِّنا بِمَرْأى وَ مَسْمَعٍ) وبقوله (حَتّى يُكَذِّبَ اللَّهُ الظَّالِمَ)، ثم أوكل (عليه السلام) الفريقين لله سبحانه، فهو صاحب الجزاء في الآخرة، فالبناء في هذه الخطبة وشيج متلاحم والانتقال على الرغم من كونه تدريجياً إلا انه يشكل بنية واحدة.

وقد تُرصد الخطب السياسية من زاوية التواشج بين بنيتها الداخلية وما يفرضه السياق الخارجي، دون أن يعني مصطلح (بنية) الاحتفاء بالشكل دون المضمون لأنّ المضمون يتوارى خلف الشكل ويدل عليه، كالخطبة التي قيلت بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال (عليه السلام)((**الْحِلْمُ زَيْنٌ ، وَ التَّقْوى دينٌ ، وَ الْحُجَّةُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَالطَّرِيقُ الصِّرَاطُ**))[2]، يبدأ الكلام بسلسلة متراصّة من الجمل الاسمية ذات الحقائق الثابتة، أحْكَم نسجها وشد وثاقها حرف الواو كانت الجمل الاسمية أبدت استقراراً ظاهرياً، يخفي حركة كامنة لأن السياق الإخباري يستره الإنشاء، إذ أنّ المراد هو التحلي بالحلم والتقوى، والحلم يكون زيناً على شرط الاتصاف به ، والتقوى تقابل الفجور[3] ،وهي تشتمل على معنيين متغايرين قوامهما الكفّ عن الحرام وإيتاء الواجب ومجاهدة النفس بين هذين تشبه معنوياً الدائن الذي يلزم نفسه بتسديد دين يثقل عليه ويهم به، وبين الزين الذي يبهج النفس، فهو خفيف العبء ،والدين الذي هو نصب وعناء تباين وتعارض.

وإذ تسامى الخطاب في هذه النقطة انكسر الإيقاع الصوتي الرتيب، دون ان يمنع هذا من ان يدخل الكلام ضمن سلسلة صوتية متجانسة، إذ كل حرف يساوي دقة صوتية إيقاعية تتميز بوحدة الانطباع[4]، وقد أضفى القصر الإضافي على الصراط وحده ،خاصية الطريقية ونفاها عمّا عداه. ومن هذا الصراط انعطف مسار الخطبة.

((أَيُّهَا النَّاسُ ، شُقُّوا مُتَلاطِمَاتِ أَمْوَاجِ الْفِتَنِ بِمَجَارِي سُفُنِ النَّجَاةِ ، وعَرِّجُوا عَلى سَبِيلِ الْمُنَافَرَةِ ، وَحُطّوا تِيجَانَ الْمُفَاخَرَةِ ، أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَنَاحٍ ، أَوِ اسْتَسْلَمَ فَأَرَاحَ . مَاءٌ آجِنٌ ، وَ لُقْمَةٌ يَغَصُّ بِهَا آكِلُهَا ، وَ مُجْتَنِي الثَّمَرَةِ فِي غَيْرِ وَقْتِهَا كَالزَّارِعِ فِي غَيْرِ أَرْضِهِ . واللهِ لو أَقُولُ لَتَدَاخَلَتْ أَضْلاعٌ كَتَدَاخُلِ أَسْنانِ دَوّارَةِ الرّحى ، وَ إِنْ أَسْكُتْ يَقُولُوا :

---

(١) نهج السعادة ،في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص١٢٢-١٢٣.

(٢) م . ن. ، ج١، ص٥٣.

(٣) الشمس : ٨ ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾، و ص: ٢٨ ﴿. . .أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾

(٤) يُنظر: علم اللغة العام، ص١٥٧.

جَزِعَ ابْنُ أَبي طَالِبٍ مِنَ الْمَوْتِ ، هيهاتَ بَعْدَ اللُّتَيَّا وَ الَّتي . وَ اللَّهِ لَعَليٌّ آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ لكِنّي انْدَمَجْتُ عَلى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لاضْطَرَبْتُمْ اضْطِرَابَ الأَرْشِيَةِ فِي الطَّوِيِّ الْبَعيدَةِ)).

يستبطن الإمام (عليه السلام) نشوب الفتن في المجتمع المدني، وهذا يستلزم التحذير، وقد عدل عن الأمر المباشر إلى الأمر المجازي بقوله (شقّوا) فظاهر الكلمة هو التقسيم بحسب التعبير المعجمي أما بحسب المعنى المجازي، فتعني الجمع و رأب الصدع وهذا يؤكد شعرية اللغة التي تتأكد بقدر اتساع المسافة بين الدال والمدلول[١].

وفي الكلام ردّ على عمه العباس وعلى الزبير وأبي سفيان الذين عرضوا عليه التصدي للخلافة، فأبان لهم أن الوقت غير مناسب لعدم وجود الناصر، والاستسلام هنا فيه بعض الراحة، وأما اقتطاف الثمرة في غير وقتها فضرب به مثلاً رمزياً لكل ما لم يحن أوانه. وذِكْرُ اسمه هنا(لعلي) يعدّ مقوماً دلالياً فهو علم على القوة والشجاعة، وأشار إلى نفسه ثانية (جزع ابن أبي طالب) ليكون ثمة ترادف أشاري[٢] إذ كان المشار إليه واحداً في الحالتين، مع اختلاف المنهج في التعبير. فهذا الترادف بمثابة تكرار للمعنى وبهذا يتحقق تماسك معنوي.

ويلاحظ هنا تكور النص على نفسه، لأنه يغطي مساحة زمنية محددة لا تعدو المستقبل القريب، لأنّه (عليه السلام) ممنوع من الفعل قولاً كان أو عملاً؛ درءاً للفتن وتحسباً لوقوعها، وبذلك لا يتنامى الموضوع بمسار أفقي أو طولي لأن غايته تقف عند حدود التحذير.

وخطب اللوم أيضاً قد تلتف على نفسها ولا تتنامى، لأن بؤرة الموضوع هي العتب فحدود الخطبة محدودة به ولا تتعداه، كهذه الخطبة مثلاً: **((لاَ أَبَا لِغَيْرِكُمْ مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ وَ الْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ الْمَوْتَ خَيْرٌ مِنَ الذُّلِّ في هَذهِ الدُّنْيا لِغَيْرِ الحَقِّ، وَاللهِ إنْ جَاءَني المَوْتَ - وَلَيَأْتِيَنِّي فَلَيُفَرِّقَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَكُم - لتجدُنّنِي لصُحبَتِكُمْ قَالِياً ،ألا دِينٌ يَجْمَعُكُم ألا رحمة تَعِظكُم؟ ألا تَسمعُونَ بِعَدُوّكُم ينْتقِصُ بِلادكُمْ وَيَشُنُّ الغَارَةَ عَليكم؟))**[٣].

هذه الخطبة ترتكز على العتب، وقد بدأت بالدعاء الذي لا يخلو من تلطف (لا أبا لغيركم)، ثم بدأ بالعتب الذي لاحَت بوادره في المقدمة وقد بدا الإمام (عليه السلام) آيساً منهم حتى انه تمنى أن يلاقيَ الموت ليفرق بينه وبينهم، ثم قال: **((أَوَ لَيْسَ عَجَباً أَنَّ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو الْجُفَاةَ الطَّغَامَ الظَّلَمة، فيَتَّبِعُونَهُ عَلى غَيْرِ عَطَاءٍ وَلاَ مَعُونَةٍ!، فَيُجِيبُونَهُ فِي السَّنَةِ الْمَرَّةَ وَالْمَرَّتَيْنِ وَالثَّلاَثَ إِلى أَيِّ وَجْهٍ شَاءَ . ثُمَّ أَنَا أَدْعُوكُمْ ، وَأَنْتُمْ أُولُوا النُّهى، وَبَقِيَّةُ النَّاسِ، فتَخْتَلِفُونَ وَتَتَفَرَّقُونَ عَنّي، وَتَعْصُونَني وتَخالَفونَ عَلَيَّ)).**

---

(١) يُنظر: المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، عبد العزيز حمودة، ص٢٦٣.

(٢) ينظر: المعنى وظلال المعنى،أنظمة الدلالة في العربية، ص١٠٩، وقد بيّن هناك وحدة المشار إليه، مع اختلاف طريقة التعبير والمعنى.

(٣) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة ،ج٢، ص٣٨٨.

عقد هذا المقطع مقارنة بين قوم الإمام وبين الشاميين فأولئك يسعون إلى إجابة معاوية و اطاعته أما هؤلاء فيعصون الإمام ويخالفونه.

فالخطبة متماسكة البناء انحلت إلى موضوعين: لومٌ يتضمن تحريض على الحرب، ومقارنةُ قومه مع أهل الشام.لا تغطي الخطبة مساحة واسعة من الزمن، وإن كانت تشير إلى بعض الحوادث ضمناً. والأسف طابع استولى على الخطبة كاملاً ولفها بالسكون على الرغم من كثرة الأفعال ولاسيما في خاتمتها (ادعوكم، وتختلفون، وتفترقون، وتعصون، وتخالفون) فالخطبة لما كانت تدور حول محور واحد مماحدّ من فعالية هذه الأفعال.

وفي مجال التحريض على الحرب مع الخوارج قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : ((**أَيُّهَا النَّاسُ اسْتَعِدُّوا لِقِتَالِ عَدُوٍّ فِي جِهَادِهِمُ الْقُرْبَةُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَدَرْكُ الْوَسِيلَةِ عِنْدَه، قَوْمٌ حَيارى عَنِ الحَقِّ لا يُبْصِرونَهُ مُوزَعِينَ بِالجَوْرِ والظُّلْمِ لا يَعْدِلونَ بِه ، جُفاةٍ عَنِ الكِتابِ، نُكَبٍ عَنِ الدِّينِ، يَعْمَهونَ فِي الطُّغْيانِ، ويَتَسَكَّعُونَ فِي غَمْرَةِ الضَّلالِ،** ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾))[1].

فالخطبة تدور حول محور واحد هو التحريض على القتال وإثارة حماس الجنود، إذ ربطَت مجاهدة هؤلاءِ القوم (العدو) بالتزلف إلى الله سبحانه. وكان لذم العدو وبسط صفاته دور مهم في شحذ عواطفهم وهممهم ؛فالأعداء تائهون عن الحق يتقاسمهم الظلم والجور وقد أُخْتُزِل الاستعداد للقتال بالآية القرآنية التي تحرّض على الاستعداد لمناجزة العدو بالتأهب بالعدد والعدة، وقد رغّبهم (عليه السلام) بالقتال، إذ فرّ من معه من الجنود، ولم يبقَ معه في المعسكر إلا قليل منهم، وكانت الخطبة بعد رجوعه من الحرب، فلجأ إلى الإيجاز في مخاطبتهم، مذكّراً إياهم بجزيل الثواب، وأنهم يقاتلون عدوّاً ضالاً، لذلك تميزت هذه الخطبة بالوحدة العضوية ولم تتفرع ولم تطل وتركزت على غرض واحد. وهكذا اختلفت الخطب السياسية في بنائها، فمن خطبة له تتنامى بشكل طولي إلى أخرى تدور حول غرضها وتقف عنده. فلنوع الخطبة والمقام دور في طريقة تناميها أو وقوفها عند محور معين.

---

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة ،ج٢، ص٤٢٥-٤٢٦.

المبحث الثالث: خاتمة الخطب

خاتمة خطب التوحيد:

لم يولِ أرسطو الخاتمة أهمية كبيرة ولم يجعلها من أجزاء الخطبة المهيّمنِة، بل ذكرَ إمكانية التخلي عنها ((وفضلاً عن ذلك فأنّه لا توجد خاتمة في كل خطاب قضائي، مثلاً إذا كان الخطاب قصيراً أو إذا كان من السهل أن يُتذكر مادته ومحتواه: وفي هذا يحدث أن يحذف الإنسان الخاتمة حتى يتجنب التطويل...)) (١).

يفهم من كلام أرسطو المتقدم أن الحاجة إلى الخاتمة تكون لازمة إذا كان الخطاب طويلاً لا يسهل تذكره، فكأنها توجز المتقدم من الكلام وتلخصه. فإذا ما قصُر الخطاب وأمكن تذكر محتواه لم تعد الحاجة إليها لازمة.

ووجدتُ أن خطبة الإمام علي (عليه السلام) لا تحتفي كثيراً بالخاتمة، فغالباً ما تبقى الخطب ذات نسق مفتوح ، فمثلاً في أحدى الخطب التي أوقفت للتوحيد خلت الخطبة من أيةِ خاتمة تؤذن بانقطاع نسق الكلام. والإمام في غمرة وصفه لله سبحانه قال : **((كَانَ رَبّاً إِذْ لاَ مَرْبُوبَ وَ إِلَهاً إِذْ لاَ مَأْلُوهَ وَ عَالِماً إِذْ لاَ مَعْلُومَ وَ سَمِيعاً إِذْ لاَ مَسْمُوعَ))**(٢).ثم وقف عند هذا المستوى فلم يكمل إشعاراً بأن المحدود لا يحيط بغير المتناهي وغير المحدود .

ومثلها هذه الخطبة التي لم تُختم بما يُشعِر بانتهاء الكلام **((...لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَ لا تُحِيطُ بِهِ الْأَقْدارُ ، وَ لا تُقَدِّرُهُ الْعُقُولُ ، وَ لا تَقَعُ عَلَيْهِ الْأَوْهامُ))** (٣)، ومن كانت صفاته كهذه كيف يتسنى للكلام أن يسبر كنهه. ففي الكلام دواعي التعجيز عن الوصول إلى سر الخالق الأعظم، فالوقوف عند هذا الحد فيه تعجيز لهم!.

ويعد قوله في هذه الخطبة ((..تَعالى عَنْ ضَرْبِ الأَمْثالِ والصِّفاتِ المَخْلوقَةِ عُلُواً كَبيراً)) (٤) خاتمة مناسبة، لأنه بعد ان استغرق في ذكر صفاته تعالى في مجالات شتى ، يعد قوله (تعالى عن ضرب الأمثال والصفات)، عدولاً مناسباً عن الوصف فيستدعي التنزيه المتأخر سكوتاً عمّا كان يخوض فيه الإمام (عليه السلام) وهذه خاتمة مناسبة وإن لم تأخذ شكل الخاتمة النمطي المعتاد، وهذا من مواضع تلبس الخاتمة بالغرض واشتباكها فيه.

---

(١) الخطابة، ص٢٢٢.

(٢) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٥١٦-٥١٧.

(٣) م . ن، ج١، ص٥٦٢.

(٤) م . ن، ج١، ص٥٧٩.

ومن خطب التوحيد التي استقلت بخاتمة بيّنة لم تشتبك مع الغرض ولم تتداخل معه، قوله (عليه السلام): ((**عَصَمَنا اللهُ وإيّاكُمُ بالهُدى، واسْتَغْفِرُ اللهَ لي ولَكُم**)) [1]، وإشراك الحضور في الدعاء لهم بالهداية والتثبيت، والاستغفار، من دواعي المحبة والتواصل العاطفي بين الخطيب وجمهوره، ولاسيما انها خطبة طويلة.

ومن الخطب التي ختمت بنهاية حفّت بالتنزيه وأشارت إلى بلوغها المدى الأقصى من الكلام الذي يكتفى به عن غيره، قوله (عليه السلام) في خطبة طويلة: ((**بذلكَ أصِفُ رَبِّي فَلا إلهَ إلاّ هُوَ... مِنْ عَظيمٍ ما أعْظَمَهُ وجَليلٍ ما أجَلَّهُ، وَعَزيزٍ ما أعَزَّهُ، وتَعالى عمّا يَقُولُ الظّالِمونَ عُلُوّاً كَبيراً**)) [2].

فقوله (بذلك أصف ربّي) تصريح بأن الكلام استوفى مادته في هذا المقام، والتنزيه غاية القول في مجال وصفه وثنائه سبحانه وتعالى. وهذه الخطبة قالها وهو يحشد الناس إلى قتال الشاميين، فلم يصرفه هول الموقف عن ختمِ هذه الخطبة بما يناسبها.

ومما تقدم يتبين أن الخطب إذا استطالت في مقام وصفه سبحانه وتعالى فإنها تحظى بخاتمة توجز الكلام، كالتنزيه أو الدعاء والاستغفار، فمما ختمه بالتنزيه وقد استطالت الخطبة نوعاً قوله (عليه السلام): ((**فَتَعَالَى اللَّهُ الْعَلِيُّ الأَعْلَى عَالِمُ كُلِّ خَفِيَّةٍ، وَشَاهِدُ كُلِّ نَجْوى، لا كَمُشَاهَدَةِ شَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ . عَلا السَّمواتِ الْعُلى إلى الأَرَضينَ السُّفْلى ، وَأَحَاطَ بِجَميعِ الأَشْيَاءِ عِلْماً ، فَعَلاَ الَّذي دَنَا ، وَدَنَا الَّذي عَلا ، وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلى، وَالأَسْمَاءُ الْحُسْنى ، تَبَارَكَ وَتَعَالى**)) [3].

فهذه الخاتمة اندكت بالغرض؛ لأنّ التنزيه امتزج بالوصف، وقد تراصت معه بسبب من إعادة العنصر المعجمي (شاهد) بمادته، ومحتواه (شاهد – مشاهدة) والتركيب المتوازي ذي البنية المقلوبة[4]، (فعلا الذي دنا × ودنا الذي علا)، والمقابلة بين (السماوات العلى والأرضين السفلى) فهذا كله في مظان الخاتمة. وقد أشاد بعلو كعب أمير المؤمنين (عليه السلام) في هذا المضمار خصوصاً ابنَ أبي الاصبع المصري إذ قال ((... والمتقدم في جميع فنون البلاغة، وخصوصاً هذا النوع منها على بلغاء البدو والحضر، بل على جميع فصحاء البشر حاشا رسول الله (صلى الله عليه وآله) ابن عمه علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فمن خواتم كلامه...)) [5]، فقد بيّن أن الإمام علي (عليه السلام) هو الأبرع في مجال خواتم الكلام.

---

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٦٠٦-٦٠٧.

(٢) م . ن، ج٢، ص٢٧٨.

(٣) م . ن، ج٣، ص٣٣٧.

(٤) يُنظر: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص١٢١.

(٥) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ،ص٦١٧.

ومن الخطب التي استدل بها الإمام (عليه السلام) على وحدانية الله تعالى ،ثم ختمها بالتنزيه **((جَلَّ اللهُ تعالى عَنْ الظُّلْمِ والخُرُوجِ مِنَ الحِكْمَةِ في حَمْلِ خَلْقِهِ عَلى شتمِهِ والافْتِراعِ عَلَيْهِ تَعالى عُلُوّاً كَبيراً))**[1]، وهنا أصبحت جملة (تعالى علواً كبيراً) لازمة أطّرت بعض خواتم خطب التوحيد ووشتها بحلية الجَلال.

خاتمة الخطب الاجتماعية

تتميز الخطب الاجتماعية بتغاير موضوعاتها وتشعبها، وتتميز عن غيرها بالطول النسبي، لذا يُتوقع أن تختم هذه الخطب ولاسيما ما استطال منها بخاتمة مناسبة. فالخطب الخالية من الخاتمة، ربما لم تصل كاملة، كما في الخطبة التي قيلت في زواج بعض نساء بني عبد المطلب، إذ وقف الراوي عند التوصية بالتقوى، ولم يروِ الخطبة كاملة ليتسنى الوقوف على الخاتمة[2].

وفي خطبة أخرى في الموضوع نفسه أيضاً لم تكن الخطبة كاملة، فغمضت خاتمتها، إذ كان آخر ما قاله الراوي، ((ثمّ أنّ فلان بن فلان))[3].

وقد تخلو الخطبة من الخاتمة النمطية ، كالخطبة التي قالها الإمام عندما خطب السيدة فاطمة الزهراء إلى أبيها (صلى الله عليه وآله)، فالمقام لم يسع لخاتمة بيّنة فاستدعى ان يختم كلامه (عليه السلام) بقوله **((...وَقَدْ رَضيتُ بِذَلِكَ فأسْألُوهُ وأشْهَدوا))** [4].

ويراعي الإمام (عليه السلام) في الخاتمة كثيرا ذكر آية من القرآن، مع الدعاء والاستغفار؛ فالخاتمة ((...آخر ما يبقى في الأسماع، ولأنها ربما حفظت من دون سائر الكلام في غالب الأحوال فيجب أن يجتهِد في رشاقتها ونضجها وحلاوتها وجزالتها...)) [5].

فمن الخطب التي تميزت بجمال الخاتمة قوله في إحدى الخُطب: **((فَإنَّ العَامِلَ بِطاعَةِ اللهِ والحَاكِمَ بِحُكْمِ اللهِ لا وَحْشَةَ عَلَيْهِ أوْلَئِكَ الذينَ** ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ و ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ **ونَسْألُ اللهَ رَبّنا وإلهَنا أنْ يَجْعَلَنا وإيّاكُمْ مِنْ أهْلِ طَاعَتِهِ، وأنْ يَجْعَلَ رَغْبَتَنَا وَرَغْبَتَكُمْ فِيما عِنْدَهُ، أقولُ ما سَمِعْتُم واسْتَغْفِرُ اللهَ لِي ولَكُمْ))** [6].

---

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج٣، ص٢٠.

(٢) م . ن، ج٣، ص١٠٣.

(٣) م . ن، ج٣، ص١٠٦.

(٤) م . ن ، ج١، ص٢٦.

(٥) تحرير التحبير، في صناعة الشعر والنثر و بيان أعجاز القرآن ص٦١٦.

(٦) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٢٣٢.

هذه الخاتمَةُ تُشير عرضاً إلى موقف أمير المؤمنين (عليه السلام) إزاء هؤلاء القوم الذين رفضوا ان يُساوى بينهم وبين غيرهم بالفيء، فاحتج عليهم بهذه الخاتمة الموجزة – بأنه إنما يحكم فيه بحكمه تعالى، واستظهر عليهم محتجاً بالآية القرآنية – والآيات القرآنية من الحجج الجاهزة[١] – ثمّ ضم الحضور إلى نفسه في الدعاء لهم بمعية نفسه، وهذا من أواصر الارتباط القلبي والوجداني الذي يحمله الراعي في قلبه تجاه رعيته.

ومن الخواتم التي تصدى فيها لإصلاح النفوس وتهذيبها قوله (عليه السلام): ((...**وإنَّ وَراءَ ذَلِكَ جَنَّة عَرْضُها السَماواتُ والأَرْضُ أُعِدَّتْ للمُتّقينَ، أَجَارَنا اللهُ وإيّاكُمْ مَنَ العَذابِ الأَليمِ**)) [٢]. فالاستجارة من العذاب، وإشراك المخاطبين معه، من المضامين الراقية التي ختمت بها هذه الخُطب.

وقد يتعدى الدعاء الحضور إلى أمواتِهم الذين أسبغَ عليهم مفهومَ الإيمان((**اَللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنا وَلِلمُؤْمِنينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، الْاَحْياءِ مِنْهُمْ وَالْاَمْواتِ، الَّذينَ تَوَفَّيْتَهُمْ عَلى دينِكَ وَمِلَّةِ نَبِيِّكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاله.**

اَللَّهُمَّ تَقَبَّلْ حَسَناتِهِمْ، وَتَجاوَزْ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ، وَأَدْخِلْ عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةَ وَالْمَغْفِرَةَ وَالرِّضْوانَ، وَاغْفِرْ لِلْاَحْياءِ مِنَ الْمُؤْمِنينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، الَّذينَ وَحَّدُوكَ وَصَدَّقُوا رَسُولَكَ، وَتَمَسَّكُوا بِدينِكَ، وَعَمِلُوا بِفَرائِضِكَ، وَاقْتَدُوْا بِنَبِيِّكَ، وَسَنّوا سُنَّتَكَ، وَاَحَلُّوا حَلالَكَ، وَحَرَّمُوا حَرامَكَ، وَخافُوا عِقابَكَ، وَرَجَوْا ثَوابَكَ، وَوالَوْا اَوْلِياءَكَ، وَعادَوْا اَعْداءَكَ.

اَللَّهُمَّ اقْبَلْ حَسَناتِهِمْ، وَتَجاوَزْعَنْ سَيِّئاتِهِمْ، وَاَدْخِلْهُمْ بِرَحْمَتِكَ في عِبادِكَ الصَّالِحينَ، اِلهَ الْحَقِّ آمينَ.))[٣].

فقد تدرج الدعاء في مستويات مختلفة بدأت بطلب المغفرة لجميع المؤمنين والمؤمنات أحياءً وأمواتاً بأن يتقبل تعالى حسناتهم ويتجاوز عن سيئاتهم. مما يرسم صورة واضحة للراعي الذي يُهمَّ برعيته ويعنى بهم. فتأطرتْ الخاتمة بجمال اللفظ ورقي العاطفة وأشّرتْ علاقة فريدة ربما انعدم نظيرها في سمو المشاعر الرحيمة والرأفة التي تحلى بها الراعي إزاء رعيته.

وهذا يعني ارتباط الخاتمة بالطول النسبي فكلما استطالت الخطبة، تأكد وجود الخاتمة وازدانت جمالاً بها.

خاتمة خطب السياسة

للخطب السياسية حكم خاص، فهي غالباً ما تكون محفوفة بسياق قهري، يفرض موضوع الخطبة ومديات اتساعها وانغلاقها أو وقوفها عند سفح معين. ثمّ ان رواة أحاديثها غالباً ما

(١) يُنظر، في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، ص١٤٤.

(٢) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٣، ص١١٣.

(٣) م . ن ، ج٣، ص١٤٦

يتشبثون بالغرض، ويغضون النظر عما عدا ذلك لأهمية الغرض وخطورته، لذا تقل الخطب التي تشتمل على الخاتمة.

فمن الخطب التي وردت بلا خاتمة الخطبة الحادية عشرة فهو لم يختمها مبديا بذلك عدم رغبته في الحديث **((لكنّي انْدَمَجْتُ على مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لاضْطَرَبْتُمْ اضْطِرابَ الأَرْشِيَةِ في الطَّوِيِّ البَعيدَةِ))**(١)، فالخطبة خلت من الخاتمة، وبدا أنه (عليه السلام) يشعر باغتراب معهم، لذا أحجم عن القول لانخفاض سفوح افهامهم عن تلقف أفكاره.

لكن هذا لا يعني أن جميع الخطب السياسية خلت من الخاتمة، لأن الأحوال أحياناً كانت تسمح بها، ففي أول خطبة خطبها الإمام (عليه السلام) بعدما استخلف ختمها بقوله **((فاسْتَتِروا بِبيوتِكُمْ وأَصْلِحوا ذاتَ بَيْنِكُمْ وتَعاطوا الحقَّ بَيْنَكُم فَمَنْ أَبْرَزَ صَفْحَتَهُ مُعانِداً لِلّحقِّ هَلَكَ، والتَوْبَةَ مِنْ وَرائِكُمْ، أَقولُ قَوْلي هذا واسْتَغْفِرُ اللهَ لي وَلَكُم))**(٢).

فآخر ما اختتَمَ به كلامه (عليه السلام) هو أنّهُ أوصاهم بالاستتار في بيوتهم وإصلاح ذات بينهم أي أنه طلب منهم درء الفتن، والتعاون فيما بينهم، وحذّر مِنْ مخالفة الحق ثم قرنهم إلى نفسه في الاستغفار.

وفي خطبة قالها قبل وقعة الجمل وشكا فيها ممن ظَلَمه، قال في ختامها داعياً،مستنصراً ربه: **((اللّهُمّ إنّي أقْتَضيكَ وَعْدَكَ فإنَّكَ قُلْتَ وَقَوْلُكَ الحَقّ لِمَن بُغِيَ عَلَيْهِ ((لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ))اللّهُمَّ فأنْجِزْ لي مَوْعِدَكَ وَلَا تَكِلْني إلى نَفْسي إنّكَ على كُلِّ شَيءٍ قَدير))**(٣).

فقد خلص في آخر الخطبة للدعاء والتوكل وطلب النصرة منه تعالى، لأن المقام مقام الغلبة والاستنصار، فالمواءمة بين العَرَض والخاتمة قائمة .

وفي ختام خطبة قالها بعد وروده من البصرة إلى الكوفة **((ألاَ أنَّهُ قَدْ قَعَدَ عَنْ نُصْرَتي رِجالٌ مِنْكُمْ فَأنَا عَلَيْهِمْ عَاتِبٌ زارٍ، فاهْجُرُوهُم، وأسْمَعُوهُم مَا يَكْرَهُونَ حَتى يُعْتَبوا لِيُعْرَفَ بِذلِكَ حِزْبُ اللهِ عِنْدَ الفُرْقَةِ))**(٤).

إن مفاد هذه الخاتمة هو الأمرُ بالمَعْروفِ والنهي عن المنكر، وهذا يعني أن من قعد عن نُصرة الإمام (عليه السلام) خالف الحق؛ فاستحق ان يُسمع كلاماً غليظاً وأن يُهجر ليثوب إلى رشده !.

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٥٣-٥٤.

(٢) م . ن، ج١، ص٢٠٥.

(٣) م . ن، ج١، ص٢٧١-٢٧٢.

(٤) م . ن، ج١، ص٤٦٤-٤٦٥.

وقد اختزلتْ احدى الخطب، حالة جنوده معه (عليه السلام) بعد قتل محمد بن أبي بكر، فقد بلغوا الغاية من الخذلان ((... **ثُمَّ خَرَجَ إلي جُنيدٌ متذائبٌ ضَعيفٌ** ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾(الانفال/٦) **فَأُفٍ لَكُم**)) [١].

أبرزت هذه الخاتمة حال التخاذل التي ابرزتها الآية القرآنية وكان التذمر منهم (أفٍ لكم) يشير إلى ابرز حالات التقصير – وأشارت إلى استنفاذ القول معهم. وآذنت بانقطاع الكلام. فكانت هذه الخاتمة تشير إلى المقام.

وفي خاتمة إحدى الخطب التي تجهز فيها لقتال أهل الشام، ختمها بالآية القرآنية والتوكل على الله تعالى ((﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ **وتَوَكَّلوا عَلى اللهِ وكَفى بِاللهِ وَكيلاً**))[٢].

والختم بالآية القرآنية هو اعلى الخواتم شأناً، لازديان الخطبة بالجمال حينها، ولاسيما إذا قرن اليها التوكل عليه سبحانه !

وفي استنفار الناس للحرب، وتضجّره من عصيانهم قال معاتباً، ومتنبئاً بما سيحل عليهم من بعده ((**أما إنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي ذُلا شَامِلا وَسَيْفًا قَاطِعًا ، وَأَثَرَةً يَتَّخِذُهَا الظَّالِمُونَ فِيكُمْ سُنَّةً ، فَيُفَرِّقُ جَمَاعَتَكُمْ وَيُبْكِي عُيُونَكُمْ، وَيُدْخِلُ الْفَقْرَ بُيُوتَكُمْ، وَتَتَمَنَّوْنَ عَنْ قَلِيلٍ أَنَّكُمْ رَأَيْتُمُونِي فَنَصَرْتُمُونِي فَسَتَعْلَمُونَ حَقَّ مَا أَقُولُ لَكُمْ عَمَّا قَلِيلٍ، وَلا يُبْعِدُ اللَّهُ إِلا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ**)) [٣].

فقد ختم الخطاب بالعتاب، وأوجز موقفه منهم بالدعاء، (ولا يبعد الله إلا من ظلم) فهم بعدم طاعتهم يكونون من الظلمة الذين يشملهم الدعاء، فمن عصى هو مصداق لمن ظلم. وهنا بدأت العلاقة بين الإمام ورعيته تشوبها شوائب العصيان وعدم الطاعة، لذا كثيراً ما ختمت الخطب بما يدل على ذلك، فقال في خاتمة احدى الخطب التي حرضهم فيها على الجهاد وأبوا أن يطيعوه : ((**وَاللهِ لَوْلاَ رَجَائِي الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِهِمْ ــ لَوْ قَدْ حُمَّ لِي لِقَاؤُهُم ــ لَقَرَّبْتُ رِكَابِي ثُمَّ لَشَخَصْتُ عَنْكُمْ، فَلاَ أَطْلُبُكُمْ مَا اخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشِمَالٌ، فَوَاللهِ إِنَّ فِرَاقَكُم لَرَاحَةٌ لِلنَّفْسِ والبَدَنِ**))[٤].

هنا سكت الإمام عن الكلام، وتحقق الفراق المؤقت بهذا السكوت وتماهت الخاتمة مع السياق.

---

(١) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص٣٩١.

(٢) م . ن، ج٢، ص٤٢٦.

(٣) م . ن، ج٢، ص٤٧٢

(٤) م . ن، ج٢، ص٥١٠.

وفي مثل هذا الموقف دعا (عليه السلام) على قومه لما كثر تقاعسهم، فازداد سَخطاً عليهم فقال: **((اللّهُمّ إنّي قَدْ مَلَلْتُهُم وملُّوني، وَسَئِمْتُهُم وَسَئِمُوني فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ مَنْ هَوَ خَيْرٌ لي مِنْهُم، وأَبْدِلْهُم بي مَنْ هو شرٌ لَهُمْ مِني، اللّهُمَّ أمِثْ قُلُوبَهُم مِيْثَ المِلْحِ في الماءِ))**[1].

وبهذا قضى تمردهم وعصيانهم على العلاقة الإنسانية والعاطفية، وتحوّل الإمام (عليه السلام) من الرحمة بهم إلى الدعاء عليهم، وصارت خواتيم خطبه تصرح به دون مواربة ! كقوله في الدعاء على أهل الكوفة وقد انتدبهم للجهاد مراراً فطلبوا إليه أن يمهلهم حتى يذهب عنهم القُرُّ، فقال في خاتمة الخطبة التي أوقفها للعتب والشكوى **((اللّهُمَّ إنّي سَئِمْتُ الحَياةَ بَيْنَ ظَهْراني هَؤلاءِ القوم وتَبَرَمْتُ الأَمَلَ، فَأتِحْ لي صاحِبي حَتّى أسْتَريحَ مِنْهُم وَيَسْتَريحوا مِنْي، وَلَنْ يُفْلِحوا بَعْدي))** [2].

وبذلك تحولّت خواتم الخطب من الدعاء لهم، قارناً إيّاهُم بنفسه إلى الدعاء عليهم كارهاً للحياة معهُم متمنياً الموت وبذلك تقوضت اركان الودّ التي كانت بينهُ وبين رعيته فكلما بالغَ في النصيحة، بالغوا في العصيان، حملهم على ذلك أنه (عليه السلام) لا يتعدى عليهم ولا يحيف أو يجحف بهم،.ولكنه يملك الدعاء، فهو إمام مبايع، واجب الطاعة، ودعاؤه عليهم يكشف عن سخط أكيد، طبع خواتم خطبه! وهذا يعني ارتباط الخواتم بالسياق والمقام ارتباطاً مؤكداً، فإن وسع المقام للخاتمة، أزجاها بما ينسجم مع ذلك المقام فنمّت عن الرضا أو السخط أو الاستنصار الألهي.

(١) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص٥١٦-٥١٧.

(٢) م.ن.ج٢، ص٥٥٤- ٥٥٥

الفصل الثالث

الظواهر الأُسلوبية

مدخل: الأُسلوب:

ترتبط الأسلوبية باللسانيات ارتباطاً وثيقاً ؛لذا عرفت الأسلوبية بأنها ((علم يدرس اللغة ضمن نظام الخطاب))[١].

وإذا كان منهج تحليل الخطاب قد توسل باللسانيات للكشف عن آلية تشكل الخطاب ؛فإن إجلاء مظاهر الفن فيه، تمر عن طريق المنهج الأُسلوبي ذي الصلة الوثيقة باللسانيات.

ويرى ريفاتير بأن ((... الوقائع الأسلوبية ،من جهة لا يمكن ضبطها إلا داخل اللغة مادامت هي حاملتها،وينبغي من جهة أخرى ،ان يكون لهذه الوقائع طابع خاص ،وإلا فإنه لايمكن تمييزها عن الوقائع اللسانية .))[٢].

في ضوء ذلك سيسعى البحث إلى وصف اللغة الجمالية التي تحدث بها الإمام (عليه السلام) في خطبة وفق هذا المنظور.

قبل ذلك لابد من بيان الأسلوب لغة ومعنى.

الأسلوب لغة: ((... يقال للسطر من النخيل ...والأُسلوب الطريق والوجه والمذهب، يقال: انتم في أسلوب سُوءٍ، ويجمع أساليب، والأُسلوب الطريق تأخذ فيه، والأُسلوب بالضم، الفن، يقال أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه))[٣].

يبدو من خلال هذا النص أن كلمة أُسلوب قطعت شوطاً طويلاً تقلبت فيه ماهيتها بين أصل الوضع التعييني والتعيّني قبل أن تجد طريقها إلى المعجم، لذا جمع ابن منظور بين المفهوم المادي لكلمة أُسلوب والمفهوم المعنوي الذي كاد أن يستوي في قالب اصطلاحي . والمستخلص من هذا الجامع ان الأسلوب يشتمل على الإتساق والقصد، فسطر النخيل لا يكون سطراً إلا بعد قصد مسبق ينتوي ترتيب النخيل على نسق معين، وهذا نوع من الفن مقصود، وكذا الأخذ في طريق أو وجه أو مذهب لا يكون إلا عن قصد، وقد أوقع ابن منظور الأسلوب على كل فن، وبذلك أشرب المصطلح معنى الإبداع في مختلف المناحي الإنسانية، ومنه التفنن في القول .

ورمق الزمخشري هذا المعنى حينما عدل بالأسلوب من الطريق إلى الطريقة، وقصر الكلام في الأساليب على ما كان حسناً فهو يقول: ((... سلكت أسلوب فلان طريقته . وكلامه على أساليب حسنة))[٤]، وهذا يعني أن لفلان طريقة خاصة في الكلام، وأنها ربّما احتذيت.

---

(١) الأسلوبية وتحليل الخطاب، منذر عياشي، ص٢٧.

(٢) معايير تحليل الأسلوب،ميكائيل ريفاتير،ص١٧

(٣) لسان العرب، مادة (سلب). ج٣، ص٢٠٥٨

(٤) أساس البلاغة، ج١، ص٤٦٨.

وهذا يذكر بما شاع في العصر الحديث، من ان ((الأُسلوب هو من الإنسان عينه))[١]، فربط جوج بيفون بين كل إنسان وأسلوبه .

وعرّف أحمد مطلوب الشايب بأنه: ((...طريقة التفكير والتصوير والتعبير،)) [٢]، وهذا التعريف أيضاً يربط بين كل إنسان وطريقته في التعبير، وهو يتماهى مع التعريف السابق.

أما في الاصطلاح، فالغربيون لهم قصب السبق في ذلك، إذ عرّف مارزو الأسلوب بأنّه((...اختيار الكاتب لما من شأنه ان يخرج بالعبارة عن حيادها، وينقلها من درجتها الصفر إلى خطاب يتميز بنفسه)) [٣].

فقد حدد التعريفُ الأسلوبَ باختيار الكاتب، أي بطريقته، وجعل اشد المظاهر الأسلوبية متجسدة في الانزياح لأنه هو من يخرج بالعبارة عن حيادها.

وهذا لا يعني أن جميع ما يقوم به المنشئ من اختيار لابد أن يكون أسلوبيا فلا بد من التمييز بين نوعين من الاختيار، أحدهما محكوم بسياق المقام، والآخر اختيار نحوي[٤].

ويرى ريفايتر أن الأسلوب يعتمد على الأثر الذي يتركه الكلام في المتُقَبِل. وهذه الرؤية ترى أن الخطاب لا يستقل لوحده، فلابد من أنْ يمتلك بعداً تأثيرياً في السامع.

لذلك يرى عبد السلام المسدي بأن الأسلوب هو ((...توتر ذبذبي بين لذة التقبل وخيبة الإنتظار لدى القارئ))[٥]، وهكذا وضع الأسلوب على عاتق المتلقي، وصنف أبعاد الحدث اللغوي على ثلاثة أنحاء، البعد الدلالي والتعبيري والتأثيري[٦].

وهي الأبعاد ذاتها التي قال بها محمد عبد المطلب وربطها بفهم النص[٧]، والبعد التأثيري هو هدف مركزي من أهداف إلقاء الخطبة، لأن الغرض منها هو توجيه الجمهور وإرشاده واستمالته، وهذا لا يتصور في خطاب خال من معالم الجمال، الذي تندب الأسلوبية إلى التعرف عليها ودراستها ؛ لأنّ الأسلوبيةَ تتجاوز علة الحدث اللغوي إلى غايته التي لا تقتصر على الإبلاغ،

---

(١) إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، يوسف وغليسي، ص١٨٩-١٩٢ ، فقد بيّن المؤلف جملة مؤاخذات على ترجمة عبارة جورج بيفون، ورأى أنها لم تترجم كما ينبغي، وساق هذه الترجمة ورأى أنها الأمثل.

(٢) الأسلوب، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، أحمد الشايب، ص٤٥.

(٣) الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، ص٨١.

(٤)الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، سعد مصلوح، ص٣٨.

(٥) الأسلوبية والأسلوب، ص٦٧.

(٦) يُنظر، م . ن ، ص٣٨.

(٧) يُنظر،البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، ص٢١١ من المؤسف ان محمد عبد المطلب لم يُحلِ الكلام على عبد السلام المسدي في هذا المورد، ولم يردّ البضاعة إليه كما تقتضيه الأمانة العلمية ! .

فتدرس الخصائص اللغوية التي تشيح بوجهها عن السياق الإخباري ، متوجهة صوب الوظيفة التأثيرية والجمالية[١].

من هنا كان هدف البحث رصد الظواهر الأُسلوبية التي أكسبت الخطاب معالم جمالية اتسمت بها خطب الإمام (عليه السلام) !على الرغم من أنها نصوص نثرية، شفوية .وهاتان الخاصتان– كما يرى بعض الباحثين – تجردان النص من الشعرية، فجان كوهن يرى: أن الأسلوب إذا ما اعتبر انزياحاً فالفرق بين الشعر والنثر سيغدو كمياً لا نوعياً؛ لأن المائز بين النوعين هو كثرة الانزياحات.

ويشخص كوهن الأسلوب بوصفه خطاً مستقيماً، كل طرف فيه يمثل قطباً، احد القطبين وهو النثري خالٍ من الانزياح، أما الشعري فيصل فيه الانزياح إلى أقصى مدى[٢].

ويرى شكري عياد أنّ الانحراف في الأدب الشفوي أقل منه في الأدب المكتوب لاعتماد الأدب الشفوي على وسائل متعددة تجذب الانتباه[٣].

ونقل موسى ربابعة عن ريفاتير قصر الأسلوب الأدبي على الشكل المكتوب الفردي الذي قُصد أن يكون أدباً، دون الشفوي منه[٤].

هذه الآراء تُعرّض النص المُلْقَى شفوياً إلى امتحان صعب، لأنه بحسب هذه الافتراضات سيخلو من الأسلوب .

وخطب الإمام (عليه السلام) مرت بدورين، أحدهما شفوي تمثل في ساعة إلقائه، وثانيهما في تناقل الرواة له، وذلك قبل ان تشتمل عليه الكتب فيتحول إلى أدب مكتوب. والبحث سينظر للخطب بوصفها أدباً شفوياً، لأن الخطبة لا تتصور إلا في محفل.

ومحاكمة هذه الخطب ستتم بعرضها على الأسلوب الذي يمثل الانزياح أجلى مظاهره، فكلما كثرت نسبة الانزياح في هذه الخطب قياساً إلى العصر الذي قيلت فيه، يتبين حينها أن هذه النصوص تحمل طابعاً شعرياً، ولا يغض من قيمتها انها كانت في الأصل نثراً شفوياً.

فالأسلوبية تتيح فحص هذه الخطب وفق الأدوات والإمكانات التي توفرها منذ استوت علماً على يد شارل بالي، وتنوعت إلى اتجاهات متمايزة لعل أهمها الأسلوبية الأدبية والأسلوبية الوصفية

(١) يُنظر: الأسلوبية والأسلوب، ص٣٣.

(٢) يُنظر: بنية اللغة الشعرية، ص٢٣ .

(٣) يُنظر: اللغة والإبداع، مبادئ علم الأسلوب العربي، شكري محمد عياد، ص٨١ .

(٤) يُنظر: الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، موسى ربابعة، ص١٦.

والأسلوبية البنيوية والأسلوبية الإحصائية[1]،وهذه الأخيرة روّج لها سعد مصلوح على صعيد الوطن العربي.

والبحث سينظر في الخطب وفق الظواهر الأسلوبية التي شاعت فيها متجلية في مظاهر متعددة تمثلت بالانزياح والتكرار ،والتناص، وإرسال المثل.

(١) يُنظر: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، ص١٧٧.

المبحث الأول : الانـزياح

قبل أن اشرع في رصد ظواهر الانزياح، لابد أن اذكر انني لا انسجم مع المفاهيم المتنوعة التي سادت عنه، فقد رصد موسى ربابعة هذا المصطلح تحت مسمى (الانحراف) ورأى أن للنقاد الغربيين فيه تسميات مختلفة، كالتجاوز والفضيحة والشذوذ والانتهاك والجنون[١]... وأن للنقاد العرب مصطلحات صيروها مُقَابِلةً للمصطلح الغربي كالتشويه والتشويش والبعد والمجاز[٢].

ويرى جان كوهن أن الانزياح مادام يتحقق بالنسبة إلى معيار، فهو خطأ، وينقل قول برونو من أنه ((خطأ مقصود)) [٣].

وينقل عبد السلام المسدي رأيَ ج. مونان [٤] في وصم الأسلوب المحمل ببصمات الشحن تشويهاً. ورأي فونتانييه [٥] بأنه اضطراب، ورأيَ ريفاتير بأنه خرق [٦].

واسماه محمد عبد المطلب (فوضى) [٧]، وإن لم يصرح بأنه قاصد للإنزياح أو للانحراف ... إلى آخر هذه الاستعمالات التي تضع الإنزياح أبداً في مضيق التحلل والانتهاك والانحراف – ما شئت فقل – ولا أدري كيف تستطيع هذه المعاني المنفّرة، ان ترصد الأداء الجمالي وتتصدى لوصفه في النصوص الأدبية عموماً، فالانزياح بوصفه خللاً مثلاً يصلح ان يكون مؤشراً للغة الأطفال قبل ان يتعلموا العامية، ولغة الكبار قبل ان يُتقنوا الفصحى فهنا يحدث الانزياح عن المعيار الذي اسماه كوهن (خطأ) ولكن من منظار آخر .

أما ان توصم لغة أدبية يراد بيان معالمها الجمالية والتماس خواصها التعبيرية بـ(الانزياح) وهو حامل لتلك الأوصاف (أوصاف التحلل والانتهاك والتشويه...) فهذا مفهوم لا اتبناه .

إن المعنى المعجمي بسماته الفيزيائية التي تحيط بهذه الكلمة من دفع وتنحية ومباعدة وجذب وتحريك [٨] يصلح ان يُستعارَ مفهوماً لهذا المصطلح الشائع، فيكون الانزياح – على مستوى اللفظة مثلاً– هو: تنحية المعنى المعجمي عن اللفظة، وجذبها إلى حيّزٍ ثان(حيز جمالي) فتغدو

---

(١) يُنظر: الأسلوبية، مفاهيمها وتجلياتها، ص٤٤ .

(٢) يُنظر: م . ن، ص٤٥ .

(٣) يُنظر: بنية اللغة الشعرية، ص١٥ .

(٤) يُنظر: الأسلوبية والأسلوب، ص٣٦ .

(٥) يُنظر: م . ن، ص٨٠–٨١ .

(٦) م . ن، ص٨٢.

(٧) البلاغة والأسلوبية، ص٦٨ .

(٨) يُنظر: القاموس المحيط، ص٢١٦ مادة (زحّه) .

المحصلة هي تحريك اللفظة عن أصلها المعجمي والابتعاد بها إلى مكامن المجاز، فهناك تتكثف دلالتها، وتكتسب أبعاداً جمالية يفتقر إليها الأصل المعجمي، فالانزياح بهذا المعنى هو ما سأتبناه رؤية ومنطلقاً لرصد شتى أنواع الانزياح الدلالي، والتركيبي والإسنادي، لأنه تحرك في المعنى من الدلالة المباشرة إلى المعنى المجازي، وهو المسافة التي ينزاح اليها المعنى الجديد، متحركاً من المعنى المعياري الحيادي الذي اسماه مارزو (درجة الصفر)[١]، أو (اللغة البيضاء) [٢] كما اسماه رولان بارت، وضرب لها مثلاً بكتابة الصحفي... ووصفها بأنها كتابة بريئة[٣]. فالتحرك عن هذا المعيار هو انزياح بحسبهم.

ولست انسجم مع (الدرجة الصفر) أو (اللغة البيضاء) أو (الكتابة البريئة) لأنها ضمناً تحكي عن انعدام الدلالة ولا تفصح عن المراد، وعليه سيكون المعيار الذي اقترحه بحيث إذا تحرك عنه المعنى أصبح انزياحاً، هو التأويل، فكلُ ما كان بحاجة إلى التأويل فهو انزياح سواء أكان مجاله اللفظ أم كان فضاؤه المعنى.

لأني أرى أن لغة المجاز هي صنو اللغة المباشرة في الولادة، كلاهما قامت عنها الحاجة، إلا ان لغة المجاز اختص بها النوابغ والأفذاذ للتعبير عن مكنوناتهم، وتقف قبالتها لغة جمهرة الناس وعوامهم، الذين يستعملون لغة سهلة، لا تحتاج إلى تفسير، فغدت لغتهم المعيار لهذا السبب، لعدم حاجتها إلى تأويل، اما النوابغ والعباقرة، فهم لتنكبهم لغة العوام القاصرة عن الإلمام بمقتضيات مشاعرهم ولأنهم سلكوا نهج المتميزين،وصفت لغتهم بالانزياح، فالانزياح بلحاظ مرتكبيه مكون من عمليتين متتاليتين، إحداهما: سلبية وهي العدول عن لغة عوام الناس ،والثانية: ايجابية وهي اقتفاء إثر العباقرة .

لذلك لا أتفق مع من يرى أن الانزياح هو العدول ذاته[٤]، لأني أخال أن العدول هو احد شقي شقي عملية الانزياح المزدوجة، ويختلف عنه من ناحية ثانية، فهو يُلاحظ بالنسبة إلى ذات المبدع، فيقال عدل عن هذا التعبير إلى غيره. أما الانزياح فيلاحظ باعتباره عملاً أدبياً منجزاً، يعني مائدته هو الموضوع بصرف النظر عن المبدع – من وجهة نظري التي لا تلزم أحداً – و على هذا الأساس سأستخدم هذين المصطلحين في البحث .

---

(١) يُنظر: الأسلوبية والأسلوب، ص٨١ .

(٢) يُنظر: الكتابة في درجة الصفر، رولان بارت، ص١٠٠.

(٣) يُنظر: م . ن ، ص١٠١ .

(٤) يُنظر، الأسلوبية والأسلوب، ص١٢٤ ، يُنظر، الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، ص٤٥-٤٦ .

وسأتناول الانزياح من جانبيه: التركيبي، فيشمل حينئذٍ التقديمَ والتأخيرَ والفصلَ والحذفَ والالتفاتَ. والانزياح: الدلالي، ويدخل ضمنه انزياح الاسناد والتركيب الإضافي وما انزاح معناه لعدم ملاءمته السياق كالمجاز العقلي والمرسل والكناية التي لا ترسم صورةً، بل تؤشر تحركاً في المعنى إذ من المعلوم ان الصورة ((...البلاغية هي الوحدة اللسانية التي تشكل انزياحاً...)) [1]، لكن مجال رصد انزياحها يصب في مبحث الصورة الفنية ، لأن لها كيانها الخاص ووجودها المستقل. أما الانزياح الدلالي فسأرصده في مجال ما لو تنافر طرفا الإسناد أو طرفا التركيب الإضافي أو البياني أو البدلي ... أو ما تلاءم طرفاه، لكنه لم ينسجم معنى مع السياق، فلإعادة ذلك الانسجام لابد من تأشير الانزياح الحاصل، ثم إعادة تأويله، لينسجم المعنى مع السياق.

الانزياح التركيبي:

أ- المبتدأ المركب

وأول ظاهرة سأتناولها من هاتيك الظواهر، ظاهرة المبتدأ المركب وهي ظاهرة يمتزج فيها المبتدأ بالصفة أحياناً، فيغدو المبتدأ مركباً من صفة وموصوف، فبدلاً من أن ارجع الظاهرة إلى ما عرف نحوياً بالفصل بين المبتدأ والخبر بالصفة – وهو ما يتجاهل ضمناً تعطش المبتدأ إلى تلك الصفة؛ لأنه لا يستتم معنى إلا بها – فلأسمِها المبتدأ المركب من حيث انه في المعنى لا يستقل بنفسه ؛فتعوزه تلك الصفة. لأن تسمية وقوع الصفة بين المبتدأ والخبر فصلاً، يبتر وظيفة الصفة، إذ هي أحق لصوقاً بالمبتدأ من الخبر، فالمخبر انما أراد ان يخبر عن مبتدأ مخصوص، موسوم بصفة معينة، فلو لم يتصف بها لكان الإخبار سيكون عن شيء آخر، له بعض الصلة بما يرومه المخبر، ولربما لم يُرده المخبر ولم يقصد إليه.

ولا يعني ما أقوله الارتداد عن قول النحاة، والنكوص عن آرائهم، إذ لا تلازم حتمي بين الصفة والمبتدأ، بحيث يقتضي كل مبتدأ وصفا، ولكنه إن اقتضاه، فمعناه أن التركيب لازم، فلا يصار إلى القول بالفصل والخوض في جوازه أو عدمه، إذ الصفة هنا يتطلبها السياق فهي ليست أجنبية عنه بهذا اللحاظ، بل هي مطلوبة، والحاجة إليها ناجزة.

ولا يقتصر هذا على المبتدأ فقط، بل يشمل ما كان في حكمه، وتَزلزلَ مسماه نحوياً، كأسماء النواسخ ومفاعيلها، والمجرور برب. فمما يقع تحت العنوان، ويتمخض مصداقاً له، قوله (عليه السلام) ((...**إنَّ هذينِ الرّجلينِ الخَاطِئينِ اللذَيْنِ اخترتْموهُما حكمينِ...**))[2]، فالمبتدأ الذي استحال إلى اسم (إنّ) بحكم السياق الذي يفترض التوكيد، اكسب المبتدأ شكلاً ذا تركيب متشابك، لتعدد الصفة، التي من

(١) البلاغة والأسلوبية، نحو نموذج سيمائي لتحليل النص، هنريتش بليت، ص٦٦.

(٢) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص٢٧٢ .

بينها الاسم الموصول (اللذين) فهو قد أطال المبتدأ وزاده تلاحماً لما يتطلبه من جملة الصلة، فاستطالت المسافة بين المبتدأ والخبر بحكم صيرورة المبتدأ مركباً بيانياً[1]، متنوعاً بين البدل (الرجلين) والصفة (الخاطئين اللذين) فالكلام يستقيم لو لم تذكر هاتيك التوابع، ولكن البيان كان سيفتقر إليها، فأمير المؤمنين (عليه السلام) أراد ان يُنهي رأيه في الحكمين أولاً بمعزل عن نتائج الحكم. فكأن الخطاب، أراد أن ينوه بثلاثة أمور مجتمعة، لكن كل واحدة منها تنهض بجزء، فالغاية من الخطاب مركبة، تبتغي إيصال رأيه في مجمل عملية التحكيم، فلقد رام الإدلاء برأيه فيما يخص أصل هذين الحكمين، وإيقاع اللوم على المخاطبينَ الذين كانوا سبباً في اختيارهما، فكان لهم دخل غير مباشر فيما آلت إليه الأمور، ثم الإخبار عن النتيجة المتولدة من اختيار رجلين هذه صفاتهما (خاطئين) فهذه الصفة بالذات هي التي أدت إلى تلك النتيجة، ولما كانت هذه الصفة هي عماد شخصية الحكمين، فقد تعيّن ذكرها ؛لأن الخبر بشكل ما متوقف عليها وتوجب ذكر قيد وصفي ثان: وهو ان الناس الحضور هم الذين اختاروهما حكمين، وقد قصروا عندما غضوا النظر عن كونهما خاطئين لاحتواء شخصيتيهما على خصائص كانت ستنبئ عن هذه الصفة، لكن القوم تجاهلوها، وما كان ينبغي لهم أن يغفلوا هذه السمات ؛ إذ بوضعها في الحسبان ما كان لهم أن ينتخبوهما حكمين، أما وقد اختاروهما فلابد أن يحكما بغير ما حكم به تعالى، وهنا مظان دفع التهمة عن نفسه (عليه السلام)، فالمركب الوصفي إذن أمر مطلوب في نسيج المبتدأ، لأنه لا يريد ان يعلمهم ما يجهلونه، وإنما اشتمل الإخبار على نوع من المحاسبة والتبكيت فالأمر تجاوز الإخبار المحض، فلم يكن لاسم (ان) – الذي هو مبتدأ في منزلته الوظيفية – ان يتجرد عن هذين الوصفين، وإنما قُصد ان يكون بلحاظ تلبس الإخبار بهما .

وإذا كان الوصف الذي مرَّ هو اسم مفرد، فثمة وصف هو جملة ((**إنَّ للقلوبَ شواهدَ تُجري الأنفسَ عن مَدْرَجَةِ أهلِ التفريطِ...**)) [2]، تأخر هنا اسم إنَّ المقترن بالوصف، عن الخبر أو متعلقه – بحسب اختلاف النحاة – وهذه الجملة مستطيلة في أفقها التركيبي، فهي مكونة من خبر مقدم ،واسم إنَّ مؤخر، وجملة الصفة، فالجار والمجرور، ثم الإضافة المضاعفة[3]. أما من ناحية المعنى فهي تسلك سلماً عمودياً، تعرج فيه نحو مراقي الكمال، فالشواهد تشير إلى البصائر التي تخوف الأنفس وتمنعها من الانزلاق نحو مهاوي الردى التي عبر عنها بقوله (عليه السلام) ((**...مدرجة**

(١) يُنظر: نسيج النص، بحث في ما يكون به الملفوظ نصا،ص٢٦، إذ أسمى المؤلف هذا النوع من المركبات المؤلفة من النعت والمنعوت مركباً نعتياً، وما تألف من المبدل منه والبدل مركباً بدلياً.

(٢) نهج السعادة ، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٧٥ .

(٣) يُنظر: نسيج النص، ص٢٥ إذ يرى أنّ الكلام إذا تكون من أكثر من جملة واحدة فهو نص بسيط.

أهل التفريط...))[1]، كناية عن التقصير التراتيبي، إذ ينحدر المنغمس في المعصية إلى الهاوية في دركٍ متسافل، حتى يعز عليه النهوض، فلو اكتفى (عليه السلام) بكلمة (شواهد) ولم يجعل جملة الصفة صنواً تفسيرياً لها، لما أجزأ القصد، فكان لابد لهذه الصفة أن تتآلف مع الوصف فيتباريان معاً، لإيصال المعنى المراد.

ب-الخبر المركب

وربما تركب الخبر أيضاً كما تركب المبتدأ، لأنَّ الخبر المستقل لم يكن هو المطلوب، ولعله لا يفي بالإحاطة، لذا كان لابد من التركيب، فمثلاً في قوله (عليه السلام) **((كانَ إلهاً حياً، بلَا حَياةٍ...))** [2]، ارتبطتْ الصفة ارتباطَ ملاصقةٍ بخبر كان (إلهاً) فلو قال (كان إلهاً بلا حياة)، شاجباً الصفة (حياً) لانتقض الغرض وفات القصد من رأس، ولانعكس المراد، فمن حيث أراد ان يثبت لله حياة من غير الجهة التي تثبت بها للبشر وسائر الحيوان – وهي جهة اللزوم وعدم المفارقة، إذ حياته عين ذاته، لا صفة زائدة عليها– فلم يك بد من وصفه بالحياة أولاً لإثبات حياة له تغاير سائر الحياة لذا عمد إلى نفي ذلك الشبه باستعمال أسلوب النفي (بلا حياة) قاصداً عدم المشاكهة بين الحياتين .

وليتحقق هذا القصد لم يك مناص من الإتيان بالوصف (حياً) ليتراص مع الموصوف (إلهاً) ليكون بحكم الكلمة الواحدة دلالة، وإن انفكا نحوياً إلى كلمتين، وهكذا كان ضم الصفة إلى الخبر، مما يبتغيه المنشئ فهي سانحة مطلوبة رنَّقت طرفي الإسناد وجمعت بينهما في إطار واحد.

ومن شواهد الخبر المركب أيضاً، قوله **((الرَّغبةُ مفتَاحُ التعبِ..))** [3]، فمفتاح التعب مركب إضافي حاكته خيوط الاستعارة ليتوغل (عليه السلام) عبرها في مطاوي النصح، إذ مادام الإنسان في الحياة فستحوم حوله الشهوات، وستكتنفه الأماني والرغائب التي تفتح له باباً يدلف منه التعب، فالرغبة مؤطرة بسور الأمل الذي عسى أن يتحقق، وإلا امتزج آخر الأمر باليأس واستحال قنوطاً، فإن تحققت الأمنية، حلت محلها أخرى ، وهكذا دواليك تعبث به دوامة المُنى، فكلمة (مفتاح التعب) استطاعت أن ترسم صورة منفرة تمنع العقلاء من الخوض في دنيا الرغبات المستمرة.

ج-تعدد الخبر

وهنا صورة أخرى افرزها الإستقصاء هي تعدد الخبر حكماً أو حقيقة[4]، وأكثر ما يكون ذلك في خطب التوحيد ومحال النصح، فتراه يقول في مرابع الحث على الطاعة، متوخياً البخوع

---

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٧٥.

(٢) م.ن،ج١، ص٦١ .

(٣) م.ن، ج١، ص٧١ .

(٤) شرح ألفية ابن مالك، ابن الناظم، ص٥٢.

والإذعان ((**...وأحثُكُمْ عَلى طَاعَةِ اللهِ فإنها حبلٌ وثيقُ العُروةِ، ومَعقَلٌ مَنيعُ الذَّروةِ، لا يَرُومُ أهلُ المَعْصّيةِ نَيلَ مَرامِها، ولا يَهتدُونَ لإعلامِها ولا يُسددونَ لإلهامِها...**))(١)، فقد استعمل أسلوب تقاطر الخبر الذي تعدد حكماً، فالأخبار متنوعة في التشكيل النحوي والمحتوى المضموني، وقد جاءت في نسقٍ متوازن متوازٍ، لتزيد الموضوع تلاؤماً وانسجاماً، وقد ماز بين هذه الأخبار حرف العطف ليحدّ نهاية كل خبر، وليحكم عراه إلى سابق، وقد حتم ظهوره تعدد الخبر لفظاً ومعنىً، أما ما له الخبر فليس بمتعدد(٢)، فهذه الواو، عطفت جملة الخبر بعضها على بعض، فهذا دورها الوظيفي لكنها دلالياً لم تحجز بين الجمل وبين الغرض الذي أُنشأت لأجله، وهو الإخبار، فالواو فرضتها طبيعة اللغة، وطرحُها من الكلام يفتت أواصره، فكان لابد من استدعائها، فمعها لا يضر بقاء الخبر على حقيقته وإن تحول لسانياً إلى معطوف أو معطوف عليه – بحسب تعدد الخبر – .

وقد جاء الخبران الأولان في شطرين معتدلي القسمة، متناصفين في الميزان ليعكسا حقيقة ما عبرا عنه، فأبرزا الطاعة من حيث هي هي، غير مظروفة بواقعة زمانية أو مكانية، وليست مقرونة إلى القائمين بها ولا المعرضين عنها، فهي حبل وثيق عاصم منيف، والأسلوب قائم على التناصف المعنوي الذي حواه المجاز في الجملتين، فضلاً عن التوازن الايقاعي الذي يدل عليه تناغم الشطرين صوتياً إذ أختتم كل شطر منهما بالهاء، فإذا عمد عامد إلى التركيب ليفككه استوى لديه شطرين كلاهما عِدْل للآخر، مساوٍ له، فهما ينحلان إلى خبرين موصوفين، وقد اكتنفت الوصف الإضافة:

حبل وثيق العروة

معقل منيع الذروة

ولإن زادت كلمة (معقل) على كلمة (حبل) حرفاً واحداً فهذا لا يقوض النصفة فالحبل اقل حيزاً، فحظه من الحروف أقل، ولما كان الحبل عرضة للانقطاع، وكان المتمسك به نهباً لسوء الظن مخافة ان يحيف به فيتردى في مهاوي المعصية، وشّاه بما يقطع على المعترض أوهامه، إذ وصفه بوثاقة العروة، وقد تكفلت الصفة المشبهة بإلصاق الصفة بالموصوف، مادامت خالصة من الحدوث محلاة بالثبوت، فالحبل لا تنفصم عراه إذن، وهو لفظ دلَّ على ترتيب عمودي لا يعسر تحسسه، فالطاعة في مقام مشرف أعلى، دون قبيلها المعصية، فهي في محل ادنى، والاستمساك بحبل الطاعة ينتشل الإنسان من أدران المعصية، فثمة تقابل خفي بين مرتبتين أزاح الركام عنهما، لفظ (حبل) . ولا تختلف الجملة الثانية مفهوماً عن الجملة الأولى فالطاعة بما تستلزمه من حبس

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٣، ص١١.

(٢) شرح ألفية ابن مالك، ص٥٢.

النفس عن المعصية والغوص في لجج الهوى، وما يستدعيه الالتذاذ من مزيد من الانغماس والانهماك في مردياته، كان لابد من عاصم، يدرأ عنها منافع الشهوات و(معقل) يسكن فورات النفس ويحبسها على الطاعة، فراراً من الجري وراء سكرات المُنى، ولما وصف هذا بأنه (منيع الذروة) أمكن تخيل هذا المعقل شامخاً يشير ضمناً إلى علو الطاعة مكاناً وتسافل المعصية، فهم في منتأى عنها وهم لتخبطهم في قاع التمرد، لا يخطر في بالهم أن يحاولوها، فضلاً عن الوصول إليها، لذا عسر عليهم وهم في معترك التأبي عن الامتثال أن يهتدوا لصواها، وأن يشيموا بوارقها، ولا أن يُلهموا وحيها، لذا فالطاعة في شأوها البعيد، لا يدركها العاصون . لقد أكدت غفلتهم عنها صيغ النفي التي سبقت كل فعل، فقد بينت انكفاءهم عن الطاعة، وانقلابهم عن جادتها، وأشادت بعلو منزلتها، وأبرزت هذه الألفاظ (نيل مرامها و، وإعلامها، وإلهامها) مرتبتها القاصية، أما الأفعال الحافة بهذه الكلمات مع صيغة النفي فقد حازت بينهم وبين بلوغ هذا المقام، وهكذا انصبت الجمل المردوفة بالعطف في جدول الإخبار عن الطاعة إغراءً بها وترغيباً فيها.

وثمة أخبار تتنوع في تعددها ((...**إنّ الدُّنيا حُلْوةٌ، خَضِرَةٌ، تَفْتِنُ النّاسَ بالشّهواتِ، وتُزَيِّنَ لَهُمْ بِعاجِلِها...**)) [1]، فهنا تعدد الخبر حكماً، وقد تنوع بين الإفراد والجملة، وعندما يُتوغَل في مناحي الحديث عنها إلى شعاب آخر، تتعقد أطراف الجمل أكثر ((...**أنها لتغُرُّ مَن أمّلها وتُخْلِفُ من رَجاها وستورثُ أقواماً النّدامةَ والحَسْرةَ بإقبالِهم عَليها، وتَنافسِهِمْ...**))، فبعد ان كان الخبر عن الدنيا خالصاً عنها، انعطف به الكلام إلى الحديث عن أهلها هذه المرة في تخلص تدريجي، كانت وسيلته العطف، وقريب من هذا شبهاً في الشكل والمحتوى قوله في ذم الدنيا ((...**انّ الدّنيا خَدّاعَة صرّاعَة ،مَكّارَة، غَرّارَة، سَحّارَة، أنهارُها لامِعَةٌ وَثَمَراتُها يَانِعَةٌ، ظاهرُها سرورٌ وَباطِنُها غُرُورٌ تَأكُلُكُم بأضراسِ المَنايا وَتُبيرُكُم بأتْلافِ الرّزَايا..**))[2]، فقد تنوع الخبر، وازدان بأشكال مختلفة، استهلها أولاً بخمس من صيغ المبالغة المتحررات من قيد العطف؛ لتعدد الخبر حكماً، فاصطففن في مرتكز الإكثار الذي ازداد حتى صار شيئاً مرتسخاً شكل السمات البارزة للدنيا، وقد جمعهن معنى الهيمنة على العقل وتغييبه بطرقٍ تتفتق عنها أكمام الحيلة، فالمقابل لا يملك إلا أن يكون مخدوعاً، مصروعاً، ممكوراً به، مغتراً، مسحوراً، ففي هذه الكلمات تظهر دلائل احتجاب الذهن والضرب على العقل في حركة خاطفة سريعة، لكنها مضاعفة تخلب اللب، فيغفل المرء معها عمّا يحاك له، لعدم امتناعه عن الدنيا. وقد تواردت الكلمات في نسقٍ متساوٍ تجلت به كل مفردة موازية للأخرى معنى ووزناً، قبل ان يظهر شيئاً من مغرياتها، حيث يقول: (أنهارها لامعة وثمارها يانعة)، وهذا الخطاب يمكن ان

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٣٩٤ .

(٢) م.ن ،ج١، ص٦٣٢.

يُحمل على ظاهر معناه، فتكون الأنهار والثمار مثلاً لكل لذة محسوسة، لذا قفاهما بالنعت المُحسِّن لأوصافهما، فالمقام مقام افتتان واغترار، فلابد إذن مما يُبهر النفوس ويستهويها، فلما كانت لامعة استدرجت واستغوت ،ومثلها الثمار فهي إذا كانت يانعة استطيبت وصارت مطلوبة، فهما بذلك أسباب جذب، ومسببات صراع وتناشب. على ان ذلك لا يمنع ان يكون التعبير كنائياً فيندرج كل مستلذ تحت نطاقه معنوياً كان ام مادياً، عندها لا يكون الخبر فردياً، بل يستوي جملتين مصفودتين إلى بعضهما بحرف العطف، ليتلازما معنًى وتركيباً، وهكذا اردفهما بمثلهما من الخبر المركب المعطوف (...ظاهرها سرور وباطنها غرور...)، هنا أيضاً اثبت الخبران حالين متغايرين للدنيا هو مظهرها الذي يُنبئ عن حالٍ تخالف مضمرها، وإذا كان الخبران هنا جملاً أسمية توطّدان حال الدنيا وتبقيانه دائماً على ثباته، فقد غب ذلك خبران، هما جملتان فعليتان ،تضفيان الحركة التي تعكس الوجه القاسي للدنيا المكتنف بالمصائب والمهالك، بينا يُبرز الجانب الآخر الوجه المترف الناعم الذي ساق لأجله جملاً اسمية ثابتة، إذ النفس مشغوفة به ، حتى لتنسى المكاره والمصاعب، فكان لابد من قطع سكرة النفس وذهولها بهاتين الجملتين الفعليتين . فهذا التنوع في الأخبار ضرورة فرضتها مزيات الحياة الدنيا، فالموضوع متشعب الاطراف، مختلف المحاور، بحيث يتحكم في تعداد الخبر، فيتخير المرسل منها ما يكون سبباً لإستقصاء جوانبه التي بها يتوصل إلى تغطية الموضوع من جميع جهاته.

وهذه النماذج التي اخترتها من تعدد الخبر، أمثلة ظاهرة تستحق الرصد وتربو على العد. وهي تستشري في خطب التوحيد، كقوله (عليه السلام): ((**...هو المَلِكُ السَلامُ المصُوّرُ العَلّامُ الحاكمُ الوَدُودُ المُطهّرُ الطَاهِرُ، المَحمُودُ أمْرُهُ، المَعْمُورُ حَرَمُهُ، المَأمُولُ كَرَمُهُ...**))[1].

وبعض هذه الأسماء ولاسيما الأولى منها هي من لوازم الربوبية، يستقل بها تعالى ولا يشاركه فيها غيره، وهي تستدعي اختصاصه تعالى بالربوبية واستحقاق العبادة[2].

ولما عزَّ وصفه تعالى حشد الأخبار لتدل عليه مستعيناً بالقرآن في ايراد بعضها (كالملك والسلام والمصور[3] والودود[4] والعلام[5]).

---

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص١١٠.

(٢) يُنظر: الميزان في تفسير القرآن، ج١٩، ص٢٣١.

(٣) الحشر، ٢٣ ، ٢٤.

(٤) البروج، ١٤ .

(٥) يُنظر مثلاً، المائدة، ١٠٩ ؛ التوبة، ٧٨ ؛ سبأ، ٤٨.

د-المركب الإضافي

وليس التركيب البياني هو الصورة الوحيدة للمبتدأ المركب، فمن أفنانه المركب الإضافي الذي قد يقصد منه التخصيص[١] أو الاحتراز، أو بيان الملك وسواها من الأغراض التي يرومها المخاطب.

والمركب الإضافي أكثر تماسكاً من المركب البياني، فكلماته اشد افتقاراً إلى بعضها لأن الكلمة الواحدة لا تنهض بعبء الابتداء ما لم تسند إلى قرينتها، وقد عبر النحاة عنها بأنهما على صعيد التركيب كلمة واحدة. لذا لا غرو إن كانا على مستوى المعنى كلمة واحدة بالفعل، وإن كانت متشظية بالقوة، فالالتحام بينهما قهري. تستدعيه الضرورة اللغوية والتعبيرية معاً، ومن أمثلة المبتدأ المضاف ، قوله ((**كُفْرُ النِّعمةِ لُؤمٌ، وَصُحبةِ الجَاهِلِ شُؤْمٌ...**)) [٢]، فـ(كفر النعمة) مبتدأ مضاف، قصد به تعيين نوع الكفر، فالكفر أنواع منه كفر عقيدة وكفر عمل وكفر نعمة، وسواه من أنواعه التي يبقى معه الإنسان على إسلامه، دون كفر الجحود. فكفر النعمة هنا أشبه ما يكون فعلاً وجدانياً، يصدر عن المرء المسلم فتتبعث عنه افعال تترجم هذا الشعور، فيتلمس منه آثار هذا الكفر الذي قد يتجلى بالسفه والتبذير وهما عملان خارجيان، أو بعدم شكر المنعم وهو فعل قلبي. فلربما كانت لفظة (النعمة) قيداً احترازياً ينماز به نوع فاعل الكفر فيتعين بهذا الاحتراز ان الشخص المشار إليه مسلم، فلو قال الكفر شؤم، لتغير الموضوع، ولطرق باباً آخر لم يكن مأمولاً . ومثل هذا ضم كلمة الجاهل إلى صحبة، فهي تفردها عن كل صحبة سواها، لأن ما ينتج عنها يكون شؤماً، ذلك ان الجاهل يقود صاحبه إلى متاهات تضر بالصحبة، فتتفكك اواصرها وتنحل عراها، فلا تعود صحبة أصلاً، وربما انقلبت إلى عداوة. من هنا كان هذا القيد لازماً، فكأن الجملة لا تتبلور إلا بهذا القيد فتدخل به في محيط التحذير والنصح، للاحتراس من هكذا صحبة.

وضمن هذا الإطار في موارد إضافة الصفة إلى الموصول، قوله: ((**أعْجَبُ مَا فِي الانْسانِ قلبُهُ...**)) [٣]، فالجملة في التركيب كسالفتها، تمتد على بساط التعبير الأفقي، فيتصافق المبتدأ مع الإضافة ليقررا حقيقة الإعجاز في خلق الإنسان، وهو اعجاز تتغاير مراتبه، فيفوقها معنوياً القلب، ولربما قصدت الجملة إلى خِلْقة الإنسان المادية، فتُشكِل تصريحاً بالإعجاب من جهة التشريع، وهو إعجاب ينعقد من طرف خفي، لما في كلمة (أعجب) من إطلاق يستوعب المفهومين المحسوس

---

(١) يُنظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ابن عقيل، ج٣، ص٤١ ، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ابن هشام الأنصاري، ج٣، ص٨٧.

(٢) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٧٧.

(٣) م . ن،ج١، ص٧٤.

والمجرد. ولما كان إثبات الإعجاز المادي غير متيسر، أبدى لهم في باقي الخبر صفحة من الإعجاز المعنوي، وقد كان المقام مقام نصح، وهكذا كان تركيب المبتدأ عوناً للمتكلم، ليفصح عن تنوّف في المعنى مست إليه الحاجة، ولولا هذا التزيد لقصر المبتدأ المفردِ عن ابلاغ تمام المعنى المراد، فمثلاً لو تجرد اسم ليس عن صفته في هذا الشاهد **((ليسَ لهُ صِفةٌ تُنالُ))** [(١)]، لكان النفي قد تسرب إلى كامل الصفات :الموهومة منها التي تتخيلها الأذهان توهماً، والحقيقية :التي يمكن للعقول ان تُدرك معناها، فهو سبحانه صفاته عين ذاته، لأنه لا يوصف البتة، وهذا ما تمخضت عنه جملة الصفة (تنال) من معنى، فالتركيب لم يؤتَ به لغاية كمالية كالتزيين مثلاً، أو تعديل القسمة، بل هو جزء لا يتجزأ من إظهار المعنى.

هـ-ازدواج الإضافة

ومن مظاهر الأسلوب التي ولدتها ظاهرة الإستقصاء (ازدواج الإضافة) وهي ظاهرة مؤداها استطالة النمط الأفقي لاستيفاء المادة المطروحة، والإلمام بجوانبها المتفرقة، وتكثر هذه الظاهرة في خطب التوحيد، لخصوصية المطلب كقوله (عليه السلام) :**((...مُحَرّمٌ عَلَى بَوَارِعِ ثَاقِبَاتِ الفِطَنِ تَحْدِيدُهُ، وعلى عوامِقِ ثاقباتِ الفكرِ تكييفُهُ، وعَلى غَوَائِصِ سابحاتِ الفِطَرِ تصويرُهُ...))**[(٢)]، فالإضافة هنا مزدوجة، وقد قطعتْ حبل الجوار بين المبتدأ الظاهر وخبره في الجملة الأولى . والمبتدأ المحذوف وخبره في باقي الجملتين. وقد صُبّت هذه الإضافات في قالب متشابه وزناً وتركيباً، متجانس دلالة ومعنى. إذ تبدأ كل إضافة بجمع تكسير مضاف إلى جمع مؤنث سالم، ثم يضاف إلى جمع تكسير محلى بـ(أل)، لتتوقف الإضافة به، وتكرار هذا التركيب يولد إيقاعاً متواتراً، تذكية امتدادات التاء في لفظة (ثاقبات) المكررة مرتين، وفي (سابحات) والمراوحة بين العين والغين في (بوارع، عوامق، غوائص) وقد دلَّ الجمع المتكرر على عمق الحاجز بينه تعالى وبين مداليل العقول في الوصول إليه. وأياً كانت التعبيرات المستعملة الدالة على العقل، فقد تنوعت لتدل على شدة العجز (الفطن، الفكر، الفطر) وهنا تقيلت الحروف بعضها إثر بعض في الترتب والدلالة أيضاً لتحمل جميعاً معنى التفطن والنبوغ، ومع ذلك فقد سامها العجز، ولم تقدر على سبر أغوار كنهه مع انها بوارع ثاقبات الفطن، وعوامق ثاقبات التفكير، وغوائص سابحات الفطن، فحبك كل إضافة مع الأخرى مع قوة ارتباطها بالعطف، وانسجامها في النسق تضفي قدرة دلالية مفترضة حال بينها وبين استوائها قائمة على قيد الوجود، امتناع موضوعها – الذات الإلهية – عن إمكانية الوصول إليه كائنة ما كانت الحيلة، وهي هنا أقصى ما تستطيعه ثاقبات الفكر وسابحاته وغوائصه، فكل تلك الدلالات المشيرة

---

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة ج١، ص١٣٩ .

(٢) م . ن، ج١، ص٥٨١.

إلى التعمق، انحازت عن الإفضاء إليه.ومما يشابه تلك الإضافة معنى ويشاكهها سياقاً، قوله: **((...وحارَدونَ مَلكُوتُه عميقاتُ مذاهبِ التفكيرِ...))** [1]، فهنا تغير التركيب، وتقدم جمع المؤنث على جمع التكسير الذي جاء بصيغته منتهى الجموع – كما في الإضافات السابقات – ليدل على نهاية القصور ومنتهى الكلالة، فإذا كانت مذاهب التفكير بشتى حيلها قد استعصى عليها سبر أغوار عالم الملكوت وظلت تدوم في عجلة الحيرة، فبأي حيلة يُتوصل إليه تعالى!؟ فبهذا اغلق باب الاجتهاد دون بلوغ الغاية إلى معرفته **((...ارْتفعَ عَنْ أنْ تَحْوِي كُنْهَ عظمتِهِ فهاهاتُ رويَّاتِ المُتَفكرينَ...))**[2]، فهناك ارتدت سامقات الأفكار إلى التلكؤ والعجز والعي، وهو ما عبر عنه بـ(فهاهات) فهو ليس إعياء واحد فيتدارك بما يمحوه، وإنما هو إعياء أثر آخر. ومثله في إضاعة الطريق لمن رام الوصول إليه حسياً، قوله **((...قدْ ضَلّتِ العُقولُ في تيارِ أمواجِ إدْراكِهِ، وتحيرتِ الأوهامُ عن إحاطةِ ذكرِ أزليتهِ وَحَصُرَتِ الأفهامُ عن استشعارِ وصفِ قدرتِهِ، وغَرقَتِ الأذهانُ في لُجِجِ أفْلاكِ ملكوتِهِ...))**[3]، فهاهنا تضاعفت الإضافة في : (تيار أمواج إدراكه)، فثمة ثلاث كلمات متلابية، يأخذ بعضها في إثر الآخر على نحو الإضافة، وقد ختمت بالضمير الذي يعود على الذات المقدسة . وتعانقت هذه الإضافات لترسم صور الاضطرابات والتلجلج الذي يعتري العقول التي تحاول إدراكه، إذ يحول بينها وبينه تعالى تيار الحيرة الذي يعبث بها فيتركها تدور في لجة لا تنتهي، لذا بقيت في محيط الدَهش والتعجب لا تريم، وهذا غاية ما تحصل عليه الأوهام، والأوهام هي الكلمة التي يرددها الإمام (عليه السلام) كثيراً في مقام التوحيد، دالاً بها على أقصى الحيلولة بين الذهن البشري ومحاولة معالجة مفردة من صفاته سبحانه، كعلاقته تعالى بالزمن، وانه لا يحتويه، فلا حدَّ له في البدء والمنتهى، وكلما حاول الذهن الإنساني ذلك ارتد وهماً، وهنا تضاعفت الإضافة أيضاً (احاطة ذكر أزليته) فالعقل الذي آض وهماً، إنما حصل له ذلك في مقام تحصيل مفهوم الازلية التي هي أعلى مناطاً وأشد بعداً من مجرد (الذكر) فهذه الكلمات المضافات معقودات للكشف عن عمق الحيرة، فمآلهن واحد، ومن هنا كانت الإضافة تُعد كلمة واحدة فهي تملأ المحور الاستبدالي، وهذه هي المهمة الثانية، فالتقاطع بين المحورين الأفقي والعمودي يجلي وظيفة الإضافة التي هي في حقيقتها الفعلية مركب في قوة الكلمة. وهكذا كان توالي الإضافة سبباً للإفصاح عن معاني التوحيد (...وحصرت الأفهام عن استشعار وصف قدرته...)، فالاستشعار الذي بني على صيغة استفعل الدالة على الطلب هو أدنى ما يرجوه الطالب الملحف، ومع ذلك هو ممنوع على الذات الطالبة

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،في ج١، ص٥٧٨.

(٢) م . ن، ج١، ص٦١١.

(٣) م . ن، ج١، ص٥٨٢.

؛لعجز استجد فيها، فالكلمة تُشعر بالطلب الحثيث لكنها منعت منه ؛ لأنها تطلب الاستعلام عن قدرة فائقة لا يقوم لها الفهم الإنساني، وهكذا تتواتر المعاني حتى تنغلق دائرة العجز على المعنى الأخير الذي ينضوي في دلالته على المعنى ذاته الذي تشتمل عليه الجملة الأولى، فيعود الكلام ليقرر أخرى،حقيقة التيه عند التفكر بما لا تستطيعه الألباب (وغرقت الأذهان في لجج أفلاك ملكوته) فهذه تؤكد منظور التيه الذي جذب كل هذه الإضافات نحو مركزه، وهذه الإضافة الأخيرة (لجج أفلاك ملكوته) تناظر الإضافة في الجملة الأولى (تيار أمواج إدراكه) لتقررا عجزاً لا مناص منه أمام السر الالهي المتعدد المحاور الذي لا يقوم له سائر البشر.

ومن الإضافات التي تدل على تَعالي الذات الإلهية واستطالتِها، ساطية على مظاهر الكون في تجلياته الظاهرة، وثناياه الخبيئة ((...**فلمْ يَعْزُبْ عَنْهُ خَفياتُ غيوبِ المَدَى، ولَا غَامِض سرائِرِ مَكنُونِ الدُّجى...**)) [1]، فهنا تتعاضد الاضافتان ،يواصل بينهما حرف العطف ليبينا المديات التي تطالها الذات الإلهية، فيو تمتد في مطاوي الغيب، وثنايا الملكوت، وقد استطالت الإضافة في الجملة الثانية لتدل على ما هو أكثر من اتساع مديات القدرة، لتمتد في الغامض المظلم التي يعسر عادة على المخلوقين. وهكذا استطاعت الإضافة المزدوجة والمتتالية التي تستطيل في خطب التوحيد ان تبين أمرين هما قدرة الخالق اللامتناهية في الاطلاع على مكنونات الغيب، وعجز المخلوق الذي لا ينفك عن التخبط والوله في مقام استشعار بوادر الاقتدار الإلهي .

وثمة إضافات توالت وبلغت الغاية التي قصد منها الكشف عن العظمة الربانية ((...**مزهقاً رسومِ أباطيلِ خوضِ الخَائضين، بدارِ اشْتباكِ ظلمةِ كفرٍ دامِسٍ...**)) [2]، جاءت الإضافة معمولة لقوله مزهقاً، وتوالت الكلمات لتشكل هيكلاً احتوى اباطيل خوض الخائضين...، فكان لكلمة (اباطيل والخائضين) المنتهية بالنون المسبوقة بحرف مدٍ، دوراً في تعميق معنى اللهو والانغماس في عَمهِ الهوى، لذا قال رأساً (بدار اشتباك ظلمة كفرٍ دامس)، فهذا العمه جاء لتكاثف ظلام الكفر، ولئن فلتت كلمة (دامس) من قيد الإضافة منطلقة إلى معالم الوصف، فإنها ما كانت لتستقيم لوحدها، فهي مكمل معنوي يتطلبه تركيز معنى الكفر الذي يحمل في أصله اللغوي معنى التغطية والجنان، والستر، فماذا لو تضافر المعنى مع الظلام أو الكفر المعنوي، فكلمة دامس تكمل تشابك هذه المفاهيم وتضاعفها وتطيل منها، حتى لتصير هي مكمن الضيق والاختناق لشدة التماسك والتواشج.

---

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج٣، ص٣٣٤.

(٢) م.ن،ج٣، ص٢٥١.

و-ترامي الصفة

ومن المظاهر الأسلوبية التي رصدتهُا في خطاب الإمام (عليه السلام) هو مظهر ترامي الصفات، وملاكه ان الموصوف لا يكتفي بالصفة الواحدة، فترمي كل صفة إلى ما ورائها، على نحو تراكمي.

وتتعدد طرق هذا الترامي أفناناً، فمنه ما يتشكل بصورة تعدد الخبر، وقد تطرقت لذلك في ما سلف من هذا المبحث . ومنه ما يتوصل إليه عن طريق العطف، فتفصل كل صفة عن الأخرى بحرف العطف، فيؤول ما ظاهره معطوف ومعطوف عليه إلى ما ماهيته صفة في كنهها وحقيقة أصلها ومنه، ما ينضم بعضه إلى بعض، على نحو الوصل، فيكون في ظاهره وباطنه صفة، أي ينسجم في محله الإعرابي والوظيفي، مع تسميته المعجمية.

ويكثر ترامي الصفات في خطب التوحيد خصوصاً، فمن دأب الإمام (عليه السلام) ان يذكره بعد الحمد ممجّداً وذلك تقرباً له سبحانه وزلفى، وإظهاراً للعبودية الخالصة، التي لا يشوبها شائب من طمع أو هوى، أو خوف فتراه يقول بعد الحمد واصفاً: ((...**المُتَفَرِّدِ...المُتوحِّدِ...الذِيْ لَهُ الفَخْرُ...خَضَعَتْ لَهُ الآلهةُ... وَوَجِلتِ القُلُوبُ مِنْ مَخافَتِهِ، فَلَا عِدْلَ لَهُ ولا نِدَّ، ولا يُشْبِهُهُ أحدُ مِنْ خَلْقِهِ...**)) [1]، فقد تنوعت مضامين الوصف وأشكاله، فالمضمون يعلي شأنه تعالى في أحديته وجلاله وهيبته، نافياً عنه الشريك والشبيه. اما الاشكال فمختلفة فمن المفرد الذي تعلق به الظرف (الجار والمجرور) والاسم الموصول الذي تشبثت به صلته، وبين الجمل الفعلية الدالة نحوياً على زمن المضي، بينما زمنها الفعلي هو الزمن الموضوعي[2]، إذ الخضوع له تعالى والوجل منه متحقق على الدوام، ولا يقتصر على زمن المضي، وإن كان زمن المضي يدل على ان الخوف والوجل والخضوع منجزة أسبابها وواقعة فعلاً. فزمن حصول هذه الأفعال لا يرتبط بالذات المعبرة ولا بالزمن النحوي، فالجملة مدارها زمنياً حاصل على مدى متصل ومستمر.

أما ما ختم به الصفات من جمل النفي، فغرضها إثبات صفات الجلال له سبحانه من خلال نفي ما لا يجوز عليه، ومآل الجملتين هو الدوام أيضاً، فالنفي يمتد زمنه أزليا، فيتجاوز القدرة الذهنية التي لا تستطيع ان تتصور سوى الزمن الفيزيائي بأبعاده الثلاثة، فأنى لها ان تدرك ما قبل الوجود وما بعده، لولا المعونة الخارجية التي دلتها على أزلية الخالق.

---

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص١٣٩ .

(٢) ينظر، موضوع: أزمنة النص، الذي عقد مبحثه، سعد مصلوح في كتابه، في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة، ص٢٥٨ وما بعدها.

وله أيضاً في التوحيد بعد أن حمده تعالى ((...**المتقدّم بالوعيد، الفعّال لما يُريدُ، المحتجِب بالنُور دُونَ خَلْقِه، ذي الأُفُقِ الطّامِحِ، والعزّ الشامِخِ، والمُلْكِ الباذخِ، المعْبُودِ بالآلاءِ، ربّ الارْضِ والسّماءِ...**)) [1]، فلما كانت دلائل عظمته سبحانه متكثرة، لا تفي بها الصفة الواحدة، بل تنوء بها الصفات الكثيرة، عمد (عليه السلام) إلى ان يذكر بعضاً منها في كل خطبة ، وبضم الخطب بعضها إلى بعض، تتوضح مفاهيم التوحيد وترسخ عقيدة تتجذر في النفوس فيصعب قلعها . فهنا تحدث عن معقل عزه، إذ يتوعد ويفعل ما يروم، فلا يحول بين مراده وبينه شيء، وقد رسم الوصف صورة أخاذة لاحتجابه تعالى بالنور... وقد ختم الوصف بهيمنته المطلقة على الأرض والسماء.

ومما وصف به نفسه، على نحو ترامي الصفات قوله (عليه السلام): ((...**فإنّ مَعْصيةَ النّاصحِ الشّفيقِ المُجرّبِ...**)) [2]، فهنا تحقق إنزياح بالالتفات، إذ عدل الإمام عن ذكر نفسه، فأبدل الحضور بالغياب، ليحصد تأثيراً أكبر، فالسياق يستوجب استمالة القوم الذي انشقوا عن معسكره، وتسببوا في فتن وشبهات ، فالمقام مقام رأب الصدع، لذا جاء بهذه الصفات التي تدل على حرص الناصح وعطفه، ومعرفته وخبره مما يستوجب مع هذا الطاعة الحتمية.

ومن ترامي الصفات قوله في ذَمِّ لذاذةِ الدنيا: ((...**ولا لَذاذَتُها في عَيْنِي إلّا كَحَمِيمٍ أَشْرَبُهُ غَسّاقاً، وَعَلْقَمٍ أَتَجَرّعُ بِهِ زُعاقاً وسُمٍّ أَفعَاةٍ أسْقاه دِهاقاً**)) [3]، فلذاذة العيش في الدنيا لا تخرج عن أن تكون حميماً وعلقماً وسماً فهذه هي صفات الملذات في عينيه . وهي صفات في سنخها، وان تجلت في هيأة المجرور، فكونها شبه جملة لا يعدم معناها الأصيل الذي لأجله اجتنبت هذه الألفاظ.

ومنه في ذم المنافقين: ((...**القاتلين لأولياءِ اللهِ، المحرّفينَ لدِّينِ اللهِ، الذينَ لَيْسُوا بقّراء الكتابِ، ولا فقهاءَ في الدِّينِ، ولا عُلماءَ بالتَّأويلِ...**)) [4]، وقد استعمل الإمام (عليه السلام) في ذمهم أسلوب النفي والإثبات، ففي الإثبات برَّزَ جوانب عدائهم للدين، فهم قاتلو الصالحين ومحرفو الدين، وفي النفي سلب عنهم حلاوة العلم والفقه وتلاوة الكتاب، وكلها أمور تُغرق أصحابها في الذم.

وهذه الجمل التي اختيرت تتابعت متتالية في الورود، وأحياناً تتداخل الجمل لتؤدي عن صفة واحدة مزاياها، كقوله (عليه السلام): ((**ألا وإنّ الخَطايا خَيْلٌ شُمُسٌ حُمِلَ عليها أهْلُهَا وخُلِعَتْ لُجُمُها...**))[5].

---

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص١٦٦ .

(٢) م . ن، ج٢، ص٢٨٢.

(٣) م . ن ، ج٣، ص٣٠٦ .

(٤) م . ن ج٢، ص٢٨٥.

(٥) م . ن، ج١، ص٢١٩ .

هذه صفات متداخلة للخطايا، وإنْ نظر إليها من وجهة نظر بلاغية محضة، لكان الأمر سيدخل في مرابع التشبيه التمثيلي، فهذه الخطايا شبهت بالخيول الصعبة الارتقاء، التي امتطيت عنوة فهاجت براكبيها وأدخلتهم النار. وجه الشبه هنا منتزع من متعدد، والتعبير رسم صورة فنية ،ما كان لها ان تستوي بهذا الكمال لولا تواشج الصفات التي بدت بمظاهر مختلفة من خبر وصفة مفردة وأخرى جملة لتؤدي هذا المشهد العجيب . ومظان البحث في مثل هذا هو الصورة الفنية، لكني ذكرتُ هذا الشاهد لأبينَّ أن الاستقصاء هو الذي يؤدي إلى تباين أشكال الخطاب وامتدادها في نسق بعيد مداه.

وهذا كله يمكن أن يقع تحت ظاهرة تسمى الاستقصاء حدّهُ: ((...أن يتناول الشاعر معنى فيستقصيه إلى ان لا يترك فيه شيئاً...)) [(١)]، وهو من المظاهر الأسلوبية التي زخر بها أسلوب الإمام (عليه السلام) فهو إذ يطرح الموضوع، تدفعه الدقة إلى الإحاطة بجميع جوانبه، فيكرّ عليه من نواح عدة، ليبرز أطرافاً كانت خافية، ويعزز جهات في الأصل بادية، فيزيد جلاءها وضوحاً فتتبعث من باطن متخف إلى ظاهرٍ منكشف، فترشح من هذه الظاهرة استطالة الجمل في التركيب[(٢)]، فيُرى المبتدأُ يَجيء مركباً، ومثله الخبر الذي قد يأتي مركباً أو متعدداً أو كلاهما معاً، كما أدتْ هذه الظاهرة إلى انبثاق ما اسميه (ترامي الصفات) إذ يتكاثف الوصف الذي قد يأتي على ظاهره وصفاً حقيقياً، كما اصطلح عليه النحاة بالصفة أو النعت، أو يُتوصل إليه من خلال تضاعيف العطف، أو عن طريق تعدد الخبر، فالخبر صفة في أصله، وان خلّصه النحاة للإخبار.ومن الاستقصاء نبعت ظاهرة ازدواج الإضافة وتواليها حتى لتتمطى في خط تركيبي يمدُّ من آفاق التعبير. ومن نواتج الإستقصاء تداخل الجمل وتشابكها، فتتواشج في بسط التعبير، كتوالي جمل فعل الشرط، وتأخر جمل جواب الشرط عنها، يشد الجمل الأولى حرف العطف الذي يمد من أقطارها، حتى إذا طمح السمع يستعجل الجواب، تريث إلى ان تستتم وروداً، وهناك تواردت جمل جواب الشرط، ومن آثار هذه الظاهرة انّ الإمام علياً (عليه السلام) كثيراً ما يداول بين الخبر والإنشاء، ولاسيما في مقام النصح، ومنها إثبات الأفضلية بالنفي، واثبات صفات الجلال له سبحانه، مراوحاً بين الإثبات والنفي، وما إلى ذلك من ظواهر انحدرت من تحت سفح الاستقصاء.

---

(١) تحرير التحبير رفي صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ص٥٤٠ وهذا التعريف يتناول الموضوع من جهة البديع، والبحث يتناوله من جهة أخرى.

(٢) اتجاهات الدرس الأسلوبي في مجلة فصول، رامي علي أبو عايشة، ص١٠٢، إذ عدَّ المجال التركيبي للجملة وسيلة أسلوبية، فيما يخص طول الجملة وتعقيدها.

ز-التقديم والتأخير:

التقديم والتأخير ((باب طويل عريض، يشتمل على أسرار دقيقة...))[١]، وهو يمثل انزياحاً في التركيب اسماه جان كوهن ((...القلب أو الانزياح عن القاعدة التي تمس ترتيب الكلمات)) [٢]، وهو كثير في خطب الإمام (عليه السلام)، فمن ذلك قوله(عليه السلام) في احدى خطب التوحيد ((...**لا بآلةٍ فَطَرَ**...))[٣]، فقد انزاحت هذه الجملة عن المعيار المألوف للتركيب بمقدار درجتين تحققت أولاهما: حين قدم المنفي المقترن بالجار والمجرور على الفعل، فكان حق الكلام ان يكون: فطر لا بآلة. والثانية كانت بإغماض النظر عن إيراد اللفظة المعجمية التي تصاحب لفظة (فَطَرَ)، فكان حذف هذه اللفظة هو المجال الثاني الذي تحركت فيه الجملة، وقد تُركَ للمتلقي تَخمين هذه اللفظة المصاحبة التي تأتلف معها فهي قد تكون (السماء – الخلق – الناس – الأرض) فعدم ذكر هذه اللفظة يُوسع من آفاق المعاني المحتملة التي تدل على قدرة الخالق سبحانه، ويترك أفقَ الانتظارِ رهن مهارة السامع، أما ما يخص تأخير الفعل وتقديم معموله (لا بآلة)، فهذا لإظهار اقتداره سبحانه وقطع الطريق على الأوهام التي تكتنفُ الإنسانَ، فَيَظنُ معها أنَّ ثمّةَ وسيلة مادية اعانته سبحانه على الخلق، فتقديم قوله (لا بآلة) ينفي ذلك من أساسه، وفي الموضوع ذاته – التوحيد – ثمة تقديم وتأخير ثانٍ ((... **الَّذِي لَا عَنْ شَيءٍ كَانَ وُجُودُهُ** ...)) [٤]، هنا تأخر الفعل الناقص واسمه، وتقدم عليه النفي المقرون بشبه الجملة (لا عن شيء) ليُثبتَ الامام ان وجوده سبحانه بمحض العظمة والقدرة الإلهيتين، وعنهما تحقق الوجود الذي تعالت حقائقه عن الاستشراف والتنبؤ فـ(لا عن شيء) محت ما يمكن ان ينتاب الأذهان في مجال التوهم والتصور الذي لا يجتاز دائرة الظنون.

ولما أراد (عليه السلام) أن يبين لقومه – وهم يستعدون للحرب – أنهم مشمولون بالعناية الإلهية وأنهم بعينه تعالى، كانت وسيلته أيضاً هي التقديم والتأخير: ((... **فَنَحْنُ مِنْ رَبّنا بِمَرْأى وَمَسْمَعٍ**...))[٥]، فقدّم قوله (من ربنا) على قوله (بمرأى ومسمع) لأن المهم هو معرفة مصدر العناية والرعاية، لذلك قدمه . وثمة انزياح بالحذف هنا ؛ إذ حذف حرف الجر من قوله (مسمع)

---

(١) المثل السائر، في أدب الكاتب والشاعر ، ابن الاثير، ج٢، ص٢١٠.

(٢) بنية اللغة الشعرية ، ص١٨٠.

(٣) نهج السعادة ، في مستدرك نهج البلاغة، ج٣، ص٨ .

(٤) م . ن، ج٣، ص١٦ .

(٥) م . ن ،ج٢، ص١٢٣ .

اعتماداً على ذكره في كلمة (بمرأى) كأنما كان ذلك لتقريب المسافة بين الموضوعين: المرئي والمسموع.

ومن معالم التقديم والتأخير، إرجاء المفعول إلى ما بعد شبه الجملتين (لي وعليكم) في قوله (عليه السلام) يعظ أصحابه :((**قَدْ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى لِي عَلَيكُمْ حَقّاً**)) [1]، فلما أراد إظهار ذلكَ الحق لنفسه، قدّم حرف الجر وضمير المتكلم أولاً، ولما كان (الحق) واجباً عليهم ذكر الحرف على مع ضمير المخاطبين والجماعة، وأخّر كلمة حقاً، ونَكّرها ليُبهم مقدار ذلك الحق، فهذا الحق غير معلوم كماً، ولكنه لازم لهم، وقد فُرِض هذا الحق بقوة هذا التركيب بما فيه من تقديم وتأخير .

ح-الفصل بين المتلازمين:

ومن وسائل الانزياح في التركيب الفصل بين المتلازمين كالفصلِ بين المسند والمسند إليه، وقد يكون الفصل طويلاً، كقوله ((**... إنَّ اللهَ حِينَ شَاءَ تَقْدِيرَ الخَلِيقةِ وَذَرْءَ البَرِيةِ وإبداعِ المُبدعاتِ، نَصَبَ الخلق...**)) [2]، هذا الفصل الطويل بين المسند والمسند إليه، أتاح الفرصة للمتحدث ليلم بجوانب اكبر للموضوع المطروح، فهو أراد أن يبين ظرف المشيئة الإلهية في فَلْقِ الوجود وإنشائه من العدم، والجملة المضافة إلى الظرف أسهمت في تحصيل معانٍ إضافية تممت مع طرفي الإسناد جوانب المعنى . فهذا الانزياح للخبر فسح المجال للإضافة لتُبرَز أموراً معينة، قبل ان تستكمل الجملة بذكره . ومنها في مجال الوعظ وقد فصل بين المبتدأ أو الخبر ((...انتُم بِكَأسِهِم شَارِبُونَ...))[3]، فتقديم متعلق اسم الفاعل (بكأسهم) على اسم الفاعل (شاربون) فيه توكيد لمصير الموت الذي لابد لكل شخص من أنْ يتذوقه، وهذه الباء الجارة يمكن ان تحمل أكثر من معنى حينئذٍ، فهي قد تكون تبعيضية تحمل معنى من، فيكون تقدير الكلام (من كأسهم) أوتحمل معنى الإلصاق أيضاً، فيكون الموت حتمياً لا مناص منه، ساعد على توثيق هذا المعنى تقدم الضمير في كلمة (كأس) على المتعلق (شاربون) .

ط-الحذف:

الحذف ظاهرة أسلوبية تكسر قانون اللغة المعيارية لتُكسبَ التعبيرَ جمالاً، قال عبدُ القاهر الجرجاني ((فانّك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة ج٢، ص١١٣ .

(٢) م . ن، ج٣، ص٢١ .

(٣) م . ن، ج٣، ص١٢٦ .

انطق ما تكون إذا لم تنطق...)) [1]،وبواعثه متعددة، فمنه ما حذف روماً للاختصار وإبعاداً للملل، ومنه ما اعتمد في حذفه على ذكاء السامع وحدسه، وعلى تقدير المتلقي.

فمن موارد الحذف، حذف المبتدأ المقدر بـ(هو) في قوله: ((**عالِمٌ إذْ لَا معلومَ وَقَادِرٌ إذْ لَا مقدورَ وَرَبٌّ إذْ لَا مَرْبوبَ وَمُصوِّرٌ إذ لا مُصوَّرَ...**)) [2]، فقد حُذِفَ الضميُر (هو) من الكلام أربع مرات، فكان للسامع حينئذ ان يستدل على المحذوف بما دلالته عدمية[3]، إذ معنى الضمير متحقق وجوداً على الرغم من استتاره فعلاً، وحذْفُ (هو) أفضى إلى تكثيف التركيز على الصفات الإلهية (عالم ، قادر، رب، مصوِّر) ولاسيما مع نفي مايلازم موضوعاتها ؛بإضافة جملة النفي إلى إذ (إذ لا معلوم، إذ لا مقدور، إذ لا مربوب، إذ لا مصوّر)، وهنا تحقق نوعٌ ثانٍ من النفي، وهو نفي الكون العام الذي به تتحقق تمامية جملة النفي، فالتقدير: إذ لا معلوم كائن أو موجود، وهكذا تسري التقديرات إلى باقي جمل النفي، وبذلك يتحقق مفهوم اتحاد الصفات مع الذات ما دام علمه وربوبيته وقدرته وتصويره متحققة قبل تحقق موضوعاتها، وأثبت غناه أيضاً، إذ أن هذه الصفات في غنى عن موصوفاتها بدليل جملة النفي، وبذلك اثبت أزليته سبحانه وأبطل ما عداه، كل ذلك تحقق عبر هذا التركيب الذي اكتنف حواف الجمل بحذف طرفيها، وهما المبتدأ في إثبات الصفات والخبر في جمل النفي.

ومن موارده، حذف (أن واسمها) كما في القول الذي رماه به عمرو بن العاص ((**زعم... أني تلعابة، تِمزاحة، ذو دعابة، أعافس وأمارس...**)) [4]، فقد حُذفت أن ومعمولها خمس مرات، دون ان يبعد ان يكون المحذوف جملة (زعم...)، والحذف هنا طلباً للاختصار والتخفيف، وللتركيز على الصفات فضلاً عن أن أول الكلام يفصح عن المحذوف، ثم ان توارد الأخبار، هكذا دونما فاصل، ولاسيما مع هذه الصياغة الدالة على المبالغة (تلعابة، تمزاحة)، ينمُ عن مقدار الأذى والانزعاج من هذه التهمة وإكبار ان يتهم من هو مثله بمثل هذا.

ومن صور الحذف، حذف الفعل: ((**...فإنه من استثقل الحقَّ أن يُقالَ له، أو العدْلَ أن يُعرضَ عليه كانَ العملُ بِهما أثْقلَ عليهِ...**))[5]، فالمحذوف هو الفعل (استثقل) من قوله (أو العدل) واستدل على

---

(١) دلائل الإعجاز، ص١٤٦.

(٢) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٣، ص٤٠.

(٣) يُنظر، اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص١٢٨ . وقد تعرض لما دلالته عدمية في معرض الحديث عن الأدوات المحذوفة، وأرى أن كلامه يسري إلى الضمائر، لذلك اتخذته على ما أقول دليلاً .

(٤) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص٢٩ .

(٥) م . ن ،ج٢، ١١٨-١١٩.

الفعل المحذوف بالجملة المعطوف عليها (استثقل الحق) فبذلك الذكر استغنى عن التكرار، فجعل ذلك الذكر قرينة لوجود الفعل المحذوف ودليلاً على شهوده.

ي-الالتفات:

هو: ان ينتقل الكلام ((...عن صيغة إلى صيغة كانتقال من خطاب حاضرٍ إلى غائب، أو من خطاب غائب إلى حاضر أو من فعل ماضٍ إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماض، أو غير ذلك...)) [١].فهو انزياح في صيغة الخطاب في مدلولها الزمني اوغيره.

فمن موارد الانتقال من خطاب الحاضر إلى الغائب قوله مذكّراً ((...**فهلم ايها الناس إلى التعاون...**))، ثم رجع متحدثاً بضمير الغيبة ((...**فإنه ليس العباد إلى شيء أحوج منهم إلى التناصح...**)) [٢]، فهذا التنويع في الخطاب من الحضور إلى الغيبة، فيه فائدة عدم التثقيل عليهم في مجال النصح، فيوجب استئناسهم بحديثه وعدم النفور منه، والاستجابة لما يرومه منهم، لأنه يخاطبهم على طريقة ((...إياك أعني...))، بضرب المثل، وسرد أحوال الرعية والولاة في حال الغيبة مما يتضمن تلميحاً بثوب التصريح، لا تشق معه الطاعة عليهم، وفي حالة مخاطبتهم، يعمد إلى النصح الصريح، الذي امتزج مع الخفي منه، بواسطة تناوب الانتقال من الغيبة إلى الخطاب، وبالعكس.

ومن موارد الانتقال من خطاب الغائب إلى الحاضر، ومن قوله (عليه السلام): ((**رَحِمَ اللهُ امْرَأً مِنْكُم آسا أخاه بِنَفْسِهِ ولمْ يَكِلْ قِرْنَه إلى أخِيهِ فَيجتمعَ عَليه قِرْنُهُ وقِرنُ أخيه، فيَكتسبَ بذلك لائِمةً وَيأتي به دَناءَة، ولا تعرَّضُوا لِمقتِ الله ولا تفرّوا من الموْتِ...**)) [٣].

فأول هذا المقتطف معقود للغائب، لا يقدح فيه مجيء كاف الخطاب مع حرف الجر (منكم) فالكلمات (امرأ – اخاه – بنفسه – قِرْنه – أخيه) تشير إلى الغائب، ربما كانت العلة في ذلك أن المقام لما كان للتأهب للقتال أراد ان يتلطف بهم وأن يداريَ مشاعرهم ويهوّن عليهم مواجهة الموت فأعرض عن الخطاب المباشر، ولاسيما ان همة الإمام (عليه السلام) كانت متوجهة إلى رص صفوفهم وبث روح الايثار والفداء عندهم، فيضحي كل شخص بنفسه ليقي أخيه في المساحة الضيقة التي تجمعهما معاً في ميدان القتال الكبير. ولعله استملك مشاعرهم وهيمن على عواطفهم عندما كرر استعمال كلمة (أخيه) ليرسخ مفهومها في أذهانهم وليعلمهم أن قِرْن أخيه هو عدو له أيضاً على الحقيقة.

---

(١) المثل السائر، في أدب الكاتب والشاعر، ق٢، ص١٦٧-١٦٨.

(٢) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٢، ص١١٦.

(٣) م . ن، ج٢، ص١٠١.

وفي هذا النص أيضاً تجلّى الالتفات في الانتقال من الماضي إلى الحاضر فإلى المستقبل في تدرج هرمي (رحم، آسا، لم يكل، فيجتمع، فيكتسب، لا تعرَّضوا، لا تفروا).

فالأفعال الماضية والفعل المضارع المنفي بـ(لم) شكلاً وحدة زمنية واحدة دلت على المضي والفعلان المضارعان (فيجتمع فيكتسب) دلاّ على الحاضر فيما دل الفعلان المضارعان اللذان حفت بها لا النافية على المستقبل.

هذا الانتقال له ما يسوغه وهو ينسجم مع أهمية المطروح. فلما كان (عليه السلام) يطالبهم بالرحمة والمواساة بينهم وعدم إيكال أمر إخوانهم في المعركة إلى غيرهم . وكان يَفترض الإجابة منهم على أنها أمر مسلّم به جاءت الأفعال في صيغ تدل على الماضي لبيان تنجز المطلوب وتحققه.

ومع توقع عدم الاستجابة انتقلت دلالة الزمن إلى الحاضر (يجتمع ويكتسب) وهما يعرضان العاقبة الوخيمة في الدنيا. التي امتد زمنها إلى المستقبل مع الفعلين (لا تعرضوا ، لا تفروا) لأن التعرض لمقته تعالى يتصور في الآخرة . وعدم الفرار في المعركة لا يقتصر على هذا الزمن، بل يمتد إلى كل معركة ستقع.

وموارد الانزياح التركيبي كثيرة، تفرضها الحاجة إلى بث معانٍ مختلفة تربو على التركيب التقليدي المعياري، الذي قد لا يؤدي الغرض المتوخى، لذا كانت الضرورة إلى إيراد معنىً مهما، هي التي تحتم ان يكون التركيب بهذا الشكل مثلاً، دون غيره.

الانزياح الدلالي:

وأسماه جون كوهن (المنافرة) وهي في نظره ((...تشكل انزياحاً صارخاً، إلى حد أن نفيه يلفت النظر...)) [1].ويضرب لها مثلا ((الإنسان ذئب لإخيه الإنسان فإن المسند لايلائم المسند إليه إذا أخذ بمعناه الحرفي أي الحيوان.إلا أن هذا مجرد معنى أولي يحيل على معنى ثان .الإنسان ذئب لإخيه الإنسان يعني في الحقيقة الإنسان شرير.وبهذا نعيد الجملة الى المعيار . نحن اذا امام صورة تسمى المجاز . تلك الصورة التي يمكن ان نرمز لها بالرسم الاتي حيث نرمز للدال بـ(د) وللمدلول بـ(م)

د--------<م١--------<م٢)) [2]

فالانزياح إذن هو تحرك المعنى عن ظاهره المباشر، بما يحتاج معه إلى تأويل،وهو بهذا التحرك يرسم صورة؛وهذا يتطلب السعي لتغيير المعنى((إذ يوجد بين المدلول الاول والثاني علاقة متغيرة . ونحن بهذا التغيير ننتج انواعا مختلفة من المجازات . اذا كانت العلاقة هي المشابهة

(١) بنية اللغة الشعرية، ص١١١.

(٢) م.ن. ،ص١٠٩.

نكون بصددالاستعارة وإذا كانت العلاقة هي المجاورة نكون بصدد الكناية ، واذا كانت العلاقة هي الجزئية والكلية نكون بصدد المجاز المرسل .)) [١]

أ-نسق التماثل أو المشابهة:

((إن المشابهة*هي المماثلة الجزئية)) [٢]. وهي تقوم على أساس إجراء المقاربة اللسانية التي تظفر ببيان قاسم مشترك يصل بين الدال والمدلول،عبر ((...موازة دقيقة بين مستوى التعبير ومستوى المحتوى)) [٣].وذلك بتحليل كل كلمة إلى وحداتها الأصغر التي تبين ماهياتها.ذلك ((...ان التشبيه يحافظ ،على وضوح طرفيه وتمايزهما،فلا تداخل ولاتشابك...)) [٤]

فمن موارد التشبيه التي جاءت في إحدى الخطب الاجتماعية ، قوله (عليه السلام): ((...**إنما الدنيا كالسم يأكله من لا يعرفه**)) [٥].

فالدنيالها سمتان دلاليتان مميزتان هما:التأنيث +التجريد

والسم له سمتان دلاليتان مميزتان ،هما:القتل +المحسوس

وهنا يتبين أن ثمة ثغرة دلالية قامت بين الدال والمدلول بحسب المحتوى ، وردم هذه الهوة يكون على مستوى التعبير، بتحويل دلالة الدنيا المجردة المؤنثة إلى دلالة السم القاتل ،عن طريق إقامة علاقة جديدة بين لفظي (الدنيا والسم) ليتحقق بهذه الصورة التنفير عن طريق تلاحمهما في تشكيل اجزاء الصورة بحلول السم محل الدنيا فيقبل عليها من لا يعرف حقيقتها، متوهماً أن ما أقبل عليه خالص اللذة فإذا هو سمٌّ زعاف.

ومن الصور التشبيهية، ما جاء في إحدى خطب التوحيد في مدح العلماء: ((...**وإنِّما العُلَماءَ في النَّاسِ كَالْبَدْرِ في السِّماءِ يُضِيءُ نُوُرُه على سائِرِ الكَواكِبِ**)) [٦].

يُلَمحُ في هذا التشبيه الجانب الانساني إذ تُضفى معالم المساواة على الناس جميعاً. فهم كلهم في موضع عالٍ وكلهم منطوٍ على نورٍ معين – لعله مقدار الإيمان الذي استحق به الانسان ان يماهي الكواكب – وهذا يعني أن مفهوم الإنسانية يتسع للناس جميعاً ، لكنهم يتفاوتون في

---

(١) بنية اللغة الشعرية،ص١٠٩

(٢) م.ن،١٢٠

(٣) م.ن ، ص١٢١

(٤) الصورة الشعرية، في النقد العربي الحديث، بشرى موسى صالح،ص١٢٤

(٥) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٣، ص١٣٩.

(٦) م . ن ، ج٣، ص٣٢.

خصائص عَرَضية تُعلي من قيمة الشخص إذا اتسم بها، من هذه الخصائص (العلم) فصاحب العلم يبزّ غيره ويغلبه بعلمه، مثلما يفوق البدر سائر الكواكب في سطوع نوره.

هذه الصورة مثل سابقتها ليست فائضة عن النص ففي مضمونها حث شديد على طلب العلم، ليُتَمَكن من توحيده سبحانه وعبادته حق العبادة ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾[1]، فالعلم يهدي إلى التوحيد الخالص.

وعقد المماثلة بين العلماء والبدر يكون بإرجاع كل كلمة إلى مستواها الدلالي بحسب المحتوى:

العالم:رجل+ مذكر+ محسوس+عارف

البدر:جماد +مشع +عال

والقضاء على الثغرة الدلالية في المحتوى يقوم على عقد مماثلة في مستوى التعبير بين المعرفة والإشعاع والعلو، فيحوزها العالم جميعا،فيكون شبيها بالبدر.

ومن صور التشبيه البليغ، ما قاله لميمنة جيشه في إحدى الخطب السياسية((...**وأنْتُم لهاميم العرب والسَّنامُ الأعَظمُ...**))[2].

هذه صورة أخرى غير مقحمة ولا زائدة، وإنما تستقيم مع السياق الذي تمخض لحث القوم على الصبر في سوح الجهاد مع المدح، فلما أراد أن يصفهم بالعز والشرف شبههم بسنام البعير بجامع العلو في كلٍ . هذا التشبيه يمس أوتار حسهم الإنساني، فأنفسهم تميل إلى الافتخار وتحب حسن الإشادة والذكر، فأشبع الإمام (عليه السلام) هذا الميل بمزيدٍ من الإطراء والثناء، فربطت الصورة أول الكلام بما بعده: ((أنتُمْ لهاميمُ العربِ، وأنتم السنامُ الأعظمُ وعُمّارُ الليلِ بتلاوةِ القرآنِ...))، وأسهمت مع سائر الكلام في رفع معنويات الجيش وبث العزيمة على الجهاد وحيازة الظفر في المعركة.

والتنافر الدلالي قائم بين الإنسان وسنام الجمل :

فالأنسان هنا: مقاتل +مذكر +حي

السنام : ميت+عال

والقضاء على هذا التنافر، يكون بعقد مماثلة تعبيرية بين المقاتل والسنام وردم هذه الهوة ببيان المقصود وهو العلوالذي يرمز الى المكانة والشرف.

---

(١) فاطر: ٢٨.

(٢) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٢، ص١٣٦.

وقد يكون مؤدى هذا الانزياح : هوعدم التوافق بين الطرفين المتلازمين. فمن افراده، الانزياح الذي مصدره عدم المطابقة الحرفية بين طرفي الاسناد:مثل ((...**البخلُ جلبابُ المسكنةِ**...))[١]، فالبخل صفة رذيلة ذاتُ قيمةٍ مجرّدة لا تلائم المحسوس (الجلباب) ولو فُرضت تلك الملاءمة لكونهما حسيين مثلاً، أو لأنهما معنويان – لأن الجلباب المحسوس تشرّب شيئاً من التجريد عندما أُضيف إلى المسكنة – لِمَا صح للبخل ان يكون غطاءً ساتراً، لما ينضوي عليه من معاني الضعة والخسة، لكن الانزياح يخالف منطق التعبير المألوف، ويفتح أبوابه واسعة لضروبه المختلفة، وما على السامع إلا أن يتأول ما يسمعه، لينسجم الطرفان المتنافران، فالبخل يستر الأموال ويحجبها والجلباب يستر البدن، من هنا جاءت المماثلة التي قضت على التنافر الدلالي.

ورب انزياح رسم صورة، لما سجل منافرة في الملاءمة بين طرفيه فاستحق أن يبحث هنا تحت الانزياح الدلالي، من جهة غير تلك الجهة التي تبحثها الصورة، مثل قوله ((...**أنتَ قُوتُ الموتُ**...))[٢]، فالمتحقق هنا نوعان من الانزياح، إذ ثمة استعارة هنا حولت الانسان إلى طعام، وحولت الموت إلى حيوان يستطعم، فهذا انزياح تعد الصورة مرفأ له، أما إذا لاحظه الباحث من زاوية الانسجام بين طرفي الاسناد، فسيلحظ ان ثمة تنافر بين الطرفين، فالمخاطب.

ب-نسق الاستبدال:

ويقصد بهذا النسق الاستعارة، وهي تقوم على أساس((...الإنزياح الاستبداالي...لإن أساسها"المماثلة"...)) [٣] .فالإستعارة مبتنية في الأصل عل التشبيه مع تناسي الشبه ؛لاستبدال المشبه به بالمشبه، فهي ((...استبدال كلمة بأخرى او معنى بآخر اواستبدال اسم لشيء باسم شيء آخر.وبالعلاقة بين المعنى والمعنى وبالعلاقة المتحققة بينهما ...)) [٤] والاستعارة ((...تقوم على الالتحام والتوحد بين طرفيها حتى تمحى الحدود وتتوحد الماهيات...)) [٥]. ومع ذلك فهي ((تمثل انزياحا لغويا يتطلب...علاجا استعاريا...)) [٦]. ويتمثل ذلك جليا في الاستعارة التي قد تستعمل في ثوبها المجازي، دون ان تستطيع رسم صورة، لسمو موضوعها مثلا كقوله (عليه السلام):((**الحمدُ للهِ**

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة ج١، ص٧٦ .

(٢) م . ن ،ج١،ص٧٧

(٣) أسلوبية الرواية مدخل نظري،حميد لحمداني:ص٦٤

(٤) الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي،الولي محمد،ص٨٥

(٥) الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث،بشرى موسى صالح،ص١٢٤

(٦) بنية اللغة الشعرية:ص١١٢

اللابسِ الكبرياءِ بلا تَجسُّدٍ والمرتدي بالجَلالِ بلا تَمْثيلٍ...))[1] فاللبس والارتداء وان دخلن حيز التصوير لَمّا جسدن الكبرياء والجلال، لكن لم يسعهن رسم صورة، لأن هذه الاستعارة للصفات الإلهية، والموضوع الموصوف لم تستول عليه الاستعارة، لتنزهه عنها، لذا قال فور ذاك (بلا تجسد وبلا تمثيل)؛ فهذا الانزياح يتطلب علاجا يرد المنافرة بين لفظ الجلالة وكلمتي اللابس والمرتدي إلى مايلائمها،لتنتفي هذه المنافرة، وكانت الكلمتان المجرورتان (بلا تجسد وبلا تمثيل) قد منعتا تلك المنافرة بنفي أصل التجسيم.

وثمة انزياح في بادي أمره، صارَ مألوفاً، حتى كفَّ عن أن يصير انزياحاً، كقوله (عليه السلام): **((...عَلِقتْكُمْ مَخالِبُ المَنيَّةِ...))**[2]، فإضافة المخالب إلى المنية فيه – في الأصل – شائبة عدم المواءمة – لكنه تعبير سارٍ، حتى كاد ان يكون مثلاً، وسريانه هذا قضى – على نحو ما – على المنافرة، وصار الانزياح منسياً، فكان كأنه تعبير مباشر، على أنه في الحق ليس به، لهذا التنافر المتأصل بين المخالب والمنية وعليه فشيوع تعبير ما، لا يقضي على الانزياح مادامت الحاجة إلى التأويل قائمة، غاية ما في الأمر ان النفس تقبل شيوعه وإعلانه، وتتأوله ساعة سماعه، فكأنها تدرك انه انزياح بداهة، فتفسره من فورها بالحدس، دون إدراج الشعور في هذه العملية.

والتنافر في الاستعارة قد يكون إسناديا كالتنافر بين الفعل والفاعل، قوله (عليه السلام) **((...وامتَلأتِ الأرضُ فتنةً...))** [3]، فالامتلاءُ يكون نظيره المصاحب له معجمياً من سنخ مادته، ولاسيما ان وعاءه هو الأرض، فالمجانس لهذا الوعاء لفظٌ من مثل: ((أناساً او أشجاراً او ماءً)) فقوله (فتنة) يفرض تحرك المعنى عن أصله، ونشوء منافرة دلالية لابد من ردمها وإعادة الملائمة باستبدال لفظة الأرض ببديل مناسب وليكن أهل الأرض،ليكون المعنى امتلأ اهل الأرض فتنة.

والاستعارة تقوم على أساس المفارقة الدلالية بين المستعار والمستعار له، فهي ((...اختيار معجمي تقترن بمقتضاه كلمتان في مركب لفظي collocation اقتراناً دلالياً ينطوي على تعارض – أو عدم انسجام – منطقي – ويتولد عنه بالضرورة مفارقة دلالية ... تثير لدى المتلقي شعوراً بالدهشة والطرافة ... فيما تحدثه المفارقة الدلالية من مفاجأة للمتلقي بمخالفتها الاختيار المنطقي المتوقع...)) [4].

---

(١) نهج السعادة ،في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٦٠٥.

(٢) م . ن ،ج٣، ص١٧٢ .

(٣) م . ن ، ج١، ص٣١٩ .

(٤) في النص الأدبي دراسة أسلوبية إحصائية ، سعد مصلوح ، ص١٨٧.

وهكذا يكون جوهر المفارقة الدلالية متمثلا ((...في نقل الخواص ... من أحد عنصري المركب اللفظي إلى العنصر الآخر ...)) [١].

فمن موارد الاستعارة التي بحسب النقل الدلالي:

۞ **الاستعارة التجسيمية** ((وتحصل باقتران كلمة تشير دلالتها إلى جماد باخرى ترتبط دلالتها بمعنى مجرد أو جماد)) [٢].

وقد ورد هذا النوع من الاستعارة التجسيمية في أحدى خطب التوحيد **((ألا وإنَّ في هدايةِ مَا اضْطُرتْ إليهِ العقولُ وَالأوْهامُ مِنْ تحقيقِ وُجُودِهِ وإخلاصِ تَوْحِيدِهِ ونَفِي تَشبيهِهِ دِلالةً على منارِ عَدْلِهِ...))** [٣]، فالاستعارة التجسيمية تمثلت باقتران الكلمتين (منار عدله) فقد نقلت خصائص الجماد (منار) نقلاً دلالياً إلى معنى مجرد هو (العدل) فأُشرب المعنى المجرد (العدل) خصائص المنار وتحول إلى مظهر مجسِّد له. هذه الصورة الاستعارية كانت ملمحاً أسلوبياً ضرورياً في هذه الخطبة، أغنت الخطاب وأضفت على طابعه التعبيري بعداً تكاملياً، فالعدل من أصول الدين، وهو إذا كان وصفاً للفعل الإلهي كان من موارد التوحيد الأفعالي التي يجمعها أقسام ثلاثة: العدل التكويني والتشريعي والجزائي [٤].

۞ **الاستعارة الإيحائية:** وهي النوع الثاني من الاستعارة و((...يرتبط مجال استخدامها بالكائن الحي بشرط ألا تكون من خواص الإنسان بأخرى ترتبط دلالتها بمعنى مجرد أو جماد...)) [٥].

مثال هذه الاستعارة قوله في إحدى خطب الحرب، وهو يرص الصفوف ويوصيهم بالصبر: **((وأَمِيتُوا الأصْواتَ فإنَّهُ اطرَدُ لِلفَشَلِ وأوْلى بالوَقارِ...))** [٦].

تتمثل الصورة بالاقتران الدلالي غير المنطقي بين كلمتي(أميتوا والأصوات) فالموت من خصائص الكائن الحي مطلقاً ولا يختص بالإنسان وحده وقد نقلت دلالته إلى الأصوات والصوت مظهر حسي فيزيائي لذلك يمكن أن ينخرط تحت مفهوم الجمادات.

---

(١) في النص الأدبي دراسة أسلوبية إحصائية،ص١٨٧.

(٢) م . ن، ص١٨٨ وقد صنف الاستعارة الدلالية إلى ثلاثة أنواع متابعاً جورج لاندون.

(٣) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٣، ص١٨.

(٤) يُنظر: محاضرات في الإلهيات، ص١٦٠.

(٥) في النص الأدبي دراسة أسلوبية إحصائية، ص١٨٩.

(٦) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص١٣٠ .

شكّل هذا الاقتران مفارقة دلالية رسمت صورة استعارية كانت من صلب الخطاب لأن الصمت في المعركة من أسباب الفوز فيها، وهو (عليه السلام) لم يأمرهم بالصبر صراحة بل جاء بهذه الصورة الدقيقة التي كشفت تجربة حقيقية خاض الإمام (عليه السلام) غمارها في المعركة.

❁ **الاستعارة التشخيصية** : ((وتحصل باقتران كلمتين إحداهما تشير إلى خاصية بشرية والاخرى إلى جماد أو حي ، أو مجرد...)) (١).

وردت مثل هذه الاستعارة في قوله (عليه السلام) في إحدى خطب الزهد يذم الدنيا ويحذر من شرورها: ((...**إنّ الدُنْيا خَدّاعةٌ صرّاعةٌ مكّارةٌ غرّارةٌ، سحّارةٌ...**)) (٢).

المفارقة الدلالية التي جسّدت هذه الصورة الاستعارية كانت في نقل الخصائص التي يتسم بها الإنسان إلى الدنيا – وهي معنى مجرد – والخصائص المخلوعة على الدنيا هي خصائص الشر فتشخصت الدنيا في مظهر إنسان شرير اتسم بالخداع والمكر والسحر، يصرع الآخرين بحيلته ويغرّهم بمكره، فالمكر والخداع والسحر صورتِ الدنيا في مظهر حسن وباطن مزيف فعرّف الإمام (عليه السلام) هذا الوجه القبيح الذي خفي عنهم وحذرهم من الإقبال عليه . وهذه الصورة شكلت عصب الغرض الذي أنشأت الخطبة لأجله، فالتحذير من الدنيا استدعى هذه الصورة التي ضخمت حجم الأخطار المحيقة بمن تلمظ لذائذها.

ج-نسق المجاورة:

والمراد به الكناية وهو يقوم على المحور التوزيعي القائم على تراصف الألفاظ مع بعضها وتجاورها وحدها هو: ((أن يريدَ المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه ورِدْفُه في الوجود، فيومئ إليه ويجعله دليلاً عليه...)) (٣).

وعرّفت أيضاً تعريفاً آخر جمع بينها وبين المجاز وفق القسمة العقلية: ((...ان اللفظة إذا أطلقت وكان الغرض الأصلي غير معناها فلا يخلو إما أن يكون معناها مقصوداً أيضاً ليكون دالاً على ذلك الغرض الأصلي وإما ان لا يكون كذلك فالأول هو الكناية والثاني هو المجاز)) (٤).

وقد يُتقبَلُ المعنى الظاهري على ظاهره، لكن السياق يتأباه، فيفرض على متلقيه أن يتأولَه، وإلا فأي انزياح يمكن ان يشخصه المتلقي في قوله (عليه السلام): ((... **مَاءٌ آجِنٌ، ولُقْمَةٌ يَغُصُّ بِها**

(١) في النص الأدبي دراسة أسلوبية إحصائية، ص١٨٩ .

(٢) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٦٣٢.

(٣) دلائل الإعجاز ص٦٦.

(٤) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز،في علوم البلاغة وبيان إعجاز القرآن الشريف، فخر الدين الرازي، ص١٠٢.

آكِلُها...))[1]، فالسامع لو أُقتطِع له هذا الجزء عن سياقه، لتمثل له الكلام على ظاهره، ولتصور أن الماء هو الماء، واللقمة هي اللقمة، لكن السياق يأبى أخذ الكلام على الظاهر، فالخطبة تتحدث عن الفتن المتلاحقة بعد وفاة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله)، فالماء إذن رمزٌ لأمر أراده، ولاسيما انه قد وُصِف بالآجن، وهو الماء الذي لا يتطلب، وأي هناءة في لقمة يغص بها شاربها . فأجواء الحديث العامة تتحدث عن الخلافة والأمور التي حصلت حولها، فلابد إذن من تأويل معنى الماء واللقمة عن ظاهرهما لتتناسب مع السياق، أو البحث عن الرمز المستكن تحت هذين اللفظين، فالتعبير إذن مجازي، وهو بعد بالكناية، لكن الكناية لم ترسم صورة فنية – وإلا لكان مجال الحديث عن هذه العبارة هو الصورة – وإنما أشرت تنافراً مع السياق، لو لم تتأول عن ظاهرها.فثمة تغيير دلالي يحتم صرف النظر عن المعنى الأصلي للدال والمدلول الحقيقين وتغييره بآخر مجازي لتتحقق الكناية على المستوى السياقي.

ومن موارد الكناية في الخطب الاجتماعية قوله (عليه السلام) يحذر من أهوال يوم القيامة من خلال وصف حال العباد ((**...قَدْ خُتِمَ على أفوَاهِهِمْ...**)) [2]، فالألفاظ المتجاورة تستدعي استبدال معنى كامل الوحدات التي كونت الجملة ،خلافا للاستبدال في الاستعارة إذ تبقى إحدى الوحدات ثابتة الدلالة والأخرى متغيرة ،وبتغيير معنى الوحدات تتحقق الكناية التي ترسم هذه الصورة لتضاعيف الخوف المهيمن على العباد وتُضاعف من أثره، فالعباد في ذلك اليوم يستبدّ بهم الهلع فلا ينطقون. فلم يذكر الإمام (عليه السلام) عدم قدرتهم على النطق وذكر المعنى الذي يومئ إليه فلازم الختم على الأفواه انعدام القدرة على الكلام . وهو ما جاء به القرآن أيضاً ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾[3]، والصورة بعد ذلك تنسجم مع سائر الكلام فهي غير زائدة ولا تمثل حلية فائضة عن المراد إبلاغه.

ومن الصورة الكنائية قوله في إحدى خطب التوحيد: ((**قد يَئِسَتْ مِنْ اسْتِنباطِ الإحَاطَةِ بِهِ طَوامِحُ العُقُولِ** ...)) [4]، فالعقول إذا كانت مرتفعة منيفة اشرفت على أصعب العلوم لقدرتها وتسلطها، فارتدادها يائسة يدل على سمو الموضوع الذي أخفقت في الاستحواذ عليه. فالعقول إذا كانت طامحة لزم من ذلك الإحاطة بما تحاوله . فالصورة الكنائية تمثلت بـ(طوامح العقول) فمعنى المفردات المتجاورة باق ، وتغيير معناها معا يحقق الكناية التي تدل على فوات اللازم مما دل على سمو الملزوم وهو التوحيد الذي ابتنيت الخطبة عليه، وبذا تكون الصورة في محور الموضوع.

---

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٥٣.

(٢)م . ن،ج١، ص٦٣٦.

(٣) المرسلات : ٣٥.

(٤) نهج السعادة ، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٥٨١.

أما ما ورد في صور الكناية في الحرب فقوله (عليه السلام) متحدثاً عن طاعته لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ((...**كنتُ أقِيهِ بِنَفْسِي فِي المَوَاطِنِ الَّتِي يَنْكُصُ فيها الأبْطالُ، وتُرْعَدُ فِيها الفرائِصُ...**))[1]، فهذه المواطن كنى بها عن اشتداد المعركة وحَمْي الوطيس ويلزم منها ان من يصبر فيها يتسم بالشجاعة.فهذه الصورة تشكلت من عدة متلازمات ارتبطت مع بعضها لترسم صورة الإنسان المستبسل في المعركة.

يعني ذلك ان كل كناية تنتطق عن صورة ، فرب كنايات وردت خالية من التصوير، عندما تشير إلى معان مجردة، بألفاظ لا تعدو الحقيقة[2]. فمثال الكناية التي لا صورة فيها قوله (عليه السلام) ((... **أمَا واللهِ لقد كان أصحابُ رسولِ اللهِ** (صلى الله عليه وآله وسلم) **وَهُمْ يُكَابِدُونَ هذا الليل**))[3]، فهذا التعبير يفصح عن المقدار الذي يكابده المؤمن، من اجل احياء الليل في العبادة، فهي تشير الى الجهد المبذول لا هيأته. ومثله في الكناية عن الجبن والتخاذل، قوله (عليه السلام) ((...**أَمِنْ قتلةٍ بالسيفِ تَفِرُونَ إلى الموتِ على الفراشِ؟**))[4]، فهنا تقرير لواقع قائم لا يمكن إنكاره، والكناية مخبوءة في قوله (أَمِنْ قتلةٍ بالسيف) فهذه هي ليست العلة الظاهرة للفرار، فالعلة الحقيقية هي التواكل والضعف،ولم يذكرهما مباشرة وانما دل عليهما بالملازمة، اذ هناك تلازم بين الفرار والخوف. فادراك هذا التعبير تقتضيه الضرورة ولا يلزم منه التصوير، لتمام المطابقة بين المفهوم والمنطوق تؤشر انزياحا دلاليا، بدليل حاجتها الى التأويل.

د-تقاطع الأنساق:

لفت نظري في الخطب التي صاغها الإمام (عليه السلام)، تجلي مظهرين مجازيين في آن واحد تُبرزهماالعبارة الواحدة ؛ فانبثقت على السطح واقعة أسلوبية يمكن أن تسمى بـ (تقاطع الأنساق) ،ومفاده تلاحم نسقين معا، كتلاحم المماثلة والمجاورة والاستبدال . فاتحاد الكناية والاستعارة معا، أواتحاد إحداهما مع التشبيه من خصائص اسلوب الإمام (عليه السلام).

فمن هذه الصور، ما ركب من تشبيه بليغ واستعارة، كقوله ((...**انَا يَعْسُوبُ الدّينِ...**))[5] فتشبيه نفسه باليعسوب هو تشبيه بليغ ، بقي كل طرف فيه مستقل عن الاخر غير ملتحم به،مما

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغةج٢، ص١٠٧.

(٢) تحدث احمد مطلوب،في كتابه فنون بلاغية،عن الكناية ونسبتها الى الحقيقة او المجاز، عند علماء العربية، ينظر:ص١٧٣. وما بعدها ومثله فعل محمد حسين الصغير في كتابه، أصول البيان العربي، ينظر: ص١٤٣.

(٣) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة،ج٢، ص٥٥٠-٥٥١.

(٤)م . ن ج٢، ص٥٩٣.

(٥)م . ن،ج٣،ص٤٧٦.

سمح بنشوء الثغرة الدلالية التي رُدمت بملائمة المستوى التعبيري للمستوى الدلالي فيكون الجامع بين الطرفين هو الهداية واضافة اليعسوب الى الدين شكل صورة استعارية تنافر مدلولها اللغوي ،فكان لابد من معالجتها دلاليا، فقد استبدل لفظ الهادي بلفظ اليعسوب، لتجسيد شخصية الهادي الذي يدل قومه على منابع التوحيد ،إذ به قوام حياتهم الدنيوية والأُخروية.فهو القدوة التي يحتذى حذوها، وهو من يسوق قومه الى سُبلِ الهُدَى، كما اليعسوب يقود النحل إلى مواضع الزهر. ومثله في التركيب ((**أنا انْفُ الهُدَى وَعَيْنَاهُ...**))[1] فالمبتدأ الظاهر مع خبره (أنا انف الهدى) مثّل تشبيها بليغا أُعيدَ نسقَه مع المبتدأ المحذوف الذي دل عليه المبتدا الظاهر (أنا عيناه) فهذان تشبيهان بليغان نهض لهما الإسناد فيما مهدت الإضافة في جملة المعطوف والمعطوف عليه الطريق للاستعارة المكنية (انف الهدى،و عيناه) فتشخيص الهدى بإسباغ المظهر الإنساني عليه ، رسم صورة القائد الذي يتقدم قومه، وهذا ما دلت عليه عبارة (انف الهدى) لمكان خبرته وعلمه وتبصره ومعرفته بمحّالِّ الهدى، وهذا ما دلت عليه كلمة (عيناه)، فأنسن الهدى، ونَحَتَ وجهاً له، بإضفاء بعض ملامحه على معنى الهدى وهو الأنف والعين، وأعفى على باقي الملامح كالفم مثلا. وإنما ابرز هذين لأن الأنف هو المتقدم على الأعضاء والعين هي المبصرة فهما حينئذ يومئان الى الرائد الذي ينتجع المرعى لأهله. وهذه الاستعارة استطاعت ان تُنْبِئ عن السياق الذي تمخض للنصح وإراءة الطريق، فها هو ذا يقول : ((**لا تَسْتَوْحِشُوا في طريقِ الهُدى لِقلَةِ مَنْ يَسْلُكُهُ...**)) وقوله ثانية في هذه الخطبة ((**...مَنْ سَلَكَ الطَّريقَ الواضحَ وَرَدَ المَاءَ ومَنْ حَادَ عَنْهُ وَقَعَ فِي التَّيـهِ.**)) فهمة الإمام (عليه السلام) في هذه الخطبة إيصالهم إلى الطريق الواضح الذي هو الصراط المستقيم عبر امتثال النصيحة وتآزرهم في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالصورة كانت في قلب السياق، وقد اوحت به ، وهيأت الأنفس للاستجابة.

ولو أُصيخَ له السمع وهو يقول: ((**...وإنَّهُ لَيَعْلَمُ أنّ مَحَلِّي مِنها مَحَلُّ القُطْبِ من الرَّحى...**))[2] لأُدْرِكَتْ صورتان أطّرَهما المجاز، الأولى تقوم على التشبيه، اذ شبه محله من الخلافة، بمحل القطب من الرحى فكلاهما مركز جذب فالخلافة اذ تحوم حوله شابهت الرحى وهي تدور حول القطب، فلو انتفى القطب لانتفت الرحى، ولِمَا عاد ممكناًاستمرار وجودها فضلا عن بقاء عملها كذلك كان هو (عليه السلام) أساس الخلافة، فتحول الخلافة إلى غيره، يعني إبطال مضمونها لتحركها عن المحور الذي كان يستقطبها؛ فإن هذين اللفظين (القطب والضمير المتصل الذي يتحدث عن الخلافة) تبادلتا التأثير وفقدت كل واحدة منهما استقلالها وأسقطت الخلافة معاني ظلالها على

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٢، ص٥٨١.

(٢) م . ن،ج٢، ص٤١٣.

القطب وأسقط القطب معاني ظلاله على الخلافة وانفعلت كل واحدة منهما بالأخرى، واستعارة قطب الرحى للخلافة شكل المظهر الثاني من مظاهر التعبير المجازي.

ومن قوله ((...**ألا وإنّي ظَاعِنٌ عنْ قَرِيبٍ، ومنطلقٌ إلى المغيبِ...**))[1] فقوله (اني ظاعن) نسق مبني على المجاورة يقبل المعنى الحقيقي ،لكن السياق اللغوي الحاف يومئ إلى المعنى الكنائي إذ صور هذا النسق إنتهاء رحلة العمر الدنيوية بالموت. يقوي هذا المعنى العطف على هذه الجملة قوله (**ومنطلقٌ إلى المغيبِ**) فإذا كانت هذه الجملة التي هي خبر لمبتدأ محذوف قد استجن وراء تركيبها مفهوم الموت بالكناية في التعبير عبر تغيير النسق المتجاور كاملا ،فقد اشتملت على صورة أخرى إذ استعيرت الشمس وهي تفارق الأفق لرحيل الإمام (عليه السلام) عن هذه الدنيا، فقد كان منار هداية. ويلاحظ هنا ان كلمة (مغيب) عكست وجهين مجازيين، فقد أراءت للمتلقي مفهومين متغايرين احدهما الموت، وقد أجلت صورته الكناية، والثاني هو الشمس الجانحة للمغيب، وقد أزاحت الستارة عنه الاستعارة. فهذه اللفظة الواحدة تري صورتين يعتمد التقاطهما على تعديل زاوية النظر وقد كشفت عن تقاطع نسق المجاورة مع نسق الاستبدال.

وفي مناط الحديث عن نفسه وأهل بيته، وحكاية الظلم الذي وقع عليهم (عليهم السلام) قوله ((... فراموا هتك الستور الزكية وكَسْرَ آنيةِ اللهِ التَّقيةِ...))[2] فباعتبار انهم اوعية للدين استعار لفظ الآنية لذلك، ونسبها للفظ الجلالة ليبين شدة ارتباطهم به سبحانه، واكّد النسبة لما جرد لها لفظة التقية، أما كلمة (كسر) فهي كناية عن إزالتهم عن مراتبهم ، وتعريف بالحيف الذي وقع عليهم .وهكذا يلاحظ تقاطع النسقين الكنائي والاستعاري في نمط متداخل.

ولأن ((كل صنعة تؤدي بالضرورة إلى انزياح)) [3]، بحسب جورج مونان، فإنّ موارد الخلط بين الاستعارة والانزياح الدلالي وارد لذلك يُحذر جان كوهن من ذلك فيقول: ((لا ينبغي الخلط بين الانزياح الدلالي والاستعارة)) [4]، فقوله (عليه السلام) ((...**أين من يشري وجهه...**)) [5]، خير شاهد على إمكان حصول ذلك الخلط. لكن الباحث يستطيع ان يعزل تداخل الأنواع، فيشري وجهه استعارة من جهة تشبيه بذل النفس بعملية البيع، فاستبدل مفهوم الجهاد بمفهوم التجارة ، إذ بيع النفس في سبيل الله هي متاجرة مع الخالق ، فهنا تحقق نسق الاستبدال. وهي كناية لأن شراء الوجه إذا

---

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص٦٤٨.

(٢) م . ن، ج٢، ص٦٤٩.

(٣) الأسلوبية وتحليل الخطاب، ص٤٦.

(٤) بنية اللغة الشعرية، ص١١١.

(٥) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٢، ص١٤٤.

تحقق لزم منه حصول الشهادة، وهي مجاز مرسل علاقته الجزئية لأن الوجه بعض الجسم، والانزياح متحقق في المجاز، لأن دلالة الوجه على الكل هي دلالة زاحفة، حققت ما قبلها منافرة دلالية شكلت هذا الانزياح.ففي هذه الجملة الصغيرة تحقق تداخل متنوع الأشكال ضم عدة أنساق، وجميع هذه الصور استقيت مصادرها من بيئة الإمام (عليه السلام) المعيشية والمعرفية فهي انعكاس لتجاربه الماضية في الحرب والحياة ، ولما تعلمه من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

المبحث الثاني : التكرار

يُعَدُّ التكرار في خطب الإمام علي (عليه السلام) خاصية أسلوبية تعدت في ألوانها وأفانينها الشكل التقليدي الذي صرحت به كتب البلاغة وهو: ((...أن يكرر المتكلم اللفظة الواحدة لتأكيد الوصف والمدح أو الذم أو التهويل أو الوعيد))[١] فالتكرار هنا له أشكال متعددة، وهذه العلل المذكورة في ذيل التعريف لا تقتصر على تكرار اللفظة الواحدة، كما أنها ليست عللاً فريدة، فلربما تكرر الكلام، لغرض التثبيت وإزالة الشك والتمكين للمعنى والاحتياط له[٢].

فالتكرار هنا ملمحٌ أسلوبي بارز، تتقوم به صياغة الخطاب، وله أفراد متعددة تتراوح بين تكرار اللفظ والتكرار الاشتقاقي وتكرار المعنى والتناوب بين الخبر والانشاء، على نحو متكرر ولاسيما في مظان النصح والإرشاد والتحذير من الدنيا هذا التكرار الذي تنامى حتى عنَّ له أن يدخل في مجال التدويم الذي قال به صلاح فضل وعنى به ((...تكرار النماذج الجزئية أو المركبة بشكل متتابع أو متراوح...)) [٣]، ومن أشكاله ان يندرج الكلام في سلسة تامة أو ناقصة تأخذ صوراً شتى – كما سيأتي – .

فالتكرار من حيث المبدأ ليس الغاية منه إشباعَ لذة فنية، بل هو ما يتطلبه المقام وتفرضه أسس التواصل، وتحتمه سنن الإبلاغ، لكن عين النقد لا يستعصي عليها رصد التكرار من ناحية جمالية، فلئن لم يكن التكرار مقصوداً لغاية فنية في أصل إنشاء الخطاب، بأن كان حدثاً شفاهياً تتناقله الألسن أسوة بالشعر والقرآن الكريم والسُنّة الشريفة، فلا يعز على الباحث بعد أن استتب الحدث اللغوي قيمة أدبية مبثوثة في ثنايا الكتب أن يكتشف في التكرار معالم اقتدار لغوي، لأن الهدف الكامن وراءه هو إيضاح الحقائق وجلاؤها وكشف المبهمات وإبانة الأمور الخافية، فضلاً عن الحسن الذي يزيد الكلام ألَقاً يمكنه من النفوس والأسماع.

تكرار الأداة

وأول ملامح هذا التكرار هو تكرار أداة واحدة بعينها، كتكرار (أَلَا) التي يستفتح بها الكلام لغرض التنبيه أو التوبيخ والإنكار أو التمني[٤]، ... إلى آخر الإغراض التي تستجلب معها ألا، وهو (عليه السلام) استعمل (ألا) هذه في موارد النصح، فمن ذلك قوله (عليه السلام) في الخطبة المعروفة

(١) تحرير التحبير،في صناعة الشعروالنثر وبيان إعجاز القرآن ص٣٧٥.

(٢) الخصائص، ج٣، ص١٠٩.

(٣) ظواهر أسلوبية في شعر شوقي، صلاح فضل، ص٢١١، مجلة فصول، العدد الرابع، ١٩٨١م.

(٤) حاشية الدسوقي على مغني اللبيب، ابن هشام الأنصاري، ج١، ص١٧٨ وما بعدها .

بالديباج: ((**أَلَا وَإِنَّ مِن الحَزْمِ أن تَثِقوا...**)) [١]، ثم قال بعد حين ((**ألا إنّ الصدقَ على شُرَفِ منجاةٍ وكرامةٍ، وإنَّ الكذبَ على شفا ردى وهلكةٍ، ألا وقولُوا الحقَ تُعرفُوا بـه...**))، فـ(ألا) في جميع الموارد السابقة جاءت لغرض الحث على عمل الخيرات[٢]، وترغيبهم بالأخلاق الحسنة. وجاءت بعدئذ للتنبيه، لتدل على خطورة الأمر وذلك قوله في الخطبة عينها: ((**ألا وإنَّكم في أيام مُهَل من ورائها أجَل...**))، فإن (ألا) وإن كان تستلزم سمتاً واحداً، إلا ان معناها يتغير بتبدل مناحي الكلام، فمدلولها هنا هو التحذير وهو ينسجم مع عموم السياق المنعقد لتبصيرهم بآفات الدنيا والاحتراس منها ولمثل هذه الغاية تكررت (ألا) بعد ذلك في هذه الخطبة . بل في خطب أخرى، كالخطبة التي قالها على منبره لما بلغة قتل محمد بن أبي بكر، فقال: ((**ألا وإنّ مصرَ قدِ افتتحَها الفَجَرةُ... ألا وإنّ محمد بن أبي بكر قد استشهد –رحمةُ الله عليه– وعند الله نَحْتَسبه**))، على الرغم من أن (ألا) في الجملتين المذكورتين تبدو كأنها تمخضت للتنبيه لتحقق ما بعدها[٣]، إلا أن تتبع باقي الكلام والتأمل فيه يعطي تصوراً آخر، وإن هذه الأدوات كانت سبيل الإمام (عليه السلام) إلى اجتراح العتب واللوم على مخاطبيه الذين تقاعسوا عن نصرة محمد بن أبي بكر حتى فات الأوان، وآية ذلك قوله: ((**وإنّي واللهِ ما الومُ نَفْسِي على تقصيرٍ ولا عَجزٍ... فأَستصرِخُكُمْ معلناً وأناديكم مستغيثاً، فلا تَسمعونَ لي قولاً ولا تُطيعونَ [لي]**[٤] **أمراً، حَتَّى تصيرَ الأُمورُ إلى عواقِبِ المساءَةِ وأنْتُم قَوْمٌ لا يُدْرَكُ بِكُمُ الثّارُ، ولا يُقْتَصُّ بِكُمُ الأوْتارُ!**))، فبقرينة ما تقدم تكون (ألا) في الجملتين الآنفتين قد خلصت للتوبيخ، وإن الهدف منها هو التنبيه الذي شابه التوبيخ والاستنكار لفظاعة الفعل الناجم عن تقاعسهم وعدم امتثالهم لأوامر الإمام (عليه السلام) فالتكرار لهذه الأداة جاء لمعاضدة المعنى الذي ساد أجواء الخطبة. وهو تبكيت المخاطبين لقعودهم عن نجدة محمد بن أبي بكر، حتى لقي حتفه شهيداً[٥]. ومن سبل التكرار :تكرار حرف النداء (يا) كما في قوله (عليه السلام) ((**يا أغراضَ المنايا، يا رهائنَ الموتِ، يا وِعاءَ الأسقامِ، يا نُهبةَ الأيامِ، ويا نَقْلَ الدهْرِ، ويا فاكهةَ الزّمانِ، ويا نَورَ الحدثانِ، ويا خُرس عندَ الحججِ ويا [من]** [٦] **غمرتْهُ الفتنُ...**))، فالنداء هنا لا يراد به مجرد الالتفات

---

(١) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص٣٥٢ وما بعدها .

(٢) يُنظر: حاشية الدسوقي على مغني اللبيب، ج١، ص١٨١ .

(٣) م . ن ، ج١، ص١٧٨.

(٤) هذا القوسان أضافهما مؤلف الكتاب محمد باقر المحمودي، إذ رأى أن المعنى لا يستقيم إلا بإضافة (لي)، ج٣، ص٣٩٠.

(٥) لقد تكررت كلمة (ألا) في خطب الإمام (عليه السلام) غير مرة، يُنظر: نهج السعادة، ج١، ص٦٣، ص٢٧٩، و ج٢، ص٢٣٤ و ص٢٤٢ وص٣١٩ وص ٣٤٠ وص٣٦٣ وص٤١٩ وص٤٥٦ وص٤٧٦، وج٣، ص٤٥٦ وص٤٧٦ وبعض هذه الشواهد للاستئناس لأن بعضها لم يرد في الخطب وإنما في الكلام والمحاورة.

(٦) المعقوفتان هنا من مؤلف الكتاب، محمد باقر المحمودي، يُنظر ج٢، ص٤٥٤.

والإقبال على المخاطب إقبالاً ظاهرياً، فالمأمول من السامع الإصاخة والتأمل العميق لما يتلقاه، لذا تكررت الياء لتتجاوز مدلولاً ووظيفة تعريف المسند إليه، بالنداء إلى تشخيصه وتعيينه تمهيداً لبيان ما يراد منه، وقد تنوعت صيغ المنادى دون حرف النداء الذي بقي واحداً ؛ لبيان وحدة المنادى وهذه الصيغ المتعددة مفصحة عن كثرة الابتلاءات المحيطة بهذا المنادى، لذا لزم نصحه وإرشاده بما ينفعه وترسيخ هذا النصح عبر طلب المزيد من الالتفات.

تكرار اللفظة الواحدة

ومن صيغ التكرار، تكرار كلمة بعينها في موقف معين، كقوله (عليه السلام) مكرراً كلمة (هيهات): **((هَيْهاتَ هَيْهاتَ لَوْلَا التُّقَى كُنْتُ أَدْهَى العَرَب))** [1]، فتكرار هذه الكلمة أُريد به الاستبعاد[2]، ضاعف من أثره مجيء الكلام مشروطاً بلولا على نحو امتناع التالي لحصول المقدم، فلولا أن التقى حاصل منه لكان أدهى العرب، فقد حجزه التقى عن المكر، وضاعف تكرار هيهات تمكين هذا المعنى وتوطيده في النفس.

ومن تكرار الأدوات انتقلُ إلى تكرار الكلمات .فمنها تكرار كلمة (أوهام) في سياق انكفاء العقول عن الوصول إلى مكنون الذات الإلهية، وعجزها عن استجلاء خباياها واستطلاع خفاياها، كقوله (عليه السلام): **((الحَمْدُ للهِ الَّذِي أعدَمَ الأوْهَامَ أنْ تَنَالَ إلى وُجُودِه))**[3]، فجعل الأوهام مفعولاً به لكلمة (اعدم)، إذ لا تقع بعد إعمال الفكر والتروي على شيء ملموس؛ ولذا استعمل الفعل الذي يتعدى بنفسه وبغيره (تنال) استعمله هنا متعدياً إلى غيره بواسطة حرف الجر (إلى) دون اللام الجارة فلم يقل (لوجوده) [4] ولو قالها لما بان بعد الشقة واستحالة الوصول إلى سر وجوده تعالى، فحرف المد القابع في آخر كلمة (إلى) عمّق بعد المسافة وعزز حقيقة العجز الذي صار أوهاماً وصيغة الجمع تسفر عن تعدد طرق الوصول المرتدة ناكصة دون نيل مبتغاها. وما يؤيد هذا المعنى في استعمال اللفظة ذاتها **((لا تَقَعُ الأوْهامُ على كُنْهِه...))** [5]، فجاءت (الأوهام) هنا فاعلاً حاكية عن الدأب الدائم في سيرها بحثاً عن سر سر الإله المنسدلة دونه حجب الغيب، لذا قال (عليه السلام) في تقوية هذا المعنى **((...ولا تُدْرِكُ الأوْهام))** [6]،وبذا تجلى أنه (عليه السلام) إنما يستعمل هذه اللفظة عموماً عندما ينبعث العقل في البحث عن حقيقة

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٧٨.

(٢) يُنظر: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ٣٧٦.

(٣) يُنظر: نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٦٩.

(٤) يُنظر: القاموس المحيط ،ص٩٨٣ مادة: النوال .

(٥) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٣، ص٤٧.

(٦) م . ن،ج٣، ص٥٣.

واجب الوجود فأنه يرتد حسيراً، ويستحيل إلى وهم، لانسدال الستر بينه وبين عوالم الغيب، أما إذا كان مجال البحث هو عالم الشهود، فالعقل يظل عنواناً شاهداً على نفسه. من هنا قابل بين العقل والوهم في خطبة واحدة أكثر من مرّة، وذلك في الخطبة الثالثة من الجزء الثالث إذ يقول فيها[1]، ((...**إحْوَاجَاً مِنْهُ لِمَبالِغِ العقولِ والأوهامِ إلى العِبَرِ والْفِكرِ...**))، وقوله: ((...**إلّا مِن طريقِ ما أدركتْ ضرُوراتُ العُقُولِ والأوهامِ...**))، وقوله أيضاً: ((**وكلُّ ذلكَ مما يَدُلُّ عليه العُقُولُ والأوهامُ**))، وقوله أيضاً: ((**ما اضْطرتْ إليهِ العقولُ والأوهامُ...**))، فتبين بذلك أن الأوهام تقابل العقول، وأنها تغوص في أفكار عميقة، تكل عنها لسمو الموضوع الذي تبحث فيه وتخوض في غماره.

ولا يقتصر التكرار على تكرار الكلمات فهناك تكرار الجمل، إذ كرر الإمام (عليه السلام) نوعاً من القَسَمِ الذي يصح نعته بأنه قَسَمٌ أسلوبي، مثّلَ خاصيةً فريدة، ارتبطت بالإمام (عليه السلام) دون غيره، فكلما أراد أن يبين أهمية واقعة ما، أو شأن عظيم، انبرى يقسم بقوله: ((**والذي فَلَقَ الحبَّةَ وبرَأ النسْمَةَ**)) هذا القسم الذي يشتمل على ذكر أدوات القدرة التي يتصف بها المقسوم به، وهي صفات قائمة على جوانب الابتداع وإنشاء الخلق من العدم وتصييره ممكناً في عالم الوجود فهذا ما تتقوم به الخالقية.وقد انعطف الفعلان (فلق وبرأ) على بعضهما، فدخل الثاني في حيز الصلة التي أظلت الفعل الأول، وتشاركا في وحدة المضمون، فالجملة الأولى تشير إلى خلق النبات من العدم والثانية إلى خلق جنس الحيوان بنوعيه الناطق والصامت من العدم أيضاً، فشكلا جملة عميقة المغزى تسوّغ هذه الاستطالة النسبية .

التكرار الاشتقاقي

هو أن ((...تتجذر مجموعة من الصيغ تحمل ملامح الملفوظ الأصلي نفسها نتيجة انبثاقها من جذر المفردة نفسه وإن سمتها الدلالية لاتتغير تبعا للتجانس الصوتي بين المكررات لأن التجانس حينما ينطق به يفضي الى لون من الانسجام...)) [2] وها يعني أن التكرار يقع في حيز الصوت لا الدلالة وإلا صار تكرارا جناسيا،فمن سبل التكرار، التكرار الاشتقاقي الذي يقوم على أساس تكرار المادة الأصل واستلال صيغة أخرى منها، تشابهها في اللفظ والمعنى، وذلك لتوكيد المقصود، فمنه قوله(ع) يُبكّت قومه، وقد انتدبهم للجهاد فلم يطيعوه: ((**دَعَوْتُكُم إلى غَياثِ إخوانِكمْ مُنذُ بِضعٍ وخَمسينَ لَيلةً، فجَرْجَرْتُم عليَّ جرجرةَ الجملِ الأسَرِّ، وتثاقلتُمْ تثاقلَ من لا نِيَّةَ له في الجِهادِ...**))[3]، فقد اشتق من (جرجرتم وتثاقلتم) مفعولين مطلقين انصب اشتقاقهما في مجال التوبيخ إذ أفصحا مع

---

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة ،ج٣ ص١٦-١٨

(٢) شعر ابن الجوزي ، دراسة أسلوبية ،شهاب أحمد الجبوري،ص١٧٤.

(٣) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص٣٩١.

فعليهما عن مقدار تخاذل القوم وعدم انصياعهم للمأمول منهم، فلم يكتفوا بالعصيان وإنما جمعوا إليه التضجر والتكاسل، فسلخ الإمام (عليه السلام) صورة من بيئتهم تحاكي أفعالهم في التواني والانحياز عن سبل الطاعة وهي صورة الجمل المريض، ثم عمد إلى وصف تثاقلهم عن الجهاد وكأنهم بمنأى عنه حتى أنه لا يخطرُ في أذهانهم، ساعد على إبراز هذا المعنى هذا التكرار الذي قام له الاشتقاق المعزز بالوصف (جرجرة الجمل الأسر... تثاقل من لا نية له في الجهاد) فالجرجرة والتثاقل جاءا موصوفين لمضاعفة الأثر الذي ينهض له أصلُ التركيب في جرجرة والمعنى المعجمي في تثاقل.

وربّت تكرار اشتقاقي صور قيّمة ايجابية تعكس عناية أمير المؤمنين (عليه السلام) برعاياه وهو قوله: **((ألا إنَّ أخْوفَ مَا أخَافُ عَليكُمْ إتِّباعُ الهوى وَطُولُ الأمَلِ...))** [1]، فكلمة أخوف بصيغتها الدالة على التفضيل مع الموصول وصلته المنقوشة من المادة ذاتها التي حِيكَ منها اسم التفضيل دلتا جميعاً على شدة الحرص والرفق الذي يوليه أمير المؤمنين (عليه السلام) لقومه، حتى أن أموراً متعددة توجب خوفه عليهم.

وللخوف درجات تتفاوت قوة وضعفاً، وهو (عليه السلام) في إيلائه الاهتمام بهم بلغ أعلى الدرجات، لذا عمد إلى هذا التكرار الاشتقاقي عبر تنويع صيغة المادة بيّن اسم التفضيل والفعل المضارع المشيرتين إلى حال المتكلم، فيما يتفرد الفعل المضارع في الدلالة على استمرار الفعل قيد زمن الحال[2]، وصولاً إلى المستقبل[3]، ليغطي محوراً زمنياً عريضاً، ينسجم مع جليل مسؤوليته (عليه السلام) عن جموع المخاطبين.

ومن ملامح التكرار الاشتقاقي الذي يحمل قِيَماً معنويةً عُليا، قوله (عليه السلام) يعظ من حوله: **((فاحْذرُوا مِنَ اللهِ مَا حَذّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ، واخْشَوْهُ خَشْيَةً ليستْ بتَعْذِيرٍ...))** [4]، فقد وسع (عليه السلام) دائرة الحذر بعد أن أردف فعل الأمر (احذروا) بمفعول به هو صلة كان موصولها من سنخ المادة التي انبثق عنها فعل الأمر وهو الفعل الماضي (حذركم) الذي يوحي بالتشديد، لمكان تضعيف العين (حرف الذال). وهذا الكلام يتناص تناصاً داخلياً مع قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، التي تكررت في سورة آل عمران مرتين[5]، إذ دلت بتكرارها على أشد

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة ،ج١، ص٤٦٣.

(٢) ينظر، تحليل الأفعال الانجازية في الخطاب السياسي، دلالة الفعل في خطاب السلطة ، محمود عكاشة، ص٤٧.

(٣) يُنظر: دلائل الإعجاز، ص١٧٤ ففيه أن موضوع الفعل يتجدد شيئاً فشيئاً.

(٤) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة، ج٣، ص٣٢٠.

(٥) آل عمران : ٢٨ ، ٣٠ .

التهديد[1]، ورأى بعض المفسرين ان النفس قصد بها العقاب[2]، بينما رأى آخرون أن (نفسه) تدل على انه تعالى هو نفسه المخوف الذي يجب الاحتراز منه[3]، وكان من حق كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) أن يحاكي القرآن في تعدية الفعل (احذركم) إلى (نفسه) مباشرة[4]، دون إقحام حرف الجر (من) لكن لما كان كلامه (عليه السلام) ينجر إلى التذكير بالوعيد، وكان هو طريقاً مذكراً، وليس هو القائم بالتهديد كما هو الحال في الآيات القرآنية إذ كان المهدد هو المتكلم، ناسب هنا أن يؤتى بحرف الجر فاصلاً بين الفعل والمفعول به الثاني. من هنا عقب هذا الكلام بالتخويف (واخشوه خشية) فقد أبان هذا التكرار الاشتقاقي عن سعة مقدار هذه الخشية، فعلى المكلف أن لا يألوَ جهداً في بذل ما يستطيع من الطاعة، لئلا يوسم بالتقصير، وهذا ما أسست له الصفة التي تلت المفعول المطلق (خشية ليست بتعذير)، وهكذا تصافق الفعل والمفعول المطلق والصفة على رسم صورة للتقوى ببيان :أن (الحذر منه تعالى والخشية منه)، مصاديق تندرج تحت ظلالها.

وقد ينبني التكرار الاشتقاقي على أساس إثبات المادة ثم نفيها كقوله (عليه السلام): ((**أيُّها الناسُ إنِّي قَدِ اسْتَنْفَرْتُكُمْ فَلَمْ تَنْفِرُوا...**)) [5]، فصيغة استنفر الدالة على الطلب لتمام المزاوجة بين حروف الزيادة والصيغة الأصلية[6]، تتطلب بشكلها هذا، المعقود للبعث والائتمار رد فعل ايجابي، لا مهادنة فيه في لزوم الطاعة، لكن الحاصل هو العكس (فلم تنفروا) فالمادة الأولى (استنفرتكم) صريحة في وجوب (الاستنفار) والثانية (لم تنفروا) تثبت عدم الانصياع بدلالة لم التي جعلت مجرى الزمن ماضياً وهكذا أصبح السياق يدل على اللوم.

ومنها وقد تراوح التكرار الاشتقاقي بين نفي المادة وبين ثبوتها، قوله يذم الراجي للآخرة بدون عمل ((**...ويَنْهَى وَلَا يَنْتَهِي ... تَغْلِبُهُ نَفْسُهُ عَلَى مَا يَظنُ وَلَا يَغْلِبُها على مَا يَسْتَيقن...**)) [7]، فالتناوب بين النفي والإثبات هنا، يهدف إلى نبذ الشخصية المتواكلة التي تهمُّ بفعل الخير، لكنها لا تعمل به كأن المعني به هم الآخرون دونها، وهكذا يفصح هذا التكرار عن الأماني التي لا يعمل بها صاحبها، فهو ينهى عن المعاصي ولا ينتهي عنها، فالمادة مرددة بين النفي والإثبات، لتنفذ إلى

---

(١) ينظر: الميزان في تفسير القرآن، ج٣، ص١٧٧.

(٢) يُنظر: إعراب القرآن، ابن النحاس، ج١، ص١٥ ؛ ومجمع البيان، الطبرسي، ج٢، ص٢٧٤.

(٣) ينظر: الميزان في تفسير القرآن، ج٣، ص١٧٨.

(٤) يُنظر: اعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين الدرويش، ج١، ص٤٢١ ، ففيه: ان الفعل (يحذركم) يتعدى لواحد في الأصل وبالتضعيف ازداد آخر.

(٥) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٢، ص٤٣٦.

(٦) يُنظر: اللغة العربية معناها ومبناها،ص١٤٤.

(٧) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٢، ص٤٥٣-٤٥٤.

خبايا الشخصية المتوانية، التي تركن إلى الدِعة وتطلب إلى غيرها السعي والجد، وفي المعنى ذاته تتأرجح صيغة (غلب) بين السلب والإيجاب **((تَغْلبه نفسه ... ولا يغلبها))** [١]، والمفارقة تكمن في ان نفسه تصرعه في مواضع الظن، بينما يستسلم لها في موارد اليقين، فالغلبة للنفس في الحالين، فهو صريع شهواتها، فبدلاً من أن يزكيها يقع في حبائلها، وهكذا استطاع التكرار الاشتقاقي أن يرصد حالة هذه النفس الخائرة التي تتوق إلى المعالي وهي في دركات الابتذال المادي.

تكرار المضمون

وهو تكرار تتناوشه أشكال عدة، ويقوم في أساسه على التناوب بين الخبر والإنشاء، في تعاقب قد يمتد حتى يكتسب عمقاً يطاله (التدويم) الذي قال به صلاح فضل – وقد أشرت إليه في مستهل المبحث هذا – ويتخلل هذا التناوب ظواهر مختلفة، كالازدواج الدلالي والتضعيف الذي يتدرج فيشكل أحياناً، تدرجاً تاما[٢]، يأخذ شكل سلسلة تامة، مترابطة الأجزاء، بما يشبه رد العجز على الصدر[٣]، أو تدرجاً ناقصاً فيشكل سلسلة ناقصة. وكثيراً ما يتحكم بالتناوب عنصرا الموازنة أو المماثلة، فتساهم في إبراز ايقاع داخلي، يتسق مع المضمون، والشكل العام للخطبة.

ومن الخطب التي يشكل تكرار المضمون فيها مستنداً تأسست عليه أركان الخطبة قوله ناهياً عن الفتنة: **((أيُّها الناسُ ،إنَّ مبدأَ وُقُوعِ الفِتَنِ أهْوَاءٌ تُتَّبع وأحكامٌ تُبْتَدَعُ...))** [٤]، فالمتوقع بعد قوله أيها الناس، أن ثمة أمراً إرشادياً سيتناهى إلى المسامع وقد كان، لكنه تلبس بلباس الخبر، والخبر ليس هو المراد، بل المراد توخي الحذر وان يستنفذ المخاطب جهده في التفريق بين الشبهات المضلة والحق الواضح. وقد نَفَذَ من خلال هذا الكلام المتوشح بالشكل الخبري ظاهرة تدخل في صلب التكرار المضموني، وهو الإزدواج الدلالي الذي يقوم على أساس تثنية العمل، فيعضدها ما يماثلها ويراد منها زيادة في إبراز المعنى، أو ما يناظرها للتقريب، أو ما يغايرها إظهاراً للمعاني المخالفة والمضادة.

ومن مظاهره في هذه الخطبة قوله ((أهواء تتبع وأحكام تبتدع)) فتكاد معاني الجملة أن تكرر مفهوماً متشابهاً في دلالته، لأن النسبة بين الأهواء والبدع تنضوي على دلائل متقاربة، يصح أن تفهم بوجه من الوجوه على أنها تكرار مضموني يعززه غلبة الجانب الصوتي الذي تُهيّء له

---

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة ، ج٢، ص٤٥٤.

(٢) يُنظر: النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، عدنان بن ذريل، ص١٧٣.

(٣) يُنظر في تعريفه: فنون بلاغية،(البيان–البديع) ص٢٣٧ .

(٤) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٢٥٢.

الموازنة لتشكل تكراراً صوتياً، لاتساق الوزن، مع الفاصلة المجهورة[١] (حرف العين)، كأنما لتضاعف الصوت، فيبلغ القلوب قبل الأسماع . ومثله في التكرار توالي التاء على نحو مثلث في كلمة (تتبع) فهي مزدوجة المظهر مثلثة اللفظ (تُتْتَبَع) ثم تثنيتها في كلمة (تبتدع)، والتاء حرف مهموس[٢]، أسبغ ظهورها المتكرر في كل فاصلة مع حرف العين المجهور نوعاً من المراوحة بين الرفق والشدة، وهو ما ينسجم مع إضمار الإنشاء وراء مظهر خبري، ليخفف عليهم وطأة النصح ويمهد النفوس لاستقبال الارشاد دونما تحفظ، وقد كان هناك تلاحم بين الجملتين، شبكت أواصره الواو، إذ كانت كل جملة تمتُّ بصلة معنوية إلى الأخرى، فهي تناظرها، وتتصل منها بسبب دلالي[٣]، وهذا عمّق متن الخطاب، وزاد في تشييده.

وقد استمر ترادف الجمل الخبرية في هذه الخطبة، على نحو متنوع لا يبعد عنه التكرار المتوازي الذي يستند على استعادة مخطط إسنادي واحد[٤]، كقوله (عليه السلام): ((فَلَوْ أنّ الحَقَ خَلُصَ لمْ يَكُنِ اختلافٌ، ولَوْ أنَّ الباطِلَ خلُصَ لمْ يَخْفَ على ذي حِجًى...))، فقد تكرر هذا المنحى التركيبي المؤلف من (لو والحرف المشبه ثم اسمه والفعل الماضي (خلص) الذي تكرر في الجملتين كلتيهما –وهذا الفعل عزز من التكرار – ثم أداة الجزم فالفعل المضارع) فقد أسهم هذا التكرار في إرساء معنى المقابلة بين (الحق والباطل) وهو لبُّ موضوع الخطبة والمقتضي أن يعلم السامع سبب اختلاطهما حتى ليتمازجا فيلتبس شأنهما على أصحاب العقول.

وهكذا قامت الخطبة على أساس تكرار الوحدات الدلالية التي تُنظّم البنيات المتوازية، فتترابط فيما بينها بسببٍ من المشابهة في التركيب والتباين في الموضوع[٥].

ومن مظاهر تكرار المضمون القائم على التناوب بين الخبر والإنشاء ما جاء في خطبته المعروفة بالديباج.

فقد بدأت الخطبة بالحمد والشهادة، وقدِ اتخذا شكلاً إخبارياً، ثم عمد(ع) إلى الإنشاء الصريح الذي توسل اليه بطريقة يكتنفها الرفق، لإحداث الأثر المرجو، إذ قال: ((...**وأوْصِيكُم بِتَقْوَى اللهِ**...)) [٦]، والوصية أخف وقعاً على المأمور من الأمر، وألطف إيقاعاً، والفعل المضارع هنا

(١) يُنظر: سر صناعة الاعراب، ج١، ص٢٤١.

(٢) م.ن.ج١، ص١٥٥.

(٣) يُنظر: دلائل الإعجاز ص٢٢٥.

(٤) يُنظر: النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، ص١٧٢.

(٥) يُنظر: قضايا الشعرية، ص١٠٨ فهناك فصّل ياكبسون، في مفهوم التوازي في النثر.

(٦) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص٣٥٠.

طلبي، عمد الإمام (عليه السلام) بعده إلى الشكل الاخباري الذي يحمل طابعاً انشائياً، يتفتق منه الإغراء، بكل فعل جميل بوصفه موضوعاً للتقوى ((...**فإنّ أفضلَ مَا تَوسَّلَ بِهِ العبدُ الإيمانَ...والجهادَ...وكلمةَ الإخْلاصِ**))، وقد علل كل عمل صالح، بما يشوق العباد إليه ...((**وكَلمةُ الإخْلاصِ فإنّها الفِطْرةُ، وإقامُ الصّلاةِ، فإنّها المِلّةُ، وإيتاءِ الزَّكاة فإنّها من فَريضَتِهِ**...)) إلى آخر هذه الجمل التي تولدت عن نهج واحد يرجِع إلى تشريعات الإسلام.

وفيها واشج بين الخبر والإنشاء، إذ قال ((...**فاعْمَلُوا بِمَا عَلِمْتُمْ بِهِ لَعَلَكُمْ تَهتَدُونَ فإنَّ العالِمَ العاملَ بغيْرِعِلْمِهِ كَالجاهلِ الحائرِ**...))، واستمر في منحىً خبري ظاهره، إلى أن تحول مرّة أخرى إلى الإنشاء، متصيداً من أشكاله النهي، وقد أفضاه إلى المخاطبين في صورة النهي المستند إلى سَلسلتين غير تامتين ،سُبكتا برد العجز على الصدر ((**لا تَرْتَابُوا فتشكُوا، ولا تَشُكوا فتكفرُوا، ولا تُرخِّصُوا لأنفُسِكُمْ فتَذْهَلُوا، ولا تَذْهلُوا في الحقِ فتَخْسَرُوا**))، فقد بدأت السلسلة الأولى بالنهي والزجر عن الارتياب ؛لأنه الحلقة الأولى في السلسة الثلاثية المفضية إلى الكفر، وأرى أن السلسة غير تامة لأنه (عليه السلام) لم يتم الكلام فيبين مصير الكافرين، ربما لعلم السامعين بمصيرهم، أو لأن السكوت عما بعد الكفر فيه تهييج لخيال المستمع لينأى به عن اقتراف الارتياب الذي هو أول مراحل الكفر فيصير به إلى الطمأنينة والثبات على التوحيد . وهكذا تبدو السلسلة الثانية مقطوعة أيضاً، لأنه (عليه السلام) لم يذكر مآل الخسران، وهو الحلقة الأخيرة في السلسلة الثانية التي تبدأ بقوله (ولا ترخصوا) وهكذا تستمر الخطبة وقد ازدانت بالتكرار المضموني في تنوعات مختلفة تمثلت في رد العجز على الصدر ضمن تسلسل غير تام، والتوازي القائم على تكرار المخطط الإسنادي وفق المستوى النحوي، والمبني على أساس التقابل الذي يفرزه التضاد بين المعاني((**ألا وإنَّ منَ الحَزمِ أنْ تَتّقُوا وَمِن الثِّقةِ أنْ لا تَغْتَرُوا**...))، هنا يتجلى رد العجز على الصدر في تكرار الكلمتين المتجانستين (تتقوا – ثقة) وقد تجلى الاقتران الدلالي الذي يكشف عن تغاير المعنى وفق مبدأ التضاد في ما تلا ذلك، إذ يقول: ((...**وإنَّ أنصَحَكُمْ لنَفْسِهِ أطْوَعُكُم لربِّهِ**...)) ليتوازى مع قوله عقيب ذلك ((... **وإنَّ أغَشَّكم لنفسهِ أعْصَاكُمْ لِربّه**...)) هذا نوع من التكرار يتناسب فيه كل فصل مع الآخر في الشكل ويضاهيه في المضمون على نحو التغاير الذي يقوم له التقابل (النصيحة والغش والطاعة والمعصية) . ويمتد التكرار الذي يأخذ شكل الاقتران الدلالي في قوله: ((...**ومَن يُطِعِ اللهَ يأمنْ ويستبشْر، ومن يعصِ اللهَ يَخَفْ وَيَنْدَمِ**)) فالتوازي والتقابل في المعنى ابرز وحدات دلالية مثلت نمطاً من صور التكرار في المضمون.

وقد أعقب هذا المقطع إنشاء طلبي هو قوله ((**ثُم سَلُوا اللهَ اليقينَ**...)) ليردفه مقطع إخباري ((إنّ عوازمَ الأمورِ مُحدَثَاتِها...)) وهكذا دواليك تستمر الخطبة مداومة بين الخبر والإنشاء.

وهذه المداومة بين الخبر والإنشاء تكتنف الكثير من الخطب، ويحف بها حينئذ الاقتران الدلالي والتسلسل الناقص أحياناً والتام في أخرى، ومنه هذا التسلسل القائم على ردّ العجز على الصدر ،الذي أخذ شكلاً إخبارياً، بعد فقرة تميزت بالطلب الصريح تبدأ بقوله: **((عليكُمْ بتقوى اللهِ...))**، وهذه السلسلة هي قوله (عليه السلام): **((مَنْ كَثُرَ كَلامُهُ كَثُرَ خَطاؤُهُ، وَمَنْ كَثُر خَطاؤُهُ قلَّ حَياؤُهُ، ومنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قلّ وَرَعُهُ، ومن قَلّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلبُهُ، وَمَنْ مَاتَ قَلبُهُ دَخَلَ النّارَ))**[1]، فهذه السلسلة التي تدور حلقاتها بين الكثرة والقلة في طرفيها، على نحو التناسب الطردي من جانب وهو أن الإفراط في الكلام يوجب زيادة في الخطأ، والتناسب العكسي من جانب آخر وهو أن الزيادة في الخطأ توجب نقص حظ المتكلم من الحياء لتخبطه في الخوض في موضوعات لا تعنيه غالباً، وقد يتخطى فيها أحياناً حريم الحدود المضروبة من قبل الدين والمجتمع، فيدخل في منطقة التجري ويتجاوز سدل الحياء فيتجافى عن الورع والتقوى، فيموت قلبه . وهنا لا محيص من دخول النار، وهي المآل الحتمي للإنسان الذي لا يتقيد بمقدمات العفّة، وأهمها صون اللسان، ولا يخفى هنا التناسب الطردي الذي كان في حاشية طرفي الحديث، والتناسب العكسي في وسطه، فضلاً عن شكل الكلام الذي صيغ من حلقات يأخذ بعضها بعضادة بعضها الآخر، فكانت كل حلقة صورة مكررة الهيأة عن الأخرى.

وتلت هذه السلسلة سلسلة أخرى، تتميز بكونها تامة، وهي قوله **((ومَنْ تَفَكَّرَ اعْتَبَرَ، ومَنْ اعتبَرَ اعْتَزَلَ، وَمَنْ اعْتَزَلَ سَلَمَ))**، فهذه سلسلة ثلاثية، قوامها ردّ العجز على الصدر وهذه السلسلة نمط يتكرر كثيراً ، كقوله في الخطبة نفسها: **((لا يكونُ المسلمُ مسلماً حتى يكونَ وَرِعاً، ولنْ يكونَ وَرِعاً حتى يكونَ زَاهداً، ولن يكونَ زاهداً حتى يكونَ حَازِماً، ولنْ يكونَ حازِماً حتى يكونَ عاقِلاً، وما العاقلُ إلّا منْ عَقِلَ عنِ اللهِ وعَمِلَ للدارِ الآخرة))**.

هذه السلسلة مبتنية على التكرار، فالأسلوب يجري وفق نمط يقوم على أساس إثبات الصفة في آن نفيها عن الموصوف إلّا ان يتحققَ أخص خصائصها الخلقية كالورع بالنسبة للمسلم، والزهد للورِع، والحزمُ للزاهد، وهكذا تتقوم الصفة بماهيتها المناسبة من وجهة نظر الإمام (عليه السلام) ويلاحظ هنا تثنية الأسماء في الصدر مرّة والعجز أخرى، فضلاً عن تكرار أسلوب النفي مع الفعل (يكون)، وتكرار كلمة (حتى) التي ترادف (إلاّ) في الاستثناء[2]، فهنا تكرار متعدد الوجوه أوسع أنواعه تكرار المخطط الإسنادي الذي يتراوح بين النفي والإثبات، وفي طياته تتكرر الأدوات .كأدوات النفي (ما، لن، لا) وتكرارالفعل (يكون) وتكرار (حتى) الاستثنائية وتكرار الأسماء في طرفي كل فقرة.

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة ،ج١، ص٧٨.

(٢) حاشية الدسوقي على مغني اللبيب، ج١، ص٣٢٧.

وقد يقوم التكرار المضموني على أساس اعادة المعنى بما يشبهه في الدلالة كقوله (عليه السلام) متحدثاً عن شواهد خلقه تعالى ((...**فأجبن طَائعاتٍ مُذعناتٍ غَيْرَ مُتلكئاتٍ ولا مُبطئاتٍ...**)) [1]، فالإذعان وعدم التلكؤ، وعدم الابطاء، تدل على فورية الإجابة وهي بمثابة معان بديلة وردت معاً للمبالغة ولتوكيد معنى الطاعة وبيان كيفيته ومقداره.

ومع هذا التكرار المرتكز على التقارب في الدلالة الذي قد ينصرف الغرض منه إلى استفظاع المعنى قوله (عليه السلام) في التزامه بشرط الموادعة مع معاوية وعدم نقضه ((**... أرادَ أنْ أفعلَ كما يفعلُ، فأكُونُ قدْ هتكتُ ذِمَّتِي، ونقضتُ عهدِي...**)) [2]، فنقض العهد وهتك الذمة في المفهوم واحد، وغرض التكرار استبشاع الفعل وبيان شناعته.

وفي هذا السبيل يقول في الخطبة نفسها ((**... فإنّا غيرُ غَادِرينَ بِذِمَّتِنَا، ولَا نَاقِضينَ لعهدِنا...**))، فعدم الغدر والإمتناع عن نكث العهد، معناهما واحد، وهو الاستمرار على الوفاء بشرط الموادعة إلى حين انقضاء أمده، وعلّة تكرار المضمون بيان مدى الإيفاء بالشرط وشدة شكيمته (عليه السلام) في الالتزام بالعهود.

ويُعد تكرار المضمون وسيلة لسبك النص عبر التضام بين الوحدات التركيبية، فهو من الظواهر البيانية التي تحقق ((...الربط في مستوى البنية السطحية المحلية إلى الانسجام الكلي للنصوص...)) [3]، كهذه السلسلة التي التقت فيها حلقتا البطان، فكان أول السلسلة هو آخرها في قوله (عليه السلام): ((**فبالإيمان يُستدلّ على الصَّالحاتِ وبالصَّالحاتِ يُعمَّرُ الفِقهُ، وبالفقهِ يُرهَبُ الموتُ وبالموتِ تُختمُ الدنيا، وبالدنيا تجُوزُ القيامَةُ، وبالقيامةِ تُزْلَفُ الجنَّةُ، والجنّةُ حَسْرَةُ أهلِ النّارِ، والنّارُ موعِظةُ المُتَّقينَ، والتقوى سِنْخُ الإيمانِ**))[4]، فقد تميزت هذه السلسلة بالتكامل والتدرج المنطقي المفضي بعضه إلى بعض، وقادت كل حلقة إلى ما بعدها، في نمو متصاعد ؛ فأثر التكرار في تماسك النص وشبك وحداته في بنية متوالية، إذ كان لكل كلمة مظهران اثنان فهي ذيل في الفقرة الأولى، ورأس في التي تليها[5]، إلا كلمة (الإيمان) فقد كانت رأساً في الفقرة الأولى، وذيلاً في الفقرة الأخيرة، فكانت هي المفتاحَ والغَلْقَ معاً في نموذج فريد، أرسى قواعده التكرار.

---

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص٦٢٤.

(٢) م. ن ،ج٢، ص٤٨١.

(٣) مدخل إلى التحليل اللساني للخطاب الشعري، ص٣٨.

(٤) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٦١٦-٦١٧.

(٥) من الجدير بالذكر أنَّ ابن أبي الأصبع المصري اسمى هذا النوع من التكرار (تشابه الأطراف)، يُنظر: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان اعجاز القرآن، ص٥٢٠.

المبحث الثالث: التناص

يُعدُّ التناص وفق المفاهيم النقدية الحديثة، حقيقة واقعة، لا يخلو منها أي نص ولذا غدا مقياسا نقديا تتجاذبه شتى التيارات النقدية التي جاءت بعد البنيوية. فقد نشأ أولا في حضن الأدب المقارن، تحت مسمى علاقة التأثير والتأثر[١] ؛إذ لوحظ أن النص يتسع ويتمدد، وتظهر فيه أصداء الثقافات واللغات التي تعود لأزمان ماضية، أو حاضرة تَجاوبَ معها النص وتلقفها وامتزج معها، فبات النص صدى حاكيا لها[٢] وباتت الفكرة التي ترى إن النصوص مستقلة فكرة يكتنفها التضليل[٣]. لذا ترى جوليا كريستيفا أن النص هو موزائيك من الاستشهادات[٤]. أو كما قال رولان بارت هو نسيج من الاستشهادات . متابعاً كريستيفيا في رأيها. وهما محقان في ذلك إذ أن المنشئ يكتنز في ذاته، وفي غور أعماقه كثيرا من الخبرات الثقافية التي يتذوقها متمتعا، او يفرضها عليه المحيط، فهو شاء أو أبى يختزن تراثا تفرضه عليه الخبرات السابقة وتظهر هذه الخبرات في نتاجه، متراوحة بين النصوص الصريحة التي يستدل بها على مصدرها الأول وأصلها الذي امتاح منه المؤلف، وربما كان الأخذ من المورد عن وعي من المنشئ يحدوه القصد إلى تضمين المعنى المستل في خطابه فلا يعدو المأخوذ أن يكون اقتباساً يستحق أن يعلم بمزدوجين[٥]، أما إذا تسلل التناص عبر زوايا خفية دقيقة المسلك، يُسْتعصَى الاستدلال على مصدرها فستكون ((...اقتباسات بلا قوسين))[٦] لخفاء معالم جذورها على الناقد الذي قد تتفاوت قدراته في تعرف اصل النصوص؛ النصوص؛ فيستطيع بمعية السياق أن يُرْجَع الفقرة التي ربما تتناهى في الاختصار فتكون (كلمة) فحسب إلى محيطها الذي اخذت منه[٧].

وما يقدر عليه الناقد هنا من رد منابع النص المتعالق مع النص الأصلي إلى موردها قد لا يستطيعه المنشئ لإستقرار الأصل في مطاوي نفسه دون أن يلتفت إلى آثاره التي تظهر في نتاجه عن غير قصد منه.

---

(١) يُنظر:نظرية النص من بنية المعنى الى سيمائية الدال، حسين الخمري، ص٢٥٣.

(٢) يُنظر: آفاق التناصية المفهوم والمنظور، تعريب وتقديم، محمد خير اليفاعي، ص٢٣.

(٣) يُنظر: مطاردة العلامات، علم العلامات والادب والتفكيك، جوناثان كللر، ص١٤٢.

(٤) يُنظر: آفاق التناصية المفهوم والمنظور، ص١٢٠.

(٥) يُنظر: نظرية النص من بنيه المعنى الى سيميائية الدال، ص٢٦٠.

(٦) آفاق التناصية المفهوم والمنظور، ص٢٣.

(٧) يُنظر: فنون النص وعلومه، ص١٢٤.

فالتناص يعكس المناهل الثقافية التي يستقي منها المبدع، لانها تنعكس حتما فيما ابدع وتشير إلى القيم المؤثرة في النص بصورة ظاهرة أو خفية وهو ما يسميه جيرار جينت (التعالي النصي)[1]. الذي يشير إلى تواجد نصوص أخرى في نص معين.

هذه الظاهرة لا تخلو منها خطب أمير المؤمنين (عليه السلام)، بل قد تشربت خطبه من روي القرآن الكريم والحديث الشريف في موضوعات كثر، تراوحت بين الاقتباس من النص على نحو بادٍ، وبَيْنَ اقتطاع النص او تحويله، فامتزج الأصل في كثير من الأحيان بالنص المصاحب واندمج فيه كأنما قطعة حيكت من فرع واحد.

التناص مع القرآن

فمن مظاهر التناص الجلية التي تكاد لا تعدو الاقتباس الصريح، الخطبة التي بدأها بالآية الأولى من سورة الأنعام، وهي آية تبدأ بالحمد، وتختم بالتعجب من الذين يعدلون به تعالى غيره. والتناص هنا لا يقتصر على الاقتباس، بل يمتد إلى الافتتاح، فكما افتتحت سورة الانعام بهذه الآية كاملة، افتتح الإمام خطبته بها، وقد افلح (عليه السلام) في جعلها مندكة بالنص اذ ربط سياق الآية بسياق الخطبة اذ قال بعد الآية من فوره ((...**لا نُشْرِكُ بالله ولا نتّخذُ مِنْ دُوْنِه إلهاً ولا وَلِياً**))[2]، فكأنما أفرغ (عليه السلام) الآية وما بعدها في قالب واحد، واوجد ائتلافاً بين الآية وما بعدها، فلم يحلِ الاقتباس الظاهر من إيجاد تعالق بين النصين، ولم تعد الآية طارئة على النص أو أجنبية عنه بل قامت بوظيفتين :اولهما الإحالة على نص مقدس عند المستمعين، فهذا تجديد للعهد به، والوظيفة الثانية :هي افتتاحية، فقد اسْتُهلتِ الخطبة بهذه الآية، إشعاراً بنوع الموضوع الذي ستتناوله، وهو التوحيد وإبراز دور الخالق تعالى وذكر بعض التشريعات.

فقد بادر الإمام (عليه السلام) إلى إيصال خطبته بالآية عبر نفيه الشرك استجابة لما ورد في ذيل الآية، فنفى الشرك لئلا يدخل ضمن حيّز الذين يعدلون بربهم، كما أن مستهل الآية وهو الحمد، صار لازمة تكررت في أكثر من مفصل من مفاصل الخطبة، سواء أكان على مستوى المصدر (الحمد) أم الفعل(نحمد) وبهذا يكون التناص قد وطّأ للموضوع، وتكرار الحمد احكم ربط الآية بالخطبة، فصارت جزءا متصلاً في أصل الورود.

وباتت الخطبة تنبثق عنه، فالتناص قام بدور حيوي وجوهري في نسج بنية متماسكة أقنت النص بمعان ضافية. تجاوزت المعنى السلبي للتناص الذي يقتصر على مجرد مزج النص

(١) يُنظر، مدخل الى النص الجامع، جيرار جينيت، ص٧٠.

(٢) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج ١، ص٥٤٩.

المبتدع باستشهادات من نصوص أخرى لمجرد إسناد النص او دعم رأي المؤلف، بل تعداه إلى جعله لبنة أساسية في النص، يفتقر إليها افتقاراً ؛ فلو لم تكن فيه لاعتراه النقص!

وقد استشهد بآية أخرى من القرآن الكريم كان النص قد أحوج إليها عند قوله في إحدى خطبه **((...وبالشَّهادَةِ تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ...فأكْثِرُوا مِنَ الصَّلاةِ عَلَى نَبِيكُمْ))**[1]، فهنا جاء بالآية السادسة والخمسين من سورة الأحزاب التي تأمر الناس بالصلاة على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والتسليم له. فالإشارة إلى هذا النص اقتضته الضرورة، وفرضه اعوازّ النص إلى ما يكمله ولو من باب التأييد. يعود النص زمنيا إلى مرحلة اسبق هي مرحلة نزول القرآن الكريم فالتناص هنا له بعدان، بُعد الإرشاد والتوجيه، وبعد ربط الزمن الآني بالزمن السابق ليتوحد المدى التواصلي بين الزمنين ويؤطرهما في منحى مفتوح، قابل للتمدد في أزمان لاحقة، لأن متبنيات الخطاب تفرض أنماطاً من المخاطبين الذين لم يوجدوا بعد، ولكن الخطاب شامل لهم. ومن التناص الذي ابتني على الاقتباس قوله (عليه السلام) **((...اسْتَعِدّوا للمسيرِ إلى عَدُوكُمْ...))**[2] فهي تتناص مع قوله تعالى ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم...﴾[3] فالآية كاشفة عن مناحي الاستعداد، شارحة لمظاهره، وفيها الماع إلى تحقيق النصر على عدوهم أسوة بما حصل للمسلمين مع الكفار، وحثّ لهم على لمّ صفوفهم المتفرقة والمتشتتة ؛ لان الاستعداد يوجب وحدة الصف والكلمة والغلبة على العدو.

وإذا كان الاقتباس يعدُّ الأكثر وضوحا في درجات التناص ؛لأن النص لا يجري عليه أي تغيير، فما يتعقبه هو التضمين الذي يفيد المعنى ذاته مع تغيير يسير لا يكاد يمس روح المعنى الأصلي.

فمن التضمين الذي لا يمس جوهر المعنى ويكاد يُبقي اللفظ على حاله قوله **((...الفعّال لما يُريدُ...))**[4] فقد تكررت في موضعين عقيب الحمد له تعالى والثناء عليه بما هو شأنه وفي الحالتين كان للإيقاع دور في اختيار هذا النص، فقد توافق مع الفواصل الدالية التي سبقته، هذا من حيث الشكل، اما من جهة المعنى فالنص كان بصدد تمجيده تعالى والتناص يتناسق مع النص، ويوصل المعاني بعضها مع بعض، والانسجام بين النص القرآني والخطبة تتمثل بالتناغم الايقاعي والمعنوي فسورة البروج كان قد هيمن على معظم فواصلها حرف الدال ولا سيما في

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٧٠.

(٢) م.ن، ج٢، ص٤٢٧.

(٣) الانفال: ٦٠.

(٤) تكرر هذا النص، يُنظر نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص١٦٦، ص٥٤١.

المَفْصل الذي يُظهر جبروته تعالى وقدرته ومغفرته وهيمنته على العرش ثم يختتم الإمام بهذه الآية ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[1].

وقد كان التغيير الذي أحدثه الإمام (عليه السلام) في الخطبة هو إدخال (ال) التعريف على كلمة (فعّال) في الخطبتين، وربما كان هذا لأمرين، احدهما: إفادة العموم الذي يدخل تحت مفهوم الإرادة، والآخر: للتماهي شكلا ومضمونا مع الصفات التي ذُكرتْ في السورة، وانسجمت مع مفاد هذه الآية في الخطبتين –في الشق المختوم بحرف الدال– فكان مظان ترتيبهما في تسلسل الوجود مقارناً لموضع الآية في السورة ؛فكلاهما مسك ختام للصفات الإلهية المختومة بالدال.

ومن التناص المستند إلى التضمين قوله في من فارق الدنيا سعيدا قوله **((عَطَاؤُهُمْ غَيْرُ مَجْذُوذٍ))**[2] قالها بعد أن أسهب في صفة الدار الآخرة على نحو سَلْبِ الأذى المشابه للأذى الدنيوي عن المستقرين فيها، ثم انعطف إلى الجانب المقابل جانب العطاء غير المتناهي وبه ختم الخطبة وهي تتناص مع قوله تعالى ﴿. . .عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[3] التي بينت مقدار الزيادة التي يحصل عليها أصحاب الجنة السعداء من النعيم[4] وبها تمام الآية، إذ تحول الكلام إلى الحديث عن أهل النار.

وقد تنهض بالتناص كلمة تتكرر بصيغ مختلفة لتصدق مفهوما معينا ورد في القرآن مثل كلمة :(صدع) التي تكررت في غير موضع، كقوله **((فَصَدَعَ بِالكتابِ المُبينِ...))**[5] وقوله أيضا **((فَصَدَعَ بِمَا أمرَ بِهِ...))**[6] او **((فلقدْ صدع بما أمر به...))**[7] أو قوله **((فصدع بوحيه))**[8] كلها تتعالق تتعالق مع قوله تعالى ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[9] وقد جاءت صيغة (صدع) في هذه الموارد كلها فعلا ماضيا لتبين انه قام بالأمر الذي أوصاه به تعالى (فصدع بالأمر) على

---

(١) سورة البروج (١٦)، وإنما اخترت أن يكون النص متعالقاً مع سورة البروج، دون سورة هود، التي وردت فيها الآية ذاتها، ينظر، هود: ١٠٧؛ لأن السياق والنغم الإيقاعي، يتفق مع سورة البروج أكثر.

(٢) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٥٥٣.

(٣) هود: ١٠٨.

(٤) ينظر مجمع البيان، الطبرسي، ج٥، ص٣٣٤، إذ بيّن أن الاستثناء في الآية يبين مقدار الزيادة على النعيم.

(٥) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٢٣٥.

(٦) م.ن، ج١، ص٢٦٣.

(٧) م.ن، ج١، ص٣١٩.

(٨) م . ن، ج١، ص٥٥٢.

(٩) الحجر: ٩٤.

وجهه الأكمل ولاسيما في العبارة المسبوقة (بلام القسم وقد التي تفيد التوكيد، وتحقيق الفعل، أما الأمر المأمور به فقد كشفت عنه كلمة (بوحيه) والمركب الوصفي (بالكتاب المبين) ويكادان يكونان أمراً واحداً . على أن كلمة بوحيه تتسع قليلا فتشمل غير القرآن كالحديث القدسي.

ومن المفاهيم التي تناصت مع القرآن، مفهوم (العروة الوثقى) إذ تكررت بصيغ مختلفة كقوله: ((**أُوْصِيكُمْ ...بِتقوى اللهِ، والاعتصامِ بِوَثَائِقِ عُرَاهَا**))[1] وقوله ((**...أَمْرَاسَ الإسلامِ مَتينةً وعُراهُ وَثِيقَةً**))[2] وقوله في القرآن الكريم ((**..وهُوَ العُرْوَةُ الوُثْقَى...**))[3] ووصف الطاعة بأنها ((**...حَبْلٌ وَثِيقُ العُرْوَةِ...**))[4] فكأن تكرار هذا المفهوم مع (التقوى) مرة و(الإسلام) أخرى و(الكتاب) ثالثة و(الطاعة) رابعة لبيان مراد القرآن الكريم، فهي بمثابة مصاديق للاستمساك بالعروة الوثقى التي وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿. . .فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ. . .﴾[5].

ومن التناص الذي يُساوق في الاستعمال أسلوب القرآن الكريم قوله (عليه السلام) ((**...مِنَ الفَسادِ إضاعةُ الزَّادِ**))[6] وقوله أخرى : ((**...وَدُلِلْتُمْ عَلَى الزَّادِ**))[7] فكلا هذين اقتفيا نهج القرآن الكريم اذ ورد ورد فيه ﴿. . .وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى. . .﴾[8] فإضاعة الزاد تتنافى مع قوله تعالى ((وتزودوا)) لأنها تقتضي عدم التقوى. ومن هنا جاء الإفساد، أما الإرشاد إلى الزاد الذي يفيده قوله (عليه السلام) (ودللتم) فهي إحالة على التقوى التي وصفتها الآية الكريمة بأنها خير الزاد.

وقد يحمل التناص مفهوماً قرآنياً، فيستل مصداقه من الواقع الخارجي كقوله ((**...الأبْتَرَ ابْنَ الأبْتَرِ...**))[9] التي تشير واضحة إلى قوله تعالى ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾[10]، وربما تشكلَ التناصُ على على أساس المماثلة او التباين مع النص الأصل[11] في التراكيب والصور والمداليل.

---

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٥٥٢.

(٢) م.ن، ج٢، ص ٥٠-٥١.

(٣) م.ن، ج٢، ص٥٦٧.

(٤) م.ن، ج٣، ص١١.

(٥) ورد هذا في سورتي البقرة، ٥٦، ولقمان، ٢٢.

(٦) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٧٧.

(٧) م.ن، ج٢، ص٣٥٥.

(٨) سورة البقرة، ١٩٧.

(٩) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٢، ص٢٦.

(١٠) الكوثر: ٣.

(١١) يُنظر: فنون النص وعلومه، ص١٢٤.

ففي قوله (عليه السلام) ((...**فِي خِلَافِ النَّفسِ رُشْدُها...**))[1] هذا التركيب يتداخلُ مع قولهِ تعالى ﴿...وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾[2] فأن مؤدّى الجملتين واحد فلجْمُ النَّفس عنِ الهوى ينجم عنه تحصيل الرشد.

وعلى صعيد المعنى يؤدي مثل هذا التعالق بين النصوص إلى اتساع النص الجديد لاحتضان مبتنيات النص الأصل الذي تأثره، وتشير إلى مدى تشبع المنشئ بروح القرآن وتشربه بمبادئه وتعاليمه وتمثله، حتى كأن النص الجديد في معرض تأويل النص القرآني بعد عقد مماثلة معه.

فمن أشكال المماثلة مع النص القرآني قوله ((...**وانّ الشيطانَ قدْ جمعَ حزبَه واسْتَجْلَبَ خيلَهُ...**))[3] قال ذلك في وصف فتنة اندلعت بالبصرة. وهذه الصورة التناصية تكاد تكون مرآة عاكسة لما جاء في القرآن الكريم ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ...﴾[4] فكأن ما حصل بالبصرة هو إحدى هيئات الاستفزاز الشيطاني الذي يمثل جمعا ألقى بثقله هناك.

ومن الصور التناصية التي اقتطفت من القرآن متوافقة معه، قوله (عليه السلام) في العالم الذي لا يعمل بعلمه ((...**والحَسْرَةَ أدومُ عَلَى هذا العالِمِ المُنْسَلِخ مِنْ عِلْمِهِ...**))[5] مع قوله تعالى ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا...﴾[6] فملاك الخطبة يشترك مع القرآن في رسم صورة استعارية متشابهة، متشابهة، فكأن الرجل العالم قد تلبس بعلمه حتى لزمه لزوم الجلد[7]، فلما تنكر لعلمه كان كمن انسلخ عن جلده، ولم يعد متلبسا به، وسار في طريق الغواية والضلال، وكان مآل الاثنين معا هو الخسران.

أما من يعمل بغير علمه، فهو والغ في وحل من الشبهات فإذا ما اعترته قضية وأراد أن يعمل فيها بعلمه، ارتج عليه امره والتبس عليه الحق فلم يعرف كيف يخلصه من الباطل، فإذا فصل في القضية والحال هذه، لم يدرِ أصاب من الحق مقتلا ام لا، لذلك كان وهو يمخر عباب

---

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٧٦.

(٢) النازعات، ٤٠.

(٣) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٣٢٤.

(٤) الإسراء، ٦٤.

(٥) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٢، ص٣٥٢.

(٦) الأعراف، ١٧٥.

(٧) يُنظر، الميزان في تفسير القران، ج٨، ص٣٣٧.

الشبهات ((...**في مثـــلِ غَـــزْلِ الْعَنْكَبُـــوتِ...**))[١] وفــي روايــة أخــرى ((...**كَمِثْـــلِ نَسْـــجِ العنكبـوتِ**))[٢] هذا المعنى يتثاقف[٣] مع ما ورد في الآية التي تصف من اتخذ وليا دونه تعالى ﴿...كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً...﴾[٤] فالصورة استوحت من هذا المثل المضروب، لكنها لم تطابقه تماما، وإنما استلت منه الفكرة التي يمكن ان تفسر من احد جانبين:

الأول: ضعف عمل هذا الشخص، إذ أفتى في شأن عظيم من دون علم يُهديه ويؤهله لمزاولة الفتيا.

والثاني: ان الوهن جاء من جهة تخبطه في عالم يجهله، وقد ضل فيه كما توغل في بيت العنكبوت من لا يستطيع التخلص منه، فكلما حاول التخلص منه، التفت عليه خيوطه، فهو من فتواه إذن في ورطة. فهذه صورة منتزعة من خوان القرآن الكريم.

وثمة صورة أخرى حاكت أسلوب القرآن الكريم من قريب وذلك انه (عليه السلام) انتدب قومه للخروج إلى عدوهم، فلما نكصوا عنه متخاذلين قرعهم ونعتهم بالجبن ((...**إذا دعـوتُكُمْ إلى جِهادِ عَدُوِكُمْ دارَتْ أعيـنُكُمْ**...))[٥] فهي تتناص مع سورة الأحزاب آية (١٩) في قوله تعالى ﴿...تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ...﴾ واشتركت معها في فن التندير ((وهو ان يأتي المتكلم بنادرة حلوة أو مَجْنَة مستطرفة، وهو يقع في الجد والهزل...))[٦] وموضع التندير في الآية هو في قوله تعالى ((...من الموت...)) الموت...)) فهذه من المبالغات النادرة والطريفة في وصف المنافقين[٧] وإليه لجأ الإمام (عليه السلام) لما لما قال ((...**كأنّكُمْ من المَوْتِ في غَمْـرَةٍ**...)) فكأنهم لخوفهم وهلعهم يقاسون شدة الموت، وهذا كالآية السابقة، يدخل في باب الجد من النوادر لمبالغته في وصف حال الناكصين عنه.

ومنها قوله ((**وكسْرَ انيةِ اللهِ التّقيةِ**...))[٨] التي تتناص مع آية المشكاة في سورة النور[٩] وهي وهي تقع هنا على نحو مخالف للآية، ففي حين كانت المشكاة في القرآن تتألق في تَوَقُّدٍ وتَنَوّر،

---

(١) نهج السعادة،في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص١٨٤.

(٢) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٥٦٩.

(٣) سيمياء العنوان، بسام موسى طقوس، ص١٦٢.

(٤) العنكبوت، ٤١.

(٥) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٢، ص٤٢٨.

(٦) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ص٥٧١.

(٧) م.ن.

(٨) نهج السعادة، ج٢، ص٦٤٩.

(٩) سورة النور، ٣٥.

بيّنَ الإمام (عليه السلام) إعراض الناس عن هذه الآنية وصرف الوجوه إلى غيرها، فكان هذا بمثابة تكسير للآنية وبالتالي خبا نورها وانْطفأ، لأن الكسر يستلزم هذا، وقرينة التشابك النصي هي قوله بعد ذلك ((**ومِشْكاةٍ يَعْرِفُها الْجَمِيعُ...**)) .

ومن الصور التي أخذت سمتها من الكتاب الكريم قوله- وهو يزجي حكما متتالية- ((**...ليسَ فِي البَرْقِ الْخاطِفِ مُسْتَمْتَعٌ لِمَنْ يَخُوْضُ فِي الظُلْمَةِ...**))[1] فهي تتعالق مع الآية العشرين من سورة البقرة على أن المشهد في سورة البقرة هومشهد متكامل صورحال المنافقين الذين أدخلهم نفاقهم في ظلام لا ينتفعون معه من نور الإيمان، فيتخبطون بالضوء القليل منه، الذي بدا غير دائم ولا متصل، فهو كالبرق الخاطف[2].

فهنا صورة جزئية اقتطفت ملامحها من بعض جنبات هذا المشهد، فمن انغمس في مستنقع الشهوات، سقط في شرك المعاصي وانغمس في ملذات الهوى، كما تدل عليه كلمة (يخوض) و (الظلمة) هي أدران الذنوب، وستائرها، فكيف يتسنى لمن كان كذلك أن يستمتع بنور الإيمان وان ينتفع به وهو لا يمكث طويلا، ولا يستديم حلوله. فهذه الصورة الصغيرة هي نظير تلك الصورة القرآنية الكبيرة؛لاقتفائها إثرها، إلا ان هذه تخاطب مؤمناً، أظلمت عليه دنياه لاقترافه المعاصي، فلاحَ له إيمانُه كضوء البَرق الخاطف، ليس بالإمكان الاستمتاع به. بينما تتردد أطراف الصورة الكبيرة بين الإيمان والنفاق مع جو غامض تسيطر عليه الرهبة والخوف.

والتناص الداخلي مع القرآن الكريم لا يكاد يحصى في خطب الإمام (عليه السلام) كماً ونوعاً، وهو قد يكون موضوعيا أو صوريا، متماثلا أو متخالفا، وفي كل الأحيان فإنه يعكس مدى اغتراف الإمام من النبع القرآني، وتلبسه بفيوضاته.

التناص مع حديث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

ومن التناص الداخلي تناص كلام الإمام علي (عليه السلام) مع أحاديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، ويتجسد ذلك في قوله: ((**أيُّها النّاسُ شُقُّوا متلاطِمَاتِ أمْوَاجِ الفتنِ بمجارِي سُفنِ النَّجاةِ...**)) [3]، فالمراد بسفن النجاة الأشخاص القدوة الذين ينتشلون المجتمع من الفتن، وهذا يتعالق مع قوله(صلى الله عليه وآله وسلم): ((إنَّما مَثَلُ أهْل بيتِي فيكُمْ كَمثَلِ سفينةِ نُوْحٍ منْ رَكِبَها نَجا ومَن تخلفَ عنها غرقَ)) [4]، فهذا تعالق

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٧٦.

(٢) يُنظر، الميزان في تفسير القران، ج١، ص٥٨.

(٣) نهج السعادة، في مستدرك نج البلاغة،ج١، ص٥٣.

(٤) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج٩، ص١٦٨ ، ويُنظر: المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، ابن حجر العسقلاني، ج١٦، ص٢٢٠ ، ويُنظر: الروض الداني (المعجم الصغير) أبو القاسم الطبراني، ج١، ص٢٤٠ رقم الحديث (٣٩١).

تعالق في الموضوع والصورة فالموضوع يشير إلى الاعتصام بحبلهم (عليهم السلام) والصورة في النصين واحدة قوامها تشبيه المصلحين بسفن النجاة بجامع الانتشال والإنقاذ في كل إلا ان السفن الحقيقية مجال الإنقاذ فيها قائم على الحس . والسفن المشبهة طابع الانقاذ فيها معنوي بهدف إلى تخليصهم من الضلال والتيه.

ومع حديث السفينة هذا يتناص قوله (عليه السلام): ((**معنا رايةُ الحق، منْ تَبِعَهَا لحِقَ، ومَنْ تَـأخرَ عنها غَرِق**)) [1]، فهذا تناص داخلي آخر يشير إلى الموضوع ذاته مع تغاير في شكل الصورة .

وقال (عليه السلام): ((**إنّي فِيكُمْ كالكَهْفِ لِأهْلِ الكَهْفِ، وَإنِّي فِيكُم بابُ حِطّة، مَنْ دَخَلَهُ نَجا، ومَنْ تخلَّفَ عنه هَلَكَ...**)) [2]، هنا تناص مزدوج مع القرآن الكريم، ومع الحديث الشريف فهو يتعالق مع قوله تعالى: ﴿ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾[4]، ومع قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): ((إنَّما مثلُ أهلِ بيتِي فيكُمْ مثلُ بابِ حِطة في بني اسرائيل مَن دَخلَهُ غُفِر لَه))[5]، فهذا تعالق متماثل أيضاً في الموضوع والصورة. على ان الباب في بني إسرائيل باب حقيقي، أما في الحديث الشريف وقول الإمام (عليه السلام) فهو باب مجازي يقوم على أساس التشبيه الاستعاري.

ومنه قوله (عليه السلام) محرضاً على الحرب في ذي قار: ((**وأيمُ اللهِ لأُفْرطَنَّ لهُم حَوضاً أنا ماتِحُه...**)) [6]، فهو يتناص مع قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ((فأني فَرْطُكُمْ على الحَوْضِ وأنَّتم واردونَ عليَّ واردونَ عليَّ الحوض وأن عرضه ما بين صنعاءَ وبصرى...)) [7]، فهذا تناص متماثل يفسر حديث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

التناص مع كلام العرب

أما ما يخص تعالق قوله (عليه السلام) مع أقوال العرب،فلم اكد اجده متأثراً بما سبقه ، ففيما يخص الشعر الجاهلي فإنه (عليه السلام)((...لم يتاثر به أسلوبا ولم يتبع صياغاته أو يستعر صوره ولم

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،محمد باقر المحمودي، ج١، ٢١١.

(٢) م . ن، ج١، ص٥٦٦.

(٣) البقرة: ٥٨.

(٤) الأعراف: ١٦١.

(٥) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج٩، ص١٦٨.

(٦) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٣٢٦.

(٧) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج٩، ص١٦٣، ١٦٤.

يتفق معه إلا من خلال الأبيات التي تجري مجرى المثل السائر...)) [(١)] ففي كلامه (عليه السلام)((...ما يشبه الإحجام عن ثقافةالشعر الجاهلي فليس في كلامه ظلالها...)) [(٢)] وفيما يخص تعالق كلامه مع كلاهم فقد عرضتُ خطابه (عليه السلام) على خطب كتاب جمهرة خطب العرب، فوجدت تبايناً في المفاهيم والرؤى والبواعث.

وما جاء متوافقاً مع أقواله في الحث على الخلق الكريم كقول اكثم بن صيفي ((... الصدقُ منجاةُ والكذبُ مهواةُ...)) [(٣)]، لا يدخل في باب التناص مع قول الإمام (عليه السلام) في وعظه وإرشاده لأن مفاهيم الأخلاق العظيمة شاعت في العصر الإسلامي وترسخت بعد أن انتشر تداولها، فلا ينصرف الذهن إلى وصايا أكثم، ولاسيما ان الإمام (عليه السلام) كان ربيب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فتغذى بالخلق الرفيع على يديه منذ كان صبياً.

وكذا قول اكثم ((إنَّ أهْلَ هذهِ الدُّنيا سَفْرٌ لا يحلّون عقدَ الرّحال إلّا فِي غيرِها...))[(٤)]، فهذه المعاني دينية عُرفت عن الموحدين الذين كانوا على دين النبي إبراهيم (عليه السلام) فلا تختص بشخص أكثم بن صيفي، بل هي مفاهيم جاءت بها الحنيفية.

إذا فإن قوله (عليه السلام) (**(فَلَا تَغرنَّكُم الحَياةُ الدّنيا فإنّما انّتُم فيها سَفْرٌ حُلُول. ..))**[(٥)]، يتناص مع المضامين الإسلامية ويتعالق مع النصوص القرآنية والأحاديث الشريفة، فيُستبعَد ان يكون مردّ قوله (عليه السلام) خطب اكثم بن صيفي.

ولا اعدُّ من التناص تشابه قوله (عليه السلام): ((**... واسْتَحْيوا مِن الفرِّ فإنَّهُ عارٌ باقٍ في الأعْقابِ والأَعْناقِ...**)) [(٦)]، مع قول هانئ بن قبيصة الشيباني في يوم ذي قار ((هالكٌ معذور، خيرٌ من ناجٍ فَرور... المنيةُ ولا الدنيةُ...)) [(٧)]، فلا يخفى على المتدبر في القولين انهما مختلفان في الباعث، إذ ان الباعث في قول هانئ العصبية لقومه ، بينما الباعث في قول الإمام (عليه السلام) هو خوف الله تعالى الذي حذّر من الفرار من الزحف وتوعّدَ عليه، نعم هناك نوع من تناص التخالف بين قوله (عليه السلام) وقول اكثم في موضوع (فساد الرعية) يقول اكثم ((إصْلاحُ فساد الرعيةِ خيرٌ من

(١) الأثر القرآني في نهج البلاغة ، دراسة في الشكل والمضمون،عباس علي حسين الفحام:ج١،ص٢٥

(٢) م.ن:ص،ج١، ٢٩

(٣) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، احمد زكي صفوت، ج١، ص٢١.

(٤) م . ن، ج١، ص٣١.

(٥) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج٣، ص١٣٧.

(٦) م . ن، ج٢، ص١٥٨.

(٧) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج١، ص٣٧.

إصلاحِ الراعِي...)) [1]، على ان أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول: ((...**فليست تَصلحُ الرّعيةُ إلا بصلاحِ الولاةِ، ولا تَصْلُحُ الولاةِ إلا باستِقامةِ الرّعيةِ...**)) [2]، فجعل الإمام (عليه السلام) الطرفينَ على حدٍ سواء في تحمل المسؤولية وكَبْحِ الفساد، وإنْ جَعَلَ الإمام (عليه السلام) إصلاح الرعية منوط بصلاح الولاة، لأنهم الطرف المبسوط اليد، فصلاح الولاة مرهون باستقامة الرعية بالطاعة.

بينما جعل أكثم الإصلاح على عاتق الرعيّة دون الراعي، وهذا نابعٌ من نظرةٍ تُعلي من شأن الراعي وتدني من شأن الرعية.

فمن أمعن النظر وأجال البصر في المأثور عن العرب وقرنه بالمأثور الوارد عن الإمام (عليه السلام) وجد ان هناك تبايناً في الملاكات الباعثة على التكلم.

لذا فإني أردُّ كل تشابه بين الكلامين إذا كان فيه مضامين خلقية عالية ومفاهيم توحيدية إلى مبادئ الحنفية التي سادت عند بعض الموحدين واغترفها الإمام (عليه السلام) مع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لطول ملازمته له.

لذا فإن معظم التناص في كلامه كان مع القرآن الكريم والحديث الشريف.

---

(١) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ، ج١، ص٢١.

(٢) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٢، ص١١٥.

المبحث الرابع : إرسال المثل

المثل هو ((تشبيه سائر... يكثر استعماله على معنى أن الثاني بمنزلة الأول))[١]، أي أنَّ الموقف الحياتي الآني ينزل منزلة الموقف الذي كان ظرفاً لإطلاق المثل، فتَشابه الموقفين، سوغ الاستشهاد بذلك المثل، وهو جزء من التمثيل، لذلك عدّ من ملحقاته[٢]، والتمثيل هو ((... أن يريد المتكلم معنى فلا يدل عليه بلفظه الموضوع ولا بلفظ قريب من لفظه وإنما يأتي بلفظ ...أبعد...))[٣].

وقد استعمل العرب الأمثال السائرة، لما فيها من نكتة خفية تحيل على المعنى بأوجز لفظ وأدلّه، فقد اختزنت الأمثال الحكمة في تضاعيفها، لذا كانت من الشوارد التي تقرع الأسماع وتشيع على الألسن، وتندمج في تلافيف الكلام . لذا كانت بغية الأدباء العرب، لما تفطنوا من أثرها في اختزال ما اشتجر من الشؤون اليومية المتجددة، لذا نهدوا إلى جمعها في كتب مختصة وعمدوا إلى شرحها.

وأقرَّ القرآن الكريم العرب على هذا الاستعمال، لذا كثيراً ما أشار إلى ضرب المثل للناس لغاية التفكر، والتعقل[٤] وضرب كثيراً من الأمثال في آياته[٥] فاستوفت في جنباتها العظة والاعتبار.

ولمحَ الشعراء المثل في جانبه الأنيق، فرأوا فيه حلية جمالية، فارتأوا أن يزينوا أشعارهم به ، وبات فناً من فنون البديع اللطيفة وأسموه (إرسال المثل) إذا جاء به الشاعر في بيت[٦] فإذا غمرته الصنعة وتمكنت منه، أرسل مثلين في بيت واحد[٧].

وقد رصد البلاغيون إرسال المثل ومظاهره في القرآن الكريم والحديث الشريف، وها هي خطب الإمام (عليه السلام) تحذو حذوهما في إرسال المثل والمثلين، بل وأكثر من هذا، فهو يرسل أمثالاً متعاقبة في نسق واحد، وحينئذٍ يسلك مسالك العرب المعروفة، فقد يرسل المثل ابتداءً، وقد يزجيه

---

(١) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، في علوم البلاغة وبيان إعجاز القرآن الشريف،ص٨١.

(٢) يُنظر: تحرير التحبيرفي صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ص٢١٧.

(٣) م.ن.ص٢١٤.

(٤) يُنظر: سورتي، العنكبوت٤٣ ، والحشر ٢١ .

(٥) يُنظر: مثلاً سورة البقرة ، ٢٦ .

(٦) يُنظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، ص٥٦.

(٧) يُنظر: م . ن، ص٥٧.

تطرية للكلام وتقوية له، فيزدان به المعنى بهجة وجمالاً، فضلاً عن الحكمة القابعة أصلاً بين طيات المثل[١].

وللإمام أمثال سائرة، اجتازت بوابات الزمن، ودارت على الألسن في حينها وما زالت قشيبة إلى اليوم . فما أكثر ما يتردد في مناسبات مختلفة ((**الدهرُ يومان يومٌ لكَ ويَومٌ عليكَ...**)) [٢]، وهذه الجملة ((**كلمةُ حَقٍ يُرادُ بها باطل**)) [٣]، فهذه الكلمات وسواها تمشّت بها الأفواه كلما سنحت بادرة يتم بها مقايسة الحدث الجديد بالواقعة القديمة .

وإذا تمّ استعراض ملابسات الظروف التي صدر فيها هذان المثلان، فسنجد ان المثل الأول، قد جاء بمعية جمل مصاحبة، معظمها متمخضة للنصح. ولما حان أوان حثهم على الصبر عند نزول البلاء، لفت أنظارهم إلى قسمة الدهر بالنسبة إلى كل فرد، فهو حصتان، لكل فرد منها نصيب، حصة يهنأ بها، فهذا هو يوم له، وحصة يبتلى بها، فهذا يوم عليه، وعليه أن يرضى بالبلاء ويحمده تعالى في الرخاء، فكلا يوميه هذين امتحان له، فتتمة المثل هو النصيحة بالصبر وهي شاملة لعموم المخاطبين وتسري على غيرهم ممن لم يحضر مجلس الخطاب، سريان المثل الذي قامت عليه قاعدة الابتلاء.

أما المثل الثاني ((كلمة حق...)) فقد أعقب واقعة مماحكة الخوارج للإمام، ومجابهته بما لا يليق، فقالوا له ((لا حكم إلا لله)) كأنه يعمل بخلاف هذه الكلمة ذات المفاد القرآني[٤]، وقد حكم على هذه الجملة بحكمين، حكم ظاهر وهو أنها كلمة حقٍ، وحكم باطن مفاده أنَّ الإرادة الاستعمالية الكامنة وراء هذه الجملة إرادة غير جديّة، لأن الغاية منها هي إرساء فلول الباطل، فتنازع مدلول هذه الكلمة طرفان هما الحق والباطل، مع ان هذه الكلمة لو خليت ونفسها، لكانت حقاً لا يشوبه الباطل، إلا أنَّ عوامل خارجية أحاطت بالكلمة ساعة نطقها أسبغت عليها مظهرين، لم ينطليا على الإمام (عليه السلام) . فقد كان المقصود هو الإحاطة بحكم الإمام (عليه السلام) والقضاء على الحاكمية لله التي هي قوام حكم الإمام (عليه السلام)، وإلاّ فإنَّ الإمام لم يفته مدلول كلامهم. وهكذا سارت كلمته خالدة، يستعان بها في كل موطن يتلاحى فيه خصمان يضمر أحدهما الضلال فيستره وراء مظهر الحق، هنا يجيء دور هذه الكلمة لتظهر تفاوت المدلولين، اللغوي والتصديقي، فاللغوي لا

(١) اعراب القرآن الكريم وبيانه، ج١، ص٧٨.

(٢) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة ،ج١، ص٧٣.

(٣) م . ن ، ج٢، ص٢٦٩.

(٤) يُنظر: سورة يوسف ، ٤٠، ٦٧ ، والانعام ، ٦٢.

يعدو تصور المعنى المعجمي، أما التصديقي فهو من يبرز القصد الجدّي الذي يهدف المتكلم إلى إيصاله.

وقد ذاع قوله (عليه السلام) **((احتجوا بالشّجرةِ، وأضَاعُوا الثّمرَةَ))** [1]، وصار من أوابد الأمثال، وعلى الرغم من انه لم يقله في إحدى خطبه، لكن المناسبة التي قيل فيها تجري مجرى الخطب، إذ انه صرّح بهذه المقولة على ملأ من الناس، فلا بأس من إنزال المناسبة منزلة الخطبة . ولاسيما أنه بصدد تبصير الناس بعبثية عملهم، فهم إن لم يحفلوا بالثمرة، فلا أقل من أن لا يلقوا بالاً إلى الشجرة ؛ **((...فإن كانت الشجرة معتبرة فبالأولى اعتبار الثمرة، وإن لم يلتفت إلى الثمرة فبالأولى لا التفات إلى الشجرة...))** [2]، فمصير الشجرة هو التضييع، لتعمدهم تضييع أحسن ما فيها وهو الثمرة لكونها هي المطلوبة . فموضع الاستشهاد بالمثل هو في كل محفل يتمسك فيه بالأدنى دون الاهم، فهنا مكمن المفارقة، إذ المؤدى في النهاية هو تضييع الاثنين معاً، وخلو الوفاض منهما جميعاً.

ومن الأمثال التي أطلقها وتلبست بالحكمة – وصح تسميتها مثلاً على الرغم من خلوها من التشبيه– قوله:**((...سَلْ عنِ الرَّفيقِ قبلَ الطَّريقِ، وعنِ الجَارِ قَبلَ الدّارِ...))**[3]، فهذان مثلان تتابعا في الخطبة ومآلهما متقارب، وهي انتفاء الصحبة التي يُجبر عليها المرء سواء أكانت صحبة مؤقتة – كرفقة الطريق التي تنتهي بوصول كل إلى غايته – أم صحبة مستديمة كصحبة الجار التي تستحيل إلى نقمة إذا كان الجار جار سوء، ووجه الإجبار في الصحبة، هي عدم إمكان التخلص منها. فالمرء ما لم يستعلم حال صاحبيه في السفر والمقر، أكره على القبول بصحبة من لا يرغب به والتفصي من شر هذا الأمر، يكون بالتحرز عن صحبة السوء بتحري أمر الصاحب والجار، والاجتناب عنها في حال لم ترقهُ.

وما يلفت النظر هنا هو دخول هذين المثلين مصاحبين لأمثال أُخر أرسلها الإمام (عليه السلام) في هذه الخطبة، بعضها تمخض للصحبة أصلاً كقوله فيها **((صُحْبَةُ الجَاهلِ شُؤمٌ... لا تَرْغَبْ فِيمَنْ زَهَدَ فيك، رُبَّ بعيدٍ هُوَ أقْرَبُ مِن قَريبٍ...))**، وغيرها مما يمثل اشارات مضيئة على وفقها يتم اختيار الصاحب، واصطفاء الطريقة التي يتم التعامل معه بها مع الصديق.

وثمة نصائح أخرى – في هذه الخطبة – تناولت موضوعات أُخر، مما يوحي بأنَّ الخطبة احتواها نسق عام مثّل بنية متكاملة لمّت أشتات مجموعات متفرقة، مثلت كل مجموعة طرفاً من الأحاديث التي يأخذ بعضها بحجزة بعضها الآخر تحت مسمى واحد، أسبغ مظهر الوحدة عليها

---

(١) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج١، ص٥١.

(٢) شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني، ج٢، ص٢٥٢.

(٣) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٧٧.

وهو طابع الإرشاد الذي من دأبه أن يوجه وينصح . وهذا الموضوع يقود إلى ظاهرة تفشت في أسلوب الإمام (عليه السلام) وهي تنوع مضامين ما يطرحه في الخطبة الواحدة، وهذا التفنن في طرح المضامين كان دأب العرب في أيام جاهليتهم، إذ كانت القصيدة الواحدة تنفتح على أكثر من جانب، فيلتقط السامع منها مختلف الأحاديث متوزعة على مقدمة، وغرض ،وخاتمة، فكان يتخلص من موضوع إلى آخر ببراعة، فيتسلل بين ثنايا القصيدة برفق منتقلاً من جزء إلى آخر. وهذا التنوع لم يقتصر على الشعر الجاهلي فقد كان من شأن القرآن الكريم أن تتعدد فيه الجوانب التي يتطرق إليها في السورة الواحدة . فيجد المرء فيها القصص والمواعظ والتشريعات والأوامر والنواهي والأخبار وبسطاً لصفات المؤمنين والكافرين ، يختلف ذلك باختلاف السورة دون أن يخل هذا التنويع بآليات التواصل ومتطلبات التلقي، بل العكس فالسامع مدرك أن وراء هذا الصرح الأدبي يكمن الجمال الذي اعجز متلقفيه المعاصرون ومن ورائهم، على مدى الآماد من تحديد ماهيته، واستشراف كنهه.وكذلك بنيت خطب أمير المؤمنين (عليه السلام) وفق هذا النسق، نسق الفنون المتنوعة، فالخطبة الواحدة تتسع أحضانها لعدة أغراض، فقد تتقاسمها معاني التوحيد والتوجيه، والحث على الجهاد والترغيب بالجنة والترهيب من النار، والفتيا في التشريع والنصح، وسوق المثل وسواها من الأغراض، فلا يتحيف المتلقي من اجل وحدة عضوية كانت أو موضوعية، فهذه الوحدة مطلب ابتكرته الرومانسية[١]، بعد أن حاولت ان تعيد التوحد إلى الوجود الذي فتته يد العلم والتجريب[٢].

على ان جماليات الوحدة المتجذرة في أصل الرؤيا الرومانسية انهارت، ولم تعد مصدراً وحيداً للجمال[٣]، فهناك محاور أخرى للجمال كالمجاورة[٤]، وهي متحققة في هذه الخطبة، إذ تجاورت فيها الحكم السارية مسرى المثل مع الأمثلة السائرة التي يمثل كل مثل منها وحدة لفظية ؛ لارتباط بعضها ببعض من جهتي المعنى والمبنى[٥]، هذه الوحدات مثلت كل واحدة منها لبنة في البناء الكلي، لأنّ اللغة هي الواسطة فيه و((...لا شيء تتوسط فيه اللغة إلا لحقته أسباب البناء...)) [٦]، وهذه الطريقة تتكرر في بناء هيكلية كثير من الخطب، التي تملأ الأمثال السائرة جزءاً كبيراً منها كالخطبة السالفة، فقد تميزت بإرسال النصح في هيئة أمثال، يصح أن ترسل في محافل شتى،

(١) يُنظر: اللغة والإبداع ،مبادئ علم الاسلوب العربي، ص٢٥، فقد رأى شكري عياد ان الرومانسية أرست أصولاً في النشاط البشري – الأدب والفن – وحدة لا تنفصل بعضها عن بعض .

(٢) يُنظر: المرايا المحدبة من البنيوية الى التفكيكية ص٨٥.

(٣) جماليات التجاور او تشابك الفضائيات الإبداعية، كمال أبو ديب، ص١٩.

(٤) م . ن، ص١٧.

(٥) الاتجاهات الحديثة في علم الأساليب وتحليل الخطاب، ، ص٣٠ .

(٦) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص٦٥.

لاشتمال هذه الأمثال على مضامين تتوافق مع الوقائع الحياتية المتفاوتة، فإذا أجيل النظر في هذه الخطبة، سنجد محاور متباينة تناولتها الخطبة، وللباحث أن يرصفها في حقول ذات عناوين متعددة، فيكون كل عنوان جامعاً لهذه المقاصد، كالورع والزهد، والقناعة، والحث على العلم ومكارم الأخلاق من صبر وتحلم وحياء وسعة صدر، وغيرها من الأمور التي شغلت حيزاً كبيراً من الخطبة، بل مثّلَت شطرها الأكبر(١).

وما يلفت النظر في هذه الخطبة أن هذه المحاور لم تنعزل، بل ان بعضها يتلبس بالآخر المختلف، بناءً على معطيات التجاور، مشكّلة بذلك نمطاً متكرراً على نحو يطّردُ إطراداً غير ثابت، فتجد موضوع القناعة مثلاً متفرقاً في جنبات الخطبة يتواشج كل مرّة مع موضوع آخر.

والتفنن في التكرار، وتنويع الصيغ يتم برفق لترسخ الموعظة في الضمير، فالغاية من المثل هنا وما جرى مجراه من الحكم هو بعث الآخرين لقبولها والعمل بها، إلا ان ذلك لم يمنع ان تؤدى على نحو من التفنن في الصياغة وفي الموضوع، فمثلاً موضوع القناعة سبكه مع نعمة العافية والسلامة، فقال ((**... ولا مالَ أذهبُ بالفاقَةِ من الرِّضا ... [إلى قوله] انتظم الراحة**))، ثم ذَمَّ الإنسان غير القنوع، الحريص على ما مُنع. وفي فقرة تالية ذم الرغبات والحسد ثم قال ((**...والحرص داع إلى تقحم الذنوب...**)) ثم في فقرة ثالثة طرح بديلاً للمال، ليقنع به أصحاب العقول وهو العلم ((**...لَا كَنزَ انْفعُ مِن العلمِ...**)) وقال أخرى راسماً صورة أخرى للقناعة، تقوم على عدم التطلع إلى ما في أيدي الآخرين ؛ فمن رضي بالرزق المقسوم له من عنده تعالى ((**...لمْ يَأسفْ عَلى مَا فِي يَدِ غَيرِه**)) وكرّ على الموضوع تارة أخرى فبيّن أنَّ((**لا مَالَ ...أعْوَدُ مِن العقْلِ...**)) مبيناً بعدها أن الفقر أشدّ من الجهل ... إلى غيرها من الحكم كقوله في إحدى الفقرات ((**...والعفافُ زِينةُ الفَقرِ...**)) فهذا التلوين في ذكر القناعة وسرد محاسن العفو عما في أيدي الناس والاستعاضة عن المال بالعلم والعقل، والقبول بالكفاف وغيرها– مما لم اذكره– جاء كله في خطبة واحدة، أُزجيت فيها النصائح لا على نحو المباشرة، بل توسل الإمام (عليه السلام) طريقة أخرى في لفت أنظار الناس إلى العمل الصالح، لئلا تأنف الناس من النصيحة وتتكدر منها، فهذا أسلوب رفيع يهدي الإنسان إلى الصلاح، دون أن يشعره بثقل الأوامر، أو النواهي الصريحة في صيغها وتراكيبها المألوفة. فقد تميزت التراكيب بقصرها وسهولة حفظها ،مما يقتدر معه على تفكيك الخطبة، واخذ موضع الحاجة منها ورفعه شاهداً في أندية الكلام، ومجالس الحديث، كل هذا مع عمق المثل ودقة اختيار الكلمات ففي قوله مثلاً ((**...مَنْ لا يَتَعلمُ يَجْهلُ...**)) تتمثل الدقة هنا في الصياغة والتركيب معاً، فضمن المحور التتابعي، نجد أن الجملة موصولة، مفادها الإخبار، فالجهل نتيجة عدم التعلم، وهو ناجم عنه، فلو

(١) ينظر: نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة، ج١، ص٧٠ وما بعدها إلى ص٧٩ .

عدل عن هذه الصياغة وقال ((**الجَاهلُ مَنْ لَا يَتَعَلم**)) لوقف الجهل عند حد، فمعلوم أن الاسم ثابت الدلالة، أما مع هذه الصياغة التي تدل على انعدام المبادرة أصلاً (لا يتعلم) فالجهل لا يقف عند حد، إذ من لا يتعلم يزداد جهلاً، لذا عمد إلى الفعل المضارع الذي يدل على التجدد والاستمرار[١]، فكأن عدم التعلم، ينزلق بصاحبه إلى مهوى سحيق لا قرار له، فالجهل يحيق به ويزداد كلما أحجم عن التعلم . وهذه الدقة لا تقتصر على هذه الحكمة بل تتعداها إلى أمثالها، بما لا يسع الوقوف عنده .

وتزاحم الأمثال لا يقتصر على هذه الخطبة، لكن دأب البحث هو التركيز على السائر منها، فما أرسل حتى صار يستشهد به في مناسبات متقاربة في المغزى قوله ((**...لا رأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ...**))[٢]، يضرب مثلاً فيمن يعجزه قومه تمرداً وعصياناً، فعدم الطاعة يهدم الرأي وينفيه.

ومما سارت به الركبان قوله ((...ما عَدا ممَّا بَدا...)) [٣]، يضرب لمن تغيرت أحواله، فيُنكر عليه ذلك، وهذا المثل لم يقله الإمام (عليه السلام) في خطبة بل كان رسالة أرسلها إلى البصرة، أوصلها عبد الله بن عباس، لكنها تجري مجرى الخطبة لذيوعها وانتشارها في محفل من الناس.

ومنها ما قد صار شعاراً للشعوب المقاومة ضدّ الظلم في عصرنا الحاضر، قوله (عليه السلام) ((**فالموتُ فِي حَياتِكُم مَقْهُورِينَ، والْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِيْنَ**))[٤]، هذا المثل صيغ صياغة قائمة على التوازي النحوي، القائم على جهة العكس في المحتوى[٥]، دون ان تنقلب البنية النحوية ؛ لأنَّ التركيب في الجملتين هو نفسه، فقد تقدم المبتدأ، ثم شبه الجملة، ثم الحال، لكن الانعكاس جاء في محتوى المادة إذ كل واحدة تضاد الأخرى.

ف: الموت × الحياة

في حياتكم × في موتكم

مقهورين × قاهرين

هذه الصيغة التركيبية للمثل، أوجزت شكلين، للحياة الكريمة والحياة في ذل، وبهذا الإيجاز حثت على القتال، ولم تلجأ إلى الصيغة المباشرة، فتَدَبُرُ المعنى يكون رهن قدرة السامع في اقتناص الدلالة الكامنة وراء هذه الكلمة. وهذه ميزة المثل السائر، إذ يطل حاضراً، كلما برقت

---

(١) دلائل الإعجازفص١٧٤.

(٢) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٢، ص٤٧٩.

(٣) م . ن، ج١، ص٣٢٩ .

(٤) م . ن، ج٢، ص٩١.

(٥) البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص١٢٢.

سانحة تدعو إلى التمثل به ، دون الأوامر المباشرة التي ينحصر إطلاقها في ظرف الحادثة، وقلما يتعداها إلى غيرها من الأحوال والأمور.

وثمة مثل آخر للإمام يتوازى مع مثل آخر في بنيته الخارجية، مع انعكاس في المحتوى، وهذا يعني أنَّ تناصاً داخلياً انعقد بين المثلين، فهما متعاصران في الحقبة الزمنية، وما من دليل يبين الأقدم منهما، والمثل الذي أطلقه الإمام (عليه السلام) هو قوله، لمن لم يُحسن أن يجيبه ((**أَحْسِنْ مُسْتَمِعاً، تُحْسِنْ إجابَة...**)) [1]، فهو يعارض مثلاً آخر ((أساء سمعاً، فأساء إجابة)) [2]، والمخالفة بين المثلين قائمة على المغايرة بين العنوانين اللذين ينضوي كل مثل منهما تحته، فمما قاله الإمام (عليه السلام) هو إنشاء، وما عارضه من مثل يدخل تحت حيز الإخبار، كما أنَّ الإحسان مضاد للإساءة، فالاحسان ينص على الجهة الايجابية، وتدل الإساءة على الجانب السلبي.

وابرز الإمام الفاعل مخاطباً ومبيناً الحال التي ينبغي أن يكون عليها، ليقتدر على الجواب في قوله (مستمعاً) فاسم الفاعل هو السمة التي أضفت عنصراً جمالياً على صيغة المثل.

وليس كل ما تلبس بصورة المثل هو سائر، فربّ مثل هي في قوة السيرورة، كقوله ((**بلغ الحق مَقْطَعَهُ...**))[3]، فلا يخلّ بهذا المثل انه غير سار، ما دام يجوز إشهاره في كل مورد يبلغ الأمر فيه ذروته.

ومسألة سيرورة الأمثال لا تظل على نمط واحد، فكثيرة هي الأمثال التي سادت في زمن ما، ثم طواها الزمان، فلم تعد تذكر، وباتت حبيسة بين ثنايا الكتب، فالعمدة في السيرورة هو الاستعمال الفعلي، والممكن، فالقوة الكامنة في المثل هي صلاحه للاشهار في مناسبات مختلفة، وللبيئة الثقافية أثر في إفراز المثل وتداوله والبحث عنه ومدارسته وشرحه. وذلك يعني ان بعض الأمثال يمكن بعثها من جديد من خلال إشاعة مبدأ الاستشهاد بالمثل واستدعائه عند الحاجة، فللمثل قدرة على الإيجاز والوصف الدقيق ما دام عنصر المشابهة قائماً بين الطرفين والنكتة التي تتوارى خلف المحلين كليهما قائمة، ولذلك قد يطلق المثل ويبقى قيد الحالة الراهنة، كقوله (عليه السلام): ((**... لو يطاع لقصيرٍ رَأْيٌ...**)) [4]، وهذا في صياغته لا يستوي مثلاً، لكن الظرف الذي حيك فيه هذا الكلام مع اشارته وإلماعه لواقعة تاريخية معروفة، ألبسته وشي المثل، فهو يومئ إلى عصيانهم، الذي سيؤول إلى ندم محتّم، لذلك يصح رفع هذه الجملة مثلاً كلما اتيحت عوارض شبه تجمعها مع غيرها،

---

(١) نهج السعادة ، في مستدرك نهج البلاغة، ج٢، ص٤٦٤.

(٢) الفاخر في الأمثال، المفضل الضبي، ص١٠٨ .

(٣) نهج السعادة، في مستدرك نهج البلاغة،ج٢، ص١٧٣.

(٤) نهج السعادة، ج٢، ص٢٨٢.

وينبغي عندئذ إعادة الجملة بحذافيرها، فالمثل لا يُغير عن الأصل الذي وضع عنه، بل يحكى كما هو[١].

والمثل ليس له صورة واحدة، فقد يجيء بهيئة دعاء، كقوله (عليه السلام) للخوارج: ((...**أصابَكُمْ حاصِبٌ**...))[٢]، فللمتكلم أن ينص هذا المثل في كل موقف يخرج فيه المقابل عن طوع أمره أو يخالفه في رأيه.

والأمثال تترى في خطب الإمام (عليه السلام) وهو نفسه استعان بأمثال العرب واستعملها في كلامه وهذا يدلل على أهمية المثل ؛ إذ هو يرفد جداول الحديث ويُبرز جوانبها المستترة، من خلال اجراء المثل بين مطاوي الكلام. ومن الجدير بالذكر أن الإمام (عليه السلام) عندما استنفر الناس للجهاد فتثاقلوا عنه، نعى عليهم الانشغال بضرب الأمثال، في أمور رأى أنها منعتهم من الجهاد، فقال ((...**تَتَرَبَّعُونَ حَلَقا تَضْرِبُونَ الأَمْثالَ**...))[٣]، وهكذا نرى ان ضرب الأمثال وتذاكرها هو عادة دأب عليها العرب، لذا لا غرو ان تهيمن على مسافة واسعة مثلت ظاهرة أسلوبية في خطب الإمام (عليه السلام) كانت جديرة بالتناول.

---

(١) نهاية الإيجاز، ص٨١.

(٢) نهج السعادة، ج٢، ص٣١٦.

(٣) م . ن ، ج٢، ص٤٨٢ .

الخاتمة

في ختام هذه الأطروحة، لابد من ذكر ما أفضت إليه من نتائج:

١ -إن الأداء الفني ممتزجٌ مع شخصية الإمام (عليه السلام) لا يكاد ينفكُ عنه حتى في احلك المواقف وأشدها، استطالت الجمل أم قصرت.

٢ -ن خطب أمير المؤمنين (عليه السلام) العصماء ترسم صورة مشرقة للحاكم المسلم الذي يرأف برعيته ويتلطف بهم، حتى ليدعو لهم ويظهر الخوف عليهم ويعلمهم وينصحهم ويوجههم. وبذلك تمحو هذه الخطب الآثار السيئة التي ترسمها الشخصيات الفظة والغليظة التي تبث الرعب والتهديد وتخالف المنهج الإسلامي ولا تنتسب إليه إلا بالاسم.

٣ -متاز خطاب أمير المؤمنين (عليه السلام) – على الرغم من تقادم عهده – بالمعاصرة، وآية ذلك سهولة تطبيق المناهج الحديثة عليه.

٤ -تكب الإمام (عليه السلام) الأوامر الصريحة المباشرة في مقام إصلاح النفوس والتحذير من الأهواء والفتن، لذا تسود في هذا المقام الأفعال المضارعة أو الجمل الاسمية، فتستر الأوامر الارشادية وراء الجمل التقريرية، فيكون ما ظاهره خبري ساكن ذا طبيعة انشائية متحركة، أما في سوح الحرب، فيسود فعل الأمر، لطبيعة الظرف القائم، وهو هناك يستعمل فعل الأمر بصورة يغلب عليها المجاز، فيجتذب الأسماع والقلوب!.

٥ -ختزن المفردات التي يتخيرها الإمام (عليه السلام) معاني مكثفة بحسب ما تدل عليه الدلالة الهامشية.

٦ -يكشف تسييق المفردات، قدرة كل مفردة على استقطاب مجموعة من المعاني المختلفة يرشح السياق أشدها ارتباطاً بالمقام.

٧ -ن الدلالة الهامشية مرتبطة بالدلالة المركزية؛ لأن غايتها التأثير، ولا تأثير من دون إبلاغ والإبلاغ تتصدى له الدلالة المركزية.

٨ -ن الاستعمال المميز للغة قد يجرد المفردات من مفاهيمها المعجمية المرتبطة بها ويكسبها مفاهيم جديدة.

٩ –قد تتحقق الدلالة المركزية، وتتخلف عنها الدلالة الهامشية في الكلام العلمي، أما في الخطاب الشعري فيتعين العكس.

١٠ -لدلالة الهامشية القدرة على تحري المعاني المستورة واظهار المفاهيم الجديدة.

١١ -إن دلالات المفردات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمتلقي، فتتحقق الدلالة الهامشية، ولأجل ذلك تتبدى هذه الدلالة في المواقف التي تغلب عليها العواطف المختلفة كاللوم والرضا والغضب.

١٢ إذا اكتسبت الدلالة معنى ثابتاً مهماً تغير المتلقي ، فهذا يعني أن الدلالة مركزية؛ لبقائها في الحيز المعجمي الضيق.

١٣ يعد السياق مؤثراً في صناعة الحدث اللغوي وتشكيله، ويكشف احياناً عن ملابسات ذلك الحدث ويتنبأ بالظرف المحيط.

١٤ ربما كشف السياق عن شخص المبدع، فدل على منصبه ،وهو قد يكون حاكماً، أو إمام مسجد، أو محاضراً علمياً أو رجل سلطة.

١٥ يدل السياق على الطاقة الإيحائية التي قد تمتاز بها المفردة، إذ يبين المسافة التي ربما اتسعت بين اللفظ في أصل الوضع وما صار إليه عند الاستعمال.

١٦ تناولت خطب الإمام (عليه السلام) مضامين متنوعة سيقت باقتدار، حتى ان الخطبة لتطول، فلا يخل هذا الطول بفصاحة الأسلوب وجمال الطرح.

١٧ في موارد الاحتجاج لنفسه، يبين الإمام (عليه السلام) المغالطات المعنوية التي تورط فيها الخصم، فيردها ويجابهها بحجج مؤثرة موجزة تقوم على أساس طي المقدمات وهذا ما يسمى بالقياس المضمر.

١٨ تميزت خطبه (عليه السلام) بأنها عصماء، فالإمام يؤكد على الحمد لله سبحانه في المواقف كلها، لذا أظن ان ما وصل من الخطب خالياً من الحمد، ولم تتم الإشارة إليه من قِبَلِ الراوي، فهي إما خطب ناقصة أو خطب مستأنفة تُليتْ بعد خطبة ذكر فيها الحمد، أو انها وليدة ظرف محرج ؛لا يسعه معه ذكر الحمد، كبعض مواقف احتدام القتال.

١٩ في بعض الخطب يحجم الإمام عن إتمام القول، ويشير إلى ذلك صراحة، وهذا يعكس نوعاً من الاغتراب المعرفي ،والروحي الذي يعيشه الإمام (عليه السلام) مع من حوله.

٢٠ رسمت الخطب للمنشئ صورة العالِم، والعارف بخفايا التوحيد، إذ كان الإمام (عليه السلام) يصف الله تعالى على البديهة، ويرتجل القول في ذلك، فيبسط الحديث في التوحيد الذاتي والصفاتي والأفعالي والعبادي، دون ان يتهيأ لذلك أحياناً، وذلك في موارد إجابة سائليه عن الله تعالى، فضلاً عن الخطب التراتبية، كخطب الجمع والأعياد التي لا يفوته فيها الحديث عن الله سبحانه على نحو مفصل، فضلاً عن أنه (عليه السلام) في إحدى الخطب التي أراد ان يحشد فيها جنده للمعركة عدل عن القتال وانصرف يخطبهم في توحيد الله تعالى وقدرته وصفاته، فأبرز ذلك :الجانب الروحي للقائد الرسالي الذي تطابق أقواله أفعاله.

٢١ ان الهيكلية المألوفة لخطب الإمام (عليه السلام) تبدأ بالمقدمة، فالعرض فالخاتمة، وكثيراً ما تتلابس هذه الأجزاء وتتلاحم، فتندك المقدمة بالعرض، على نحو يصعب معه تمييز مبدأ الخطبة ومآلها، وهذا يدل على تماسك نصوص خطبه وانسجامها.

٢٢ بعض الخطب – ولا سيما القصيرة منها– قد يتركها الإمام (عليه السلام) مفتوحة النهاية، وهنا تكون فرصة المتلقي كبيرة في رصد ظواهر هذه الخطب وتعليل هذه النهايات.

٢٣ فما قصد بها –من الخطب– حمد الله تعالى ووصفه تكثر في نهاياتها الخواتم المُنَزِّهَة والمُقدِّسَة للذات الإلهية، وما كان موضوعها اجتماعياً أو خالصاً لذكر معالم الدين والتشريعات والتوصية بالزهد، تكون الخاتمة فيها –غالباً–بالدعاء للحضور بالصلاح والمغفرة، وبذلك تتحقق السنخية بين الخاتمة والغرض.الإمام (عليه السلام) يكرُّ على الموضوع ذاته من جهة جديدة تغاير الجهة الأخرى، فكأنه (عليه السلام) لا يريد ترك الحديث عن الذات المقدسة، فيشبع الكلام في الحديث عنها حباً وعبودية وتلذذاً، لذا كثيراً ما تميزت خطب التوحيد بأنها ذات بنية منغلقة على نفسها، لوحدة المركز الذي يجتذبها.

٢٤ تتجلى في مسار خطبه (عليه السلام) تسلسل الأفكار وتآلف المعاني والارتباط المنطقي ويغلب عليها التنامي الطولي، فينجم عن ذلك تغطية الموضوع تغطية شاملة.

٢٥ ان خطب الحرب لم تخلُ من الحمد المنظم إلا في موارد الاشتجار الفعلي والتلاحم مع العدو.

٢٦ ان الخطب التي أنشئت لغرض اللوم على ترك القتال، كانت ذات بنية مغلقة غالباً، ما خلا الخطب التي خرج بها (عليه السلام) من اللوم المحض إلى بيان نتائج الخذلان وما نجم عنه من قتل، وسلب ،ونهب، فهذه تتنامى طولياً .

٢٧ بعض الخطب – ولا سيما القصيرة منها– قد يتركها الإمام (عليه السلام) مفتوحة النهاية، وهنا تكون فرصة المتلقي كبيرة في رصد ظواهر هذه الخطب وتعليل هذه النهايات

٢٨ كثيراً ما يكسر الإمام (عليه السلام) النسق الصوتي عندما ينتقل من موضوع إلى آخر ؛ إيذاناً بهذا الانتقال، فإذا ختم الكلام ولم يكسر هذا النسق الصوتي دلّ على ان في الحديث بقية ! .

٢٩ ان الإمام (عليه السلام) في خواتم خطب العتب غالبا ما يُنهيها بالدعاء على من حوله بأن يفارقهم ، أو بأن يتسلط من لا يرتضونه عليهم، أو بأن يفارقهم بالموت ،وفي كل هذا يُظهر العتب الجميل، والغضب المكظوم الذي لا يخرج إلى الانتقام المحرم ،الذي يبيح سفك الدماء، ونَصْبَ العداء ،والتُّهمة على الظِنَّة.

٣٠ في الخطب الطويلة لا يكاد الإمام علي (عليه السلام) ينفك عن إيراد الخاتمة وهي تكون ملائمة للخطبة، فما قصد بها –من الخطب– حمد الله تعالى ووصفه تكثر في نهاياتها الخواتم المُنَزِّهَة والمُقدِّسَة للذات الإلهية، وما كان موضوعها اجتماعياً أو خالصاً لذكر معالم الدين والتشريعات والتوصية بالزهد، تكون الخاتمة فيها –غالباً–بالدعاء للحضور بالصلاح والمغفرة، وبذلك تتحقق السنخية بين الخاتمة والغرض.

٣١ تمزية الأداء الفني في خطب الإمام تظهر في الانزياح الذي يكسر اللغة المألوفة ويجعلها لغة شعرية.

٣٢ لا يكاد الإمام (عليه السلام) يعدل عن التصوير الفني لذا كثر عنده نسق التماثل والمجاورة والاستبدال.

٣٣ شاع في أسلوب الإمام (عليه السلام) ما يمكن تسميته بتقاطع الأنساق ومفادها الصورة التي ترائي جهتين مختلفتين من التصوير الفني وذلك بتعديل زاوية النظر، فمثلاً قد يبدو التعبير حاملاً للتشبيه البليغ(المماثلة) فإذا تغيرت زاوية النظر أرت المتلقي نوعاً من الاستعارة(الاستبدال)

٣٤ كان الإمام (عليه السلام) يستقصي زوايا الموضوع المطروح بدقة فنجم عن ذلك ظواهر أسلوبية منها الخبر المركب، والخبر المتعدد ،ولاسيما في وصف الذات المقدسة، ومنها ما أسميته بـ(ترامي الصفات) و(الإضافة المزدوجة) والتناوب بين الإثبات والنفي وغيرها من الظواهر.

٣٥ تميز أسلوب الإمام (عليه السلام) بالتكرار الذي خلص للإفادة والتوكيد في ظاهره إلا أنه اتسم بميسم الجمال، ومن التكرار الذي عرف عند الإمام التكرار الاشتقاقي وتكرار المضمون وغيره.

٣٦ يتناص كلام الإمام (عليه السلام) مع كلامه هو تناصاً ذاتياً، فدلل على حرصه على توكيد المضمون الذي يطرحه عادة، وتناص أيضاً مع حديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) تناصاً داخلياً، فدلّ على تشربه مبادئ الرسالة ولاسيما وهو ربيب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وصهره وابن عمه. وتناص تناصاً خارجياً مع القرآن الكريم. فدل على شدة تمثله له.

٣٧ امتاز أمير المؤمنين (عليه السلام) بأرسال المثل والمثلين، بل إرسال أكثر من مثل ولاسيما في مظان النصح والإرشاد تحبباً وترغيباً وتوضيحاً من خلال مقايسة حال المثل على حال آنية جديدة.

التوصيات

٣٨ انبثق عن ظاهرة التكرار توالي النسق عند أمير المؤمنين في نمط ثلاثي، إذ ينغلق النسق في المرة الثالثة، خلافاً لكمال أبي ديب الذي يرى ان النسق ينحل بعد المرة الثالثة، ويتحول إلى نسق جديد. وقد عللت انغلاق النسق عند الإمام (عليه السلام) بظاهرة التشبع التي قالت بها الأسلوبية، وإذ انني لم اتطرق لهذه الظاهرة في الأطروحة، وإن تناولتها في مبحث مستقل – فإنني أوصي برصدها ومعرفة بواعثها.

٣٩ يزعم فيرث ان تراكم تسييق المفردة الواحدة يؤدي إلى انبثاق السياق الأكبر، ولما لم أرَ – في حدود اطلاعي – مَنْ تناول ظاهرة السياق الأكبر، فإنني ادعو للاهتمام بها وعقد البحوث لأجلها.

٤٠ ان تغييب التراث الفكري للإمام علي (عليه السلام) فوت منافع كثيرة على النوع الإنساني، فغابت مفاهيم العدالة، وشاع الفكر التكفيري المتطرف الذي اسدل الستار على الصورة الناصعة للدين الإسلامي وتشوهت صورة الحاكم المسلم، فلو ابرز هذا التراث وشهر على المستوى العالمي وعرف أن الإمام

علي (عليه السلام) لا يرى لولد إسماعيل على ولد إسحاق من فضل، وأنه تعايش مع من بغى عليه – خارجاً – ما دام لم يشهر سيفه ولم يفسد في الأرض، فلم يكفره ولم يمنع عنه الفيء ولم يحرّمْ عليه دخول المساجد، ولم يبح قتل المتخلف عن اللحاق بالجيش بل يرى في ذلك غشماً وظلماً وتعدياً وإسرافاً فحبذا لو أشيعت هذه المفاهيم بدلاً من المفاهيم الغاشمة التي تنطق بها الخطبة البتراء، فالإمام (عليه السلام) لا يقول ((انجُ سعد فقد هلك سعيد)) ولا يرى إباحة الدماء كيفما اتفق، فليس هو بصاحب الرؤوس التي أينعت وحان قطافها، هذا الظلم وهذا النفس الطاغوتي لا يوجد عند أمير المؤمنين (عليه السلام) كيف وهو فخر الإسلام بل فخر الإنسانية .

٤١ أوصي طلبة الدراسات بأن يتناولوا جزئية صغيرة فحسب في دراساتهم .

وبعد فله الحمد أولاً وآخراً

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

١ -آفاق التناصية.. المفهوم والمنظور، مجموعة من المؤلفين، تعريب وتقديم: محمد خير البقاعي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.

٢ -آفاق جديدة في دراسة اللغة والذهن، نعوم تشومسكي، ترجمة: حمزة بن قبلان، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

٣ -الاتجاهات الحديثة في علم الأساليب وتحليل الخطاب، علي عزت ، شركة أبو الهول للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

٤ -اتجاهات الدرس الأسلوبي في مجلة فصول (١٩٨٠-٢٠٠٥)، رامي علي أبو عايشة، دار ابن الجوزي، المملكة الأردنية الهاشمية، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

٥ -الأثر القرآني في نهج البلاغة، دراسة في الشكل والمضمون،عباس علي حسين الفحام، ،العتبة العلوية المقدسة،النجف الأشرف،عاصمة الثقافة الإسلامية،٢٠١٢

٦ -أساس البلاغة، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن احمد الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٧ -استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت – لبنان، دار الكتب الوطنية، بنغازي- ليبيا، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.

٨ -الاستعارات التي نحيا بها، جورج لايكوف، ومارك جونسن، ترجمة: عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، الطبعة الثانية، ٢٠٠٩م.

٩ -أسرار البلاغة، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي (ت: ٤٧١ أو ٤٧٤هـ)، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ-١٩٩١م.

١٠ -الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، احمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثامنة، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

١١ -الأسلوب دراسة لغوية احصائية، سعد مصلوح، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

١٢ -أسلوبية الرواية (مدخل نظري)، حميد لحمداني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.

١٣ -الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت – لبنان، دار الكتب الوطنية، بنغازي – ليبيا، الطبعة السادسة، ٢٠١٤م.

١٤ -الأسلوبية وتحليل الخطاب، منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب – سوريا، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

١٥ -الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، موسى ربابعة، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.

١٦ -الأسلوبية ونظرية النص، إبراهيم خليل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة العربية الأولى، ١٩٩٧م.

١٧ -إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، يوسف وغليسي، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر العاصمة- الجزائر، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

١٨ -أصوات العربية بين التحول والثبات، حسام سعيد النعيمي، سلسلة بيت الحكمة (٤)، جامعة بغداد، (د.ت).

١٩ -أصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم، محمد حسين علي الصغير، دار المؤرخ العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

٢٠ -أصول الحديث، عبد الهادي الفضلي، مركز الغدير للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

٢١ -الأصول العامة للفقه المقارن، محمد تقي الحكيم، منشورات ذوي القربى، قم، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ.

٢٢ -إعراب القرآن، أبو جعفر احمد بن محمد بن إسماعيل النحاس (ت: ٣٣٨هـ)، وضع حواشيه وعلّق عليه: عبد المنعم إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٩م.

٢٣ -إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين الدرويش، منشورات ذوي القربى، قم، الطبعة الثانية، ١٤٣٥هـ.ق ، ١٣٩٣هـ.ش.

٢٤ -الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، جُورج جرداق، مطبوعات دار الأندلس، النجف الأشرف، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

٢٥ أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة، مدخل إلى السيموطيقا، نصر حامد أبو زيد، سيزا قاسم، دار التنوير للطباعة والنشر، مصر – القاهرة، بيروت – لبنان، طبعة التنوير الأولى، ٢٠١٤م.

٢٦ أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن احمد ابن عبد الله بن هشام الأنصاري المصري (ت: ٧٦١هـ)، دار الفكر، بيروت–لبنان.

٢٧ بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الإمامية، محسن الخرازي، دار المحجة البيضاء، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ–٢٠٠٦م.

٢٨ البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصيّة، جميل عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م.

٢٩ البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، لو نجمان، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

٣٠ البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، هنريش بليت، ترجمة وتقديم وتعليق: محمد العمري، افريقيا الشرق، بيروت – لبنان، ١٩٩٩م.

٣١ بنية اللغة الشعرية، جان كوهن، ترجمة: محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء – المغرب، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

٣٢ البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ–٢٠٠٩م .

٣٣ تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي، محمود البستاني، مجمع البحوث الإسلامية، بيروت – لبنان، ١٤١٠هـ–١٩٩٠م.

٣٤ تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن،عبد العظيم بن عبد الواحد ابن ظافر بن أبي الاصبع المصري العدواني (ت: ٦٥٤هـ)، تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، (د.ت).

٣٥ تحليل الأفعال الإنجازية في الخطاب السياسي [دلالة الفعل في خطاب السلطة في ضوء نظرية المواقعة المقامية]، محمود عكاشة، دار النشر للجامعات، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م.

٣٦ التحليل البنيوي للمعنى والسياق، عبد الجليل مرتاض، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠١٠م.

٣٧ تحليل الخطاب، ج.ب براون و ج. يول، ترجمة وتعليق: محمد لطفي الزليطني ومنير التريكي، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

٣٨ تحليل الخطاب الروائي (الزمن – السرد – التبئير) سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٧م.

٣٩ التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، محمود عكاشة، دار النشر للجامعات، القاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠١١م.

٤٠ التحليل النصي تطبيقات على نصوص من التوراة والانجيل والقصة القصيرة، رولان بارت، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، دار التكوين، دمشق – سوريا، ومنشورات الزمن، المغرب – الرباط ، (د.ت).

٤١ التركيب اللغوي للأدب (بحث في فلسفة اللغة والاستطيقا)، لطفي عبد البديع، دار المريخ للنشر، الرياض، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

٤٢ تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، يمنى العيد، دار الفارابي، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة، ٢٠١٠م.

٤٣ جماليات التجاور أو تشابك الفضاءات الإبداعية، كمال أبو ديب، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

٤٤ جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، احمد زكي صفوت، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٢هـ-١٩٣٣م.

٤٥ حاشية الدسوقي على مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري (ت:٧٦١هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٩م.

٤٦ الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية، ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م.

٤٧ الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني (ت:٣٩٢هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة التوقيفية، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م.

٤٨ الخطاب، سارة ميلز، ترجمة: عبد الوهاب علوب، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م.

٤٩ الخطابة، أرسطو، ترجمة: عبد القادر قنيني، افريقيا الشرق – المغرب، ٢٠٠٨م.

٥٠ -الخطاب والحجاج ،أبو بكر العزاوي، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان ،الطبعة الأولى ،٢٠١٠م.

٥١ الخطاب وخصائص اللغة العربية، دراسة في الوظيفة والبنية والنمط، احمد المتوكل، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.
٥٢ الخيال، الأسلوب، الحداثة، اختيار وترجمة وتقديم: جابر عصفور، المركز القومي للترجمة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٩م.
٥٣ دلائل الإعجاز، عبد القاهر عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، (ت:٤٧١ أو ٤٧٤هـ)، قرأه وعلق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر – القاهرة، الطبعة الثالثة، ٤١٣هـ-١٩٩٢م.
٥٤ دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الانجلو المصرية، الطبعة الخامسة، ١٩٨٤م.
٥٥ دليل الفكر إلى شرح الباب الحادي عشر، علي علمي الاردبيلي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م.
٥٦ الروض الداني (المعجم الصغير)، سليمان بن احمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي أبو القاسم الطبراني (ت:٣٦٠هـ)، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج، الناشر: المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت – عَمّان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
٥٧ سرّ صناعة الاعراب، أبو الفتح عثمان بن جني (ت: ٣٩٢هـ)، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل واحمد رشدي شحاته عمر، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
٥٨ السياق وأثره في المعنى دراسة أسلوبية، المهدي إبراهيم الغويل، دار الكتب الوطنية، بنغازي – ليبيا، ٢٠١١م.
٥٩ سيمياء العنوان، بسام موسى طقوس، إربد – الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
٦٠ السيميائيات، دراسة الأنساق السيميائية غير اللغوية، بيير جيرو، ترجمة: منذر عياشي، دار نينوى للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق – سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ-٢٠١٦م.
٦١ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي الهمداني المصري (ت:٧٦٩هـ)، تحقيق وشرح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الغدير، قم، الطبعة الرابعة، ١٤٣٢هـ.
٦٢ شرح ألفية ابن مالك، ابن الناظم أبو عبد الله بدر الدين محمد بن جمال الدين محمد ابن مالك،(ت:٦٨٦) دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٦٣ شرح المختصر على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني في المعاني والبيان والبديع، سعد الدين مسعود التفتازاني (ت٧٩٢هـ)، منشورات اسماعيليان، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ- هـ.ش.

٦٤ شرح نهج البلاغة، كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت٦٧٩هـ)، قم – إيران، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.

٦٥ الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، الولي محمد، المركز الثقافي العربي، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.

٦٦ الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، بشرى موسى صالح، المركز الثقافي العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

٦٧ عبرات المصطفين في مقتل الحسين، محمد باقر المحمودي، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، قم – إيران ، ١٤١٧هـ.ق.

٦٨ العدالة الاجتماعية في الإسلام سيد قطب، دار الشروق، بيروت، الطبعة الثالثة عشرة، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.

٦٩ العدل الإلهي، مرتضى المطهري، ترجمة: محمد عبد المنعم الخاقاني، دار الفقه للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.ق – ١٣٨٣هـ.ش.

٧٠ علم الأسلوب مبادئه واجراءاته، صلاح فضل، دار الشروق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٧١ علم الدلالة، احمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٩٩٨م.

٧٢ علم اللغة العام، فرديناند دي سوسور، ترجمة: يوسف عزيز ،مراجعة النص العربي، مالك يوسف المطلبي، سلسلة كتب شهرية تصدر عن دار آفاق عربية، ١٩٨٥م.

٧٣ الفاخر في الأمثال، المفضّل بن سلمة بن عاصم الضبي،ت٢٤١ اعتنى به ووضع حواشيه: محمد عثمان، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.

٧٤ الفتنة الكبرى علي وبنوه، طه حسين، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة عشرة، (د.ت).

٧٥ فنون بلاغية (البيان – البديع)، أحمد مطلوب، دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.

٧٦ فنون النص وعلومه، فرانسوا راستيي، ترجمة: إدريس الخطاب، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء – المغرب، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

٧٧ -في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية – الخطابة في القرن الأول أنموذجاً، محمد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب – الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢م.

٧٨ -في البلاغة العربية والاسلوبيات اللسانية آفاق جديدة، سعد عبد العزيز مصلوح، مجلس النشر العلمي، الكويت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.

٧٩ -في النص الأدبي، دراسة أسلوبية إحصائية، سعد مصلوح، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ١٩٩١م.

٨٠ -القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت٨١٧هـ)، إعداد وتقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٨١ -قضايا الشعرية، رومان ياكبسون، ترجمة: محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء – المغرب، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.

٨٢ -قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية (بنية الخطاب من الجملة إلى النص)، أحمد المتوكل، دار الأمان، الرباط، (د.ت).

٨٣ -الكتابة في درجة الصفر، رولان بارت، محمد نديم خشفة، مركز الإنماء الحضاري، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

٨٤ -كتاب الأمالي ، صلة ذيل الأمالي ،ابو علي اسماعيل بن القاسم القالي ،ت٣٥٦هـ.،تحقيق ،علي محمد زينو، مركز الرسالة للدراسات وتحقيق التراث،ناشرون، الطبعة الأولى ، ١٤٣٦ -٢٠١٥م.

٨٥ -كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري،ت٣٩٥ تحقيق: محمد علي البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار احياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الأولى، ١٣١٧هـ-١٩٥٢م.

٨٦ -لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت٧١١هـ)، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسن، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).

٨٧ -لسانيات النص ، مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.

٨٨ -اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٤م.

٨٩ -اللغة والإبداع مبادئ علم الأسلوب العربي، شكري محمد عياد، (د.ط)، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.

٩٠ -اللغة والحجاج ،أبو بكر العزاوي ،الدار البيضاء،المغرب ،الطبعة الأولى ،٢٠٠٦
٩١ -اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز، ترجمة: عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، العراق – بغداد، اعظمية، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
٩٢ -مبادئ في علم الأدلة، رولان بارث، ترجمة: محمد البكري، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.
٩٣ -المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير،ت٦٣٧ قدمه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الطبعة الثانية.
٩٤ -مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي،ت٥٠٢ حققه: لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م .
٩٥ -مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت:٨٠٧هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، (د.ت).
٩٦ -محاضرات في الإلهيات، جعفر السبحاني، تلخيص: علي الرباني الكلبيكاني، منشورات مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام)، إيران – قم، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ.ق- ١٣٩٢هـ.ش.
٩٧ -مدخل إلى التحليل اللساني للخطاب الشعري، نعمان بوقرة، عالم الكتب الحديث، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٨م.
٩٨ -مدخل إلى النص الجامع، جيرار جينيت، ترجمة: عبد العزيز شبيل، مراجعة: حمّادي صمود، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩م.
٩٩ -المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيكية، عبد العزيز حمودة، عالم المعرفة، الكويت، (د.ت).
١٠٠ -مطارح النظر في شرح الباب الحادي عشر، صفي الدين الطريحي(ت: بعد ١١٠٠هـ)، تحقيق: مكتبة فدك لإحياء التراث، قم – إيران، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
١٠١ -مطاردة العلامات علم العلامات،والأدب، والتفكيك، جوناثان كلر، ترجمة: خيري دومة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م.
١٠٢ -المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، احمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت:٨٥٢هـ)، تنسيق: سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشتري، دار العاصمة للنشر والتوزيع، دار الغيث للنشر والتوزيع، (د.ت).
١٠٣ -المطول شرح تلخيص المفتاح، سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (ت:٧٩٢هـ)، دار الكوخ للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٣٨٧هـ.

١٠٤ -معايير تحليل الأسلوب، مكاييل ريفاتيير،معايير تحليل الأسلوب ،ترجمة وتعليقات ،دحميد لحمداني ،الدار البيضاء_المغرب الطبعة الأولى_ ١٩٩٣

١٠٥ -معجم الأسلوبيات، كاتي وايلز، ترجمة: خالد الأشهب، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.

١٠٦ معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، احمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧م.

١٠٧ المعنى وظلال المعنى أنظمة الدلالة في العربية، محمد محمد يونس علي، دار المدار الإسلامي، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧م.

١٠٨ مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، محمد محمد يونس علي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت – لبنان، دار الكتب الوطنية، بنغازي – ليبيا، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.

١٠٩ مقدمة في نظريات الخطاب، ديان مكدونيل، ترجمة: عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

١١٠ مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٠م.

١١١ المنطق، محمد رضا المظفر، تحقيق: علي الحسيني، قم – إيران، ١٣٨٠هـ.ش.

١١٢ الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

١١٣ النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، ١٩٧٤م.

١١٤ نسيج النص بحث في ما يكون به الملفوظ نصاً، الأزهر الزّناد، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

١١٥ -النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، عدنان بن ذريل، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ٢٠٠٠م.

١١٦ النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، فان دايك، ترجمة: عبد القادر قنيني، افريقيا الشرق، المغرب، بيروت – لبنان، ٢٠٠م.

١١٧ نظرية التأويل: الخطاب وفائض المعنى، بول ريكور، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، بيروت– لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٦م.

١١٨ نظرية النص من بنية المعنى إلى سيمائية الدال، حسين الخمري، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة – الجزائر، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

١١٩ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز (في علوم البلاغة وبيان اعجاز القرآن الشريف)، فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت:٦٠٦هـ)، مطبعة الآداب، مصر – القاهرة، ١٣١٧هـ.

١٢٠ نهج البلاغة، الشريف الرضي،(ت٤٠٦)،شرح: محمد عبدة، خرّج مصادره: فاتن محمد خليل اللبون، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، (د.ت).
١٢١ نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة، محمد باقر المحمودي، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران، إيران، ١٤١٨هـ.
١٢٢ نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة، محمد باقر المحمودي، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٨٣٥هـ-١٩٦٥
١٢٣ نقد الشعر، أبو الفرج قدامة بن جعفر، (ت٣٣٧)،طبع في مطبعة الجوائب، قسطنطينية، الطبعة الأولى، ١٣٠٢هـ.

المجلات

١ علامات، ج٣٩، مج ١٠، ذو الحجة ١٤٢١هـ-مارس ٢٠٠١م.
٢ فصول ، مجلة النقد الأدبي، مج: الأول ، العدد الرابع، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.
٣ لأن ، سلسلة دراسات محكمة في اللغة والنقد، نظرية السياق بين التوصيف والإجراء، دار مكتبة البصائر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م.

الروابط الالكترونية :

http://arabic.alshia.org

Republic of Iraq

Ministry of Higher Education & Scientific Research

University of Kufa

College of Arts

Imam Ali Discourse in Najul-Sa`ada fi Mustdrak Najul-Belaghah in the term of Discourse Analysis

A Thesis

Submitted

To:-

The Council of the College of Arts / University of Kufa
As A Partial Fulfillment of The Requirements for Ph. D. Degree in the Philosophy of Arabic Language and its Literature

By:-

Shaimaa Abdul-Mehdy Selman

Supervised by :-

Prof. Dr. Rehaim Kheraibut Atiyyah

2019A.D **1440 A.H**

Abstract

Najul-Sa`ada is an equivalent of *Najul-Belaghah*, it includes all the speeches, discourses, letters, instructions, commandments. Prayers and poetry. It is consisted of twelve parts to deal with these themes where the discourses are dealt with in the first three parts.

The researcher deals with this book in the terms of discourse analysis, that George Youle and Geolyan Brawn had put, as technics cares for semantics and synthetic structure, and on the base of what Michal Reveh, Dollas and Rivateer had believed; stylistics is a basic linguistic approach of this theory.

The study includes three chapters preceded by an introduction and a preface.

The preface deals with the author Mohammed Baqhir Al-Mahmody, the other books he had wrote or investigated, the position of this book among his other books, the comparison between *Najul-Sa`ada* and *Najul-Belaghah* and the classification and number of the book`s speeches.

The second chapter is devoted to the topics of intentions and directing the meaning so it studies the central and marginal significance and context.

In the third chapter the researcher tackles the structural phenomena in the discourse structure within two topics: similarity and difference levels and their effect on the text structure and the structures affecting discourse.

The results reveals that: the style of Imam Ali replete with images that text needs. That his style is intensive following the idea in all its details. The lexical companionship and coherence had contributed in the cohesion of the text structure. Speech stylistic did not end, rather it stopped due to satisfaction. The marginal significance had overtop the central significance in explaining and directing the meaning, while the term systematic had a

great effect in recognizing the meaning according to Verth theory which put the term in different contexts to give the aimed significance.

The different between context and significance is that the significance is far from the context as an independent reference, while the context relates the word and defines its meaning. So, the intention is up to the receiver, in the first, and to the speech atmosphere, in the second.

These were the most important result in the term of discourse as it cares for the intention and the meaning, meaning, structure and the style phenomena. And these are the most important elements of analysis to which Hars had called in dealing with the study problem to define the discourse as a whole or a great part of it.